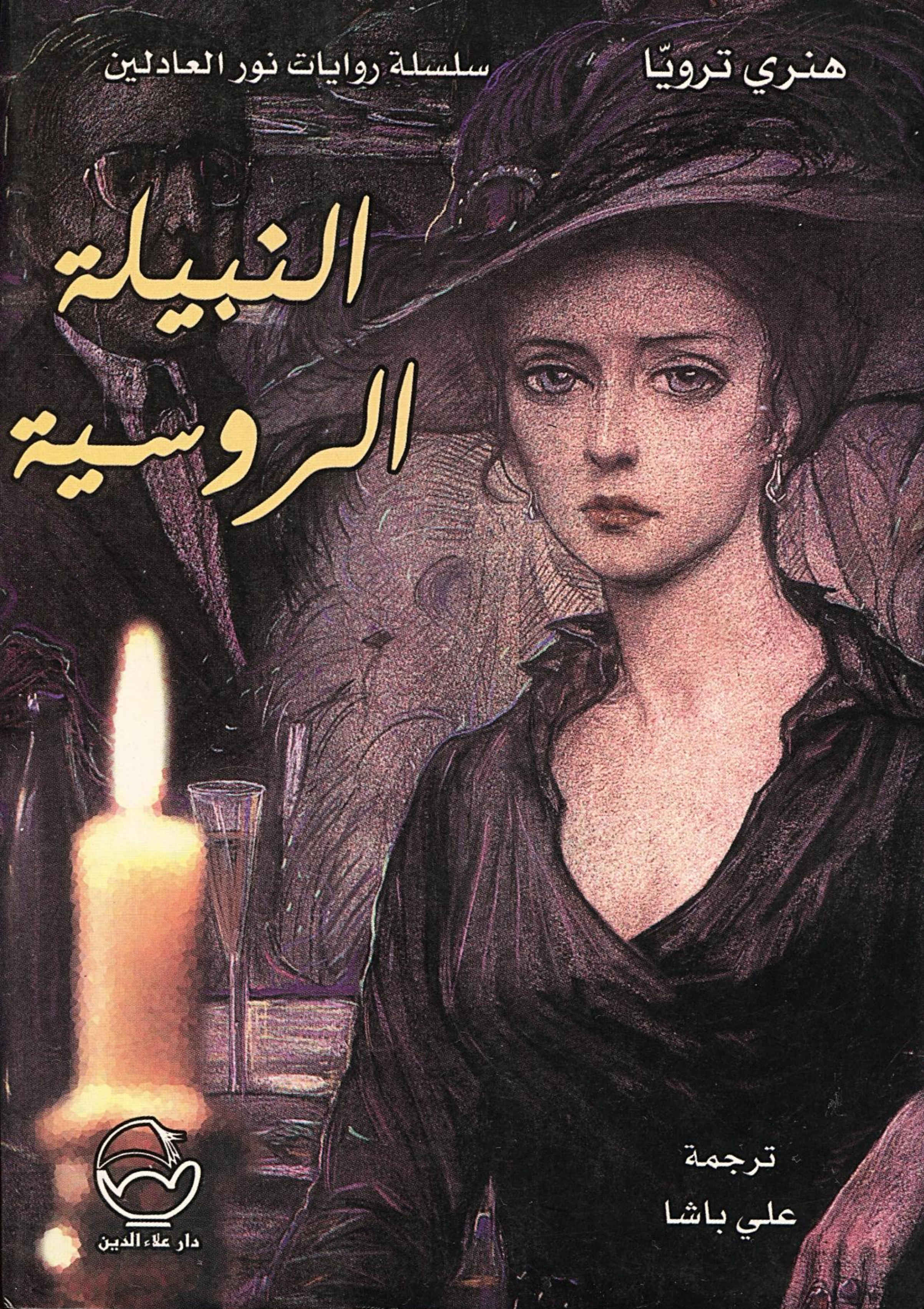
هنري ترويّا
سلسلة روايات نور العادلين
النبيلة الروسية
ترجمة
علي باشا
دار علاء الدين

Henri Troyat

كاتب ومؤلف روسي الأصل كان يسمى (ليف تاراسوف) ولد في موسكو عام ١٩١١ ، وهاجر مع أسرته إلى فرنسا في عام ١٩١٨ ، نال شهادة الإجازة في الحقوق وبدأ سيرته الأدبية بعملين هما:

Faux Jour (1935)

وL'Araigne (1938) التي حاز بفضلها على جائزة غونكورت Prix Goncourt في العام ذاته.

نشر سلسلة من الروايات الرومانسية التي عاصرت التاريخ الروسي آنذاك منها:

Tant que la Lumière durera (1947 - 50).

La Lumière des Justes (1959-63).

Le Pain de l'Etranger (1984).

Les Héritiers de l'Avenir (1968-70).

أما عمله Les Vivants (1946) فقد كتب للمسرح.

نشر أيضاً عدداً من بيوغرافيات مشاهير وأعلام روس منها:

Dostoevsky (1940).

Peter the Great (1979).

Maupassant, Zola, Verlaine (1993).

Flaubert, and Baudelaire (1994).

أصبح عضواً في الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٥٩.

Henri Troyat

La Barynia

La Lumière des Justes

هنري ترويّا

النبيلة الروسية

سلسلة روايات نور العادلين

ترجمة

علي باشا

منشورات دار علاء الدين

- النبيلة الروسية.
- تأليف: هنري ترويّا.
- ترجمة: علي باشا.
- الطبعة الثانية 2010.
- عدد النسخ 1000 نسخة.
- تمت الطباعة في دار علاء الدين.

- جميع الحقوق محفوظة لدار علاء الدين.

هيئة التحرير في دار علاء الدين

الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيليلينكو

المتابعة الفنية والإخراج: أُسامة راشد رحمة

التدقيق اللغوي: صالح جاد الله شقير

الغلاف: م. محمد طه

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص. ب: 30598 هاتف: 5617071

فاكس: 5613241، E-mail: ala-addin@mail.sy

ISBN: 978-9933-18-322-6

الجزء الأول

١

شدّ الحوذي الأعنّة، فأخذت قوائم الأحصنة تتخبط في الوحل، وتوقفت العربة أمام حاجز قلاّب. وعندما طال أمد التوقّف، مدّ المسافر رأسه من البوابة. كان الجو في تلك الليلة بارداً رطباً، مشبعاً برائحة غريبة تشبه رائحة المستنقعات. وكان هنالك مصباح يهتزّ مع الريح، في أعلى منصبه، وانعكاسات ضوئه تتراقص في بريكات الماء. وعلى جانبي الطريق انتصب محرسان مطليان بخطوط بيضاء، سوداء وصفراء. وقد اصطفت، على مسافة قريبة بعض العربات أمام مركز الحراسة. وقد أخذ موظفو ضريبة الدخولية يفتّشون الحمولة. وضمّ المسافر يديه على شكل بوقٍ أمام فمه، وصرخ:

- إيه! من هناك؟ أنا في عجلة من أمري!

وظهر من خلال الضباب رجل عاجز يرتدي بزة عسكرية. كانت إحدى ساقيه مصنوعة من الخشب، وبيده فانوس. وقد أخذ جذعه يتأرجح عند كل خطوة، بسبب ساقه الاصطناعية، بينما كانت الأوسمة تلمع على صدره. ودون أن ينزل المسافر من العربة، ناوله أوراقه، وقال متذمّراً:

- «ميشيل بوريسّوفيتش أوزاريف»، قادم إلى «سان بطرسبورغ» لشؤون عائلية.

فقال الرجل العاجز:

- سينجز الأمر في الحال، يا صاحب السعادة.

علي مولا

ودسّ الأوراق بين زرّين من بزته وذهب وهو يعرج نحو مركز الحراسة. فاستند «ميشيل بوريسوّفيتش» على مسند المقعد، مدّ ساقيه وأغمض عينيه. وقد أمضى أربعة أيام تقريباً، حتى وصل من «كشتنوفكا» إلى «سان بطرسبورغ»، وعلى الرغم من صعوبة ومتاعب الرحلة، لم يكن يشعر أنه متعب فليس هنالك من شك أنّ السعادة قد أعادت له شبابه! لأنه حالما تلقى رسالة ابنه التي يعلمه فيها بمولد الصغير «سيرج»، قرّر أن يقوم بهذه الرحلة. فهل يمكنه، بعد الآن، أن يناصب كنته العداء، بحجة أنها فرنسية، تدين بالمذهب الكاثوليكي، وأنه قد رفض، سابقاً الموافقة على ذلك الزواج؟ لأن إنجابها لولد ذكر يرث اسم «آل أوزاريف». جعلها في منأى عن كل ما يعيبها، في نظر عمها، وفوق مستوى ذلك. وبعد أربع سنوات من الفراق، كان يشعر بالسعادة بسبب هذه المناسبة التي أتيحت لهما كليهما، لكي يتصالحا، دون أن تمسّ كرامة أيّ منهما. وأساساً، فقد كان، على الدوام يقدّر هذه المرأة، ضمناً وفي قراره نفسه. ولاحظ أنه في هذه القضية، كان يفكّر بكنته أكثر من تفكيره بابنه. ومن المفارقات الغريبة، أنه كان على عجلة من أمره لا ليرى ابنه بل ليرى كنّته. وأخرج ساعته من جيب صدرته: العاشرة، مساءً. أليس الوقت متأخراً جداً للدخول بشكل مفاجئ إلى منزل امرأة وضعت طفلاً، منذ فترة وجيزة؟! ولكنه لم يجد جدوى من إرسال رسالة يعلن فيها عن قدومه: لأنه يمكن أن يصل هو، قبل وصول الرسالة. وبدت على شفتيه ضحكة صامتة:

«والصغير، كيف هو، وما شكله؟ أسمر كأمه أم أشقر كأبيه؟ فذلك المغفل «نيقولا» لم يصفه في رسالته!» وقد تصوره طفلاً رضيعاً، قوياً مرحاً وضاحكاً، ولداً عملاقاً، جريئاً، يخنق الأفاعي، وهو ما يزال في مهده.

وأحضر الرجل العاجز، الأوراق:

- كل شيء نظامي، وعلى ما يرام، يا صاحب السعادة. ورفع الحاجز وهو يرسل صريراً قوياً، فاندفع الحصانان، واجتازت العربة الضباب الذي ينيره ضوء المصباح، ودخلت متمهّلةً إلى المدينة، وعلى جانبي الطريق اصطفت أوتاد متباعدة مشكلةً نوعاً من السياج، وبعض الحدائق البسيطة المهملة، والأكواخ المنخفضة السوداء، التي أغلقت نوافذها. ثم بدت أولى المنازل المبنية بالحجارة. وشعر المسافر أنه انتقل من إحدى القرى إلى العاصمة. وتبادر إلى ذهن «ميشيل بوريسوّفيتش»: يا لها من فكرة! أن يسكن المرء في «بطرسبورغ»! فالهواء فيها ملوّث وغير صحي، والمجتمع فاسد وتكاليف المعيشة باهظة جداً. و «نيقولا» يحصل على راتب زهيد في وزارة الخارجية، حيث لم يُحدّد له عمل معين، ولم يستبقه رؤساؤه هناك إلاّ مراعاة لي، وأنا مضطر لأن أرسل له نقوداً، كل شهر، لمساعدته على تأمين نفقات معيشته، هو وزوجته. وفي الريف، يمكنه أن يفيدني كثيراً ويساعدني في إدارة شؤون أملاكنا. نعم، بالحقيقة، لقد حان الوقت لإعادة تنظيم حياتنا من جديد. وحالما تسمح لـ «صوفيا» حالتها الصحية بالسفر، سأعيدهما ليسكنا تحت سقف منزلنا. وكان من تقاليد الأسرة، أن تُغرس شجيرة صنوبر في إحدى زوايا الحديقة احتفالاً بالمولود الجديد، وتخليداً لذكرى ميلاده. وكان لكل من «ماري» و «نيقولا» شجرته التي أصبحت كبيرة وقوية. وكانت شجرة «ميشيل بوريسوّفيتش» تشرف عليهما من الأعلى، بأغصانها الكثيفة المتشابكة والسوداء، وذروتها المنحنية كأنها تصغي لوشوشة الرياح. وشجرة «بوريس فيدرورفيتش» والد «ميشيل» ضربتها صاعقة، قبل ذلك بثلاثة أعوام. وقرر «ميشيل بوريسوفيتش» في سره: سأزرع، أنا بنفسي شجرة «سيرج»، وسأعلّق عليها لوحة صغيرة، تحمل تاريخ ميلاده:

«١٢ أيار «مايس» ١٨١٩»

ومـرّت قبـاب الكنـائس عـبر الـضباب الكثيـف. ومـرّت العربـة في شارع، واجهات المنازل فيه أنيقة، وبلاطه يرن تحت حوافر الخيل: إنـه شـارع «مورسـكايا» الكـبير. ثـم أتـت جـادّة «نيفسـكي» وجـادّة «ليتـيني».. وقـد اقتربت الرحلة من نهايتها. فـأخرج «ميشيل بوريسّوفيتش» مـشطاً مـن جيبـه، وسـرّح شـعره، ومـرَّ بـه علـى شـاربيه وعلـى عارضيه، لكـي يـصبح مظهـره مقبولاً، وهذا أقل ما يمكن أن يفعله إذا كان يريد ألاّ يخيف كنّته!

وصاح بالحوذي:

- تمهـل في الـسير، عليـك أن تنحـرف إلى الـيمين. المـدخل الثالـث...

كانت طبقة من القش تغطي قارعة الطري، لتخفيف الـضجة التي تحـدثها عجلات العربات. ولا شك أنّ «صوفيا» كانت لا تـزال تعـاني مـن آلام الـولادة والنفاس. والمنزل الذي شيد في عهد «كاترين الثانية» تعود ملكيته لـ «أولغـا ايفانوفنـا»، زوجـة «ميـشيل بوريـسّوفيتش». وقـد وهبتـه، في وصـيتها لزوجهـا ولولديها. ومنذ أن أوصت به المتوفـاة، كـان لـ «ميشيل بوريـسّوفيتش» وحـده حق الحصول على أجـرة المنـزل، التـي كانـت بالحقيقـة زهيـدة جـداً. وجميـع شقق المنزل أجّرت، ماعـدا الـشقة الكائنـة في الطـابق الأول. وقـد أقـام فيهـا «نيقـولا» و «صـوفيا»، بعـد حـصول سـوء التفـاهم الـذي جعلـهما يغـادران «كشتنوفكا».

وقال «ميشيل بوريسّوفيتش» وهو ينزل من العربة:

- سيأتي من يساعدك على تنزيل الحمولة.

كان هنالك مصباح خافت الشعلة ينير قليلاً بداية الـدرج الرخـامي. وصعد «ميشيل بوريسّوفيتش» درجاته وهو يلهث، حتى مـدخل الطـابق الأول. وهنـاك، قـرع البـاب بقبـضة يـده. فـدوّى الـصوت كـالرعـد في المنـزل. وفي الحال، تبادر إلى ذهنه: «إني مجنون! فربما أيقظت الطفل، وأمه!...» ولكـنّ هذا الاحتمال لم يقلقه، بل أدخل السرور إلى قلبه. ولأنه لم يتلقّ أي جواب

فقد عاود القرع، عند ذلك سمع وقع أقدام يقترب، وفُتح الباب قليلاً. وارتفعت ببطء يد تحمل شمعة مشتعلة. وفي هالة الضوء بدا وجه خادم أصهب، غليظ الشفتين. عرفه «ميشيل بوريسّوفيتش»: إنه العبد «أنتيب» الذي أعطاه لـ «نيقولا». وجحظت عينا «أنتيب» وارتخى فكه الأسفل ورسم إشارة الصليب على صدره: ولو أنه التقى وجهاً من جوه أحد الأشباح، لما تراجع بأسرع من تراجعه آنذاك، مهرولاً نحو غرفة الانتظار.

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش» مزمجراً، وهو يخلع معطفه:

- ماذا حلّ بك؟ اذهب وأخبر سيدك!

فقال «أنتيب» وهو يشهق متلعثماً:

- سيدي! سيدي!...

- ماذا؟ هل أوى إلى سريره، هل نام منذ الآن؟

- أوه! كلا، يا صاحب السعادة!

فدفع «ميشيل بوريسّوفيتش» «أنتيب»، عبر الرواق، ودخل إلى الصالون، حيث كان مصباح مزود بعاكس للنور أخضر اللون، يشتعل على مكتب. وبينما كان يلقي نظرة على ذلك الصالون الواسع، غير المفروش كما ينبغي فتح أحد الأبواب، أمامه تماماً، وبدا ابنه.

كان «نيقولا» شاحباً، وعلى وجهه بدت أمارات التعب وشرود الذهن، حتى أنّ رؤية والده لم تكد تدهشه. وانتاب «ميشيل بوريسّوفيتش» شعور بالخوف، وتمتم:

- ماذا حدث؟

فأحنى «نيقولا» جبهته، وقال:

- لقد مات الطفل.

فظلّ «ميشيل بوريسّوفيتش» برهةً جامداً، لا يبدي أي حركة، دون ذهنٍ يفكر به ودون ساقين لتحملا جسمه، وبصورة لا شعورية، استند

بيده على مسند إحدى الأرائك. وعكّر الصمت وجيب قلبه، وصاح بأعلى صوته:

- هذا ليس صحيحاً!

فقال «نيقولا»:

- إنه صحيح، للأسف، يا أبي!

- لماذا لم تكتب لي لتخبرني بذلك؟

- لقد أودعت الرسالة في البريد منذ ثلاثة أيام، ولا بدّ أنها وصلت إلى «كشتوفكا» بعد مغادرتك لها.

فاستنشق «ميشيل بوريسوّفيتش» الهواء بعمق، وازداد شعوره بالألم في صدره، وقد شاب حزنه غضب شديد. وضد العقل والمنطق، كان يرفض أن يصدّق أنّ المصيبة لا يمكن تلافيها. وتلفّظ بهذه الكلمات، بصوت مخنوق، لا نبرات فيه:

- أريد أن أراه.

فأخذت شفة «نيقولا» السفلى ترتجف، وقال:

- ولكن، يا أبي هذا مستحيل... فهو... لقد دفنّاه.. فانتاب «ميشيل بوريسوّفيتش» غيظ شديد، كما لو أنّ ابنه اعترف له بارتكابه إحدى الجرائم. وسأله:

- متى؟ متى دفنتموه؟

- قبل البارحة

- ولماذا لم تنتظروني؟

- ولكن، كيف، يا أبي...

وكرّر «ميشيل بوريسوّفيتش» سؤاله، وهو يضرب باطن يده اليسرى بقبضته اليمنى:

- لماذا؟ لماذا؟!

أمن العدل أن يُمنع من رؤية وجه حفيده؟ وبصورة مفاجئة تولد لديه انطباع، بأنهم يكذبون عليه، وأنّ هذا الطفل الذي لا يستطيع حتى رؤية جثمانه، لم يكن له وجود، على الإطلاق، وأنّ الأمر لا يتعدى كونه خدعة اختلقها «نيقولا». ثم، ودون تمهيد أو مقدّمات، استشاط غضباً ضد ابنه وكنّته، لأنهما لم يستطيعا أن يقيا من المرض الملاك الذي أرسله الله لهما من السماء.

وسأل ابنه:

- وما هو سبب وفاته؟

- لم يعرف الطبيب سبب الوفاة بالضبط.. تشوّه خلقي في القلب، دون شك.. فقد وجدناه، فاقد الحياة، في مهده، عند الصباح..

- ومن هو طبيبكم؟

- «غولوبيا تنيكوف».

- إنه شخص أبله، وأراهن أنه فقد صوابه! فقد كان هنالك، على الأرجح، شيء مّا، يجب عمله! آه! لو أني كنت هنا...

- لا تتصور هذا يا أبي. فالدكتور «غولوبيا تنيكوف» أبدى نحونا كثيراً من العطف والإخلاص. ولكن كل جهوده ذهبت دون جدوى. ولا تقع أي مسؤولية على أحد..

فردّد «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- لا تقع أي مسؤولية على أحد! أنت تعتقد ذلك وتصدقه!... تريد أن تصدّقه، لأنه يناسبك، يريحك ويحلّ لك المشكلة!...

كان يلهث من شدّة غيظه. وأخذت فكرة تتبلور في ذهنه: إنّ موت الطفل «سيرج» ليس سوى عقوبة إلهية، فالرب قد عاقب «نيقولا» لأنه تزوج بهذه الأجنبية الكاثوليكية، ضد إرادة والده. وعلى الإطلاق- وكان مقتنعاً بذلك- ما كان يمكن أن تحدث مصيبة كهذه لو أن الأم كانت روسية.

و «سيرج» الذي توفي بعد أربع أيام من ميلاده، من المؤكد أنه لم يعمّد. وهل، على الأقل، بارك جثمانه أحد الكهنة، قبل دفنه؟ لا جدوى من السؤال عن ذلك. «وعلى أي حال، فهو بين الملائكة، وأنا الذي كنت أنوي أن أغرس شجرة صنوبر لتخليد ذكرى ميلاده!» هذا ما كان يفكر به «ميشيل بوريسوّفيتش» وقد حجبت عن بصره الرؤية سحابة من الدموع مرت أمام عينيه. وقال:

- نم بسلام في حضن إبراهيم يا صغيري! واغفر لوالديك، كونهما لم يستحقّا أن تعيش لهما!

وأخذت نظراته تبحث عن أيقونة في ذلك الصالون، دون أن تجدها، فرسم إشارة الصليب، وضمّ أصابعه وضغط بها بقوة على جبينه، على بطنه، وعلى جانبي صدره.

وغمغم «نيقولا» الذي كان يتمالك نفسه بصعوبة:

- ما قولك، يا أبي؟

فتأمله والده بازدراء. ولكم كان يودّ أن يصرّح له بأعلى صوته بكل ما كان يجول في ذهنه من أفكار، ولكنه عدل عن ذلك، مراعاة للحزن الذي يعاني منه ولده.

وتمتم، بأسى:

- لا شيء، لا شيء يمكنك أن تفهمه. فأنت لست سوى صبي صغير!.. كيف حال زوجتك؟

لقد أتى هذا السؤال متأخراً جداً، ورأى «نيقولا» أنه جاء بعد فوات الأوان، وكان حانقاً لأنّ والده انتظر طويلاً حتى ألقاه. لأنّ هذا القدر الكبير من الأنانية ومن القسوة، قد تجاوز كل ما يمكن خشيته من شخصية هذا الأب!

وقال «نيقولا»

- لقد أشرفت «صوفيا» على الموت أثناء الولادة!

فارتعش حاجبا «ميشيل بوريسّوفيتش» الكثيفان وحدج ابنه بنظرة تتسم بالبرود، وقال:

- آه!؟ هكذا إذن! والآن؟

- إنها ما زالت ضعيفة جداً. فقد أحدث لديها موت الطفل صدمة مخيفة. ولا أدري كيف ستتخلّص من آثارها، ومتى ستتعافى..

فتنهد «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- نعم، نعم!

وكان واضحاً أنه لا يريد أن يبدي تأثره بما قاله ابنه الذي شعر نحوه بالكراهية بسبب نزعته شديدة العداء، دون أي مبرر يذكر، ولأنه رأي أنّ دخول والده إلى ذلك المنزل، قد أضاف الخلافات إلى الحزن والحداد اللذين يخيمان عليه.

وسأله «نيقولا» باقتضاب:

- ألا أعمل على تحضير غرفتك؟

- نعم، وقل لـ «أنتيب» أن يُنزل حمولة العربة.

وفي تلك اللحظة حدثت طرطقة هادئة وراء الباب، ودخلت إحدى الخادمات مسرعةً إلى الصالون، وهي حافية القدمين، وقالت لـ «نيقولا» إنّ سيدتها تريد أن تراه في الحال.

فألقى «نيقولا» على والده نظرة تنمّ عن الخوف، وذهب مسرعاً. وعندما كانت زوجته تستدعيه هكذا، بصورة مفاجئة وعلى عجل، كان يخشى دائماً أن يكون هنالك ألم يزعجها، أو أن تحدث لها نوبة من البكاء. ولكنّ «صوفيا» كانت تخلد للراحة، متعبة وهادئة في سريرها، على ضوء قنديل السهر، الخافت. وقد سمعت الضجة التي أحدثتها العربة عند وصولها، وأرادت أن تعرف من هو ذلك الزائر القادم في الليل.

فقال لها «نيقولا» على مضض:

- إنه أبي.

فرفعت «صوفيا» جسمها قليلاً فوق وسادتها، وقد احمرت وجنتاها، وهمست، قائلة:

- وقد قام بالرحلة من «كشتوفكا»؟

- نعم، يا صوفيا.

- وكان يعرف؟...

- كلاّ.

يا للمسكين! قل له أن يأتي إلى هنا.

ولأنّ «نيقولا» استطاع أن يتبيّن تهيّؤات والده السيئة أزاء «صوفيا» فقد كان يخشى أن يتخاصما من جديد، فيما لو تقابلا آنذاك، ولهذا، فإنه قال لها:

- وهل هذا ضروري، يا عزيزتي، فأبي متعب بسبب الرحلة الطويلة التي قام بها. وأنت.. أيضاً...

فهزّت رأسها ببطء من اليمين إلى اليسار، بينما كانت تكشيرة خفيفة تكشف عن أسنانها:

- اذهب واحضره، يا «نيقولا»!

ليس هنالك من شك أنّ موت طفلها قد شوّش أفكارها وغير طباعها، لدرجة أنّ كلّ خناقاتها القديمة أخذت تبدو لها آنذاك تافهة وسخيفة. وهي بالكاد تتذكّر الطريقة الشنيعة التي استقبلها بها «ميشيل بوريسّوفيتش» في «كشتوفكا». ووجهت إلى زوجها نظرة شديدة العذوبة، وأضافت:

- هيا، اذهب بسرعة!

ولأنه لم يكن لديه القدرة على مخالفتها، فقد عاد إلى الصالون. وعندما عرف «ميشيل بوريسّوفيتش» أنّ «صوفيا» تدعوه للحضور إلى قربها،

لم يخفِ ضيقة وتبرّمه. فهو يخشى هذا النوع من المقابلات التي ترغمه فيها الرأفة المسيحية على الكذب من أجل إنقاذ المظاهر والمحافظة عليها. كانت ملامح «نيقولا» تعبّر عن التوسل والرجاء. فتبادر إلى ذهن والده: «إنه يخشى أن أحطّم زجاج النوافذ!»

وقال، وهو يهزّ كتفيه:

- حسن! هيا بنا!

وتبع ابنه على مضض. وفي نهاية ممرّ طويل، دفع «نيقولا» أحد الأبواب. فاجتاز «ميشيل بوريسّوفيتش» العتبة، ووقف جامداً وقد انتابته الدهشة. فقد عرف، عبر الغبش، السرير بستائره الصفراء، التي تشكّل قبة فوقه، والمنضدتين الاسطوانيتين بجانبه والخزانة التي تحمل واجهتها كثيراً من النقوش، وأيقونة عذراء «جورجيا» في إحدى الزوايا كانت هذه هي الغرفة التي أقام فيها مع زوجته «أولغا ايفانوفنا» بعد زواجهما بقليل. وفي هذه الغرفة نفسها ولد «نيقولا»، قبل ذلك بخمسة وعشرين سنة. و «ميشيل بوريسّوفيتش» وقد انتابه ما يشبه الدوخة والدوّار، انبعث في داخله شعور بالقلق والفرح والزهو، كان معينه قد نضب من زمن طويل. وتذكره لهذا الماضي كان من الدقة والوضوح، لدرجة أنه أنساه لماذا أتى إلى هنا اليوم. كان يفكر بفترة شبابه، بالأوقات السعيدة التي أمضاها، بأحاديث الحب والغرام، بالضحكات والقبلات، ولم يكن يرى «صوفيا».

وفجأة اكتشفها، عبر ستارة ضبابية: كانت مستلقية في مكان زوجته، وعلى سريرها، وقد بدا على وجهها أثر التعب والتيقّظ كذلك الأثر الذي بدا على وجه زوجته بعد أن وضعت «نيقولا» ولكن، بجانب «أولغا» كان يوجد آنذاك مهد يرقد فيه طفل رضيع. والآن لا يوجد شيء بجانب «صوفيا». فلكم يؤلمها هذا الفراغ!

وضع «ميشيل بوريسّوفيتش» نظارته الضخمة على أنفه وأخذ ينظر إليها بمزيد من الانتباه. كان ضوء المصباح، الضعيف ينير قليلاً وجهها الصغير ذا الحاجبين الأسودين المقوسين، والشفة العليا القصيرة بعض الشيء، والعينين السوداوين اللتين تبرقان بتأثير حرارة الحمى، والأنف الدقيق والجميل. وعلى رأسها وشاح من الدنتيلا، يضم إلى الأعلى شعرها الأسود. وعنقها الطويل الأملس بدا منتفخاً قليلاً عند منبته، وقد تدلى على كتفيها وشاح آخر من التريكو الوردي اللون. فعصف التأثّر بـ «ميشيل بوريسّوفيتش»، وأخذ قلبه يخفق بسرعة وبقوة، دون أن يستطيع تمالك نفسه ولا أن يعرف سبب انفعاله واضطرابه. وقبل أن يفتح فمه، تمتمت «صوفيا»:

- إنّ ما حدث لنا يبعث على الرعب! اغفر لي هذه الفرحة المزيّفة التي سببتُها لك.

فارتعش: لقد تكلمت باللغة الروسية، فمتى تعلّمت لغة زوجها؟ ولماذا لم يقل «نيقولا» شيئاً عن هذا، في رسائله؟

واستأنفت الكلام، وهي تتنهّد:

- كل هذه الرحلة، هذه الرحلة الطويلة، من أجل لا شيء!

كان في لهجتها نبرة فرنسية مؤثرة وعذبة. وكان «ميشيل بوريسّوفيتش» في صراع ضد الرغبة بالاستسلام وإلقاء السلاح. وفجأة، شعر بسخافته وفظاعته، حيال هذه المرأة التي احتفظت بوقارها وعزة نفسها، على الرغم من كل ما تعانيه من آلام. كان «نيقولا» قد جلس قرب سرير «صوفيا» وهو يحنو عليها بنظرات الحب العذبة. وبعد برهة طويلة، سمع «ميشيل بوريسّوفيتش» صوته، وهو يقول:

- علينا أن ننحني أمام إرادة الله وأن نباركها ونقدّسها، مهما كلفنا الأمر. أنت في مقتبل العمر، وسترزقين أطفالاً آخرين..

فقال «نيقولا»:

- يا أبي، دعك من ذلك!

كان يخشى أن يسبّب ذلك صدمة لصوفيا وأن يزعجها. ولكنها كانت تبتسم بأسى وهي تتأمل الجدار، أمامها. وبقرار مفاجئ، تناول «ميشيل بوريسوّفيتش» يد صوفيا، ورفعها إلى شفتيه. كانت يداً خفيفة وحارة، يد طفلة، ثم وضعها برفق على حافة السرير. وقد بقيت أمام وجهه رائحة عطر اللوز. وتمتم متلعثماً:

- لكم أودّ... ينبغي.... بل يجب من كل بدّ أن تأتيا لتعيشا في «كشتوفكا»!...

٢

في الشارع، استنشق «نيقولا» الهواء بشغف وشراهة. كانت هذه هي المرة الأولى، منذ ثلاثة أسابيع، التي يخرج فيها من المنزل. وصوفيا نفسها هي التي ألحّت عليه لكي يذهب إلى ذلك الاجتماع الذي يعقده بعض الأصدقاء في منزل «كوستيا لادوميروف». أليس لديها عمها الذي سيبقى في المنزل، ويظل معها بعد تناول طعام العشاء؟ حيث سيلعبان الشطرنج. وكان «نيقولا» سعيداً وقلقاً في آن واحد من حسن تفاهمهما. ذلك لأنه، وهو الذي يعرف جيداً طباع زوجته وطباع والده، كان يشك بإمكانية دوام هذا التفاهم.

وعلى أي حال، فإنّ نتيجة هذه المصالحة كانت أنّ «صوفيا» قد قبلت آنذاك أن تذهب للإقامة في «كشتنوفكا»، بل وبدت مستعجلة لمغادرة «سان بطرسبورغ». وقد أدرك «نيقولا» تماماً أنها تريد الهروب من المكان الذي يذكرها بحزنها وحدادها على طفلها الذي فقدته. ولكنه كان متأكداً أنها بعد إقامتها بضعة أشهر في الريف سوف تندم على قرارها، وعند ذلك يكون قد فات الأوان، ولا يمكن العودة إلى الوراء. فعندما يقبعان في «كشتنوفكا» سيظلان فيها إلى آخر حياتهما.

والحالة هذه، فإنّ «نيقولا» لا يمكنه أن يستغني عن الحياة المتألّقة والناشطة في العاصمة، حيث أصبح له كثير من الأصدقاء في أوساط الشباب المتميزين جداً، في المصالح والإدارات المدنية والعسكرية. وكان كثيرون منهم قد شاركوا، مثله، في حملات ومعارك سنتي ١٨١٤ و١٨١٥ التي جرت ضد «نابليون».

علي مولا

والتقوا في «باريس» بعد احتلالها. وحملوا منها أفكاراً عامة، وحبّ الجدل والمناقشة. وكانت لقاءاتهم الأسبوعية، في منزل «كوستيا» تُختتم، على الدوام بالأحاديث السياسية. وكان كلّ منهم يروي ما سمعه في المدينة، في الثكنة، في مقر إحدى الوزارات، أو في بلاط القيصر، ويعطي رأيه في موضوعات كبيرة الأهمية وشديدة الخطورة، كشرعية السلطة ونظام الحكم، إلغاء الرقّ والعبودية، والطريقة التي يجب اتباعها لإشراك الطبقات المستنيرة في الأمة، في إدارة شؤون الدولة. حقاً، إنهم كانوا يتبادلون، بين اجتماع وآخر الأحاديث والآراء نفسها، على وجه التقريب، ولكنّ هذا الترداد كان مثيراً ويذكي الحماسة لديهم. وكان «نيقولا» يحصي كل هذه الأفراح والمسرات التي عليه أن يضحي بها لتلبية مطلب «صوفيا». فمن منهما، هو أم هي، الذي كان أكثر أنانية من الآخر؟ كان قد حاول مرة أخرى، صباح ذلك اليوم، أن يثنيها عن عزمها على الرحيل. ولكنها لم تشأ أن تسمع شيئاً: «الطبيب قال إني بعد ثلاثة أسابيع سأستطيع السفر في عربة جيدة ومريحة. ألست متشوقاً للعودة إلى مسقط رأسك وملاعب طفولتك؟ وسنكون سعيدين جداً هناك!» كيف كان بإمكانها أن تتكلم بهذا الشكل، بينما هنا، على ضفاف نهر «النّيفا» بدأ أعذب فصول السنة وأشدّها سحراً وجمالاً؟ كانت المدينة تستحم في ضوء ربيعي قطبي، لا يُعرف فيه النهار من الليل. وعبر ذلك الفجر الزائف كانت المنازل تفقد كثافتها، والظلال لا تعود لأحد، والحياة اليومية قد انحرفت. ومنذ ثلاثة أسابيع ذاب جليد النهر، وذهبت قطعه مع التيار. وبدأت المراكب الأجنبية تصل من خليج فنلندا، وتلقي مراسيها على رصيف «البورصة»، وقد حملت معها رائحة القطران والإسفلت وصراخ الملاحين وصرير الصواري الضخمة والثقيلة.

وكان «نيقولا» وهو يسير في الشارع بخطى واسعة، يشم رائحة البحر القريب. وكانت ريح عاصفة تُسرع، قادمة من عرض البحر، لتكنس باتجاه الطول، جادّة «نيفسكي» وكان المارة القليلو العدد المتواجدون هناك في تلك الساعة المتأخرة من الليل، يبدون كالأشباح، كالصور المجازية والمعنوية، كالأفكار التي تسير متنزهة، بينما أصحابها بلحمهم وعظامهم، مستغرقون في النوم في أسرّتهم. كانت تلك أحلام سكان «سان بطرسبورغ»، التي تشم الهواء، دون علم أصحابها. و «نيقولا» نفسه، الم يكن طيفاً يتجول في المدينة، بينما بقي جسمه الحقيقي هناك، بين أبيه و «صوفيا»؟ ومجرد كونه يستطيع أن يطرح على نفسه المسألة، أو أي سؤال، يثبت له أنه ليس في حالته الطبيعية.

كان «كوستيا لادوميروف» يقيم في منزل فسيح، يقع بالقرب من ساحة «سان- اسحاق». واستقبل «نيقولا» في صالون مفروش على الطراز الشرقي، بأرائك منخفضة، ومساند جلدية متعددة الألوان ملقاة على الأرض، طنافس وسجاجيد على الجدران، مناضد صغيرة موشاة بالصدف في كل زوايا الصالون، وفي وسطه انتصبت نرجيلة كبيرة. ومن بعض المباخر الصغيرة كانت ترتفع الأدخنة العطرية. وكان صاحب المنزل يرتدي «روب دي شامبر» من الكشمير، وينتعل «شحّاطه» صفراء اللون، وقد اعتمر طربوشاً أحمر اللون. كان هذا هو الزيّ التنكّري الذي اعتاد أن يتزيّا به عند استقباله مدعويه، يوم الاثنين. وكان بهندامه هذا، يشبه، بملامحه النحيلة والحادّة وبالذؤابة على جبينه، وبساقيه الطويلتين، أحد الطيور المائية الذي يزيّنه ريش فخم.

وقال «نيقولا» وهو يجلس على الطريقة التركية، على إحدى الأرائك:

- أنـي سـعيد لكـوني وصلت قبل الجميـع. يجب أن أتحـدث إليـك.. ليست الأمور على ما يرام، في البيت!..

فقال «كوستيا» الذي اعتقد أنّ الأمر ما زال يتعلّق بموت الطفل:

- وكيف تريد أن تكون الآن الأمور على ما يرام؟ دع للزمن العناية بشفاء الجروح!

- هنالك شيء آخر!

- وما هو؟ هل تقلقك «صوفيا»؟

فقال له «نيقولا»:

- نعم!

ولكن، بعد أن همّ بأن يخبره أنّ عليه أن يغادر «سان بطرسبورغ» انصياعاً لرغبة زوجته، عاد وغيّر رأيه. لأنّ «كوستيا» وهو عازب، لا يستطيع أن يفهم أنه يحدث أحياناً في بعض الأسر، أنّ الزوجة، وليس الزوج، هي التي تتخذ القرارات المهمة. وخوفاً من أن يبدو سخيفاً ومضحكاً في نظر رفيقه، فقد تمتم متهرباً من مصارحته بحقيقة الأمر:

- إني أراها متعبة، عصبية جداً.. وربما أفادها هواء الريف.. وحالما تستعيد صحتها، سأصطحبها إلى «كشتوفكا»، وسنقيم هناك..

- لزمن طويل؟

- أفترض ذلك. وعلى أي حال، فإني سأقدم استقالتي من وظيفتي في الوزارة.

فصاح «كوستيا»:

- يا لك من مجنون!

كان «نيقولا» يأمل من صديقه أن يرفع له معنوياته. ولكنّ ردّ فعل «كوستيا» كان كردّ فعله تماماً حيال ذلك المشروع غير المعقول:

- لا ينبغي أن ترحل هكذا! سوف تتقوقع هناك في الريف! و «نيقولا» الذي شعر أنه أصيب بجرح في نقطةٍ حساسة، بل في مقتلٍ، بذل جهداً كبيراً لإخفاء قلقه ومخاوفه، وقال:

- لا تظنّ ذلك! فأنا أحب الوحدة لدرجة العبادة، وسأستغلها للمطالعة والتأمل، وللعمل بالزراعة وتربية الماشية، وللاتصال بأولئك الفلاحين الذين لا نعرف عنهم شيئاً يذكر!.

فقال «كوستيا» وهو يهزّ رأسه، الأمر الذي جعل «شرابة» طربوشه تتأرجح بأناقة على خدّه:

- يا لك من رجل بسيط وغريب الأطوار! إني لم أكن أتصوّر أبداً أنّ الحياة في الريف يمكنها أن تجذبك إليها!

فقال «نيقولا» مع ابتسامة هزيلة:

- هل أبدو سطحياً إلى هذه الدرجة؟ ثم يمكنك أنت أن تأتي لزيارتي..

- في ذلك الوكر؟ لا تأمل هذا، أبداً!...

- إذن، أنا الذي سأتدبّر أمري للقيام برحلة إلى «سان بطرسبورغ»، من وقت لآخر!

واستمر متظاهراً بأنه رائق المزاج، وعلى ما يرام، بينما كان ينسدل على حياته ستار من الرماد. وكل شيء لم يكن سوى رتابة، سأم وهدر لا جدوى منه. وقدم له «كوستيا» غليوناً طويلاً مصنوعاً من البورسلين وقصبة من العنبر الأصفر، وأخذا يدخنان بهدوء، ثم سأله «كوستيا»:

- وما هو رأي «صوفيا» بقرارك؟ إني متأكد بأنها غير مسرورة بالرحيل!

فقال «نيقولا»:

- أوه! بلى.. وأخيراً فإني لم أجد صعوبة في إقناعها.. وقرع جرس الباب. فدخل أربعة مدعوين سوية، كانوا، جميعهم من العسكريين، وقد فكوا نطاقاتهم ووضعوا سيوفهم في غرفة الانتظار. وأهم هؤلاء الضباط كان «هيبوليت روزنيكوف»، صديق «نيقولا» الحميم، الذي تعرّف عليه في «باريس».

و «هيبوليت الجميل» كان قد ازداد بدانة وثقة بالنفس بعد أن أصبح مرافقاً للجنرال «ميلورادوفيتش» حاكم «سان بطرسبورغ» وكان طويل القامة، قوي البنية أجعد الشعر، كبير الشارب، يضحك لأتفه الأسباب، ويّدعي أنّ الحرارة ترتفع ثلاث درجات في الغرفة، عندما يدخل إليها. ومعه أتى «يوري ألمازوف» القصير القامة، وهو ملازم في أحد أفواج موسكو، و «فولوديا لوفسكي»، حامل العلم في فرقة الحرس الخيالة، و «ديمتري نيكيتتكو» الذي يبدو ضخم الجثة. وبعد ذلك بقليل، وصل أيضاً الرائد «شيدرين» من فوج «اسما عيلوفيسكي»، ورجل في الثلاثين من العمر، شعره أشقر وقصير، تحجب نظراته نظارة سميكة، وذقنه تبدو ضخمة بعض الشيء، وهو يدعى «ستيبان بوكروفسكي» ويدّعي أنه شاعر وهو موظف في إدارة الجمارك.

وأسرع خدم «كوستيا» إلى العمل: فبدا «سماور» كبير، يرسل الدخان، فوق إحدى الموائد، ولكنّ وجوده كان رمزياً. لأنّ كمية المشروبات الاحتياطية كانت موجودة في مجموعة من الزجاجات: جميع أنواع المشروبات الكحولية في متناول اليد! وكان «بلاتون» الخادم العجوز هو الذي يملأ الكؤوس. وكلما قال أحد هؤلاء السادة عبارة بذيئة كان «بلاتون» يصيح: «السلام عليكم!» ويقدّم كأساً لقائل تلك العبارة تكفيراً عن ذنبه. وكأس التكفير، هذا، كان يحتوي، بصورة إجبارية، مزيجاً من «الشمبانيا» و «الكونياك». وأول من كان عليه أن يحتسيه هو

«كوستيا» نفسه، لكونه وصف بعبارات فظة وبذيئة مفاتن إحدى الممثلات التي يعرفها، ثم أتى دور «يوري ألمازوف» الذي روى حكاية ماجنة عن «الأرشمندريت فوتيوس»، فاتن سيدات «سان بطرسبورغ» المتصوّفات.

كان «نيقولا» يبدو منزعجاً وهو يضحك مع الآخرين، على الرغم من حداده، حقاً لقد قدّم له جميع أصدقائه التعازي في المنزل، ولكن بعد قيامهم بهذا الواجب الشكلي، عادوا إلى التحدث أمامه بكل حرية، كما كانوا يفعلون سابقاً. فهل كان يفضّل البقاء في المنزل، لكي لا يسمع مزاحهم ودعاباتهم؟ فهو على ما يرام بين هؤلاء الشباب المتوقدي الأذهان والطليقي الألسنة! كانوا يجلسون بارتياح، وكيفما اتفق على الأرائك وقد فكّوا أزرار بزّاتهم، وصعد الدم إلى وجوههم، وكلّ منهم غليونه في فمه، وأخذوا يناقشون فيما بينهم مزايا الراقصتين الشهيرتين: «كولوسّوفا» و «ايستومينا» ويقارنون بينهما. وكان لكل منهما أنصارها المتحمسين والمتعصّبين. وجرت مناقشات وأحاديث أخرى عن بعض المغنيات. وعندما ادّعى «كوزلوفسكي» أنه يكنّ إعجاباً لا حدود له للمغنية الفرنسية «دانجوفيل فنديربيرغ» استاء «كوستيا» الذي كان يحبّ المغنية الإيطالية «كتلاني» وصرّح بأنه يعتبر أعلى جميع الألحان الفرنسية حثالة الموسيقا، ووجد نفسه مضطراً لاحتساء كأس تكفيرية ثانية. وبعد أن توهّجت الأذهان، انتقل الحديث، بطبيعة الحال، إلى السياسة. وهنا كان الجميع متّفقين على إدانة تردّد ومواربة القيصر «أليكسندر»، فقد منح بولونيا، السنة الماضية، نوعاً من الدستور، فماذا ينتظر لكي يوسّع هذه الإجراءات التحررية ويجعلها تشمل روسيا؟ ألا يرى أنّ الشعب الروسي بلغ درجة كافية من النضج والوعي تؤهله للتمتع بالحقوق نفسها التي يتمتع بها جيرانه؟ والمراقبة البوليسية بدلاً من أن تخفّ وتتلاشى فإنها قويت وتدعّمت.

وقال «كوزلوفسكي»:

- ومرة أخرى، لقد خدعنا، أيها السادة: ففي روسيا، الشيء الوحيد الذي يتغير، هي البزات الرسمية. ويقال أنّ في فرنسا كل شيء ينتهي بالأغاني، أما في بلادنا فكل شيء ينتهي بالجنود!

فأدرك «نيقولا» أنه يشير بذلك إلى المستوطنات العسكرية التي أنشأها الجنرال «أراكتشييف»، المستشار الخاص والحميمي للقيصر. وبموجب مخططات هذا الشخص المخيف، تحوّلت مقاطعات بكاملها إلى مستوطنات عسكرية، أي على معسكرات. فمع وصول أحد الأفواج إلى أي مقاطعة، يصبح جميع الفلاحين «الموجيك» في تلك المقاطعة جنوداً، بصورة تلقائية، ثم يوزّعون وينتظمون في سرايا وأفواج وفرق، تشكّل جيشاً احتياطياً للوحدات النظامية المقيمة في مقاطعتهم. وقد أزيلت بيوتهم الخشبية، واستبدلت بمنازل صغيرة متناظرة. وبعد أن يرتدوا البزّات العسكرية يتدربون على الخدمة في الجيش كجنود عاديين، وفي أوقات فراغهم يشتغلون في الزراعة لتموين الجيش. ويرغمهم هذا النظام على حلق لحاهم، وعلى الذهاب إلى الحقول بزيهم العسكري وفي صفوف منتظمة يسيرون فيها على إيقاع قرع الطبول، وعلى تسجيل أبنائهم كمجنّدين منذ سنّ السابعة، وعلى الحاجة لموافقة العقيد، قائد القطعة التي ينتمون لها، بشأن تزويج أبنائهم من الذكور والإناث.

وقال «نيقولا»:

- لقد سمعت، بأنّ نقل السكان تم في إحدى المقاطعات خلال أربعة وعشرين ساعة: وقد نقل النساء الحوامل، الشيوخ المسنّون والمرضى إلى مسافة تزيد على ألف كيلومتر عن بيوتهم الأصلية، بقرار من السلطات الإدارية.

فقال «كوستا»:

- والأمـر الغريـب الـذي يلفـت النظـر، هـو أنـه في بلادنـا، لا يوجـد قوانين، بل قرارات إدارية، وحسب!

فصاح «هيبوليت روزنيكوف»:

- كيف ذلك؟ لا يوجد قوانين! يبدو لي، على العكس من هذا، أنّ أقل وأبسط حركاتنا يتوقعها ويراقبها المشرّع!

وقال «ستيبان بوكروفسكي»:

- نعم، ولكنّ إجراءات المشرّع تبقى حبراً على ورق بالنسبة للسلطة المركزية. وعلى سبيل المثال، فإنه لا يوجد في روسيا قانون محدّد وصريح يقرّر عبودية الفلاحين «الموجيك» ويقضي باستمرارها. ولو تقدموا بدعوى أمام إحدى المحاكم مطالبين بحريتهم، وكانت هذه المحكمة عادلة، فإنهم لا بدّ من أن يربحوا القضية. إيه، حسن، ولكن حاولوا أن تتصوروا إجراءً قضائياً من هذا النوع! إذ إنّ العبيد الأرقاء الذين يمكن أن يجازفوا باللجوء إليه، سوف يجلدون حتى الموت... بموجب أحد القرارات الإدارية! فلدى الأمم المتحضرة، القانون فوق رئيس الدولة، أما في بلادنا، فرئيس الدولة فوق القانون!

فقال «نيقولا»:

- أنت على صواب بشأن هذا الأمر، ولكنّ «كوزلوفسكي» من جهته، فهو قد أخطأ عندما أكد بأنّ أي شيء لم يتغير في روسيا. فمنذ بضع سنوات، لم يكن أحد يجرؤ على التحدث عن هذه الأمور، ولا حتى على التفكير في ذلك!

فقال «يوري ألمازوفّ»، مازحاً:

- طبعاً، لأننا لم نكن آنذاك قد خرجنا من بلادنا أبداً، وليس لدينا أي إمكانية للمقارنة مع الغير، ولكن منذ أن دفعهم الطيش لتركنا طلقاء

في العالم الفسيح، فهمنا وأدركنا كل شيء. ذهبنا إلى فرنسا لمحاربة الطاغية بونابرت، وعدنا منها مصابين بمرض يدعى: «الحرية»!

وقال «شيدرين»:

- هذا هو بالضبط، ما أفكر به، فأنا، من جهتي تألّمت كثيراً، عندما عدت، ولمست شقاء الشعب وبؤسه في بلادنا، وعبودية الموظفين، وقسوة الرؤساء، وإساءة استخدام السلطة، وتجاوزاتها! وأرفض أن أصدّق أننا حرّرنا أوربا، لكي نظل نحن أنفسنا، نعاني من العبودية والاستبداد!

فقال «هيبوليت روزنيكوف»:

- إنّ كلامك عن تحرير أوربا يضحكني. فعندما كنت في «باريس»، أثناء احتلالنا لها، بدا لي أنّ الحرية الفرنسية تتحكم فيها وتراقبها عن كثب شرطة «لويس الثامن عشر».

فردّ عليه «شيدرين»:

- لن يذهب بك الأمر إلى حد مقارنتها بحريتنا! وإلاّ فاسمح لي بأن أقول لك بأنك لا تعرف عنها شيئاً ولم تحاول أن تمارسها أبداً، كلا، أيها السادة، فبالنسبة لي القضية مفهومة، لأني بعد أن عشت بضعة أشهر في فرنسا وفي ألمانيا، وبعد أن قرأت مؤلفات «مونتيسكيو» و «بينجامين كونستان» وكثيرين غيرهما، يستحيل عليّ أن أرى عالمنا بنفس المنظار الذي كنت أراه فيه، فيما مضى!

فغمغم «نيقولا»:

- لست أنا الذي أخالفك فيما قلته!

فصاح «كوستيا»:

- لاسيّما وأنك، أنت، لم تكتف بأن تجلب معك من «باريس» بعض الأحلام والأفكار الغامضة عن الحرية والدساتير، فقد جلبت منها امرأة، وأي امرأة! إنها السحر والذكاء، والفتنة، الرقة والرشاقة، مجسدة تماماً!

وسأله «ستيبان بوكروفسكي»:

- أحقاً إنها كانت مقربة جداً من أوساط المعارضة؟

فقال «نيقولا» بلهجة تنم عن مزيج من الزهو والضيق:

- نعم.

فهو لم يكن واثقاً من أنّ ماضي «صوفيا» السياسي يمكن أن يقدّر حق قدره من قبل جميع ضيوف «كوستيا». فهؤلاء، وإن كانوا يبدون مؤيدين جداً للأفكار الديمقراطية، فإنهم لم يكونوا يتصوّرون بصورة جدية قلب نظام الحكم القائم.

واستأنف «ستيبان بوكروفسكي» الكلام قائلاً:

- لا بدّ أنها روّعت عند وصولها إلى بلادنا المسكينة، التي ما يزال يخيم عليها ظل «بطرس الأكبر»!

فقال له «نيقولا»:

- لقد حذرتها مسبقاً، لكي لا تدهش كثيراً مما ستراه.

- وما هو رأيها الآن بروسيا، وقد تعرّفت على طريقة معيشتنا واعتادت عليها؟

- إنها تعجبها كثيراً.

فقال «كوستيا» ضاحكاً:

- يعود لك الفضل بذلك وتستطيع أن تفخر به!

فتابع «نيقولا»:

- بالطبع، لقد استغربت بعض المظاهر والتقاليد السائدة في بلادنا، وسبّبت لها صدمة قوية، فهي، على سبيل المثال، تتمنى مثلنا إلغاء العبودية والرقّ، وضمان الحريات الأساسية...

فقاطعه «هيبوليت روزنيكوف» وهو يربّت برفق على فخذه:

- هيا بنا! ألم تقل لي سابقاً، أن «صوفيا» كانت عضواً في منظمة سرية؟: «رفاق الوردة، الزنبقة، أو رفاق، لا أدري أي زهرة أخرى...»

فقال «نيقولا»:

- «رفاق شقائق النعمان» وهي، بالحقيقة، جمعية مسالمة جداً، أعضاؤها يكتفون بطباعة وتوزيع مناشير وكراسات تتضمن أفكاراً تدعو إلى إقامة نظام الحكم الجمهوري...

فقال «كوستيا»:

- وهذا هو ما نحن بحاجة إليه في روسيا!

فنظر إليه الجميع، بدهشة: كان يجلس باسترخاء على إحدى الأرائك، وقد خلع «شحاطته» وأخذ يتأمل، وهو مستغرق في التفكير، أصابع رجليه التي تضمها جوارب خضراء اللون.

واستأنف الكلام:

- لقد خدمنا وطننا في زمن الحرب، وينبغي علينا أن نبرهن على أننا نستطيع أن نخدمه في زمن السلم، أيضاً!

فسأله «هيبوليت روزنيكوف»:

- وهل نحن نخدمه عن طريق التآمر ضد نظام الحكم؟

فردّ «ستيبان بوكروفسكي» معارضاً:

- وهل تتآمر ضد نظام الحكم، أنت، بانتمائك إلى أحد المحافل الماسونية؟

فأحنى «هيبوليت الجميل» قامته، وقال بحدّة:

- كلا، بالتأكيد!

فقال «ستيبان بوكروفسكي»:

- إيه، حسن! إننا لن نتآمر أكثر منك. وأنا لا أرى أي سوء يستوجب اللوم إذا عمد بعض الأصدقاء الذين يحملون أفكاراً مشتركة تتعلق

بمستقبل بلادهم، إلى عقد الاجتماعات فيما بينهم، وإلى نشر مجلة صغيرة...

فقاطعه «هيبوليت روزنيكوف»:

- وهل ستقدمها للمراقبة، مجلتك الصغيرة؟

- ليس بالضرورة.

- إذن، سيكون عملك غير مشروع!

- وإذا لم يكن هنالك وسيلة أخرى للتصرف والعمل...

فقال «يوري ألمازوف»:

- يمكننا تماماً أن نشكل جمعية سرية، دون أن نصدر مجلّة.

فصاح «روزنيكوف»:

- ولكونها سرّية، فإنها ستبدو وبسرعة أنها عديمة الجدوى! وعندما ألقى نظرة حوله، لاحظ أنه ينفرد وحده بهذا الرأي، ولا يؤيده فيه أحد، فأخذ يفتل شاربه.

وقال «ستيبان بوكروفسكي» بهدوء:

- أنا أعتقد، أنه كلما ازداد عدد الناس الذين يناقشون الأمور العامة، كما نفعل نحن، كلما رأت الحكومة نفسها مرغمة أدبياً وأخلاقياً على الانتقال إلى مرحلة التصرف والعمل. ألا يقال باللغة الفرنسية أنّ الفكرة تكون في الهواء؟ وهذه العبارة سليمة وصحيحة تماماً يجب أن يكون الهواء مشبعاً بأفكارنا، وأن يستنشق الناس أفكارنا من الصباح وحتى المساء، دون قصد منهم ودون أن يستطيعوا تحاشيها... كانت عيناه تلتمعان خلف عدستي نظارته، وكان عليه شيء من صفات فيلسوف ألماني. وشعر «نيقولا» نحو هذا الشخص باندفاع ودّي، بعد أن لاحظ أنّ قوة الإقناع لديه ربما كانت ناجمة عن صدقه وصراحته. وبشكل مفاجئ، وثب «كوستيا» واقفاً على ساقيه، دفع الطربوش نحو

مؤخرة رأسه، بسط ذراعيه كالساحر التركي، طالباً من الجميع أن يلزموا الصمت، وقال:

- لديّ، يا أصدقائي، اقتراح أعرضه عليكم: سنشكل جمعية سرية. وسيكون مقر هذه الجمعية هنا، في منزلي، وسيكون هدفها دراسة أفضل الوسائل لتأمين سعادة روسيا. وعلى أعضاء هذه المنظمة أن يقسموا على التعاون والولاء فيما بينهم حتى الموت. وربما استطعنا إصدار مجلة... هذا الموضوع سننظر فيه فيما بعد! وعلى أي حال، إذا لزم نقود لأي شيء فأنا مستعد للدفع! فما رأيكم؟

وبعد لحظة من التفكير والتردّد، تعالت أصوات الحاضرين، تهتف بفرح وحبور:

- «هورّاه»! مرحى لك يا «كوستيا»! أنت عبقري!

كان «نيقولا» متحمّساً جداً، وشعوره بحرارة الانتماء إلى فريق، وكونه يجد دائماً وفي كل مكان صدى لصوته، كان ينمّي لديه الرغبة بألا يكون لإخلاصه أي حدود. والأمر الذي كان يغيظه، هو اضطراره لمغادرة «سان بطرسبورغ» في الوقت الذي سيضاف فيه إلى حياته معنى جديد. فمن جهته، كان هنالك مستقبل روسيا، ومن جهة أخرى، هنالك نزوات زوجة حلّت بها مصيبة كبيرة، وهي معتادة أن تحصل دائماً على كل ما تريد! ولم يكد يكوّن هذه الفكرة حتى شجبها. وكثيراً ما يحصل معه أن يظلم «صوفيا»، فحالما يصيبه أيّ انزعاج، تسوّل له نفسه أن يعتبرها مسؤولة عما أصابه. ومع ذلك، فإنّ لها الحق اليوم، أكثر من أي وقت آخر، بأن تحظى برعايته. وقد تصورها، وهي تضم الطفل المتوفى بين ذراعيها، راغبة بأن تكفّنه بنفسها وأن تضعه في التابوت بيدها أيضاً. وكان وجه ذلك الطفل الرضيع يتّسم بجمال فائق. وتبادر إلى ذهنه: «كان أجمل من أن يعيش، لم يعد لي ولد، وربما لن

أرزق بولد آخر، أبداً»! وكان يوشك أن يختنق، عندما ارتعش متأثراً بضربة كفّ، وديّة، وسأله «كوستيا»:

- هل ستنضم إلينا؟

فأجابه متمتماً:

- بالتأكيد، ولكنك تعلم جيداً أني يجب أن أرحل...

- لا بأس بذلك. فأنت لن تغادر روسيا. وسنبقى على اتصال فيما بيننا! فشدّ «نيقولا» على يد صديقه، قائلاً:

- إذن، سيكون ذلك بكل سرور... وبكل... بكل امتنان!...

وألقى «كوستيا» السؤال نفسه على جميع مدعويه، فأجابوا بالإيجاب، باستثناء «هيبوليت روزنيكوف» الذي طلب مهلة للتفكير. فهو دون شك لا يريد أن يجازف بتعريض وضعه العسكري للشبهات بانتمائه إلى حركة لم تحصل على موافقة السلطات، ولذلك، قال:

- سأتابع مجهودكم بتعاطف وبكل مودّة، وهذا كل ما هنالك.

وضاعت كلماته عبر الضجيج المرح. كان المشاركون يبحثون عن اسم لجمعيتهم. فاقترح «ستيبان بوكروفسكي» أن يتم تبني اسم وأنظمة جمعية «توجند بند» «Tugendbund» التي حُلّت في ألمانيا منذ أربع سنوات. ولكنّ «يوري ألمازوف» لفت نظر الجميع أنه من المؤسف أن يطلق اسم ذو طابع ووقع ألمانيّين على مشروع روسي بالأساس. وكان «ديمتري نيكيتنكو» من جهته، يؤيد تسمية رصينة، مثل: «رابطة المشاعر الطيبة» أو «الاتحاد من أجل الفضيلة والحقيقة» ولكنّ «كوستيا» رأى أنّ هذا التسميات تنقصها الشاعرية، وقال:

- لماذا لا نطلق على أنفسنا، نحن أيضاً، اسم: «رفاق شقائق النعمان»؟

فاحمرّ وجه «نيقولا» من شدّة سروره.

وقال «ستيبان بوكروفسكي»

- إنّ وقع هذه التسمية في اللغة الروسية أقل جمالاً وشاعرية منه باللغة الفرنسية!

فردّ «نيكيتنكو» معترضاً:

- ليس هنالك ما يجبرنا على ترجمتها إلى اللغة الروسية!

- بلى! وكيف يكون ذلك؟ شيء من المنطق أيها السادة! أنتم لم توافقوا على تسميتها «توجند بوند» «Tugendbund» والآن...

واحتدم النقاش، وعلى الرغم من أنّ الاجتماع يرتدي طابع السرية، فإنّ أحداً لم يعر أيّ انتباه للخادم العجوز الذي كان يقدم الشراب. فشدّه «كوستيا» من أذنه، وقال له:

- وأنت، يا «بلاتون»، ما هو رأيك؟

فقال الخادم، متلعثماً، وهو يمد عنقه:

- لا أدري، يا سيدي! فأنا لم أتلقّ ما يكفي من التعليم!

- لديك دماغ، على أي حال، دعه يعمل، بحقّ الشيطان!

فقال «بلاتون»:

- شقائق النعمان جميلة في حقل من القمح.

فترك «كوستيا» أذن خادمه، ووجّه له «نقفة» بإصبعه تحت أنفه.

فصاح «بلاتون»:

- «السلام عليكم»!

وتراجع، حتى التصق بالجدار.

فقال «كوستيا»:

- مرحى لك، يا «بلاتون» سنكون شقائق نعمان في حقول القمح الروسية!

فقال «شيدرين»:

- أطلب أن يخضع هذا الاقتراح للتصويت.

فصاح «كوستيا»:

- هيا، يا «بلاتون»! ماذا بك، هل نمت أيها البغل العجوز؟ أعطني أدوات الكتابة، وبسرعة!

وجرى التصويت بإلقاء قسائم الأوراق الصغيرة في خوذة الحارس «كوز لوفسكي». وفرز «كوستيا» الأصوات: من أصل ثمانية كان ثلاثة لصالح «رفاق شقائق النعمان» وخمسة لصالح «الاتحاد من أجل الفضيلة والحقيقة»

فصرح «كوستيا» قائلاً:

- اسمحوا لي أيها السادة أن ألفت نظركم إلى أنه تبعاً لما يجري في الديموقراطيات الحقيقية، فإنّ قراراتنا تتخذ بالأكثرية ربما كنت، شخصياً، أفضّل «شقائق النعمان»، ولكني أنحني بكل طيبة خاطر أمام «الفضيلة والحقيقة» لأنّ هذه التسمية حظيت بقبول الأكثرية. وأغلى أمنياتي هي أن يحاول كل منكم أن يستميل كثيراً من المؤيدين لقضيّتنا!

وأسف «نيقولا» لأنّ شقائق النعمان الفرنسية لم تتأقلم وتتوطّن في روسيا. ولكنّ هذه الخيبة بدّدتها تصريحات «كوستيا» الجديدة، حيث قال:

- يجب أن نتّفق فيما بيننا على علاقة للتعرّف، ما قولكم بخاتم يُنقش عليه شيء مّا؟ كشعلة مقلوبة، قناع، خنجر...

أستطيع أن أجعل أحد الصاغة يدرس موضوع الصورة، ثم يصنع لنا الكمية الضرورية من هذه الخواتم، التي سنستخدمها أيضاً كأختام من أجل المراسلة.

فقال «نيقولا»:

- موافق!

وصاح كلّ من الآخرين:

- موافق! موافق!...

وقفز «يوري ألمازوف» على منضدة منخفضة وضمّ قدميه، فكاد يفقد توازنه لو لم يستند على كتف «نيكيتنكو»، وأنشد بصوت مرتعش:

إنّ القانون وليس الدم أو الطبيعية،
أيها الطغاة، هو الذي توجكم!
أنتم فوق الشعب،
والقانون فوقكم!

ومنذ أكثر من سنة، هذه الأشعار التي نظمها الشاب «بوشكين»، كانت توزع نسخ منها كتبت بخط اليد، في جميع أنحاء المدينة. وحفظها الناس غيباً. ولكنّ «يوري ألمازوف» كان ينشدها بشكل مدهش، بحيث أنّ الجميع صفقوا له عندما انتهى من الإنشاد.

وقال «هيبوليت روزنيكوف»:

- إذا استمر «بوشكين» ينظم على هذا المنوال، فإنه لن يبقى زمناً طويلاً في «بطرسبورغ» لأنّ صبر السلطات له حدود!

فقال «ستيبان بوكروفسكي»:

- القيصر يحترم المواهب!

وقال «كوستيا» وهو يحرّك ملعقة في أحد الكؤوس، داعياً الجميع إلى التزام الصمت:

- أيها السادة، أيها السادة! علينا ألاّ نضلّ ونضيع الوقت، إنكم لم تختاروا الرسم الذي سيُنقش على الخواتم.

فقال «نيقولا»:

- اختره، أنت بنفسك: مشعل، خنجر، قناع، أفعى، ما الفرق في ذلك؟ المهم أن يكون هذا الشعار مقدساً بالنسبة للجميع! آه، يا أصدقائي، يا لها من أمسية رائعة، ستظل ذكراها خالدة!

فصاح «كوستيا»:

- أشعر بعطش شديد! ردّدوا معي: هذا البيت دار للبغاء، دون مفاتن البغايا...

فردّد المدعون العبارة، بصورة جماعية. وكان «بلاتون» يقهقه ضاحكاً ملء شدقيه، وقد ضم أصابعه الضخمة فوق بطنه.

وسأله «كوستيا»:

- ماذا تنتظر؟

فقال «بلاتون» وهو ينحني كثيراً:

- «السلام عليكم» جميعاً!

وتلقى كل منهم كأس التكفير الخاصة به. وكانت الرائحة التي تنتشر من المباخر تثير الغثيان لدى «نيقولا». كما أنّ مزيج الشمبانيا والكونياك شوّش أفكاره. وتبعاً لما كان يفكر بهذا الجانب أو بالجانب الآخر من حياته، كان يشعر بالثقة بالمستقبل أو بالرغبة بالانتحار. وأنشد «يوري ألمازوف» مرة أخرى بعض أشعار «بوشكين» التي يتساءل فيها الشاعر، عما إذا كان سيرى اليوم الذي يُلغى فيه الرق، بإيعاز من القيصر». وبعد ذلك، مسح «ستيبان بوكروفسكي» نظارته ومخّط أنفه، وقرأ أسطورة من تأليفه، تحدّث فيها عن حصاة كانت تتألّم وتشكو قدرها ومصيرها، وتتوسّل إلى الله أن يحوّلها إلى رجل. وعندما أصبحت «موجيك» أي فلاحاً روسياً، أخذت تعاني وتتألم كثيراً لدرجة أنها توسّلت إلى الله أن يعيدها إلى حالتها الأولى...

لم يكـن الموضـوع يتضمّن جديـداً، يتّسم بالأصـالة، ولكـنّ أبيـات الشعر كانت متناغمة وحسنة السبك. فنهض «نيقولا» بصعوبة عن الأريكة وقبّل «ستيبان بوكروفسكي» على جبينه، قائلاً:

- إنها شعلة متألقة، هذه التي قرأتها!

فأضحكت هـذه الملاحظة جميع الضباط. و «نيقولا»، الذي كان جاداً وصادقاً فيما قاله، كاد يغتاظ من ضحكهم. فعملوا على تهدئته، مؤكدين له أنّ بين أعضاء أي جمعية سرية، لا يوجد أي خطيئة أو إهانة لا يمكن الصفح عنها. وكان يرغب البقاء عن طيب خاطر طوال تلك الليلة في منزل «كوستيا» ولكنه كان قد وعد «صوفيا» أنه سيعود الساعة الحادية عشرة. وفي الوقت الذي لم يكن يفكّر فيه أحد بالانصراف، ودّع رفاقه بشعور من الحزن، وبضرورة التقيد بالموعد.

وفي المنزل، وجد زوجته مستلقية على إحدى الأرائك، في الصالون، وقد أسندت رأسها على بعض الوسائد، وغطت ساقيها بفروة دبّ. وكان «ميشيل بوريسوفيتش» يجلس بقربها، في دائرة ضوء أحد المصابيح. كانا قد انتهيا للتوّ من مباراة في الشطرنج. و «صوفيا» هي التي فازت في تلك المباراة. وخلافاً لعادته، كان «ميشيل بوريتسوفيتش» يبدو مسروراً لخسارته. ولم يلحّ أحد منهما على «نيقولا» كي يحدثهما عن أمسيته التي قضاها مع رفاقه، وقد سرّ بذلك، لأنه كان ينوي أن يتحدث مطوّلاً عن هذه الأمسية مع زوجته، على انفراد.

وبعد أن قبل «ميشيل بوريسوفيتش» يد كنّته، ومنح بركته لابنه برسمه إشارة الصليب، انسحب أخيراً. وساعد «نيقولا» «صوفيا» على النهوض، وجعلها تستند على ذراعه، للذهاب إلى غرفتهما. كان الطبيب قد سمح لها «منذ بعض الوقت» بأن تتمشى قليلاً في المنزل.

فأخذت تسير بخطى صغيرة وبطيئة، وهي ضعيفة الساقين وقد انحنى جسمها قليلاً إلى الأمام.

وعندما استلقت على السرير، جلس «نيقولا» قبالتها وأخذ يتأملها وهو يلتزم الصمت.

فسألته:

- ألا تأوي إلى السرير؟

- كلا! لدي كثير من الأمور أريد أن أحدثك عنها! احذري ماذا دار من أحاديث في منزل «كوستيا»!

- أحاديث سياسية، كما هي العادة!

كانت تعرف أصدقاء «نيقولا» وتشاطرهم الرغبة برؤية قيام نظام حكم ليبرالي تحّرري في روسيا. وكثيراً ما كان يحدث، أثناء حفل عشاء، أو حفلة رقص، أو أثناء فترة الاستراحة في أحد المسارح أن تتبادل معهم بعض الأحاديث حول تطلّعاتهم المشتركة. ومن في «سان بطرسبورغ» لا يتمنى إصلاح المؤسسات القائمة؟ فالقيصر نفسه، على ما يقال، لديه الكثير من النوايا الحسنة!

وقال «نيقولا» بحماسة واضحة:

- لقد ذهبت مناقشاتنا، هذه المرة، إلى أبعد من كل ذلك!

وأخبرها بتشكيل جمعية «الاتحاد من أجل الفضيلة والحقيقة»

وأضاف:

- تصوري أنّ «كوستيا» أراد حتى تسمية جمعيتنا: «رفاق شقائق النعمان»!

فدهشت «صوفيا» وشعرت بالانزعاج، فهي لم تكن تدري لماذا كانت تستاء من أحاديث زوجها أمام رفاقه عن النشاط السياسي الذي كانت تقوم به في «باريس» ربما كانت تعتبرهم أقل تطوراً من أن يكونوا

مؤهلين لتفهم الأسرار التي يبوح لهم بها «نيقولا»؟! وعلى أي حال، فإنها ربّما كانت ستأسف، لو أنهم تبنّوا، عند تشكيلهم جمعيتهم السرية، اسم «رفاق شقائق النعمان» الذي يذكرها ببعض الرجال المتميزين الذين يثيرون الإعجاب. ولذلك، فإنها قالت له برفق وعذوبة:

- أنا مسرورة لأنكم اخترتم تسمية أخرى.

فنظر إليها باستغراب، وهو حائر، وتابع:

- «كوستيا» سيوصي أحد الصاغة لكي يصنع لنا خواتم تحمل نقوشاً، نستخدمها للتعارف فيما بيننا. وسيقام احتفال عندما يتم قبول بعض الأعضاء الجدد...

وفجأة تبادر إلى ذهنه أنه لو استطاع أن يثير اهتمامها بمشروعه، ربما ضعفت رغبتها بمغادرة «سان بطرسبورغ». ولكنها كثيراً ما برهنت له فيما مضى، في «باريس»، عن جرأتها وتصميمها على فكرة تقتنع بها، لدرجة أنه لم يجد أملاً بأن يثنيها عن عزمها على الرحيل، فيما إذا ذكّرها بما كانت تؤمن به من الأفكار والمبادئ التي تدعو إلى قيام نظام الحكم الجمهوري.

واستأنف حديثه، قائلاً:

- لم أكن أتصور أبداً أن تكون هنالك مثل تلك القوة في اتفاق الرجال على فكرة معينة! لقد كنا، مساء اليوم كالأخوة، سعداء جداً جميعنا، منفعلين وشديدي التأثر بالقرار الذي اتخذناه! وأنت التي تعرفين ذلك، لا بد أنك تدركينه وتتفهمينني جيداً...

كانت «صوفيا» تصغي إليه بانتباه شديد، مندهشة من الحماسة التي يبديها لقضية قليلة الأهمية. لأنها بعد المصيبة التي حلّت بها بموت طفلها، فإنها فقدت الميل للمناقشات السياسية والعقائدية. ولا شك أنّ الرجل لا يستطيع أن يعيش بعمق حزناً من هذا النوع. وفي حين أنها لم تكن

تجد عزاءً وسلوى إلاّ في الوحدة والانصراف إلى التأمل والتفكير، كان هو يحاول أن يتناسى ويتشاغل في بعض الأمور الاجتماعية، مختلقاً هموماً أخرى تعويضيه واهتمامات تنسيه همومه السابقة، وجمعية «الاتحاد في سبيل الفضيلة والحقيقة» كانت، على سبيل المثال، بالنسبة له غنيمة وأي غنيمة!

وقال:

- وهي يمكن أن تصبح مشروعاً جذاباً يستميل كل الناس، وسوف تشكرنا روسيا كلها إذا نجحنا بتطوير هذا المشروع!

فتمتمت بلهجة تنم عن الرضى والموافقة:

- نعم، نعم، يا «نيقولا»!

- لدي انطباع بأنك لا تؤمنين بذلك، كان عليك أن تحضري أحد اجتماعاتنا.

- أفضّل أن تروي لي ما يحصل في تلك الاجتماعات.

- وكيف أستطيع أن أفعل ذلك، إذا كنا سنرحل؟ اعترفي بأنّ هذا يدعو إلى الأسف! تماماً في الوقت الذي أخذت فيه فكرة عظيمة تتبلور وتتجسد..

فوجّهت له ابتسامة، وكما هي العادة دائماً عندما كانت تنظر إليه بطريقة تنم عن التعقل والسيطرة، كما تنظر الأم إلى ابنها، فهو يدرك بأنه لا يستطيع مقاومتها.

وغمغم متذمراً:

- إنك مخطئة، وفي هذا سذاجة وغباء! فماذا لو أرجأنا رحيلنا شهرين أو ثلاثة أشهر...

ولكثرة ما تكلم، بُحّ صوته. ودون أن تجيب «صوفيا» أمسكت يده وألصقتها بخدّها. كانت يده حارة، تفوح من فمه رائحة التبغ والكحول،

فلا بدّ أنه قد شرب كثيراً هناك، وربما ضحك أيضاً. وأشارت له أن يجلس بقربها على حافة السرير، مبدية كثيراً من التسامح الذي يشوبه العتاب واللوم. فانصاع «نيقولا» بصمت. ولكنه كان يخشى أن يلمسها. لأنها منذ أن وضعت طفلها كانت تبدو له عطوباً، يؤذيها أي شيء. وجذبته «صوفيا» وضمته إلى صدرها. وبينما كانت تقبله، دهش لكونه شعر أنه في آن واحد، بائس جداً، وفي غاية السعادة.

٣

كانت قاعة الطعام معتمة وباردة، ولكنّ النافذتين المفتوحتين على حديقة «كشتنوفكا» كانتا تطلاّن على مجموعة من الشجيرات الخضراء التي تغمرها أشعّة الشمس. وكانت بعض الذبابات الصغيرة تتراقص حول تلك الأشعة. ومن وقت لآخر كانت إحدى الخادمات تلقي قبضة من المسحوق على النار، فتطرد سحابة الدخان التي تنتشر عند ذلك، الذباب والبعوض من الغرفة. كان الغداء بالنسبة لـ «ميشيل بوريسوفيتش» أفضل فترة يقضيها في النهار، ولأنّ أسرته تكون مجتمعة كلها تحت نظره، فهو يشعر أنه يعيش أربع حيوات بدلاً من حياة واحدة. ومن بين جميع الجالسين إلى المائدة، كانت «صوفيا» في معظم الأحيان، هي التي تثير انتباهه. فقد ازدادت جمالاً، بعد إقامتها نحو أسبوعين في الريف. وكان فستانها المصنوع من قماش قطني رقيق أبيض اللون، تعلوه بعض الدوائر، يبدو بسيطاً ومع ذلك كانت ترتديه بمنتهى الأناقة. وكان الطابع الهادئ لصوتها يضفي سحراً على ابسط كلماتها. وإلى جانبها كانت «ماري» الصغيرة البدينة، الشقراء، الشاحبة الوجه، والذابلة العينين، تبدو بالحقيقة صورة بائسة. وكان «ميشيل بوريسوفيتش» يأسف كثيراً لأن ليس له ابنة أكثر جمالاً وجاذبيّة. «وعلى أي حال، فإنّ «نيقولا» أجمل من «ماري» ولكن ممّا يؤسف له أن يكون على هذه الدرجة من ضعف العقل!» هذا ما كان يفكر به «ميشيل بوريسوفيتش» أثناء تناوله طعام الغداء مع أسرته. وفي طرف المائدة، كان السيد «لوسور» هو الوحيد الذي تناول للمرة الثالثة فطيرة بالفريز

المغطاة بالعسل والزبدة. وكان يكفي أن يلقي «ميشيل بوريسّوفيتش» نظرة على مربّي أولاده، السابق، كي يشعر بالرغبة للسخرية به وإذلاله. ودون أن يترك للفرنسي الوقت الكافي ليبلع لقمته، نهض، وهذا يعني أنّ الوجبة قد انتهت. فأسرع السيد «لوسور» في وضع قطعة الفطيرة في صحنه.

فقال له «ميشيل بوريسّوفيتش» مازحاً:

- أرجوك، لا تنزعج من أجلنا، يا سيد «لوسور»!...

فتمتم، هذا الأخير، متلعثماً: وهو يمسح أصابعه بمنشفته:

- كلا، كلا، يا سيدي، لقد أنهيت طعامي.

- يمكننا، بكل سهولة أن ننتظر خمس دقائق أخرى!

- أوه، يا سيدي، أنت تمزح وتريد أ ن تضحك مني!...

وعندما كان «ميشيل بوريسوفيتش» يشاكس أحداً ما، كان يسترخي، يشعر بزوال همومه، ويشرق وجهه. وبعد أن تمتع، هذه المرّة، بكل ذلك، رشق «صوفيا» بنظرة. كانت ملامح وجهها تعبرّ عن غضب مكتوم، وكان ذلك يزيدها فتنة وسحراً. وتبادر إلى ذهن «ميشيل بوريسوفيتش»: «إنها لا تحبّ أن أهزأ بابن وطنها، فعليّ أن أنتبه لكي لا أبالغ بذلك وأتجاوز الحدود: قليلاً وحسب، هكذا، على سبيل التسلية واللهو!...»

وقالت «صوفيا»:

- هذه الفطيرة طيبة جداً، وأنا أرغب أن أتناول واحدة أخرى، يا أبي، عن إذنك.

وفي كل مرة كانت تقول له: «يا أبي» كان «ميشيل بوريسوفيتش» يتأثر ويترفّق.

فقال، وهو يجلس متباطئاً:

- هيا، تناوليها، يا صوفيا!

ثم صاح بالخادم:

- ماذا؟ ألم تفهم، أيها المغفّل؟ سيدتك تريد فطيرة أخرى!

فأُجفل الخادم، وارتعش جسمه في ثوبه الفضفاض، وتراكضت الخادمات في كل الاتجاهات. ووضعت فطيرة كبيرة مصنوعة من العجين والتوت ومدهونة بالعسل وبالزبدة، في صحن «صوفيا». واضطرت أن تأكلها كلّها، بينما كان السيد «لوسور» يتناول ما تبقى من فطيرته، ويلتهمه، بأربع لقمات.

وقال «ميشيل بوريسوفيتش»:

- من المؤكد، أنّ الفرنسيين هم، في أيامنا هذه، الذين يتذوّقون الطعام الروسي، ويحبوّنه أكثر من غيرهم.

ومن جديد، أخذ ينظر إلى «صوفيا» ليرى فيما إذا كانت، على الأقل، لم تنزعج من هذه الفكرة. وخطأ أو صواباً، فقد بدا له أنها تحاول الامتناع عن الضحك، فسرّه ذلك وملأ كأساً من خمر الكرز، واحتساه بجرعة واحدة. ثم قال:

- والآن، يا أولادي، أنا ذاهب لأتمتع بقيلولتي. وكان من عادته أن يرتاح ساعة أو ساعتين بعد الغذاء. وعندما مرّ من أمام السيد «لوسور»، «نيقولا»، «ماري» و «صوفيا»، ابتسم لكلٍ منهم، ثم صعد إلى غرفته، خلع حذاءه وجوربه، وتمدّد على أريكة مغطاة بالجلد الأسود. ولحقت به المربية العجوز «فاسّيليسّا» وجلست بقربه على كرسي صغير منتظرة أوامره. فقال لها:

- حسن، هيا!

فأخذت تحكّ له رجليه، وكانت أصابعها الرشيقة تصعد إلى ما فوق الكعبين، تلامس العرقوبين وتتراقص حول الأصابع، ثم تعود إلى أخمص القدمين حيث يتصف الجلد بحساسية شديدة.

وهذه المداعبات المنّملة كانت تجلب النعاس لـ «ميشيل بوريسوفيتش» أكثر مما يجلبه مغلي النباتات الطيبة. وكثير من ملاكي المناطق المجاورة كان لديهم نساء يحككن لهم ولزوجاتهم أرجلهم. وبالطبع، كان «ميشيل بوريسوفيتش» يستطيع أن يكلّف بهذا العمل قروية شابة ونشيطة، ولكنّ «فاسّيليسّا» كانت تقوم به منذ زمن طويل، لدرجة أنه كان يرى أنه يقسو عليها لو استبدلها بواحدة أخرى. وقال في سره بمتعة، وهو ينظر إلى اليدين النحيلتين المعروقتين، اللتين تعملان بنشاط حول طرفيه السفليّين. «إني طيب القلب جداً!»

وتمتمت «فاسّيليسّا»:

- أحسن، هكذا، يا سيدي؟

فهمس:

- نعم، إلى الأعلى قليلاً.. إلى اليمين... هنا، تماماً... تابعي... كان يعوم فوق السحاب. وعندما انتظم شخيره، قبّلت «فاسّيليسّا» يده، وخرجت من القاعة، والأرضية الخشبية تفرقع تحت قدميها الضخمين والحافيين.

★★★

كان «نيقولا» يقرأ الجزء الأول من كتاب «روح القوانين» ويسجّل ملاحظاته وتعليقاته عليه، وهو جالس في الحديقة، تحت العريشة، فأتت «صوفيا» واقترحت عليه أن يذهب معها ومع «ماري» إلى قرية «شاتكوفو». فسرّ من النشاط الذي يبدو على زوجته، فقد كان للريف تأثير حسن على صحتها. وشيئاً فشيئاً، أخذت تتخلّص من حدادها، وتنظر إلى العالم بدهشة وبشيء من الامتنان. كانت قد اكتشفت الفلاحين الأرقّاء «الموجيك» وتتحرّق على الاستزادة من التعرّف على أحوالهم لكي تعمل على التخفيف من بؤسهم وشقائهم.

وفي كل مرة رافقها فيها «نيقولا» أثناء جولاتها عبر أملاكهم، كان يستطيع أن يتبيّن أنها تغتاظ كثيراً من بعض الأمور والأوضاع، التي كان، هو نفسه، أكثر اعتياداً عليها من أن يستطيع اعتبارها تتّسم بالظلم الشديد. وألحّت عليه كثيراً، ولكنه مع ذلك، رفض، وهو يبتسم، أن يرافقها إلى «شاتكوفو».

فقالت له:

- إني لا أفهمك، فأنت تدّعي أنك تريد السعادة للشعب، وها أنت تفضّل البقاء مع كتبك على الذهاب لتفقّد أحوال القرويين!

فقال لها:

- أنا أعرف، هؤلاء القرويين الذين تتحدّثين عنهم، ولست بحاجة لزيارتهم كي أعرف ماذا ينقصهم. وعلاوة على ذلك، فلكوني سيدهم، فإني أجد نفسي في وضع زائف ومصطنع لو حاولت التعاطف معهم. وأنت لم تولدي في روسيا، وقد أتيت من بلاد أخرى، وتجهلين تقاليدنا، ولذلك فأنت تستطيعين أن تنتقدي وأن تساعدي وأنت مرتاحة البال...

- أتعني أني أكثر قرباً منك، من «الموجيك»؟

- لست أكثر قرباً إليهم مني، ولكنك تستطيعين مساعدتهم أكثر مني! فهل يبدو لك هذا شيئاً من المفارقة والتناقض؟

- إني أعترف أنّ فيه شيئاً من ذلك.

ووضعت قبعتها المصنوعة من القش الناعم، على رأسها، وثبتتها بدبوس. كان عناد «نيقولا» يغيظها. وانتابتها، بشكل مفاجئ الرغبة بمعاقبة من يسيئ إلى المجتمع وإلى الشعب، واتهمت زوجها بأنه لا يحب الناس الفقراء والضعفاء إلا بصورة مجازية ومعنوية. وهو يتمنى إلغاء العبودية والرق، ولكنه لا يهتم، بأمور العبيد الأرقاء. ومع أنه يتكلم عن الحرية

والمساواة كما يفعل معظم رفاقه، فإنه يأنف من الدخول إلى بيت أحد الفلاّحين. والفقر يزعجه بالأساس، ولكنه يفضّل أن يقرأ ما يقوله عنه الآخرون. وانحنت على الكتاب الذي كان يطالعه بإمعان، ولاحظت أنه وضع خطاً بقلمه تحت بعض الجمل:

- «الحرية السياسية لا تقضي بأن يفعل المرء ما يريد.. والدستور يمكن أن يوضع بشكل يقضي بأنّ لا أحد يكون مرغماً على القيام بالأمور التي لا يرغمه القانون على القيام بها، وعلى عدم القيام بتلك التي يسمح له القانون أن يقوم بها...»

وقال:

- إنّ في هذا نفاذ بصيرة ودقة، يفوقان الحدّ، ألا توافقين على ذلك؟

- بلى، يا «نيقولا»!

- عندما أقرأ أموراً كهذه، كل شيء يصبح واضحاً في ذهني، ولديّ انطباع بأن بواسطة التدرب على ممارسة الفهم واستخدامه يمكن أن تُحلّ مشكلة البشرية، وصياغة السعادة على شكل معادلات، والتصرف بشكل مضمون وموثوق!...

فأخذت «صوفيا» تقدرّ المسافة التي تفصل «مونتسكيو» عن فلاحي روسيا «الموجيك». وقالت:

- إيه، حسن! أتركك مع كتبك، ولكني أشكّ بأنك يمكن أن تخدم بلادك، وتصبح نافعاً لها، بمجرد دراستك لكتب الفلاسفة.

فقال بمرح:

- وأنت، هل تعتقدين أنك بتوزيعك بعض الأغطية على الفلاحين، ستغيّرين قدر روسيا ومصيرها؟

فتأمّلته: وجهه المتطاول، عيناه المزركشتان بالذهب وباللون الأخضر، كل هذا منحه الموهبة والقدرة على إثارتها في الوقت الذي لم

تكن ترغب كثيراً بذلك. ولشدّة تأثرها بحقيقة حبها له، لم تكد تسمع شقيقة زوجها التي كانت تناديها:

- العربة جاهزة! هيا، أسرعي!

فقال لها «نيقولا»:

- نزهة سعيدة!

وتخلّت «صوفيا» عن تأملها، وذهبت فجلست بجانب «ماري» في العربة، وصعد الحوذي، الضخم الجثة، فجلس على مقعده، وسأل:

- أين تأمرين أن نذهب، يا سيدتي؟

فقالت له «صوفيا»:

- إلى «شاتكوفو».

كان يوجد في الملكية نحو عشر قرى، ولكنّ «شاتكوفو» كانت أقربها إلى المنزل. وانطلقت الأحصنة. كان الممشى يقع بين سياجين من أشجار الصنوبر السوداء. وفي الهواء انتشرت رائحة العشب الجاف و «الراتنج» الساخن. وشدّت «ماري» على يد زوجة أخيها، وتمتمت:

- هل زعلتِ لأنّ «نيقولا» لم يأتِ معنا؟

فأجابتها «صوفيا»:

- أبداً! كان يمكن أن يشعر بالملل. فهو في هذا الوقت يستمتع بالمطالعة.

فقالت «ماري»:

- نعم، وأنا أفضّل دائماً أن أكون معك وحدي، لأن هناك أشياء، لا أستطيع أن أقولها في حضوره، أتتفهمين ذلك؟

- ليس تماماً.

- إنه رجل!

فقالت «صوفيا» وهي تبتسم:

- آه! الآن، فهمت.

وتهيّأت لتلقي بوحاً بأسرار عاطفة. ولكنّ «ماري» لم تظهر أي استعداد للتكلم، ولكي تشجّعها «صوفيا» على ذلك،

سألتها:

- ألم يطرأ أي تغيير على حياتك، منذ اليوم الذي رأيتك فيه أول مرّة؟ أنت في العشرين من عمرك الآن..

فقالت «ماري»:

- وكل شيء يحصل كما لو أني ما زلت في السادسة عشرة!

- ألا تخرجين أكثر من ذي قبل؟ ألا تستقبلين أحداً من الجيران؟

فهزّت «ماري» رأسها.

فاستأنفت «صوفيا» الكلام:

- هنالك، بالتأكيد شباب وفتيات ودودون وظرفاء بين أفراد عائلات المنطقة.

- أبي يقول: كلا، لا يوجد أحد من هؤلاء.

- هو حرّ بأن يكره الناس، ولكن ليس له الحق بأن يحتجزك وأنت في هذه السن! وليس بإخفائك هكذا، يستطيع أن يتيح لك فرصة الزواج!

فقالت الفتاة، وهي تخفض بصرها:

- إنه لا يهتم كثيراً بموضوع زواجي!

وأضافت بحدّة:

- وعلاوة على ذلك، فإني أنا أيضاً لا أهتم بهذا الموضوع!

- ولماذا؟

- لكثير من الأسباب، أولاً لأني دميمة الشكل!

فانتفضت «صوفيا»:

- دميمة الشكل؟!

فقالت «ماري»:

- نعم، دميمة الشكل، دميمة بأنفي البشع وعينيّ الصغيرتين! ولست مرتاحة في جسمي...

فصاحت «صوفيا»:

- يا لها من حماقة! إنك فاتنة!

وكانت تعتقد ذلك بالفعل، فعلى الرغم من أنّ ملامح وجهها ضخمة بعض الشيء، فإنّ شقيقة زوجها لديها شيء من الكآبة في تعابير وجهها وجاذبية طبيعية في مواقفها وتصرفاتها، التي لا يمكن إلا أن يتأثر بها من يشاهدها.

وقالت «ماري»:

- عندما تنظرين إلى وجهك في المرآة، تجدين متعة في ذلك، أما أنا فأجد في ذلك عذاباً وعقاباً. أشعر برغبة شديدة للهرب من نفسي. كما أنّ الرجال يخيفونني. جميع الرجال. ولا أستطيع أن أفسّر لك هذا!...

فأدركت «صوفيا» أنّ عليها، لكي تكسب ثقة الفتاة، ألاّ تعارضها في هذا الشأن.

خرجت العربة من الممشى وسارت في طريق مكشوف. كان هنالك نقاط متعدّدة الألوان تتحرك في الحقول: هنا وهناك كانت تلمع نصلة منجل، منحنية: الفلاحون يحصدون المزروعات. وأحاطت بالأحصنة سحابة من الغبار، وأخذت العجلات تصعد وتهبط بين الحفر والأخاديد الجافّة.

وقالت «صوفيا»:

- حتى ولو لم تكوني ترغبين بالزواج، فبإمكانك أن تستقبلي بعض الأصدقاء، وأن تعيشي حياة أكثر نشاطاً، وأكثر حرية..

- ربما كان هذا لا يروق لي.

- إذن، ممّا تشكين؟

- إنـي لا أشـكو مـن شـيء. لقـد سـألتني عـن أسـلوب حيـاتي ‌في «كاشتنوفكا»، وقد أجبتك على سؤالك.

وخيّم صمت، دام برهة طويلة.

ثم قالت «صوفيا»:

- سأتكلم مع أبيك ‌في هذا الموضوع.

فقالت «ماري» وهي تغرز أظافرها ‌في يد «صوفيا»:

- هذا، على الخصوص، ما ينبغي ألاّ تفعليه. لأنه يمكـن أن يعتبرني فتـاة لا تـؤمن بـأيّ مبـدأ، كإحـدى تلـك الكلبـات اللـواتي لا يفكـرن إلاّ بالتسلية واللهو!

وأبدت تكشيرة تنمّ عن القرف والاشمئزاز، وقالت بحدّة:

- إني أكره الكلبات!

فكتمـت «صـوفيا» ابتـسامة. كـان ‌في تلـك العبـارة الـتي قالتهـا بصيغة التأكيـد، نبرة تنمّ عـن سـذاجة عدوانيـة، ذكـرتها بمـا كانـت تتصف به، هـي، من تـصلّب وعنـاد، فيمـا مضى. واجتـازت العربـة حـاجزاً مـن أشـجار الـسندر الرفيعـة ذات القـشور المزنّـرة بـالألوان الـسوداء والفضّية، وبدت بعض بيوت القرية. وعلى مرتفع صغير غرس عمود يحمل لوحة خشبية، كتب عليها: «قرية شاركوفو، تعود ملكيتها لـ «ميشيل بوريسوفيتش أوزرايف». المساكن: ٥٧، الرجـال عـددهم: ١٢٢، النـساء عددهن: ١٤١. كانت بعض البيوت البسيطة المظهـر والمستديرة الشكل مـصطفّة علـى جانـب الطريـق و‌في قطعـة أرض مـسوّره بالأوتـاد انـتصبت ثـلاث شـجرات زيزفـون. هزيلـة الأوراق، و‌في مكـان آخـر كانـت نبتـات عبّـاد الـشمس، تحمـل عاليـاً أزهارهـا الـضخمة الـصفراء ذات القلـب المخملـي الأسـود. لا أحـد ‌في الـشارع. جميـع الـسكان الأصـحاء كـانوا ‌في الحقول.

ونزلت «صوفيا» و «ماري» من العربة. وإلى وراء القرية الصغيرة، كانت الرابية تميل بانحدار خفيف نحو النهر. وقرب الماء كان يتمطى قطيع من الإوز. وعلى الضفة المقابلة، كانت بعض الأبقار ترعى تحت حراسة فتاة ترتدي فستاناً أحمر اللون. كانت أبواب «الإيسبات» «مساكن الفلاحين)، مفتوحة. وبمرور «صوفيا» من باب إلى آخر، كانت تشاهد، بمجرد إلقائها نظرة، المشهد الداخلي نفسه: الأسود اللون بسبب الدخان والأوساخ، وتشم الرائحة نفسها الناجمة عن الأحذية المهترئة، والزيت الزنخ والملفوف المحمّض، وفي الزوايا الصور المقدّسة نفسها، وعلى السرير الصغير، قرب الموقد، العجوز نفسه وهو يرقد وقد تجمع الذباب على وجهه.

وفي البيت الرابع، كان هنالك جدّة مسنّة، تجلس على اسكملة، وهي تصنع ملعقة خشبية، بواسطة سكينة صغيرة. وعندما لمحت المرأتين، نهضت، بصعوبة رمت السكين والملعقة وقبّلت يد «ماري» ثم يد «صوفيا» وهي تتمتم:

- الله أرسل لنا ملائكته، وليس لدينا خبز ولا ملح، لنحتفل باستقبالهم!

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تزورها فيها «صوفيا». كانت العجوز حدباء، وقد فقدت أسنانها، وإحدى عينيها مغطاة ببقعة بيضاء والأخرى مغمضة قليلاً. كانت تدعى «بيلاجي» ويقال عنها أنها لا تملك كل قواها العقلية. وسألتها «ماري» عن صحتها.

فغمغمت «بيلاجي» متلعثمةً:

- ماشي الحال! ماشي الحال!

وتعالى من الداخل، صوت رجل، يقول، متذمراً:

- لا تصغيا لها، يا سيداتي صاحبات السعادة، فهي مجنونة!

وخرج عبر الغبش الذي يخيم في المنزل، فلاح، مسنّ هو أيضاً، نحيل جداً، لحيته كثيفة وبيضاء.

واستأنف الكلام، قائلاً:

- كيف يمكن أن يمشي الحال، والفقر يتربّع على مائدتنا؟ نحن، بالتأكيد اثنا عشر في المنزل! ولكنّ العدد لا يعطي القوة دائماً، ولا سيما عندما يكون الأبناء سكّيرين، ولا يجيدون القيام بأيّ عمل! وأنا لم أعد أستطيع العمل، بسبب الرجفان الذي أصابني! والعجوز، على شاكلتي، كما ترون! وأبناؤنا يمنّوننا على الخبز الذي نأكله، ويستكثرون ذلك علينا، مع أنه خبز أسود، نبلّله بدموعنا!

فتمتمت «صوفيا» وهي تحاول أن تلفظ الكلمات الروسية بصورة سليمة:

- إذا كنت بحاجة لأيّ شيء، قل لي عنه.

- نحن بحاجة لعطف الرب، يا سيدتي، ولكنّ الربّ لا يعطف إلاّ على أولئك الذين يشعلون الشموع أمام الأيقونات. والشموع غالية الثمن...

فقالت «ماري» باللغة الفرنسية:

- أنها أقلّ غلاءً من الخمر، لا تعطه شيئاً، لأنه سيشتري به خمراً ليشربه!

وتابع الفلاح العجوز الكلام، وهو يرتجف بكلّ أعضائه:

- لو كنت أستطيع إشعال شمعة، يوم الأحد، لكانت ملكة السموات ترى وتنظر في حياتي بمزيد من الضوء والوضوح، والآن، هي تغمز بعينيها، وتقول: «ماذا يحدث في بيت «بورفير» و «بيلاجي»؟ فأنا لا أميّز شيئاً! كل شيء أسود وظلام! «يا آلام المسيح! قدوس! قدوس! قدوس! كل خطايانا تنجم عن بؤسنا وشقائنا!

ووضعت «صوفيا» قطعة نقود على زاوية المنضدة، وخرجت فلحق بها العجوزان وهما يبالغان بشكرها ومباركتها.

وقالت لها «ماري»:

- ما كان عليك أن تفعلي ذلك!

وزارتنا أيضاً ابن «ايفانوف» الذي أصيب بحرق في يده وهو يساعد الحدّاد، إنه أحمق القرية، كثيراً ما يقف، وقد سال لعابه، على عتبة البيت، كما زارتنا أمّاً كان ابنها مريضاً وقد أشرف على الموت بسبب شدة الحمى التي أصابته. وفي كل مرة كانت «صوفيا» ترى فيها طفلاً صغير السن، تشعر بأسف شديد، وبصدمة داخلية تكاد تفقدها صوابها. وقالت للقروية:

- إذا عاودته الحمى، أخبريني، يمكننا عند الحاجة أن نستدعي له طبيباً من «بسكوف».

وعندما سمعت الأم كلمة: «طبيب» خافت ورسمت إشارة الصليب:

- اعفي عنا، يا سيدتي! وليمت الطفل بيد الله، إذا كان لا بد من موته، ولكن ليس بيد أحد الألمان!

وبالنسبة لها، كان جميع الأطباء أجانب، وبالتالي ألماناً.

وسألتها «صوفيا»:

- ومن هو الذي عالج ابنك في الفترة الماضية؟

- «بيلاجي».

- المجنونة؟

- نعم، فهي تعرف الأعشاب النافعة.

وقالت «ماري»:

- دعيهم يتدبّرون أمورهم فيما بينهم، لأنّ لديهم عاداتهم الخاصة بهم...

ومن جديد، شعرت «صوفيا» أنها مذنبه لكونها غنية، متعلمة وتتمتع بصحة جيدة. وتناولت الأم طفلها من الصندوق الذي كان يستعمل

كمهد له، وضمت تلك الرزمة من الخرق الوسخة إلى صدرها. كان وجه الطفل الرضيع، منتفخاً ومحمراً، وعلى ذقنه بقع من الحليب الجافّ. وأخذ يصرخ. فاقتادت «ماري» «صوفيا» إلى خارج البيت.

وعلى مسافة خطوتين من هناك، وفي مربّع تكسوه الحشائش الخضراء، انتصبت كنيسة الأبرشية، بجدرانها البيضاء وقببها الخضراء. وبالقرب من عتبة بيت الكاهن، تجمعت بعض الدجاجات وأخذت تبحث عن غذائها وتنقر ما تجده هناك. وتفرّقت وهي تقوقئ وتصيح غاضبة عندما اقتربت «ماري» منها. وكانت الفتاة لا تأتي إلى «شاتكوفو» دون أن تقوم بزيارة الأبّ «جوزيف» الذي عمدّها. وتبعت «صوفيا» أخت زوجها، ودخلت إلى غرفة تتربع في وسطها مدفأة مكسوة بالخزف الصيني. وكان ضوء النهار الذي يمرّ عبر نافذة ضيقة ينير منضدة يسترها غطاء مطرّز، مقعدين خشبيين ومجموعة من الأيقونات، ينيرها مصباح صغير من الزجاج الأحمر اللون. وكان جو الغرفة مشبعاً برائحةٍ عرفتها «صوفيا» بسرعة: إنها رائحة البخور والعجين الذي اختمر حديثاً. وكانت زوجة الكاهن، تصنع هي بنفسها الخبز الخاص الذي يقدّم أثناء إقامة القدّاس.

وصاحت «ماري»:

- «لوكيريا سيميونوفنا»

وفُتح أحد الأبواب، واندفعت منه «لوكيريا» زوجة الكاهن، بقوة السيل العرم طويلة القامة، متألّقة، حمراء الوجه في الشهر الثامن من حمل واضح. وسيكون هذا هو مولودها التاسع خلال ستة عشر سنة من الزواج. وكان الأب «جوزيف» يقول بتواضع بأنّ الله يبارك زواجهما بيمناه التي لا تتعب.

وبرزت وراء «لوكيريا» رؤوس أطفال، بعضهم شقر الوجوه وبعضهم صُهب، وأخذوا يتدافعون عند الباب لكي يتمكنوا من الرؤية بشكل أفضل.

فصاحت بهم أمهم، بعنف:

- هيا انصرفوا أيها الملاعين!

فهرب الأولاد مسرعين، وهم يتصايحون. وفي الحال، تابعت «لوكيريا سيميونوفنا» الكلام، بعد أن استبدلت تكشيرة الغضب بابتسامة مضيافة، قائلة:

- يا للسعادة هيا اجلسا وأرجو المعذرة، بسبب هذا المنزل المتواضع! الكراسي فيه قاسية، ولكن القلوب فيه رقيقة وحنونةّ والأب «جوزيف» لن يتأخر بالحضور. فهو يؤدّي الصلاة.. أو أنه مستغرق في غفوة قصيرة... وهذه وتلك ضروريتان للمسيحي!

فجلست «صوفيا» و «ماري» قرب المائدة. وأحضر خادم الكنيسة «السماور» المعهود، والدخان يتصاعد منه، وطلب مفتاح خزانة الأطعمة ليأتي بالحلوى. فأعطته «لوكيريا» إياه، على مضض، وظلت قلقة إلى أن عاد. وعندما عاد، كان يحمل وعاءً زجاجياً، ضمه إلى صدره الهزيل. وخلفه، مشى الأب «جوزيف» شخصياً. كان أطول من زوجته، ويبدو هو أيضاً في وضعية الحمل المتقدم، لأن بطنه كان إلى تلك الدرجة بارزاً تحت ثوبه الكهنوتي. وكانت لحية برشاء اللون، لها شكل الرفش تحيط بوجهه. وبعد أن بارك الزائرتين، جلس بينهما ليتناول الشاي. ومنذ الجرعات الأولى، أخذ العرق يتصبب من جبينه.

وقال، متنهداً:

- ليبارككما الله، كلتيكما، على ما تقومان به من أعمال الخير لهذه القرية المتواضعة. وأنا متأكد أنّ كل يوم، هنالك أحد ما في «شاتكوفو» يذكر كما ويتحدث عنكما في صلاته. وأهل هذه القرية، في مجموعهم، لا يصلحون لشيء إجمالاً، فجميعهم: لصوص، سكّيرون، كذّابون، حلاّفون وزناة! ولكن، ما العمل؟ فالربّ أرادهم هكذا!

فقالت «صوفيا»

- إني أودّ أن أساعدهم.

فسألها الأب «جوزيف».

- وما هي جدوى ذلك؟ الويل لمن يريد تغيير مجرى الأمور وليس لديه الوسائل اللازمة لكي يستمر حتى النهاية، ويحقق الهدف المنشود والمساعدة التي تمنحينها اليوم للمحتاج، غداً سيطالبك بها كدين مستحق له، عليك أن تؤدّيه له، وبعد غدٍ إذا لم تعطه المزيد، سيتّهمك بأنك سيئة وشريرة!

لا تنبهي عطشاً لا تستطيعين إرواءه! ولا تجذبي نحو النور من اعتاد على الظلام! ولا تُصلحي عمل الله، إلا إذا أمرك الله أن تفعلي ذلك!

فقالت «صوفيا»:

- ينبغي إذن، حسب رأيك، أن يترك المرضى في مرضهم، والجهلة في جهلهم والفقراء في فقرهم، والسكيرون في سكرهم؟...

فتابع الأب «جوزيف»:

- ... والأغنياء في ثرائهم، والقديسون في قدسيتهم. والسعادة الحقيقية، ليس الآخرون هم الذين يمنحوننا إياها ولكن، نحن الذين نجدها في أعماق نفوسنا. وليس هنالك هدية محببة في نظر الله، سوى تلك التي لا يمكن أن تقاس «بالأركين»[1] ولا أن توزن بالكيلو، ولا أن تقدّر قيمتها بالروبلات. امنحي عواطفك بكثرة يا ابنتي، وأكثري من الصلوات، ولكن لا تجازفي بالتورّط، دون تبصّر، في مشاريع إحسان ليس لها أي علاقة بالدين... وسعل سعالاً خفيفاً ومصطنعاً،

١- الأركين: مقياس روسي = ٧١ سم.

لأنه دون شك كان قد تذكّر أن «صوفيا» كاثوليكية المذهب، وأفرغ محتوى ملعقة من الحلوى في الثقب الكائن في لحيته، وأضاف:

- أن يكون المرء مسيحياً أرثوذكسياً فهذا يعتبر بحدّ ذاته عزاءً كبيراً! وأتعس فلاح في «شاتكوفو» لا بد أنّه يبتهج لكونه مع قليل من سوء الحظ، كان يمكن أن يولد وثنياً!

- فسألته «صوفيا»:

- وهل قلت لهم ذلك؟

- نعم، وأردّده، كل يوم أحد، بعد القدّاس.

- ويصدّقونك؟

- فتمتمت «لوكيريا سيميونوفنا» التي كانت توجّه لزوجها نظرات تنمّ عن المحبة:

- وكيف لا يصدّقونه؟ فصوته جميل جداً!

- وفي تلك اللحظة، لاحظت «صوفيا» أنّ هنالك فلاحاً شاباً، في الخامسة عشر أو السادسة عشر من العمر، كان قد دخل بهدوء إلى الغرفة ووقف مستنداً على الجدار. كان شعره بلون القش، مقصوصاً بشكل دائري، وقد خفض جبهته وبدا عنيداً، قصير الأنف، قوي الفك، عيناه زرقاوان، بل بنفسجيتان، تقريباً، يغطي كتفيه النحيلين قميص ممزّق. فقطب الأب «جوزيف» حاجبيه، وقال مزمجراً:

- مرة أخرى؟! ماذا تريد مني يا «نيكيتا»؟ لقد قلت لك إنّ ليس لديّ وقت من أجل ذلك!

- فتمتم الفتى:

- ربما، غداً؟

- لا غداً ولا بعد غد، لديّ من الأعمال أكثر مما ينبغي في خدمة خمس قرى. فهل أعلّم أولادي القراءة؟ كلاّ، أليس كذلك؟ فلماذا إذن أعلمك أنت إياها؟!

- فسألته «صوفيا»:

- أيريد أن يتعلم القراءة؟

- فهزّ الأب «جوزيف» منكبيه العريضين، ولمع الصليب الذي يضعه على صدره، وقد مسه شعاع من أشعة الشمس، وقال:

- نعم، إنها فكرة استحوذت عليه، ولم يعد يتخلّى عنها! ولكن، ماذا ستفيده، وهو في هذه الحال؟ فالفلاح العبد، «الموجيك» وأحرف الهجاء لم يخلقا ليعيشا سوية!

- وقال الفتى:

- ألا أستطيع، على الأقل، أن تعيرني كتاباً، يا أب «جوزيف»؟ وسأنقل الحروف على ورقة، وأبحث عمن يشرحها لي...

- ومن سيشرحها لك؟

- «بيلاجي».

- إنها لا تعرف عنها أكثر مما تعرف أنت!

- بلى، إنها تعرف كل الحروف الكبيرة!

- فقالت «صوفيا»:

- بلى، إنّ الأب «جوزيف» سيعيرك كتاباً. وعندما تحفظ أحرف الهجاء، عليك أن تأتي لتراني، وسأرشدك كيف يجب أن تعمل وتتعلم...

- فاحمرّ وجه الفتى وانحنى أمام «صوفيا» وقبّل طرف فستانها وهو يزحف على ركبتيه، ووضع شفتيه على يد الأب «جوزيف»، القوية، وقال:

- شكراً لك، يا من تحسنين إليّ، شكراً لك يا من تحسن إليّ!

لم يكن الكاهن يتوقع هذا التحول في الوضع، فانتفخت أوداجه كما لو أنه يكاد يختنق من الإفراط في الطعام، وقال أخيراً:

- أعطه، يا «لوكيريا» كتاب تاريخ الشهداء والقدّيسين. فربما استطاع الاستعانة بقدّيسينا السلاف الأقدمين لتجنب أحابيل الشيطان!

وبينما كان يتكلم، توقفت نظراته، لجزء من الثانية، على «صوفيا» وتوهّجت منها نار حامية، ثم انطفأت.

وسألتها زوجة الكاهن، وهي تبتسم:

- فنجان آخر من الشاي، يا سيدتي؟

★★★

و «ميشيل بوريسوّفيتش»، الذي شعر بالانتعاش وبالنشاط، بعد القيلولة، خرج من مكتبه في حالة نفسية جيدة، وعند عبوره الصالون، لاحظ وجود باقة كبيرة من أزهار الحقول، موضوعة في إحدى المزهريات. ولم ير حاجة للسؤال عن الذي جمع هذه الأزهار، ووضعها هناك بطريقة تنم عن ذوق رفيع المستوى! فمنذ أن أتت «صوفيا» إلى «كشتنوفكا» أصبح المنزل مزداناً، على الدوام، بالزهور. وفي الخارج، لم تكن السماء والأرض سوى توهج ساكن. فلحق «ميشيل بوريسوّفيتش» ابنه إلى تحت العرّيشة، ألقى نظرة على الكتاب الذي يقرؤه وغمغم:

- «روح القوانين»! يا لها من فكرة غريبة! التكلم عن القوانين يعني البحث عن ذريعة لعدم الانصياع لها. وقد دمّر الفرنسيون عظمة بلادهم بانكبابهم بحماسة على تحليلها. وآمل ألاّ تؤمن وتهتم كثيراً بالترّهات والأباطيل الليبرالية التي بدأ الناس يناقشونها في بلادنا!

فقال «نيقولا» بتعقّل:

- أعتقد أنّ التطور ضروري.

- وأيّ تطور؟ الحرية، المساواة، على الطريقة الفرنسية؟

- ليس كذلك تماماً، ولكن...

- ليس هنالك ولكن! فروسيا تقف على قواعد وأسس عريقة وقديمة. وهي مثال يحتذى بالقوة والنظام والدين، بالنسبة للبلدان الأخرى، وإذا كان هنالك شيء يجب أن يتغير، فعلى القيصر أن يقرّر ذلك!

- يمكن أن يُنصح بأن يقرر تغيير ما ينبغي تغييره.

فصاح «ميشيل بوريسّوفيتش» وهو يضحك:

- ومن الذي سينصحه؟ أنت؟ أصدقاؤك؟

فقال «نيقولا»:

- ربما.

- آه! يا لك من طفل! أين «صوفيا»؟

- لقد ذهبت، هي و «ماري» إلى «شتكوفو».

- أولم تر أنه من المناسب أن ترافقهما؟

- فأخفى «نيقولا» تثاؤبه خلف يده، وقال:

- الجو حار جداً، و «شتكوفو» موحشة...

- وتبادر إلى ذهن «ميشيل بوريسّوفيتش» أن جيل الشباب تنقصه الحماسة. وأنه لو كان محل ابنه للحق «صوفيا» ورافقها طوال ساعات وساعات للاستمتاع بما تبديه من دهشة وابتسامات وبما تطرحه من أسئلة باللغة الروسية المشوبة باللكنة الفرنسية وفجأة، بكّل أزرار صدّارته، استدار واتجه نحو جناح الخدم. وذعر السائس عندما سمع سيده يأمره بأن يسرج «بوشوك». فمنذ ثماني سنوات، لم يمتط «ميشيل بوريسّوفيتش» صهوة جواد! ألن يعود منهكاً، بعد هذا الشوط الذي سيقوم به؟

- وقال الرجل وهو يمسك بمقود الحصان:

- لا ينبغي أن تذهب إلى مكان بعيد، يا سيدي.

فقال «ميشيل بوريسوّفيتش»:

- إلى «شتكوفو» والعودة منها، وما هي إلا نزهة بسيطة!

وامتطى الحصان بتثاقل، وانطلق في المشى. وعند مروره عند درج المدخل، لمح السيد «لوسور» الذي بسط ذراعيه مندهشاً. وكان ذعر هذا الفرنسي يمكن أن يضحك ويسرّ من يراه. ودفع «ميشيل بوريسوّفيتش» الحصان إلى السير بسرعة. لم يكن مرتاحاً في وضعيته على السرج، وأخذ يشد كل عضلاته لكي يستقيم في جلسته. وعندما وصل إلى الطريق العام، كان سروره قد امتدّ حتى بلغ حدود الأفق. وقد ألهبت الشمس وجهه وشعر بأنه قد استعاد النشوة الجذابة والآسرة لشبابه عندما كان في العشرين من العمر. ليس هنالك عرق مريض في كل جسمه، كانت قوته وشهيته سليمتين. وفي الحقول، كان الفلاحون يعرفونه وينحنون كثيراً لتحيته. وبدا من بعيد بصيص من الضوء ثم خبا. وبدت السماء وقد اكمدّت زرقتها، كأنما قد غشيها دخان كثيف. ودوى قصف شديد عن بعد، كأنه في آخر الدنيا. وهبّت الريح وأثارت الغبار، وجعلت الحشائش وبذور الأشواك تتطاير في الجو. ثم انفجرت العاصفة، وهدأ الرعد، واخترق شعاع من الشمس، الغيوم بعنف شديد. ولمح «ميشيل بوريسوّفيتش» وعيناه ترفّان عربة قادمة نحوه. وفي الحال، أصلح وضعية عنان حصانه، وجلسته على سرجه، وعندما اقترب من العربة صاحت «ماري»:

- آه! أبي! يا إلهي، كيف أتيت إلى هنا؟

وقد غمره بالراحة والحبور اضطراب ابنته وأسئلتها التي تنمّ عن القلق الشديد. أمّا «صوفيا» فإنها لم تبدُ مندهشة بالقدر الذي كان يأمله، فلا شك أنها كانت تجهل أنه لم يمتط ظهر حصان منذ زمن طويل. وكان سائق العربة يشدّ الأعنّة ويصيح بالأحصنة، بأعلى صوته: «ترّ..ترّ!». وأدار

«ميشيل بوريسّوفيتش» حصانه واصطف من جهة «صوفيا»، بأناقة الفارس الذي يلتقي ببعض السيدات في إحدى النزهات.

وقال وهو يحاول التحكّم بتنفّسه:

- ماذا عن هذه الزيارة إلى «شتكوفو»؟ هل كانت مريحة ومرّت بسلام؟

فقالت «ماري»:

- رائعة، وبشكل عجيب، ومرة أخرى، فقد استمالت «صوفيا» جميع القلوب.

فسألها:

- وبمن التقيتما هناك؟

وفي هذه المرة أيضاً، «ماري» هي التي أجابت. أما «صوفيا» فقد كانت أكثر استغراقاً في أفكارها، من أن تردّ أو أن يكون لديها رغبة في الكلام. كانت رؤيتها لعمّها على ظهر حصانه أحمر الوجه مشعّث العارضين، منتفخ الأوداج، صعبة بالنسبة لها. وكانت تنظر إلى حذائه، إلى خيزرانته، إلى السلسلة الذهبية المتدلية على بطنه، وتفكّر، وقد استبدّ بها الرعب، بكل الفلاحين العبيد الذين يسكنون في القرى التي يملكها. ويقال أنّ عددها يربو على الألفين. ألفا إنسان يخضعون بأجسامهم وبنفوسهم وأرواحهم لإرادة إنسان واحد. فهذا شيء يشبه قطيعاً من الماشية لها رؤوس بشرية، لمامة من الحيوانات التي لها صفات البهائم والأدوات في آن معاً. وسيدها يستطيع أن يعاقبها أو أن يزوجها على هواه وكما يحلو له، وأن يأمر بجلدها، أن يبيعها، أو أن ينفيها إلى «سيبيريا». وليس ذلك «الوكيل» البائس، الذي ينتخبه الفلاحون العبيد «الموجيك» لكي يمثلهم لدى سيدهم، هو الذي يمكن أن يجرؤ على الدفاع عن قضيتهم! وكانت «صوفيا» تريد تماماً أن تعتقد أنّ «ميشيل بوريسّوفيتش» لا يسيئ استعمال

سلطته وقدرته الكلية، ولكنّ كونه يملك حق الحياة والموت على مثل هذا العدد الكبير من نظرائه، كان يثيرها. وبشكل مفاجيء أخذت تعتبره مسؤولاً عن تلك الحالة الراهنة كما لو أنّ الغاء العبودية والرق في روسيا متعلق به وحده. كانت العربة تسير بهدوء، و «ميشيل بوريسوّفيتش»، على صهوة جواده، يسير معها، بجانب كنّته.

وقال:

- «شتكوفو» ليست أجمل قراي، سأصطحبكما، ذات يوم، إلى «تشيرنيا كوفو». وهناك، ستريان موقعاً رائعاً، يدعو حقّاً إلى الإعجاب...

فقالت «صوفيا»:

- وسنرى هناك عبيداً، كما في كل مكان آخر!

فنظر «ميشيل بوريسوّفيتش» بدهشة إلى كنّته، وقال:

- كما في كل مكان آخر، نعم!

- وكم نفساً، هناك؟

وألقت هذا السؤال بلهجة ساخرة، تتّسم بالبرود.

فضحك، دون أن يبدو عليه أي انزعاج، وقال:

- ثلاثمائة وخمسون على وجه التقريب.

- وهل هم سعداء مثل أولئك الذين يقيمون في «شتكوفو»؟

- فقال «ميشيل بوريسوّفيتش»:

- أفترض ذلك. ولكن لا أنت ولا أنا يمكننا أن نتبيّن سعادتهم، حتى ولو راقبنا طريقة معيشتهم وحياتهم عن كثب. لأنّ مفهوم السعادة لديهم يختلف عن مفهومها لدينا. كان يتحدث باللغة الروسية، وهذا ما سبب انزعاجاً لصوفيا، بسبب وجود الحوذي الذي كان يسمع الحديث، فلفتت نظر عمها إلى ذلك، مشيرة بإصبعها إلى الحوذي، فنظر «ميشيل بوريسوّفيتش» إليه بخبث، وتابع حديثه باللغة الفرنسية:

- لا تشغلي بالك به! إنه أقل فهماً من أحصنته! ونحن ما كنا نستطيع العيش، لو أننا ينبغي علينا أن نقلق من رأي هؤلاء الناس بنا، وممّا يقولونه عنا! وفضلاً عن ذلك، فهم ليسوا في حالة يرثى لها إلى تلك الدرجة! فهم وإن كانوا قد حرموا من الحرية، فإنهم بالمقابل، مرتاحون وغير مسؤولين عن الأمور المادّية: فإذا كان المحصول سيئاً، وحلّ القحط والمجاعة في المنطقة، فإنّ هذا لا يهمّهم كثيراً: لأنهم يعرفون أنّ سيدهم لن يتركهم يعانون الارتباك والضيق، فهو مدين لهم بالغذاء والغطاء، بالسكن وبالحماية...

- وإذا لم يشأ أن يساعدهم ويغيثهم، وهم في هذه المحنة؟

- فهو يتصرف في هذه الحالة، ضد مصلحته الخاصة: إذ إنّ الأرض بحاجة لرجال أصحّاء وأقوياء يعملون فيها من أجل استثمارها.

- وإذا كان قد حلّ به الإفلاس؟

- عند ذلك، فهو يبيع عبيده إلى ملاّك آخر يتولى العناية بهم.

- إنك تصف لي جنة الفردوس!

- إني أصف لك روسيا. فهي بلاد شاسعة، فيها مكان للغني ومكان للفقير، مكان للمريض ومكان للمعافى، مكان للساذج البسيط ومكان للفيلسوف. وغالباً، عندما يعتق أحد العبيد، لا يدري ماذا يعمل بحريته ولا كيف يتمتع بها. إنها تخيفه. وكثيراً ما يتمنى العودة إلى تحت جناح سيده الذي يحميه... وعبارة «جناح سيده الذي يحميه» هذه، أدهشت «صوفيا» كثيراً لدرجة أنها قهقهت ضاحكة. فالتفتت «ماري» نحوها، بنظرة مثقلة بالرجاء. واستاء «ميشيل بوريسّوفيتش» وشدّ عنان حصانه الذي ابتعد قليلاً وتعثرت إحدى قوائمه، فتشبّث الخيال بصعوبة بقربوس السرج.

واكفهرّت السماء وأخذ الجو يظلم مع انتشار الأبخرة وضباب العاصفة. وكانت الغيوم الكثيفة تنزلق وتهبط حتى مستوى سطح الأرض،

تقريباً، . وكان تباطؤها يهدد بانفجار العاصفة، وعلى جوانبها تدلت قطع سوداء. وعاد الرعد يدوي بشدة من جديد، والبرق بلونه الأبيض كان يبهر الأبصار، ويلهب الأفق. وانتشرت رائحة الغبار الساخن، في الجو، وأخذت آذان الأحصنة ترتعش. وسقطت بعض القطرات الدافئة على يدي «صوفيا». وأوقف الحوذي أحصنته، قفز عن مقعده، وشد غطاء العربة.

وقالت «ماري»:

- عليك أن تصعد وتركب معنا، يا أبي.

فقال لها:

- كلا، كلا! فها نحن قد وصلنا تقريباً!

وليس هناك شك بأنه كان يعتبر عودته في العربة مع السيدتين، بعد أن ذهب على صهوة الجواد، فشلاً كبيراً بالنسبة له. واستأنفوا السير. وكان المطر يهمي خفيفاً، وكثيفاً. وفجأة، دوّت في السماء فرقعة رهيبة، وانهمر المطر غزيراً كالسيل. فشدّت «ماري» نفسها إلى كتف زوجة أخيها. بينما كانت مئات الأصابع تقرع الغطاء الجلدي فوق رأسيهما. وكان هناك ستار سائل يفصلهما عن العالم. وتكوّر الحوذي على نفسه، ولم يعد سوى حزمة من القماش معرّضة للعاصفة. أمّا «ميشيل بوريسوّفيتش»، فلم يكن يحني ظهره. كان يجلس منتصباً على سرج حصانه، معرضاً نفسه للمطر بكل صلابة ورباطة جأش، وقد أمسكت يداه بأعنة الحصان التي كانت تلمع كالأشنّة وطحالب المياه، وقد التصقت سترته المبللة بمنكبيه، كما التصق سرواله بفخذيه النحيلين وبركبتيه. ومن قبعته المستديرة التي نزلت حتى أذنيه، كان الماء يسيل، كأنه يسيل من مزراب على أنفه الكبير وعلى عارضيه المشعّثين. وعندما ينفخ، كانت قطرات فضيّة تتطاير من شاربه المبلّل. ولاحظت «صوفيا» أنه بدا لها كرجل تقدمت به السنّ وأنهكه التعب، فشعرت بالشفقة عليه. أما «ماري» فقد قالت له مرة أخرى:

- أبي، أتوسل إليك أن تأتي معنا!... فهذا غير معقول!...

فأجابها سلباً، بإيماءة من رأسه، أبداها بقوة. كانت الطريق قد تحوّلت إلى مستنقع من الوحول. وفي الأخاديد تجري المياه كما تجري في الجداول والسواقي. وأخيراً بدا للعربة الممشى الذي تحيط به أشجار الصنوبر. وعلى درج المدخل، كان يقف «نيقولا»، السيد «لوسور» وبعض الخدم... وعندما ترجّل «ميشيل بوريسوّفيتش» التوت ركبته، وكاد يسقط، فاستند على كتف «فسّليسيّا». كان يضحك بينما كانت أسنانه تصطكّ. كان الجميع مهتمين به، يتزاحمون حوله. وأخذ «نيقولا» يلومه على العمل الطائش الذي قام به بينما أخذت «صوفيا» و «ماري» تتوسّلان إليه أن يذهب ويغيّر ملابسه ويجفّف جسمه. واقتادته «فسّيليسا» من يده نحو غرفته وانصاع لها، وقد بدا عليه التعب والاستياء، وهو يلهث ويبلّل الأرضية الخشبية عند مروره فوقها. كانت «ماري» جالسة بين «صوفيا» و «نيقولا» تنتظر بفارغ الصبر أن يبدو والدها من جديد. وقالت:

- منذ أن أصابته تلك النزلة الصدرية، أصبحت قصباته الرئوية هشة وضعيفة، ولذلك فإني قلقة عليه!

وسألتها «صوفيا»:

- هل من عادته أن يتفقد الأملاك، ممتطياً أحد الأحصنة؟

فأجابها «نيقولا»:

- أبداً، وعلى الإطلاق، فمنذ سنوات عديدة لم يضع رجله في أي ركاب! ولا أدري ما الذي دفعه ليفعل ذلك، اليوم! إنها نزوة جنونية!

- فدهشت «صوفيا». كانت غرابة تصرفات وأطوار «ميشيل بوريسوّفيتش» لا يمكن أن تفسّر إلا أنها ناجمة عن رغبته بإدهاش الناس المحيطين به ونيل إعجابهم، فهو عبارة عن طفل تقدمت به السنّ مزهو بنفسه ولديه الكثير من النزوات! و «نيقولا» الذي ينتقده، ورث عنه بعض

هـذه الـصفات. وأشـركت الاثنين، بـشعور مـن الـسخرية الحانيـة. وبعـد أن قيّمت عملها وحكمت عليـه بقسوة، دهشت مـن كونهـا أخذت تقلق على صحته. وحقيقـة الأمـر هـو أنـه كـان لديـه القـدرة المزدوجـة، علـى اغاظتهـا، وعلى نيل إعجابها في آن واحد. وكلما زادت في إدانته كانت تزداد تعلقاً به. وتناولت عن المنضدة بعض الـصحف التي تتحدث عـن الأزيـاء، كانـت أمهـا أرسلتها لها من «باريس»، وأخذت تتصفحها بصورة آلية. فمرّت بعض الـصور الجميلة أمام ناظريها: «قبعة اسـكتلندية من القماش الرقيق مزينة بالأشـرطة الملونـة وبـالورود. فـستان جميـل مـن «التـول» القمـاش الـشفّاف المثنـى علـى الصدر...، وغير ذلك كثير، فابتسمت بأسـى، وقـد تبـادر إلى ذهنهـا: «حقّاً، لدينا هناك، في بلادنـا، ذوق رائـع في مثـل هـذه الأشـياء»! وكـان هـذا جانبـاً قليل الـشأن مـن العبقريـة الفرنـسية الـذي تذكرتـه عنـد ذلـك، ولكـن كـل ما كـان يـذكّرها ببلادهـا يتمتـع بالقـدرة علـى جعلـها تنفعـل وتتـأثر كـثيراً. وكم كانت تبـدو لهـا فرنـسا بعيـدة، هـشّة، عزيـزة وغاليـة القيمـة والـثمن، عنـد عودتهـا مـن نزهتهـا في «شـتكوفو»! وأسـفت لأنهـا لا تـستطيع أن تجـد حرارة الوطن في الرسائل التي يرسلها لها والداها. فهما يتحدثان لها فيها عن عالم سطحي هـو عالمهمـا الخـاص، الـذي لم تكـن تـشعر أبـداً أنهـا مرتاحـة فيه. ومع أنها تتـألم لكونهـا بعيـدة عنهمـا، فقـد كانـت تـردّ علـى رسـائلهما بدافع العادة أكثر ممـا يكـون بـدافع حاجتهـا لأن تبـث أشـجانها لشخـصين عزيزين. وكانـت ملامحهمـا قـد أخـذت تتلاشـى وتمحـي، بالنـسبة لهـا، عـبر ضباب الـذكريات. كانـت تحبّهمـا قلـيلاً، كمـا لـو أنهمـا قـد توفّيـا، ومحبتـهـا لهمـا كانـت تتـسم بـالحزن، بالعذوبـة، بالـسكينة وبالـصفاء.

وعزمـت علـى الـصعود إلى غرفتهـا لكـي تكتـب بعـض الرسـائل، ولكنها سمعت وقـع أقـدام، وبـدا «ميشيل بوريسوّفيتش» تتبعـه «فسّيليسـا». كـان قـد ارتـدى ملابـس لونهـا أخـضر وعقـد حـول عنقـه ربطـة عنـق بيـضاء

اللون. كانت ملامحه مشدودة، متوترة، ومع ذلك، فإنه كان يرفض الاعتراف بأنه متعب.

وقال:

- هذه النزهة فتحت لي شهيتي، إني أشعر بجوع شديد!

ففكرت «صوفيا» أنّ عليها أن ترجئ كتابة الرسائل إلى وقت آخر.

٤

سمع «نيقولا» وقع حوافر حصان، فخرج، ووقف على درج المدخل. كان الخادم المكلّف بأخذ البريد مرتين في الأسبوع إلى «بسكوف» قد عاد من هناك، بحذائه الملوث بالوحل، وبحقيبته الصغيرة المعلقة على كتفه.

وسأله «نيقولا»:

- لا شيء في البريد؟

- فقال الرجل، وهو يقفز عن ظهر الحصان:

- بلى، يا سيدي!

وفتح الحقيبة الجلدية الصغيرة، وتناول منها رسالة وعلبة صغيرة. وكان العنوانان بخط «كوستيا لادوميروف». فصعد «نيقولا» إلى غرفته لكي لا يزعجه أحد. كانت العلبة الصغيرة تحتوي ثلاثة خواتم فضّية نقشت على كل منها صورة مشعل. والرسالة تقول:

«عزيزي زهرة شقائق النعمان» «هذا هو اللقب الذي أطلقناه عليك، هنا»، أرسل لك ثلاثة خواتم، أحدها لك، والاثنان الآخران، لمن تريد من أصدقائك في الريف. وهذه الخواتم باركها كاهن من معارفنا، وأصبحت بالواقع كالذخيرة المقدّسة، لذلك، عليك ألا تعطيها إلا إلى أشخاص مؤمنين جداً.»

فابتسم «نيقولا»: كانت معظم الرسائل تفتح في معظم دوائر البريد. والقصد من هذه العبارات الدينية هو تبديد شكوك المراقبين. وتابع «كوستيا» في رسالته:

«إذا أردت الحصول على خواتم أخرى باركها رجل الدين الجزيل القداسة، أخبرني. ونحن، هنا في «بطرسبورغ» نأسف كثيراً لرحيلك، وحلقة رفاقنا تتوسع باستمرار، وعما قريب سيصبح منزلي لا يتّسع لهم. وعند ذلك، سنجتمع في الشارع...»

ومن جملة إلى أخرى، كان «نيقولا» يتفهّم بشكل أفضل المعاني التي تختفي وراء كلمات الرسالة. ورفاقه لم ينسوه وحسب، بل إنهم يعتمدون عليه أيضاً في نشر العقائد والمبادئ التحرّرية في الريف. فيا له من دليل على الثقة، هذا الذي يتلقّاه الآن، وكم هو في عجلة من أمره لكي يبرهن على أنه جدير بهذه الثقة! كان والده قد كلّفه بإدارة شؤون الأملاك، وبالإشراف عليها: جولات في القرى، أحاديث مع الوكلاء، إمساك السجلات، تأمين المراسلات، وهذه الأعمال كانت تأخذ من وقته أربع ساعات في اليوم. وبقية الوقت كان يستغله للتجول في المنطقة، مستقصياً الأخبار، ومشيداً علاقات جديدة ومثبّتاً العلاقات القديمة. وفي بداية الأمر، لم يكن يجد كثيراً من الناس في المناطق المجاورة جديرين بأن يفهموا عليه، ومع ذلك، فإنه لم ييأس من إثارة بعض الاهتمامات السياسية. ووضع خاتماً في إصبعه وتأمله طويلاً. ودون أن ينكر ما في هذا النوع من العلامات من جانب صبياني، فقد كان يعتبرها رمزاً لقضية نبيلة، لدرجة أن التأثر الشديد كان ينتابه. ونادى «صوفيا». لأنه كلما شعر بالسرور، كان ينبغي أن تنال حصتها منه. وأعجبت بالخواتم بكل سرور، وقالت:

- إنها ساحرة!

فانزعج قليلاً من هذا التعليق، ولكنها، بالمقابل، اهتمت كثيراً برسالة «كوستيا» بعد أن قرأتها، والتفتت نحو زوجها، بوجه مشرق، وقالت له:

- أنت ترى أنّ لديك كثيراً من العمل، عليك أن تقوم به، حتى ولو كنت بعيداً عن «بطرسبورغ»!

فساورته بعض الشكوك: هل كانت تخشى إلى هذه الدرجة، أن يشعر بالملل أثناء إقامته في الريف؟

ولكنها كانت قد استأنفت الحديث بحماسة ظاهرة.

- هل لديك فكرة عن بعض الناس الذين يمكن أن يتبنّوا أفكارك، من المقيمين في «بسكوف»؟

فقال:

- كلا، سأذهب إلى النادي، بعد ظهر هذا اليوم لأستطلع الوضع. ربما كان «بشماكوف» هذا؟

- ومن هو، «بشماكوف» هذا؟

- إنه ضابط متقاعد، معروف بمبارزاته، وخسائره في القمار، وبثروته الضخمة. وبأنه يهتم، من حيث المبدأ بكل ما هو صعب وخطير.

فتمتمت «صوفيا»:

- ألا يعني هذا أنه مجنون؟

- إلى درجة تكفي لأن تجعله يصغي إليّ!

- إنك تخيفني! أتوسّل إليك أن تكون متروّياً وحكيماً!

- هل كنت كذلك، عندما كنت تتآمرين في «باريس»؟

- إني أمنعك من الاقتداء بي!.

فقهقه ضاحكاً:

- أساساً، أنت المؤيدة لنظام الحكم الجمهوري، تفضّلين أن أكون ملكياً! وبذلك لن أسبب لك كثيراً من القلق؟!

فاحمرّ وجهها بتأثير الغضب، ثم هدأت واستسلمت لقبلاته. فقدّم لها خاتماً. فسألته:

- بأي صفة، وعلى أيّ اعتبار؟

- ألست معنا؟

فقالت له:

- بالفكرة!

- ستكونين معنا بالتصرّف والعمل، عندما يحين وقتهما!

فتنهدت:

- لم نصل بعد إلى ذلك! يبدو لي أنه من العسير جداً تغيير أيّ شيء في روسيا!

- إني آمل أن أثبت لك أنّ الأمر ليس كذلك! وبالطبع يجب ألاّ يرى الوالد هذه الخواتم! لأنه عند ذلك سيطلب منا معلومات عنها!

فقالت له وهي تداعب شعره بمحبة وحنان:

- آه! يا «نيقولا»! كم هو عمرك الآن؟

- وخبّأت الخواتم الثلاثة في أحد أدراج مكتبها.

***

كان للمدينة الممتدة على ضفتي نهري «فيليكايا» و «بسكوفا» سحر تاريخي يعود إلى عهد قديم، بكنائسها ذات القباب المتعدّدة الألوان، وبقصر «الكريملين» وسوره الحصين، الذي يطل على المدينة. ولأنّ السماء كانت قد أمطرت عند الظهر، فقد غطّت الطريق الوحول الكثيفة. وعلى جانبي الشارع الذي كان «نيقولا» يسير فيه اصطفّت منازل ذات طابق واحد، أسطحتها من القرميد وأفاريزها من الخشب. وكان المارة الأحسن لباساً يبدون وكأنهم قادمون من الأقاليم. وبعد أن عاش «نيقولا» فترة من الزمن في العاصمة كان يستحيل عليه أن يتحمل السأم الذي يشعر به المرء في هذه المدينة القديمة التي تغفو هناك.

وكان النادي، على الرغم من اسمه الفخم، مكاناً معتماً ووسخاً، ستائره ممزّقة، كراسيه مغطاة بالجلد المتهرّيء. والذباب يحاصر الركن المخصص لتناول الطعام والشراب. وكان روّاده يجلسون بمجموعات حول المناضد، يلعبون الورق، الشطرنج، يدخنون، ويطالعون الصحف. وبعد أن حيّا «نيقولا» بعض معارفه، أخذ يبحث عن «بشماكوف» ووجده في القاعة الداخلية، وفي يده عصا «البليـاردو» وقد غضّن جفنه، وأخذ يدخل الكرات، الواحدة بعد الأخرى في فتحة «البلياردو» بمهارة شيطانية، وكان خصمه شاباً أسمر اللون، مجعّد الشعر، عيناه إيطاليتان جميلتان، منخراه رقيقان وشفتاه أنثويتان. وحصل لدى «نيقولا» انطباع أنه سبق له أن التقى به فيما مضى، ولكنه لم يستطع أن يلقي أيّ اسم على وجهه.

وصاح «بشماكوف» بأعلى صوته:

- «نيقولا»، يا شمس حياتي! لقد أتيت لتشرب نخب فوزي! فقد ربحت ست جولات متوالية مع هذا الشاب الظريف والشريف! كل جولة بخمسين «روبل» وعليك أنت أن تحسب مبلغ ربحي!

فقال الشاب:

- سأدفع لك المبلغ غداً صباحاً، وهذا وعد شرف!

فقال له «بشماكوف» وهو يدفع آخر كرة إلى فتحة «البلياردو»:

- إني أصدّقك، يا «ديكي» الصغير!

كان يضحك، وبشرة وجهه بلون القرميد، أسنانه بيضاء، وشاربه أسود وخشن كفرشاة للتلميع ألصقت تحت منخريه.

وقال له «نيقولا»:

- هلاّ عرفتنا على بعضنا؟

فصاح «بشماكوف»:

- وكيف؟ أنت لا تعرف غيره! إنه «فاسّيا»، «فاسيّا فولكوف»، من «سلافينكا»!

فتتهد «نيقولا» وهو يضع يديه على عينيه وكأنه يحميهما من نور ساطع:

- آه! يا إلهي!

كانت أملاك آل «فولكوف» مجاورة لأملاك آل «أوزاريف». وآخر مرة ذهب فيها «نيقولا» لزيارة جيرانه في «سلافينكا» كانت سنة ١٨١٢، قبل اندلاع الحرب. وفي تلك الفترة، يمكن أنّ «فاسيا» كان في الثانية عشرة من العمر. فهو إذن الآن في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره.

وقال «بشماكوف»:

- إيه! نعم، يا عزيزي، الزمن يمر ويمضي، حتى أننا لا نلاحظ تقدّمنا في السنّ، لو لم يكن هؤلاء الشباب هنا لكي يذكرونا بذلك!

وقال «فاسّيا» بحماسة:

- أنا أتذكرك جيداً! كنت ترتدي بزّة ضابط حديث العهد بالجندية، عندما أتيت إلى منزلنا!

كان يقف أمام «نيقولا» وعيناه موجهتان نحوه، تشعان إعجاباً به، فشعر «نيقولا» بمتعة تتسم بالزهو، وقال له:

- إيه، كما ترى، لقد خلعت البزة العسكرية، وأتيت للإقامة في الريف، مثل كثير من الآخرين، وأنت، ماذا تعمل؟

- لقد أنهيت للتوّ دراستي في جامعة «غوتّانغ» والآن لا أفكر إلا بقضاء فترة استراحة مع أهلي. وفيما بعد، سأفكر بالعمل، وربما عملت في وزارة العدل، حيث لأمي بعض المعارف فيها...

فقال «بشماكوف»:

- ولماذا لا يكون ذلك؟ فالعمل في وزارة العدل مسلّ: فهناك تقرّر براءة الناس، عن طريق الرهان: «الوجه أم القفا؟»! وبعد أن قهقه ضاحكاً من مزحته، نادى خادم القاعة، وطلب زجاجة ثانية من خمر «الريف» على أن

تسجل قيمتها على حساب «فاسّيا فولكوفّ». وجلسوا على طاولة «البلياردو» لكي يتبادلوا الأنخاب.

وقال «نيقولا»، وهو يفكّر:

- وهكذا، فقد كنت لا تزال في «بروسّية» حتى وقت قريب، ولا بدّ أنك قد اطلعت على الاضطرابات الشديدة التي حدثت في شهر آذار «مارس» الماضي...

- في شهر آذار؟

- نعم، وأنت تدرك ما أعني: قضية «مانّهيم».

وكان يشير بذلك إلى اغتيال الكاتب الألماني «كوتزوبو» الذي كان عميلاً للقيصر، من قبل الطالب «ساند». وهذه الجريمة السياسية أثارت في جميع أنحاء أوربا غضب أنصار أنظمة الحكم المطلق، وبهجة وحماسة الليبراليين، أنصار التحرر والحرية.

فصرّح «فاسّيا»:

- بالفعل، لقد كنت، كما يقال، مطّلعاً على الأمر عن كثب.

- وكيف كان، بهذه المناسبة، رد الفعل في الأوساط الجامعية؟

فأجاب «فاسّيا» دون تردّد:

- كان يعبر عن زهو وفرح عميقين! لأنّ لا أحد بيننا، كان يجهل أنّ «كوتزوبو» كان عميلاً خسيساً وغادراً، وكان لا يفوّت فرصة لمهاجمة الشباب وأغلى معتقداتهم المقدسة: كالوحدة الوطنية، الدستور، حرية واستقلالية الصحافة...

فقال «بشماكوف»:

- وهو باختصار يؤيد المحافظة على نظام الحكم القائم!

فردّ عليه «فاسّيا»، رافعاً رأسه:

- نعم، إذا كانت المحافظة على هذا النظام تقضي بأن تسحق الدولة الفرد!

فاجتاحت «نيقولا» موجة من السعادة، وكان يستطيع أن يعتقد أنه في منزل «كوستيا لادوميروف» في «بطرسبورغ».

وصاح «بشماكوف»:

- ما هذه الحماسة؟ لم أكن أدري أنهم في جامعة «غوتّانغ» يؤهّلون ثوريين!

فقال «فاسّيا» وقد خفّف من لهجته:

- أنا بعيد عن أن أكون ثورياً، وأكره سفك الدماء والفوضى والرعاع. ولكني أجلّ الاستقامة والشرف، و «كوتزوبو» قد أساء لهما عندما باع قلمه.

فقال «بشماكوف»:

- إنه لم يبعه إلى أيّ كان، بل إلى القيصر.

فحوّل «فاسّيا» نظره، وردّ بقوله:

- هذا ليس عذراً!

وودّ «نيقولا» أن يقبّله.

وسأله «بشماكوف»:

- ومن الذي قرّر هذا الاغتيال؟

فأجابه «فاسّيا»:

- جماعة من المتآمرين، وقام خنجر «ساند» بتنفيذ الباقي.

فقطّب «بشماكوف» حاجبيه:

- وأنت معجب به؟

- نعم.

- أكنت تجرؤ أن تفعل ذلك، أنت بنفسك؟

فقال «فاسّيا»:

- كلا، بالتأكيد!

- أتفكر كثيراً قبل أن تتصرّف؟

- بدون شك!

فقال «نيقولا»:

- وأنا مثلك!

فصرّح «بشماكوف» قائلاً:

- أنا لست مثلكما! إني أتصرّف أولاً، وأفكر فيما بعد ولذلك لا أريد أن أتدخل في السياسة، لأني لن أفعل شيئاً سوى ارتكاب الحماقات!

ثم ضحك وأفرغ كأسه. فألقى «نيقولا» نظرة عليه، وقد كوّن عنه هذا الرأي النهائي: «لا يستخدم إلا في حالة الضرورة القصوى» بينما بدا له «فاسّيا» بالمقابل كمنتسب جديد مقبول، ولكنه كان حديث السن، عصبي وعنيف جداً! لذلك يجب مراقبته عن كثب، قبل الاطمئنان إليه. ومع أنّ فارق السن، بينهما لا يزيد عن خمس سنوات، ومع ذلك كان «نيقولا» يشعر بأنه قد اكتسب خبرة كبيرة بالمقارنة مع هذا الفتى الغضّ الإهاب المتخرج حديثاً من الجامعة. ولأنهما كانا لا يزالان يتخاطبان بالصفة الرسمية، صيغة الجمع، فقد اقترح «بشماكوف» عليهما الشرب وتبادل الأنخاب على طريقة: «Bruderschaft»: السواعد متشابكة والعينان في العينين، وبعد إفراغ الكؤوس، يجري تبادل الشتائم. وبعد ذلك يصبحان أخوين، فيتخاطبان بصيغة المفرد وبدون كلفة. وطبّقت تقاليد الاحتفال بكل دقّة.

وصاح «نيقولا» بصوت مدوّي:

- يا لك من أبله حقير!

فتمتم «فاسّيا» وقد احمر خجلاً من جرأته:

- يا لك من خنزير عجوز!

ثم تعانقا، وقال «فاسّيا»:

- إني سعيد جداً، لأني التقيت بك يا «نيقولا».

وعندما فرغت الزجاجة. لاحظ «بشماكوف» أنّ عليه أن ينصرف. كان لديه موعد من يهودية جميلة، كانت تخصه بمؤانستها مرتين في الأسبوع. وعندما بقي «فاسّيا» وحده مع «نيقولا» أخذ يحدّثه عن حياته في الريف، وقال إنه يحب المناظر الطبيعية، والانصراف إلى التأمل. وأمه التي ترملت في سن الشباب، هي التي تدير الأملاك. وتذكّر «نيقولا» أنه كان يوجد كثير من الفتيات في منزلهم عندما قام بزيارتهم، ولذلك سأله:

- كم شقيقة لك؟

فأجابه «فاسّيا»:

- ثلاث: الكبرى، «هيلين» عمرها ستة عشر سنة، الوسطى «ناتالي» لها من العمر أربعة عشر سنة، والصغرى في الثانية عشرة من العمر.

- وليس لك أخ؟

- كلا.

- أنت إذن الرجل الوحيد في القبيلة!

فقال «فاسّيا» ضاحكاً عن أسنان صغيرة وبيضاء:

- إيه نعم!

ورفّت ظلال جفنيه الطويلين على خدّيه.

وسأل «نيقولا»:

- وماذا لديك من عمل الآن؟

فأجابه «نيقولا»:

- لا شيء!

- إذن سأصطحبك معي!

- إلى أين؟

- إلى «سلافينكا». وستسعد أمي برؤيتك. فهي كثيراً ما تشكو بأنّ جيرانها في «كشتنوفكا» يهملونها، وهذا بالطبع لا يمنعها من أن تكون مطلعة على كل ما يجري عندكم. ودون أن نكون قد رأينا زوجتك أبداً، فنحن نعلم أنها تتمتع بجمال نادر المثال، وأنكما تشكلان أسرة متحدة تماماً، وأنه قد حلّت بكما مصيبة كبرى...

فقال له «نيقولا»:

- لا تتحدث عن ذلك، أرجوك!

وفجأة ضعفت رغبته بالذهاب إلى «سلافينكا»: كان يخشى أن يستقبل هناك بالتهنئة وبالتعزية وكليهما ستبدوان غير موفقتين وفي غير وقتهما المناسب، ومن المؤكد أنّ «داريا فيليبوفنا فولكوف» اللطيفة، ستعتقد أنها ستكون مضطرة للتحدّث عن كل ما يتمنى، هو، أن ينساه. كان «فاسّيا» ينظر إليه بإلحاح. فوافق بدافع الضعف، معاهداً نفسه، بألا تدوم زيارته أكثر من ساعة.

وامتطيا جواديهما وسارا متمهّلين. وعندما بدا منزل «سلافينكا» لـ «نيقولا» لاحظ أنّ منظره أكثر قدماً مما هو عليه في ذاكرته: «فهو بناء طويل من الخشب الذي أضفى عليه الزمن لوناً أسود. وقد امتد رواق من الألواح الخشبية حتى درج المدخل. وبدت نوافذه صغيرة وقد طليت درفاتها باللون الأحمر، والأخضر والبرتقالي الفاتح. ومن هذا المنزل الصغير انطلقت ثلاث فتيات، وهنّ يصرخن وغدائرهن تتطاير في الهواء»

- «فاسّيا»! «فاسّيا»!

وعندما لمحن «نيقولا» إلى جانب أخيهنّ، توقّفن، منذهلات. لم تكن أيّ منهن جميلة. كنّ نحيلات وسمراوات، وقد لبسن فساتيناً ملونة بالزهور، وبدا في مظهرهن شيء من الغرابة والوحشية. وقام «فاسّيا» بواجب التعارف. فحيته الفتيات بانحناءة بسيطة، ثم أسرعن بالهرب. وعدن بعد

قليل، يرافقن أمهنّ. كانت «داريا فيليبوفنا» امرأة جميلة في الثامنة والثلاثين من عمرها، طويلة القامة، مهيبة المظهر، متناسقة الوجه، عذبة الابتسامة، عيناها زرقاوان ونجلاوان. واستقبلت «نيقولا» بفرحة كبيرة وكأنه أحد أقاربها المقربين، وقد عاد من رحلة طويلة. وقالت له:

- إنني أتفهم تماماً رغبتكما، أنت وزوجتك، بالبقاء في عزلة عن الناس لبعض الوقت، ولكن لا تنسيا أنّ لديكما هنا أصدقاء مخلصين وجادّين، يسعدهم كثيراً أن يستقبلاكما حالما تشعران بالرغبة بذلك. وكان ابنها وبناتها الثلاث يتأملونها بتقدير وإعجاب. ولا شك أنها كانت بالنسبة لهم مثالاً يحتذى في الرقة والفهم. و «نيقولا» نفسه شعر أنها أسرته بسحرها وفتنتها. ألحّت عليه أن يبقى ليتناول الشاي معها ومع أبنائها. وكانت المائدة جاهزة تحت شجرتي زيزفون تشابكت أغصانهما. وأخذ الدخان يتصاعد من «السماور». وعدة أنواع من «المربى» كانت تجذب النحلات. وعندما سألت «داريا فيليبوفنا» «نيقولا» عن أخبار «بطرسبورغ»، حدّثها عن المسرحيات التي شاهدها وأعجبته، وذكر لها بعض الأخبار التي سمعها في المدينة، وأبدى رأيه بقسوة بحق بعض النّاس المشهورين، وخلال ذلك، كان مندهشاً من السهولة التي كانت تنساب بها كلماته وعباراته، وبدا جوّ هذا المنزل مواتياً له. ومن وقت لآخر، كانت «داريا فيليبوفنا» تضحك ضحكة حلوة، وتغطي عينيها الزرقاوين غشاوة، ولم يكن «نيقولا» يذكر أنها كانت على هذه الدرجة من الجمال! وكيف يمكن الاعتماد على ذكريات فتى والثقة بها؟ وفي المرة الأخيرة التي رآها فيها، كانت بالنسبة له أمّاً لأربعة أولاد، أي أنها شخص ذو مهمات محدّدة، وكان منظر جسدها قليل الأهمية في نظره. وقد اكتشف الآن أنها امرأة أيضاً. وكانت الطيّات السمراء والمكمدّة التي تحيط بجفنيها تضفي مزيداً من السحر والوقار على نظرتها. وتعطي انطباعاً بأنها شديدة التسامح مع

أبنائها، تغمرهم بمزيد من العطف، وتبدو وكأنها تتّصف بسذاجة متأخرة. وقرّر «نيقولا» أنها تتحلى بروح فتاة شابة في جسد امرأة في الثامنة والثلاثين من العمر. «ثم أخذ يشبّهها بوردة متفتّحة أكثر مما ينبغي، تنشر آخر روائحها عند المساء، وقد جعلته هذه الصورة يضطرب، في نهاية الأمر. وكان الجميع، من حوله يضحكون. فهل قال ما يدعو إلى الضحك؟ وفجأة بدا الجدّ على «داريا فيليبوفنا»، وقالت بهدوء:

- عزيزي «نيقولا ميكايلوفيتش» لديّ مشروع أردت أن أتحدث بشأنه مع والدك منذ زمن طويل، ولكني لم أجرؤ على إزعاجه. فهل أستطيع استغلال زيارتك لأحدثك عنه؟

فأجابها بأعلى صوته:

- بالطبع، فأنا كلياً، في خدمتك...

- إنه بشأن «شتكوفو»، فهذه القرية، كما تعلم، تشكّل تداخلاً، ومساحة محصورة بين الأراضي التي تخصّنا. فهل يمكن أن تكونوا مستعدين لبيعها لي؟

فظلّ «نيقولا» حائراً لبعض الوقت: كانت أفكاره بعيدة مئات الأميال عن هذه الاهتمامات والاعتبارات المادّية، وأخيراً، قال:

- إننا نتمسك كثيراً «بشكوفو»، لأن أرضها صالحة لزراعة «الجودر» و «الشيلم».

فقالت «داريا فيليبوفنا»:

- هذا صحيح، بالتأكيد، ولكني أستطيع أن أعطيكم، على سبيل التعويض عن ذلك، مزرعتنا: «بلاغويي»، وهي في معظمها، متداخلة مع أراضيكم، في الجانب الآخر من النهر...

فقال «نيقولا»، مبتسماً:

- وسيكون ذلك، بالفعل، إصلاحاً جيّداً للحدود!

وتنهدت وهي تقول:

- آه، لو تعلم، كم أنا منزعجة من اضطراري إلى التحدث إليك عن ذلك! فالمرأة تجد نفسها في غير مكانها المناسب، عندما تهتم هي بنفسها بشؤون العمل. ولكني مرغمة تماماً على ذلك، لأني وحيدة...

فصاح «فاسّيا»:

- لا تقولي هذا، يا أمّاه!

وكان لكلمة «أمّاه» وقع سيئ على أذن «نيقولا»، لأنه كان يصعب عليه أن يصدّق أنّ هذا الفتى الكبير، بذقنه الضخمة وصوته الجهوري الذي يشبه صوت البوق، مولود من هذه المخلوقة الناعمة والظريفة التي تترأّس المائدة.

- أنا أتفهّم نفسي، يا عزيزي! و «نيقولا ميكايلوفيتش» يتفهّمني أيضاً، وأنا واثقة من ذلك!

فردّ «نيقولا»:

- كلاّ، يا «داريا فيليبوفنا» إني لا أتفهّمك، فأنت لست أبداً في غير مكانك المناسب، كما قلت!...

وبشكل مفاجئ، شعر برغبة قوية لخدمة هذه المرأة التي تستحق الخدمة والمساعدة.

وسألته:

- كم نفساً لديكم في «شتكوفو»؟

فأجابها، وهو ينظر إليها بمودة واحترام:

- مائتان وثلاثة وستون!

- هذا ليس كثيراً.

- لقد أعطيتك رقم الإحصاء الأخير، ولكن بعد ذلك حدثت بعض الولادات. وفي «بلاغويّي» كم هو العدد؟

فقالت له:

- سبعة وسبعون، وحسب، ولكن من هذا العدد، لديك خمسة عشر فلاحاً عمرهم دون الثلاثين، أقوياء وبصحة جيدة تماماً!

- سأحاول إقناع أبي.

- على أي حال، عليك أن تعود لتزورنا بأسرع ما يمكن، يا عزيزي «نيقولا ميكايلوفيتش»، فهذه القضية لا تشكل شيئاً يذكر، وعلاقات حسن الجوار هي كل شيء!

وبدأ الجو يعتم، وقد حان الوقت ليفكّر «نيقولا» بالعودة إلى البيت. واجتمع كل أفراد الأسرة أمام المنزل لتوديعه وأخذوا ينظرون إليه وهو يمتطي صهوة جواده، وينطلق مسرعاً نحو «كشتوفكا».

☆☆☆

كان السيد «لوسور» يسير بخطوات بطيئة في الممشى وفي يده كتاب مفتوح. وعندما وصل «نيقولا» إلى قربه أوقف حصانه، وقال:

- إنك تتنزه حتى وقت متأخر من النهار!

فأجابه السيد «لوسور» بصوت مرتعش:

- لم يعد لديّ عمل في أيّ وقت، يا عزيزي «نيقولا»

ولأنه بدا منزعجاً، فقد أدرك «نيقولا» أنّ «ميشيل بوريسّوفيتش» قد سخر منه مرة أخرى. وسأله:

- أموجود أبي في المنزل؟

فصاح السيد «لوسور»:

-وكيف لا يكون هناك!؟ إنه يلعب الشطرنج مع السيدة «صوفيا»

قال ذلك، ووجّه إلى «نيقولا» نظرة رجاء يطلب فيها منه أن ينصفه: فهو نديم مطرود، ولأنّ «نيقولا» لا يستطيع أن ينصفه ولا حتى أن يرثي لحاله، فقد

أطلق لجواده العنان، وذهب مسرعاً. وعندما دخل إلى الصالون، شعر بأنه قد أزعج شخصين يجلسان على انفراد، مستمتعين بخلوتهما. فرفع والده نظره عن رقعة الشطرنج، وهكذا فعلت أيضاً زوجته ووجّه له كل منهما ابتسامة شاردة. فقال لهما:

- إني قادم من «سلافينكا».

وقد روى لهما الحديث الذي دار بينه وبين «داريا فيليبوفنا» ومع استمراره في رواية ذلك الحديث، كانت أمارات القلق تبدو أكثر وضوحاً على وجه «صوفيا». وعندما تحدّث عن بيع «شتكوفو»، صاحت، بغضب:

- آمل أن تكون قد رفضت ذلك!

- لقد قلت لها أنّ القرار متوقف على إرادة أبي!

وبدرت من «صوفيا» حركة عنيفة، أوقعت قطعة عن رقعة الشطرنج:

- إنّ هذا غريب ولا يصدّق! وهذه المرأة مجنونة!

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- لا تظني ذلك. ففكرتها تبدو لي منطقية. هل أنت متأكد أنها تقبل إعطاءنا «بلاغويّي»؟

فقال «نيقولا»:

- نعم، يا أبي.

- فشدّ «ميشيل بوريسّوفيتش» أحد عارضيه، ثم شدّ الآخر، وهو مستغرق في التفكير والتأمل، ثم تمتم:

- يجب دراسة الموضوع، وتبيّن محاسنه ومساوئه.

فقالت «صوفيا» بأعلى صوتها:

- ولكن، يا أبي، كل شيء معلوم! وليس لك الحق أن تبيع «شتكوفو»! لأنّ ذلك سيكون... سيكون عملاً قبيحاً.

فتقوّس حاجبا «ميشيل بوريسّوفيتش» فوق عينيه اللتين جحظتا من الدهشة، وقال:

- يا لها من كلمة كبيرة وثقيلة! ولماذا، من فضلك، سيكون ذلك عملاً قبيحاً؟!

وفي لمح البصر، تذكّرت «صوفيا» «الإيسبات»[1] وبيوت الفلاحين المتداعية، والفلاحين الأرقاء «الموجيك» في الحقول، والعجوز «بيلاجي» وهي تقف على عتبة الباب، والفتى «نيكيتا» الذي يريد أن يتعلم القراءة، فعصف برأسها دوي الثورة، وسألته:

- منذ متى أنت تملك «شتكوفو»؟

فأجابها «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- أسرتنا تملكها منذ ما يقرب من قرن، على ما أظن.

- وهكذا، فإنّ سكان هذه القرية يكونون إذن أقرب إليك من بعض أفراد أسرتك. وقد اعتادوا، من جيل إلى جيل أن يروا أحد أعضاء أسرة «أوزاروف» يدير شؤونهم ويشرف على مصيرهم. وهم يعتبرونك معلمهم وسيدهم، وآمل أيضاً أن يعتبرونك المحسن إليهم. فهل ستعمد على اقتلاعهم، بشكل مفاجئ، من كيانك؟!

فقال لها «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- إنك تتصورين أوهاماً عن عواطف ومشاعر الفلاحين تجاهي.

- كلاّ، يا أبي، لقد تحدّثت إليهم. وكما ترى، فإني لا أحاول حتى انتقاد إقامة نظام الرق. وأتقبل فكرة بيع «شتكوفو» أو أي قرية أخرى من أملاكك، إذا كنت بحاجة لنقود، أو إذا كنت مهدّداً بالإفلاس. ولكن لا تشوّش حياة مئات الأشخاص لمجرد القيام بعقد صفقة!

١- الإيسبات: البيوت الخشبية الصغيرة

والتقطت أنفاسها، وبعد أن التفتت نحو زوجها، تابعت الكلام بصوت غير مميز النبرات:

- يدهشني، يا «نيقولا»، أنك لم تفكّر بهذا، عندما عرضت عليك مشروعها «داريا فيليبوفنا» هذه!

فقال لها:

- أنت نفسك ما كنت فكرت بهذا، لو كنت تعرفينها! وأنا ما كنت أقبل على الإطلاق أن نبيع فلاحينا إلى ملاّك مهمل أو قاس. ولكنّ «داريا فيليبوفنا» هي الرقة والعناية والعدالة مجسّدة. وسيكون فلاحونا سعداء عندها كما كانوا عندنا، بل ربما أصبحوا أكثر سعادة.

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- إنه محقّ فيما قاله!

وحصل لدى «صوفيا» انطباع بأنها تتحدث إلى طرشان. فصاحت بأعلى صوتها:

- ولكنّ المبدأ، يا «نيقولا»! المبدأ ماذا تفعل به؟ أنت، المشبع بالنظريات الخيّرة والمؤمن بها، كيف توفّق بين احترامك المزعوم لشخصية الإنسان وبين رغبتك ببيع ثلاثمائة كائن بشري، بعد مناقشة ومفاصلة ثمن الذكور، والإناث والأطفال، كل منهم على حدة؟

فتأثر كثيراً بهذه الحجة المقنعة، ولزم الصمت. وكما هي الحال دائماً، كانت هي أقرب منه إلى الحقيقة والواقع. كان منطلقاً في عالم الأفكار، يحلم بتحقيق السعادة لروسيا، وينسى أن يردّ التحية للفلاح الذي يحييه بمزيد من الاحترام. كان هذا عيب لديه. ولكنّ نواياه طيبة، ولم يكن لـ «صوفيا» الحق بأن تشكّ بذلك.

وسألت:

- إيه! بماذا ستردّ على طلب السيدة «فولكوف» يا أبي؟

و «ميشيل بوريسّوفيتش»، وقد أغمض عينيه نصف إغماضة، وأطال فترة التمتع بالحيرة والتردد. كان شعوره بأنه يستطيع على هواه وكما يحلو له، أن يحزن كنّته أو أن يرضيها ويفرحها، يسره ويرضي غروره كثيراً، لاسيما وأنه كان يجدها أكثر جمالاً عندما تنفعل وتتأثر. وأثناء دفاعها عن قضية أولئك الفلاحين البلهاء، كانت تلتهب حماسة، كالعاشقة الولهانة!

وأخيراً صرّح:

- لقد أقنعتني، يا «صوفيا»، لن نبيع «شتكوفو» بما أنك تتمسكين بها...

فقفزت عن كرسيها وشدّت على يديه الاثنتين، وقالت: «شكراً، يا أبي!» وكانت هذه هي المرة الأولى التي تبدي له فيها بعض العطف والمحبة. فدهش من ذلك، ولم يعد يدري ماذا عليه أن يقول. فكيف استطاعت أن تتحوّل، بلمح البصر، من الغضب والعنف إلى الرقة والعذوبة؟ و «نيقولا»، من جهته لم يكن قد استاء من كون «صوفيا» قد ربحت القضية وحصلت على ما تريد. لأنه أساساً، كان مثلها لا يتمنى أن تباع «شتكوفو»، وكل ما هنالك، هو أنه كان يريد أن يرضي «داريا فيليبّوفنا» ولذلك فإنه أخذ يتساءل كيف سيبلغها هذا القرار الذي سيخيب آمالها.

وقال «ميشيل بوريسّوفيتش» لـ «صوفيا»:

- والآن، لنتابع لعبتنا بالشطرنج!

وفي غضون ذلك، دخل السيد «لوسور» شاحب الوجه، بادي الاستياء، وماري تمسك بيده. فقد التقت به في الحديقة، عند حلول الظلام، وقالت:

- السيد «لوسور» يعاني من بعض الآلام!

فقال، معترضاً:

- أبداً، إني لا أشعر بأي ألم، إنها مجرد ارتعاشات تنتابني عندما أستاء من أمر ما، وعليّ أن أعتاد عليها وأن أتحملها!...

فقال له «ميشيل بوريسّوفيتش» وهو يحدجه بنظرة قاسية كضربة العصا:

- وأنا أنصحك أن تفعل ذلك، يا سيد «لوسور».

★★★

٥

الخاتم الثالث كان من نصيب «فاسّيا». فبعدما يقرب من عشرة لقاءات في النادي وفي «سلافينكا»، اقتنع «نيقولا» بأنه يستطيع بكل طمأنينة أن يمنح صديقه الجديد هذا الدليل على الثقة. فحول المسائل الأكثر أهمية كان هذا الشاب يشاطره الرأي. وقد انزعجت «دارا فيليبوفنا» عندما علمت أنّ «ميشيل بوريسّوفيتش» بسبب تعلقه بفلاحي «شتكوف» يرفض بيع هذه القرية، ومع ذلك فقد كانت من الرقّة بحيث أنها قالت لـ «نيقولا»: «طالما أنكم تجدون في هذا المشروع قضية عاطفية، فأنا أنحني أمام قراركم، لأنّ قلبي يؤيدكم، إذا كان عقلي يخالفكم!» وقد أثّرت به هذه الجملة، وكأنها إحدى العبارات التي تتضمن حكمة والتي كثيراً ما كانت ترد في المسرحيات اليونانية القديمة. ولأنه خيب والده «فاسّيا» فيما علّقته عليه من آمال، فقد اعتقد أنه أصبح مديناً لها وأسير فضلها. ولكم كان يودّ أن يجعلها تلتقي بزوجته، وأن تنشأ بينهما علاقة تتبادلان خلالها المودّة والتقدير. ولكنّ «صوفيا» كانت ترفض الخروج من المنزل. والحياة العائلية في «كشتنوفكا» جعلت طباعها تبدو وحشية بعض الشيء، فهي لا تريد الاختلاط بالناس. وكان على «نيقولا» أن يلحّ عليها كثيراً لكي تستقبل «فاسّيا» في المنزل، على الأقل. كانت تعتبره ظريفاً، على الرغم من مظهره الذي يبدو كمظهر الفتاة. أمّا «ماري» التي كانت تعرفه منذ عهد الطفولة، فقد لاطفته من باب المجاملة، ودون اقتناع منها. وقالت بعد ذهابه: «إني أجده على الدوام مملاً ودعيّاً». وظلت باردة

الأعصاب، حيال اعتراضات أخيها التي اتّسمت بالغيظ، فقد صاح بها أنها مخطئة، وأنّ «فاسّيا» يتمتع بذكاء حاد، وبروح خارقة العذوبة، فكانت تبتسم بعناد وهي تنظر بعيداً. وعندما يئس من أقناعها برأيه، طلب من «صوفيا» أن تقنعها به، لأنه كان يريد أن يشعر «فاسّيا» العضو الجديد في «الاتحاد من أجل الفضيلة والحقيقة» أنه في بيته، عندما يعود، مرة أخرى لزيارتهم في «كشتنوفكا». فطمأنته «صوفيا» وأكدت له أنّ مزاج الفتيات متقلّب وكثير التحول. ولكي يعمل «نيقولا» بأمن وهدوء، فقد اتّخذ له مكتباً في إحدى غرف الطابق الأرضي، ونقل إلى هنالك جميع الكتب التي تعالج القضايا السياسية، والتي استطاع أن يعثر عليها في المنزل. وبناء على طلباته المتكررة، كانت «صوفيا» قد كتبت إلى أصدقائها في «باريس» «آل بواتفان» طالبة منهم أن يرسلوا لها بعض الكتب الرائجة آنذاك، دون أن تحدّد لهم عناوينها. والحقيقة هي أنها تشك بأن يسمح لبعض الكتب بأن تعبر الحدود، كمؤلفات «كوندورسيه» أو «بنجامين كونستان»، على سبيل المثال. ولكنّ «نيقولا» كان لديه رغبة شديدة بالقراءة لدرجة أنه كان يعجبه أي كتاب! وبانتظار الكراسات المخرّبة، التي لم تصل، كان يقرأ بنهم كل ما يقع تحت يده من مؤلفات: «بونالد»، «شاتوبريّان» و «جان جاك روسّو»... الخ... وكانت «صوفيا» تترك زوجها في حماسته واندفاعه الدائمين، وتذهب كل يوم، على وجه التقريب، للقيام بجولة في القرى. وفي مطلع شهر آب «أغسطس»، استدعت طبيباً من «بسكوف» لمعالجة بعض أطفال قرية «تشيرينا كوفو» الذين أصيبوا بمرض الخناق. وقد أحدثت هذه المبادرة ضجة كبيرة في المنطقة. وأخذ بعض الملاكين يلومون «الفرنسية» على حثها الفلاحين الأرقّاء «الموجيك» على التواني في العمل، وعلى التأكيد لهم بأن من حقهم الحصول على كل شيء. و «نيقولا» الذي سمع هذه الأقاويل في النادي نقلها، وهو يبتسم إلى «صوفيا» التي ردّت عليها بمضاعفة

جهودها في مجال أعمال البر والإحسان التي كانت تقوم بها. ومع ذلك، فإنّ جهودها في هذا المجال لم تكن مقتصرة على المساعدات المادية. كان الفلاحون يحدثونها عن همومهم ومشكلاتهم العائلية، ويأخذون رأيها بشأن خلافاتهم وخناقاتهم. وأثناء أحاديثها معهم، كانت تبذل جهدها أيضاً لكي تخبرهم بما كان يجري في بقاع العالم، الأخرى. ولكن كان يبدو عليهم أنهم مرتاحون في جهلهم، ويخشون أن يشوّش أحد ما راحتهم التي يخلدون إليها. وحالما كانت «البارينيا» «السيدة النبيلة» تحدّثهم عن بلاد بعيدة، أو عن حدث تاريخي، كانوا ينطوون على أنفسهم. وبالنسبة لهم، روسيا، هي قريتهم، والقرى المجاورة: «كشتنوفكا»، «بسكوف» وإلى أبعد من ذلك، فيما وراء الغابات السوداء والسهول الخضراء، موسكو ذات الألف كنيسة، و «سان بطرسبورغ» حيث يحيط القادة الكبار بالقيصر المتألّق كالشمس، وسهوب «سيبيريا» حيث يعمل، المحكومون بالأشغال الشاقة، وهم مقيدون بالسلاسل والأغلال. وحول هذه الإمبراطورية المسيحية، تنتشر شعوب، أجنبية وغريبة، لا يحبّها الله، كالفرنسيين، والإنكليز، الألمان، الصينيين والأتراك... أما كيف نشأت وشيّدت روسيا، وأيّ ملوك تعاقبوا في الجلوس على عرشها، ومن أين أتت إقامة العبودية والرق؟ فكان الفلاحون «الموجيك» يرفضون معرفته. وكانت «صوفيا» تدرك ضخامة الحماقة والكسل والريبة والتوجّس، التي عليها أن تخلّصهم منها لكي تجعلهم يصغون إليها ويتفهّمون ما تقوله لهم. ولكنّ صعوبة هذا المشروع كانت تزيد من رغبتها بأن تكرّس نفسها له. وذات مساء وبينما كانت عائدة إلى «كشتنوفكا» بالعربة، عبر الغابة، قفز شبح من بين الأدغال ووقف وسط الطريق. فشدّ الحوذيّ الأعنّة لكي يتحاشى أن يصدمه، وصاح به:

- يا لك من أبله مغفّل! ألا يمكنك أن تنتبه؟

فانحنت «صوفيا» على بوابة العربة، ورأت أنه «نيكيتا» الذي بدا مشعّث الشعر، حافي القدمين، قميصه ممزّق. وناولها ورقة ملفوفة على شكل أنبوب ومربوطة بشريطة وردية اللون، ووسخة:

- خذي، يا سيدتي!

- ما هذه؟

- لا أستطيع أن أقول لك ما هي!

كانت أشعة الشمس عند الغروب تتلألأ حمراء بين أغصان الأشجار. فكّت «صوفيا» الشريطة فوجدت صفحة مكتوبة، والحروف مرسومة فيها بشكل سيئ، والكلمات متوالية في سطور كتبت بقلم الرصاص:

«سيدتي النبيلة»، الآن أصبحت أعرف الحروف، فهل تفهمين ما أكتبه؟ إذا كان الجواب: «نعم» فإني أكون اليوم في أسعد أيام حياتي. أحييك منحنياً حتى الأرض، وأصلي على الدوام داعياً الله أن يحفظك.

عبدك المخلص: «نيكيتا».

فتأثرت كثيراً عندما قرأت هذه الرسالة اللطيفة، التي من المؤكّد أنّ «نيكيتا» وجد صعوبة كبيرة في كتابتها، والتي يعلّق عليها أهمية وأملاً كبيرين!

وقالت له:

- حسن جداً! عليك أن تتابع العمل، يا «نيكيتا»!

فسألها:

- هل أكتب لك مرة أخرى، يا سيدتي؟

فتردّدت في الإجابة. لأنّ عطفها وإن كان شديداً على العبيد الأرقاء في ملكيتهم، فلم يكن يبدو لها أنّه من اللائق أن يرسل لها الرسائل فلاح شاب في السادسة عشر من العمر.

وأخيراً قالت له:

- كلا... مرة، ومن وقت لآخر... اكتب لأحد غيري...

- ولمن أكتب، يا سيدتي؟ ليس لي أحد!

- اكتب لنفسك!

- ولكن كيف يمكنني أن أكتب لنفسي؟

- إنه عمل مسلّ ويبعث السرور! تسجّل انطباعاتك، تروي أحداث حياتك...

- وبعد ذلك؟

- هذا كل ما هنالك.

فأحنى رأسه، وقد بدت عليه خيبة الأمل، ثم رفعه وقال:

- عندما أكتب شيئاً من هذا، هل ستقرئينه يا سيدتي؟

فقالت له:

- أعدك بذلك.

ولفّت الورقة وربطتها بالشريطة من جديد، بينما كان يتابع بانتباه أبسط حركاتها. فهل كان يخشى، في آخر لحظة، أن تردّ له الرسالة؟ فقفز هارباً، واختفى بين الأشجار. ولم تسمع عنه شيئاً طوال ثلاثة أسابيع، ثم، ذات يوم، بعد الظهر، بينما كانت هي و «ماري» في الحديقة، أقبل «أنتيب» وفمه ضاحك، مع أن نظراته تنم عن الحزن، وأخذ يصرخ:

- آخ! آهاً! تحدث أمور في المنزل! لقد أتى «ايغورما يتفيتش» المشرف على الأعمال في «شتكوف» ومعه «نيكيتا» ويبدو أنّ الفتى قد ارتكب لا أدري أي جريمة، وأنه سيجلد بالسوط...

فصاحت به «صوفيا»:

- ماذا هنالك؟ وماذا تختلق؟...

- إني لم أكذب من يوم ولادتي! والآن هما في المنزل مع «ميشيل بوريسّوفيتش» و «نيقولا ميخايلوفيتش»...

- وفي أي مكان من المنزل؟

- في المكتب، يا سيدتي، ولكنهم سيذهبون جميعاً إلى الباحة. آه! أنا لا أرغب أن أكون محل «نيكيتا»! يا هو! سيكون هنالك عويل وصراخ! يا هو! وستسيل الدماء!...

فتركت «صوفيا» ابنة عمها هناك، وأسرعت نحو المنزل، قرعت باب المكتب ودخلت دون أن يؤذن لها بالدخول. كان «ميشيل بوريسّوفيتش» جالساً إلى منضدة عمله، و «نيقولا» على إحدى الأرائك. وأمامهما وقف الوكيل «ايغورما يتفيتش» نحيل الجسم. مجعّد الوجه، ولحيته الرفيعة المتطاولة منسدلة على صدره، وإلى جانبه وقف «نيكيتا» يرتعد من الخوف. وآثار الدموع بادية على خديه. ووجّه نحو «صوفيا» نظرة بلهاء. وعندما رأى «ميشيل بوريسّوفيتش» كنّته، بدرت منه حركة تنم عن التذمّر، وسألها:

- ماذا تريدين؟

فقالت له:

- أريد التوسّط لهذا الفتى. فأنا أعرفه جيداً، وهو لا يمكن أن يقوم بأيّ عمل سيئ.

فقال لها «ميشيل بوريسّوفيتش»

- يبدو أنه يمكن أن يفعل ذلك!

ولم يجرؤ على أن يطلب من «صوفيا» مغادرة المكتب، ولكنّ وجودها كان يزعجه بشكل واضح، والتفت نحو الوكيل، وصاح به:

- إيه، هيا! اشرح لنا ما حدث!

فتقدّم «ايغورما يتفتيش» خطوة إلى الأمام، وقال بصوت متأوّه:

- أنت تعلم، يا سيدي، أني اضطر في معظم الأحيان إلى مغادرة القرية كي أذهب لأبيع بعض المحاصيل في البازار وفي الأسواق الموسمية. وتعلم أيضاً أنّ النساء مخلوقات من صنع الشيطان...

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- كلا!

- زوجتي، بلى إنها كذلك، فهي من صنع الشيطان، ويمكن أن تكون من نسل الشيطان بالذات! فقد تورّطت مع سائق عربة من «بيسكوف»، ذلك الرجل الضخم الجثة الذي يدعى «كتاييف»! وهو رجل آخر، لم يجعله التعميد والتنصير يصبح مسيحياً!...

- ولكن ما علاقة «نيكيتا» بكل هذا؟!

- سآتي على ذلك، يا سيدي! سآتي عليه! المصيبة هي أنّ «نيكيتا» قد تعلم القراءة والكتابة منذ بعض الوقت!

- وعندما قال هذه الكلمات، نظر إلى «صوفيا» من طرف عينه.

فقالت «صوفيا»:

- أنا التي دفعته إلى التعلّم.

فتنهد «الوكيل»:

- أحياناً، تقع البذرة الصالحة في أرض سيئة! وكيف استخدم هذا الخسيس التافه معرفته بأحرف الهجاء الروسية الجميلة؟ لقد استخدمها في عمل قذر، وأرجو أن تسمح لي سيادتك باستعمال هذا التعبير! وقد أخذت كثير من الفتيات في القرية تطلب منه الآن أن يكتب لهن بعض الكلمات لكي يضحكن. وذهبت إليه «أودوكس» زوجتي الساحرة الشمطاء، هكذا، وطلبت منه أن يكتب لها بالسر، رسالة إلى الحوذي «كيتاييف» تخبره فيها بأي يوم أسافر، وفي أي يوم أعود، وكيف يمكن أن تلتقي به لممارسة الحب!... وفعل ذلك!... وكتب لها كل ما أرادته تلك المرأة الشبقة والخبيثة كالثعلب!

فقال «نيكيتا» متلعثماً، وهو يزدردّ لعابه:

- لم أستطع أن أرفض طلباً لزوجة الوكيل.

- كان عليك أن ترفض، أيها الخنزير القذر! والرأس لا يمكن أن يجهل ما تفعل اليد، وإذا كنت تسخّر قلمك للزانية، فهذا يعني أنك تحبّذ الزنا وتؤيده، وأي زنا، هذا الذي تؤيده؟ الزنا الذي يلطخ بالعار رجلاً محترماً، هو بالضبط الوكيل المشرف على قريتك!

فاعترت «نيكيتا» رعشة قوية، وركع على ركبتيه:

- كن رحيماً متسامحاً، وأشفق علي يا «ايغورما تفيتيش»!

وأخذت «صوفيا» تراقب عمّها، فلاحظت أنه يكاد يتخلّى عن جديته ووقاره. كانت بعض الارتعاشات تتخلّل خديه وتشدّ شفتيه وتحرك الشعر في وجهه. فاطمأنت لن يحدث أي أذى للفتى الذي تتولى حمايته. و «نيقولا» أيضاً كان يبدو مسروراً ويلهو بهذا المشهد الذي يمثل أمامه.

وسأل الوكيل:

- ولكن كيف علمت بمصيبتك؟

فوضع «ايغورما تفيتش» يده على قلبه، وقال:

- لقد أعانني الله على ذلك. فهل تذكر العاصفة المخيفة التي حصلت الليلة الماضية؟ لقد اعتقد كل من في القرية، أنها نهاية العالم. وأنا نفسي أخذت أستعد للمثول أمام القاضي الأعلى والحاكم العادل، وأحصي ذنوبي وخطاياي. وفجأة، وعبر قصف الرعد ولمع البرق، بدت زوجتي «أودوكسي» في غاية الرعب. وقفزت من السرير، ركعت أمام الأيقونات، وقالت: «اصفح عني يا «ايغور» لأني، بالحقيقة قد خنتك مع «كيتايّيف»!...

فقهقه «ميشيل بوريسّوفيتش» و «نيقولا» ضاحكين واقتدت «صوفيا» بهما. و «نيكيتا» الذي كان راكعاً أمامهما، رفع رأسه. وأخذ الوكيل ينظر بعينين طافحتين بالدهشة والحيرة، تارة إلى السيد العجوز، وتارة أخرى إلى السيد الشاب.

وسأله «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- وماذا فعلت عند ذلك؟

- ضربت «أودوكسي» ضرباً موجعاً، وأجبرتها على أن تروي لي كل شيء، وأحضرت هذا الغلام القذر إلى هنا لكي ينال العقوبة اللازمة، ويجلد بالسوط بصورة علنية!

فسأله «ميشيل بوريسوّفيتش»

- وتصرّ على ذلك، حقّاً؟

فأجابه «ايغورما تفيتيش»، بلهجة باردة:

- أريد تحقيق العدالة!

فأدركت «صوفيا» أنه قد حان الوقت، لكي تتدخّل، فسألته:

- أهنالك كثير من الناس يعلمون أنّ زوجتك تخونك مع «كيتاييف»؟

- لا أعتقد ذلك، يا سيدتي!

- أما إذا عوقب «نيكيتا» بالجلد، فسوف يعرف جميع سكان القرية سبب هذه العقوبة. فهل هذا هو ما ترغب به؟

فبدا «ايغورما تيفيتش» حائراً متردّداً، وقال وقد احمرّ وجهه من شدة ارتباكه وخجله:

- كلاّ، يا سيدتي.

- عد إذن إلى منزلك، واحرص بشكل خاص بألاّ تتحدث إلى أحد عن هذه القضية، وهكذا على الأقل لن تتاح الفرصة لجيرانك بأن يسخروا منك!

فقال متلعثماً:

- ولكن الرسالة... الرسالة التي كتبها لزوجتي!

فقالت «صوفيا»:

- إنه لن يكتب لها أي رسالة بعد الآن، ألا تعده بذلك يا «نيكيتا»؟

فغمغم الفتى:

- وأقسم على ذلك، يا سيدتي، يا من أحسنت إليّ، وليتقبّل الله في ملكوت السماء جميع أعزائك وكلّ من تحبينهم.

فتساءل «الوكيل»، وهو يشعر بالخيبة:

- إذن، هكذا فقد انتهى كل شيء؟

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- انتهى كل شيء! هيا، اخرجا! ولا تدعاني أرى وجهيكما، بعد الآن، لا أنت ولا هو!

فمشى الفلاحان القهقرى، نحو الباب. وعندما وصل الوكيل عند العتبة، توقف وقال:

- هنالك أمر آخر، يا سيدي: فعندما ذهبت لأحضر الفتى، عثرت على أوراق مكتوبة بين حوائجه، وربما كنت ترغب برؤيتها...

فتعالت من بين شفتي «نيكيتا» صيحة:

- كلاّ، يا «ايغورما تفيتيش»!... أتوسل إليك!...

كان الوكيل قد أخرج دفتراً من ساق جزمته، فأراد «نيكيتا» أن ينتزعه من يده، ولكنّ «ايغورما تفيتيش» أخذ يسخر منه، وهو يلهث، ورفع رزمة الأوراق عالياً، على طول ذراعه لكي لا يستطيع الفتى أن يصل إليها.

فصاح بهما «ميشيل بوريسّوفيتش» غاضباً، وهو يضرب المنضدة بقبضته:

- ماذا تعني هذه المهزلة؟!

فاندفعت «صوفيا» بسرعة نحو الوكيل، وقالت له:

- أعطني هذه الأوراق!

فهدأ «نيكيتا» على الفور، وناول «ايغورما تيفتيش» الأوراق على مضض للسيدة الشابة.

وبعد أن انصرفا بسط «ميشيل بوريسوّفيتش» يديه أمامه على المنضدة، باعد ما بين أصابعه، ردّ جذعه إلى الوراء، ونظر إلى كنّته باستياء، وعلى الرغم من الفكرة الجيدة التي كوّنها عنها، فإنه غضب كثيراً لكونها تدخّلت بقضية هذين الفلاحين، التي كان يودّ أن يكون هو وحده الحكم الذي يبتّ فيها، فلا ابنه ولا ابنته يمكن أن يتجاسرا على التطاول على سلطته كسيد وملاك لتلك الأراضي. فمن أين استمدّت هذه الأجنبية كل هذه الجرأة؟

وقال وهو يضع نظارته على أنفه:

- لا أحب كثيراً أن يهتم عبيدي بالخربشة، وأن يشغلوا أنفسهم بها! فهنا، في بلادنا، روسيا، الكتابة معناها الشكوى والتذمّر! وماذا في هذه الأوراق المهلهلة؟!

ومدّ يده ليأخذها. ولكنّ «صوفيا» ضمّت الدفتر إلى صدرها، وقالت:

- كلاّ، يا أبي.

فتطاير الشرر من عيني «ميشيل بوريسوّفيتش» وسألها:

- ما معنى هذا؟...

فقالت له «صوفيا»:

- هذا الدفتر يخصني، وأنا التي طلبت من «نيكيتا» أن يكتب ما كتب فيه. دعني أطّلع عليه أولاً. وإذا وجدت فيه ما يستحق الاهتمام سأطلعك عليه.

وهدّأ هذا الكلام المعقول غضب «ميشيل بوريسوّفيتش». وشعر وكأنه يغوص في حمام من الماء البارد، وهدأت ثائرة نفسه، وارتاحت أعصابه المتوتّرة، وانتظم تنفسه الذي كان مضطرباً.

وأسرعت «صوفيا» بالصعود إلى غرفتها، وتركت زوجها وعمها، وهناك جلست أمام النافذة، وفتحت الدفتر على ركبتيها. كان مؤلفاً من

نحو عشر صفحات ضمّت إلى بعضها. واستطاعت قراءة بداية ما كتب فيها بصعوبة كبيرة، لأنّ «نيكيتا» كان يكتب الكلمات كما كان يسمعها:

المرأة التي أحسنت لي جميلة جداً، إنها أجمل من أي غيمة جميلة. وهي تبهرني عندما تمرّ...

وأعادت «صوفيا» قراءة هذه العبارات لكي تتأكد بأنها فهمتها جيداً. فهل يمكن أن تكون هذه المقدمة الشعرية من عمل فتى جاهل، لم يتح له أن يدرس ويتعلم؟ وتابعت القراءة، وقد أثارها هذا الاكتشاف:

«قالت لي أن أكتب قصص حياتي، الحقيقية، ولكنّ حياتي رمادية وباهتة كالغبار. أمي ماتت منذ زمن طويل، وهناك امرأة أخرى تنام مع أبي بجانب الموقد، واسمها «كريستوفور ايفانيتش». وعلى الرغم من ذلك، فإن أبي لا يضربني كثيراً، إلاّ عندما يكون سكراناً، ودائماً يضربني على الأذن نفسها: اليسرى. وقد طلبت منه كثيراً أن يغير ذلك، ولكنه لم يشأ. فهو يتمسك بعاداته. والأمور على ما يرام في «شتكوفو» وأنا أشارك في معظم الأعمال التي يقوم بها الفلاحون: كتنظيف وتطهير المستنقعات، ترميم الطرقات، وحصاد الحشائش والأعشاب... وأنا أحب كثيراً أن أحصد الأعشاب وأنقلها. ولكنّ حصاد «الجودر» و «الشيلم»، أكثر صعوبة. وقد جُرحت بأحد المناجل، في السنة الماضية. والعجوز «بيلاجي» هي التي عالجت جرحي بواسطة الأعشاب واللعاب. وفي هذا العام، عملت كثيراً بربط حزم الحشائش. وجميع أحداث الكون نسمع بها من جارنا: «تيموتي»، بائع القدور والأواني المعدنية الأخرى، الذي يعود إلى القرية يوم الجمعة. وحالما يصل يجتمع حوله سكان القرية. فيحكي لهم عن المنازل الجديدة التي تبنى في المدن، عن «الفرمانات» القيصرية التي صدرت من جديد، وعن القرعة الأخيرة لاستدعاء المجندين، عن السرقات، والاغتيالات، والتنبؤات. وقد أهداني آلة موسيقية قديمة:

«بلاليكا»، وكثيراً ما أعزف عليها في الأمسيات. والموسيقا تبدو أكثر جمالاً، عندما يخيم الظلام. ويوم الأحد، أجتمع مع كثير من الفتيان والفتيات لنغنّي ونرقص... «والجميع هنا يخشون الحرائق، وعندما يبدأ الثلج بالانزلاق عن الأسطحة، ويقترب حلول الأسبوع المقدس، يمنع الوكيل الفلاحين من تمضية الأمسيات أمام النار، وحتى أمام بصيص بقيّة شمعة صغيرة. وهو يتفقد المدافئ في فصل الصيف، كل يوم اثنين. والسنة الماضية، استطاع أن يعمل على إرسال اثنين من الفلاحين إلى الخدمة في الجيش لمدة خمسة وعشرين سنة، لأنهما خالفا أوامره. وربما يحصل لي أنا، أيضاً، ما حصل لهما، فيقصّ شعري وأجبر على الخدمة في الجيش، حتى سن الشيخوخة. ويبدو أنّ بعض المشرفين على قطاعات معينة، يرسلون إلى الخدمة في الجيش الفلاحين الذين يعجب أولئك المشرفون بنسائهم. وهنالك «وكيل»- ليس وكيل قريتنا- يفرض فدية على الفتيات اللواتي يرفضن الزواج. وجميع الكتب المطبوعة يبدو أنّ أعضاء مجلس الشيوخ في «سان بطرسبورغ» هم الذين كتبوها. ومنذ عشرة أيام، بدأت تسمع أصوات الذئاب في الغابات. وهذا يعني أنّ الصيف يكاد ينتهي. وأنا لا أخاف من الذئاب. ولكن هناك أماكن تختبئ فيها الأرواح الشريّرة. وبالقرب من حمّام القرية، شنقت نفسها زوجة أحد الجنود. وحالما يخيم الظلام، تجتمع حولها جميع النساء اللواتي شنقن أنفسهن، في المناطق المجاورة، فيغنّين ويرقصن، ويرششن على أجسامهنّ الماء، بواسطة الأواني والدلاء. وقد أوصانا الأب «جوزيف» أن نرسم إشارة الصليب على صدورنا عندما نمر من أمام الحمّام. لقد كتبت كثيراً من الأسطر. وهذا سهل ومسلّ. وفي كل ليلة، قبل أن أنام، أفكّر بالمرأة التي أحسنت إليّ. ويقول الأب «جوزيف» إنها فرنسية وإنّ جميع الفرنسيين وثنيّون. وقال أيضاً إنّ «نابليون» شرب دم روسيا...»

وكان ما تبقى مكتوباً بصورة سيّئة جداً، بحيث أنّ «صوفيا» أهملت قراءته. فقد أصبحت تعرف الآن أنها لم تخطئ في تقديرها بشأن «نيكيتا». فالفتى الذي استطاع، بعد بضعة أسابيع من الدراسة، أن يكتب اعترافات كهذه، يستحق أن ينقذ من الجهل، ومع ذلك فهي لم تعلن عن رأيها الحقيقي بصراحة، عندما سألها «نيقولا» في المساء، عن مضمون ما كتب في الدفتر، بل قالت:

- كثير من الأخطاء... ولكن هناك أيضاً كثير من الهمة والنية الطيبة... وأنت تضيع وقتك إذا حاولت قراءة هذه الخربشات...

وفي اليوم التالي، أعادت الدفتر إلى «نيكيتا»، هنأته على عمله، وأهدته كمية من الورق الأبيض وبعض الكتب. كان يقف في «الايسبا» بين والده الفلاح القوي البنية، ذي اللحية الشقراء، وبين خالته، النحيلة الجسم كالجرادة، والتي قالت لها:

- تكرمي وشرفينا بالجلوس... نوّري بحضورك بيتنا المتواضع.

أمّا «نيكيتا» فقد لزم الصمت، مبهوراً برؤيا سماوية. ورافق «صوفيا» إلى وسط القرية. حيث كان بعض الأطفال بملابسهم الرثة والوسخة يحيطون بالعربة. وعندما صعدت إلى العربة، سألها «نيكيتا» متمتماً:

- هل تسمحين لي بأن أستمر في الكتابة؟

فقالت له:

- بل إني أطالبك بذلك!

وعند عودتها إلى القرية، أخبرتها «ماري» أنّ «وكلاء» «شتكوفو»، «تشيرينا كوفو»، «كرابينوفو» ووكلاء بعض القرى الأخرى، أتوا كوفد يمثل بقية الوكلاء لمقابلة «ميشيل بوريسّوفيتش». فشعرت بالقلق، لأنها ظنّت في بداية الأمر أنّ لهذا التصرف علاقة بمشكلة «نيكيتا»، ولكنّ

شقيقة زوجها طمأنتها: كان هؤلاء الفلاحون قد أتوا لمقابلة سيدهم كي يشكوا من كثرة الذئاب، ولكي يرجوه أن يأمر بالقيام بحملة لمكافحتها.

وفي المساء، على مائدة العشاء، تحدّث «ميشيل بوريسّوفيتش» عن هذه القضية. وكان يبدو أنّ القيام بمطاردة هذه الذئاب صعب جداً، إذا لم يشارك بعض جيرانه في هذا العمل، وقال:

- وإذا لم ندعهم للمشاركة في هذه المطاردة، فسيكون تصرفنا مخالفاً للتقاليد والعادات! ولكنّي من جهة أخرى أتردّد في دعوة كل هؤلاء الناس، الذين لم أرهم ولا أعرف عنهم شيئاً منذ زمن طويل...

فقال «نيقولا»:

- أنا، في الحقيقة، لا أفهم، ما الذي يمنعك من أن تفعل ذلك، يا أبي!

ودون أن يجيب «ميشيل بوريسّوفيتش» على ملاحظة ابنه الذي يعتبره أرعناً، فقد ألقى على «صوفيا» نظرة، يطلب فيها النصيحة والمشورة، لأنه يعرف أنها تأنف من رؤية وجوه جديدة، ولا يريد أن يتخذ أي قرار تستاء منه. فأدركت ما يشغل باله وتأثرت من ذلك.

وقالت:

- «نيقولا» معه الحق، فنحن لا نستطيع أن نبقى متباعدين عن جيراننا زمناً طويلاً. وسيتّهمك أصدقاؤك القدامى بعدم اللباقة.

- إني لا أهتم برأيهم، ورأيك أنت هو الذي يهمني!

فلمع بريق غريب في عيني «ماري». وبدا واضحاً أنها كانت تأمل بكل قواها ألاّ تعارض زوجة أخيها المشروع. واعتبرتها «صوفيا» مُثارة أكثر مما ينبغي، على أساس أنها فتاة تدّعي أنها تنفر من مخالطة الناس. أليس هنالك سرّ خفي وراء ذلك؟

وقالت «صوفيا»:

- وجّه الدعوة لمن تريد، وسأكون سعيدة بالتعرّف على الملاّكين الذين يجاوروننا.

فخفضت «ماري» جفنيها. وابتسم «نيقولا» لزوجته وكأنه يشكرها على معروف أدّته له. وقال «ميشيل بوريسّوفيتش» بلهجة وديّة:

إذا كنتم موافقين، أعتقد أنّ يوم الثالث والعشرين من أيلول «سبتمبر» يكون موعداً مناسباً. وبعد الانتهاء من تناول الحلوى، طلب أن يأتوه بورق وبأدوات الكتابة، وهناك، على مائدة الطعام، وضع قائمة بأسماء المدعوين للمشاركة بحملة مطاردة الذئاب.

٦

كان «نيقولا» أول من وصل إلى منفرج في الغابة، فترجّل عن حصانه، وصاح صوتاً، داعياً الآخرين إلى التجمّع. وعلى مدى النظر، حوله، كانت ترتعش أوراق الأشجار الخضراء والذهبية الصفراء. وبعد هطول المطر، كانت جذوع الأشجار تلمع كأنها طليت بمادة صمغية لماعة. وكان يغطي الأرض بساط من الأوراق الجافة. وقد اتفق على أن يتجمّع المدعوون في هذا المكان، ويتركون فيه خيولهم ويذهبون سيراً على الأقدام إلى مواقع المطاردة المخصّصة لكل منهم، على أطراف الغابة. وكانت أصوات حوافر الجياد قد أخذت تقترب. وفجأة، رأى «نيقولا» والده يصل من أحد الدروب، وهو يمتطي بتثاقل «بوشكوف»، حصانه الجموح، و «فاسيا» محمّر الوجه، لاهثاً وقد مالت قبعته نحو أذنه، والعملاق «بشماكوف» الذي يمتطي حصانه على الطريقة الإنكليزية، و «فلاديمير كاربوفيتش سيدوف» وهو ضابط في البحرية متقاعد، يقيم على مسافة تقرب من عشرة كيلومترات عن ذلك الموقف، و «ماري» بملابس الفارسة، السوداء اللون، وبقبعة تعلوها ريشة طاووس، و «هيلين» ابنة السيدة «فولكوف» الكبرى، التي كانت تتمايل بخطورة على سرج حصانها، والكونت «تومانوف»، القصير القامة والنحيل الجسم الذي كان يبدو متجهّم الوجه، كما وصل أيضاً خيالة آخرون جميعهم من الملاكين المجاورين... وكانت السيدات ومعهن الأطفال قد وصلوا في العربات. وعندما لمح «نيقولا» زوجته و «داريا فيليبوفنا» تجلسان جنباً إلى جنب في عربة واحدة مكشوفة وقد أخذتا تتحدثان برقّة وعذوبة، شعر

بانقباض خفيف في قلبه. كانت «صوفيا» ترتدي «ريدنجوت» لونها رمادي لؤلؤي، مزدانة بضفيرة مزدوجة لونها رمادي غامق. وكانت قبعة بنفسجية اللون، ترمي ظلّها على وجه «صوفيا». أمّا «داريا فيليبوفنا» فكانت تضع وشاحاً من الكشمير على كتفيها، وعلى رأسها قبعة غريبة الشكل، مزدانة بريشة خضراء، نزلت إلى قرب عينيها. وقد استغرب «نيقولا» هذه القبعة الضخمة، ولكنه غضّ النظر عن ذلك عندما تذكّر بأنه ليس لديه أي خبرة في مجال الأزياء النسائية. ولم تكن قد أتيحت له الفرصة ليسأل «صوفيا» عن رأيها بالسيدة «فولكوف». ومع ذلك، فبتأمله لهما، بدت إحداهما طويلة، ناضجة، وقوية البنية، سيماؤها تنم عن الرقة والعذوبة، بينما كانت الأخرى شابة نحيفة الجسم، حادة النظرات، فرأى أنّ إحداهما تكمّل الأخرى بشكل رائع، بحيث أنهما لم تخلقا لتصبحا صديقتين. كانت عذوبة الجو في ذلك الصباح قد جعلته في حالة نفسية مرحة وفي مزاج رائق. فتقدم نحو المرأتين ليساعدهما على النزول من العربة.

فقالت «داريا فيليبوفنا» بالفرنسية، وبلهجة تنم عن التردّد:

- يا لها من نزهة رائعة!

فردّت «صوفيا» باللغة الروسية:

- نعم إنها رائعة، حتى ولو لم نرَ ذئباً واحداً، فستكون بالنسبة لنا ذكرى جميلة.

فقال «نيقولا»:

- ستريان منها الكثير! وأنا أعدكما بذلك! فقد اكتشفها فلاحونا، وطوّقوها، ولا ينتظرون سوى إشارة منا لكي يبدؤوا بمهاجمتها.

- وجمع الخدم العاملون في الإسطبل الأحصنة. وامتلأت فرجة الغابة بالناس. وكان صوت «ميشيل بوريسّوفيتش» يعلو على جلبة الأحاديث، مصدراً الأوامر. وكانت بعض الخادمات يتنقّلن بين مجموعة وأخرى

ويقدّمن للسيدات صناديق صغيرة فيها أمشاط، فراشي، دبابيس ومياه معطّرة، لكي تصلح، من تريد منهنّ، زينتها. وسألت «صوفيا» «نيقولا» عن ذلك المدعو الذي يبدو في الثلاثين من العمر، الذي كان يقترب من «ماري»، يتبادل معها بضع كلمات، ثم يبتعد بخطوات صلبة وموزونة.

فقال لها «نيقولا»:

- إنه «فلاديمير كاربوفيتش سيدوف» وهو رجل غريب الأطوار، متحفّظ، متكبّر، ويعيش منفرداً، وكان يمكنه أن يحتلّ مركزاً هاماً في البحرية، ولكنه، في أعقاب، لا أدري أي حادثة مشؤومة اضطر إلى الاستقالة والانسحاب للعيش في ملكيته الصغيرة.

فأضافت «داريا فيليبوفنا»:

- في ملكيته الصغيرة جداً، التي لا تضم سوى مئتي نفس، ولا يدهشني إذا قيل لي أنّ نصفهم، على الأقل، مرهونون لقاء الديون!

وقال «نيقولا»:

- إني لأتساءل كيف يؤمّن نفقات معيشته!

فردّت «داريا فيليبوفنا»، قائلة:

- إنه يؤمنها عن طريق الاستدانة من الآخرين، ويبدو أيضاً أنه يتاجر بالرقيق ويبيع الفتيات الجميلات، بعد تعليمهن اللباقة والمجاملة واللغة الفرنسية والغناء، والرسم المائي، وجميع الطرق والأساليب التي تعجب الرجال وترضيهم...

فأطلق «نيقولا» ضحكة ذات جرس رجولي، أغاظت «صوفيا».

واستأنفت «داريا فيليبوفنا» الكلام، قائلة:

- وبعد أن يعلمهنّ ويؤهلهن بشكل جيد، يبيعهن بأسعار مرتفعة. وقد سمعت أنه باع إحداهن، وتدعى «دونياشا» بمبلغ يزيد على ثلاثة آلاف وخمسمائة روبل!

فقالت «صوفيا»:

- ربما كانت هذه مجرّد إشاعات وأقاويل!

- ولكن، لا دخان بلا نار!

- في الريف، أضعف النيران تُحدث أعظم الدخان!

فصاحت «داريا فيليبوفنا»:

- يا إلهي. ما أظرفك، فهذا ردّ باريسي حاضر وسريع!

ثم انحنت نحو «صوفيا» وأضافت بسرعة:

- انظري... انظري ابني «فاسّيا» الذي يغازل شقيقة زوجك «ماريا»!... هل تعلمين أنه متيم بها، ويحبها بشكل جنوني، منذ طفولته المبكرة؟... وهو لا يمكن أن يعترف بذلك مقابل أي شيء في العالم، ولكني أنا أمّه أقرأ ما في قلبه وما يدور في ذهنه كما أقرأ في كتاب مفتوح!... أليسا ظريفين كليهما؟! علينا ألاّ نقول بصوت عالٍ ما يرغب به قلبنا، لأنّ الشيطان يمكنه أن يسمعنا ويعاكس رغباتنا!... انظري، ها هو عزيزنا الكونت «تومانوفّ» وزوجته!... وأنت تعرفينهما، على ما أعتقد!... إنهما من الناس الطيبين والمحبوبين!...

ولاحظت «صوفيا» أنّ «فاسّيا» يتحدث مع الفتاة بمودّة واحترام، بينما هي لا تصغي إليه جيداً، وقد أحنت رأسها وبدت متحفّظة ومعاندة، وأخذت تضرب بعصبية تنورتها بالسوط الذي تحمله. وكان واضحاً جداً أنّ ملاطفات الشاب تبدو مزعجة بالنسبة لها. ومن بعيد سمعت أصوات مطاردي الذئاب، ونباح كلابهم، المخيف. وكان سرب تلك الكلاب مؤلفاً من عدة أنواع، ويضم جميع الكلاب الجرباء والشرسة الموجودة في القرى المجاورة.

وصاح «ميشيل بوريسّوفيتش» بأعلى صوته:

- أيها السادة، لقد حان الوقت! هيا بنا، ولنذهب إلى مواقعنا!

فودّع الرجال السيدات بصورة احتفالية، وكان كل منهم قد تقلّد بندقيته، ووضع سكيناً كبيراً في نطاقه. وحتى الكونت «تومانوف» الأعرج والمشوّه الجسم، كان يحمل خنجراً كبيراً، يتأرجح متدلّياً على فخذه.

وتساءلت «داريا فيليبوفنا» وقد شعرت فجأة بالقلق:

- أليس هنالك ما نخشى منه إذا بقينا هنا؟

فقال لها «نيقولا»:

- لا شيء يخشى منه على الإطلاق! فالمطاردون يطردون الذئاب نحو الجهة المقابلة للغابة. وعلاوة على ذلك، فسنترك لَكُنّ بعض الفلاحين وأحد القناصين، لحمايتكنّ.

وقال «بشماكوف»:

- إني أودّ تماماً القيام بالمراقبة والترصّد.

فشكرته «داريا فيليبوفنا» شخصياً. وابتعد جميع الصيادين الآخرين. وجلست السيدات على بعض جذوع الأشجار المقطوعة وأخذن يتحدّثن عن صعوبات الحياة ومضايقاتها، عن الأزياء وعن الخدم. وأخذ الأولاد يلعبون لعبة الاستغماية في تلك الفسحة الخالية من الأشجار. وأحياناً، كانت إحدى الأمّهات ترفع رأسها، وتصيح بهم:

- انتبهوا جيداً! واحذروا الذئاب! لا تذهبوا بعيداً، فتضيعوا في الطرقات!...

فتردّ عليها مجموعة من الأصوات المطيعة:

- نعم، يا أماه... نعم، يا خالتاه...

و «بشمكوف» الذي أخذ مهمته على محمل الجدّ، كان يشمّ ما في الهواء من روائح، ويتجول بعينيه في المنطقة، ويحرك بندقيته بين يديه. وفجأة هدأت الأحاديث، وتوقف الأولاد عن اللعب، والأحصنة المربوطة إلى

جذوع الأشجار، حرّكت آذانها وصوّبتها، فقد كانت أصوات الفلاحين ونباح الكلاب، التي ضخّمتها أصداء الغابة، بدت وكأنها تأتي من جميع الجهات في آن واحد، كان يسمع، حتى صوت ضربات دبابيس المطاردين على جذوع الأشجار لإخافة الذئاب. ودوّت بعض الطلقات المتفرقة.

وقال «بشمكوف»:

- حافظن على هدوئكنّ، يا سيداتي، ولا تخفن، فالصدى خدّاع.

وكان شاربه الكبير والأسود يوحي بالثقة لأغلبية السيدات. وبحثت «صوفيا» بنظرها عن «ماري» فلم تجدها، فأقلقها ذلك وعادت إلى العربة وسألت السائق عنها، فأجابها، وهو يشير نحو درب ضيق تكتنفه نباتات السرخس وأدغال الشجيرات:

- لقد ذهبت إلى هنالك عبر هذا الدرب الضيق.

- بمفردها؟

- نعم، يا سيدتي، وهذا ليس من الحكمة بشيء!

فمشت «صوفيا» بضع خطوات في الاتجاه الذي أشار إليه السائق، وأخذت تنادي: «ماري! ماري!» وعندما لم تتلقّ أي جواب، تابعت السير بصمت وهي تحبس أنفاسها، دون أن تدرك لماذا لزمت الصمت هكذا، كان حدسها يقودها ويرشدها. لأنها بعد قليل تنامت لسمعها بعض الهمسات. فتجمدت في مكانها: كان صوت «ماري» يقول:

- دعني! دعني!

ونبرات صوتها تنمّ عن الرجاء والتوسل. وحدثت طقطقة بين الأغصان، وسُمعت أصوات تنم عن عراك يحصل في ذلك الدغل. فاندفعت «صوفيا» بسرعة وبقوة إلى الأمام، وأزالت ستاراً من نباتات السرخس النامية، فاكتشفت «فلاديمير كاربوفيتش سيدوف» و «ماري» وهما يقفان وجهاً لوجه: كان يمسكها بمعصميها، محاولاً أن يضمها إلى صدره،

وكانت وهي تتخبّط، قد أضاعت قبعتها. وبدا وجهها شاحباً متجهماً، وقد تدلّت خصلة من الشعر على خدها. وقد دفع الغيظ «صوفيا» إلى التقاط السوط الذي سقط من يد «ماري»، وضربت به ذراع «سيدوفّ»، وهي تصيح به:

- دعها! هيّا اتركها، وانصرف من هنا!

وباعد أصابعه، خطا خطوة إلى الوراء، وعلى وجهه تعابير تنمّ عن السخرية. وبدا وكأنّ تدخل السيدة قد سرّه بدلاً من أن يزعجه أو أن يسبب له الارتباك. أما «ماري» فقد غطّت وجهها بيديها الاثنتين.

واستأنفت «صوفيا» الكلام:

- إيه! ماذا تنتظر أيها السيد؟ هيا اذهب! اذهب!

وتلاشت هذه الكلمة الأخيرة على شفتيها. حملقت بعينيها الجاحظتين وشعرت أنّ قلبها قد انهار: فقد برز من الطريق المقابل لها ذئب دقيق الرأس، أشهب الشعر، وقد مدّ عنقه وفتح فمه، وأخذ يقفز متمهلاً كما لو أنه لم يكن يخشى أن يلحق به الصيادون. كانت بندقية «سيدوفّ» مسندة إلى جذع إحدى الأشجار، فمدّ ذراعه وتناولها بصعوبة من «قصبتها» ولكنه لم يكد يسندها إلى كتفه حتى دوّت طلقة من على يساره. فقفز الذئب بين الدغل، ثم دوت طلقة ثانية. وصاح «بشمكوف»:

- لقد أصبته!

وتغلّبت «صوفيا» على تأثرها وأخذت تنظر إلى شقيقة زوجها التي بدا عليها أنها لم تكن تشعر بالخطر الذي تعرضت له. كانت نظراتها شاردة. وقد تورّد خداها من جديد. وغير بعيد عنها، كان يقف «فلاديمير كاربوفيتش سيدوفّ» مبتسماً، بكل برود ووقاحة. بينما بدا «بشمكوف» مرحاً وهو يبعد من طريقه أغصان العليق، وصاح بصوت راعد:

- إيه؟! أكنت نائماً يا «فلاديمير كاربوفيتش»؟ ولحسن الحظ فإني كنت أقوم بجولة هنا!... ولو لم أكن هنا!... يا له من حيوان رائع!... تعالوا لتشاهدوه!...

فتبعته «صوفيا» و «ماري»، بينما اغتنم «سيدوفّ» الفرصة وانسحب. وفي فرجة الغابة، أحاطت السيدات القلقات، بـ «صوفيا» و «ماري»، وأخذن يلمنهما على طيشهما:

- إنه لمن الجنون أن تبتعدا هكذا! وعندما سمعنا الصراخ ودويّ العيارات النارية، خشينا أن يكون قد وقع لكما مكروه!

وبين كل أولئك الناس الذين تجمعوا حولهما، لم تستطع «صوفيا» أن تسأل شقيقة زوجها عما حدث، كما كانت تريد.

وقدّمت «داريا فيليبوفنا» قارورة أملاح للفتاة، قائلة:

- استنشقي من هذه، فهي ستفيدك وتريحك بعد الخوف الذي شعرت به.

فقالت لها «ماري»:

- إني لم أشعر بالخوف.

وعاد بعض الفلاحين وهم يجرون جثث بعض الذئاب بقوائمها. وبعد ذلك صفّوا جثث هذه الحيوانات جنباً إلى جنب على الأرض. وقد أجهز على بعضها بالسكين. وكان الدم القاني يصبغ جلدها وشعرها. وكانت الكلاب تركض وهي تهز أذنابها وتشم الأرض وقد أثارتها الروائح المنتشرة عليها. والأحصنة أخذت تصهل وهي تشدّ أعنّتها المربوطة بجذوع الأشجار. وفيما بعد، دوى صوت البوق فعاد الصيادون إلى مكان التجمّع.

وعندما التقى «نيقولا» بـ «صوفيا»، قال لها:

- لقد قتلت اثنين!

كان يبدو عليه فرح طفولي، وعندما حدّثته «داريا فيليبوفنا»عن الخطر الذي نجت منه زوجته وأخته، شعر بالخوف، وضرب جبينه بقبضة يده، وقال:

- يا إلهي! عندما أفكر بما كان يمكن أن يحدث!

- مرحى لـ «بشمكوف»! يجب عليّ أن أشكره!...

و «ميشيل بوريسوّفيتش» نفسه هنّأ «بشمكوف» على سرعة تدخله، واستغرب أن يكون «سيدوفّ» قليل اليقظة إلى ذلك الحد.

فقال «سيدوفّ»:

- كنت أهم بإطلاق النار، عندما رأى هذا السيد أنه من المناسب أن يسبقني إلى ذلك. علماً بأني أعترف، بكل طيبة خاطر، بأني ما كنت أستطيع أن أفعل أفضل مما فعل هو.

وهذا التصريح، الذي أعلن بلهجة فظة، ألقى ظلاً من البرود على الحاضرين. وقد أثارت نوايا «سيدوفّ» السيئة حفيظة «صوفيا» وبذلت جهداً كبيراً كي تتمالك نفسها ولا تفضحه أمام الجميع. وكان «ميشيل بوريسوّفيتش» قد بدأ يدعو ضيوفه لمشاهدة اللوحة التي تمثل نتيجة المطاردة والصيد: سبعة عشر ذئباً! ولم تكن تلك النتيجة غريبة أو استثنائية. وقد أخذت الغربان تحطّ بسرعة على أغصان الأشجار العالية، بينما كانت غربان أخرى تحلّق في الجو وهي تنعق بقوة.

وأخيراً، قال «ميشيل بوريسوّفيتش»:

- الآن، علينا أن نعود إلى المنزل، وآمل أن تكون هذه المطاردة قد فتحت شهيتكم!

وأكل المدعوون بشهية ونهم من ذلك العشاء الدسم الذي بدأ بكمية كبيرة من المقبلات واستمرّ بحساء السّلطعون، بالطيور المعطرة بالحشائش الطبيعية، وبإوزات ضخمة محشية. والمدعوون الذين أثارتهم الخمرة، أخذوا

يكثرون من الأحاديث ويتكلمون تارة باللغة الروسية، وتارة باللغة الفرنسية. والسيد «لوسور» الذي يجلس في الطرف الآخر من المائدة، كان يلقي من وقت لآخر، نكتة، هو أول من يضحك لها. وكان «نيقولا» يوزع اهتمامه بين جارته التي إلى يمينه: الكونتيسة «تومانوف» وجارته التي إلى يساره: «داريا فيليبوفنا»، مع إعطائه تفضيلاً واضحاً لهذه الأخيرة. و «فاسيّا» كان يحاول عبثاً إثارة اهتمام «ماري» بما يرويه لها من ذكرياته عن دراسته في جامعة «غوتّانك». و «سيدوفّ» لم يكن يتكلم مع أحد، ولا يكاد يأكل، بل كان يراقب كل شيء بنظرات ناقدة. أمّا «ميشيل بوريسّوفيتش» فكان محتقن الوجه، سعيداً، يتكلم بصوت عال لكي يسمعه «تومانوف» و «بشمكوف» اللذان كانا يتناقشان بصفات وميزات كلابهما ويقارنان فيما بينها. أما الأولاد، الذين ضمّتهم مائدة أخرى في الصالون، فكانوا يحدثون جلبة ونقنقة كتلك التي تحدث في حظيرة الدواجن. وكان هنالك عشرون خادماً يتراكضون في جميع الاتجاهات، يتقابلون ويتدافعون وقد بدا عليهم التعب والاهتمام، كما لو أنهم قد كلّفوا بإطفاء إحدى الحرائق، ولا يجدون ما يكفي من الماء لإطفائها. أما «صوفيا» فكانت تنتظر بفارغ الصبر أن ينتهي المدعوون من تناول الطعام.

وعند الساعة الثالثة والنصف، غادروا المائدة. وكانت غرف المنزل قد رتّبت وجهزت كمهاجع لكي يستطيع المدعوون التمتع بالقيلولة. وقد تأخر الرجال، الذين يتحملون عادة التعب أكثر مما تتحمله النساء، في الصالون لكي يدخنوا. أما السيدات، وهنّ أضعف بنية، فقد انسحبن على عجل لكي ينزعن أحذيتهن ومشدّاتهنّ. ولأنه لم يكن هناك أسرّة تكفي للجميع، فقد تمدّد الأطفال على فرشات وضعت على الأرض. وبعد أن أشرفت «صوفيا» على ترتيب هذه الأمور، ذهبت وقرعت باب غرفة شقيقة زوجها. ففتحت الفتاة الباب، والاستياء باد على وجهها. وكانت جديلة

ضخمة شقراء تتدلى على كتفها، وقد خلعت ملابس الفارسة، الأنيقة، وبقيت بالقميص والسروال الأبيضين.

وسألت زوجة أخيها:

- ماذا تريدين؟

فقالت «صوفيا» وهي تدخل:

- أريد التحدث إليك.

فعادت «ماري» واستلقت على السرير، واضعة يديها تحت رأسها، وضامّةً قدميها. فجلست «صوفيا» قرب السرير، وهمست في أذنها:

- ذلك الرجل، يا «ماري»، أنا لم أستطع أن أفهم جرأته! كيف تجاسر على أن؟...

فصاحت الفتاة، وهي ترتجف غيظاً وغضباً:

- وأنت، كيف تجرأت؟... ولماذا تدخّلت؟

فاستبدّت بـ «صوفيا» الدهشة برهة، ثم قالت لها بهدوء:

- ولكن، يا «ماري»، كان يحاول أن يقبلكِ، وكنت تمانعين، وتدفعينه، كنتما تتعاركان...

- ما كان عليك إلا أن تدعينا وشأننا... وألاّ... تأتي وكأنك مربية وأنا طفلة صغيرة، وقد كلفت بتربيتي ومراقبتي!...

وقد دفع عنف هذه الثورة «صوفيا» لتغيير خطتها، وقالت:

- لم أكن أعلم أنّ هذا الشخص عزيز على قلبك إلى هذه الدرجة!

فرفعت «ماري» رأسها بحركة، تنمّ عن التحدّي:

- إنه ليس عزيزاً على قلبي أبداً، كما تقولين!

- على أي حال، أنت تحبينه!...

- كلا.

- إذن لماذا تأسفين لأني منعته من أن يضمك بين ذراعيه؟

فصمتت «ماري» وانطوت على نفسها.

- عليك، خاصة؟ ألا تعتقدين بأني ألومك إذا كنت تميلين إلى السيد «سيدوفّ» فهو شخص ذو مظهر مقبول، ويتمتع بالخبرة وبالجاذبية...

قالت «صوفيا» ذلك، بلهجة رقيقة ودبلوماسية، لاسترضاء شقيقة زوجها، ولكنّ «ماري» تمتمت:

- إنه رجل سمج وكريه!

- أتعرفينه جيداً؟

فلم تجب الفتاة، ومن المؤكد أنها بعد أن أبدت مزيداً من التكتّم والحذر، كانت في عراك مع نفسها، تحاول خلاله مقاومة الرغبة بأن تبوح لأحد بسرها، كي يساعدها، وكان هذا السرّ شديد الوطأة عليها، لدرجة أنّ تعابير المعاناة، والألم الجسدي كانت بادية على وجهها. وأخيراً، همست:

- كلا، إني أكاد لا أعرفه: فهو لم يأت إلى منزلنا سوى خمس أو ست مرات. ولكن، في كل مرة، كان يتدبّر الأمر لكي يمضي بضع دقائق بمفرده معي. ولم أفعل شيئاً لكي أتجنّبه.

- كم كان عمرك، عندما بدأ يهتمّ بك؟

- كنت في الخامسة عشرة. في يوم عيد مولدي، اقتادني آنذاك إلى الحديقة، وقبلني. فذهلت، وأصبحت كالمجنونة، ولم أتحدث عن ذلك إلى أحد. وبعد ذلك لم أره طوال عامين.

واليوم؟

هذه أولى زياراته منذ... منذ عيد الميلاد!... وقد مضى على ذلك تسعة أشهر! ولا شك أنه سيختفي مرة أخرى لزمن طويل، وربما إلى الأبد. إنه لم يقل لي شيئاً محبّباً، إنه يلهو ويتسلّى بي. وأنا أكرهه، ولكنه لو عاد، فإني لن أستطيع مقاومته،،، فكيف تفسرين ذلك؟

وأحنت رأسها، وأخذت تبكي. فوضعت «صوفيا» يدها برفق على رقبة الفتاة، وقالت لها:

- هيا! هيا! ليس في الأمر أي خطورة!

- بلى. كما أني كنت سيئة وشريرة حيالك! لقد حوّلني، هو، إلى شريرة!.. فماذا سأصبح، وماذا سيحلّ بي؟

فقالت لها «صوفيا»:

- سوف تنسينه، وأنا سأساعدك على ذلك.

فألقت «ماري» نفسها بين ذراعيها. وأخذت «صوفيا» تفكّر وهي تحمل ثقل ذلك الرأس المحموم، بحياة شقيقة زوجها، الخاصة التي كانت تظنّ أنها بسيطة جداً، وقد اكتشفت الآن أنها طافحة بالوساوس المنغّصة، بالمخاوف، بالرغبات وبالأحلام.. وظلّت الاثنتان لفترة طويلة، أحداهما تستند على الأخرى، تتبادلان الأفكار، دون أن تتلفّظا بأي كلمة.

وجلبة البيت التي هدأت أثناء فترة القيلولة، عادت لتُسمع شيئاً فشيئاً: بعض الأبواب أخذت تُطرق، وأصوات مرحة تنادي أصواتاً أخرى في الممرّ، في الحديقة وفي الباحة. وأتى «نيقولا» ليصطحب «صوفيا» و «ماري» لتوديع اثنين من المدعوّين، يريدان السفر. فسألته «صوفيا»:

- من هما هذان المدعوان؟

فأجابها «نيقولا»:

- إنهما «بشمكوف» و «سيدوفّ»، والآخرون سيبقون ليتناولوا طعام العشاء.

فرشقت «صوفيا» الفتاة بنظرة، وقالت بهدوء:

- إنّ «ماري» متعبة، وسأذهب أنا وحدي. وعندما وصلت إلى درج المدخل، كان الخدم يحضران الحصانين. فقبّل «بشمكوف» يد «صوفيا»، وشكرها وأثنى عليها بلغة فرنسية غريبة ومحطمة، لدرجة أنها لم تفهم

منها كلمة واحدة. أمّا «سيدوف» فلم يقل لها شيئاً، وانحنى أمامها، ثم تأملها مطوّلاً وهو ينتصب، وكأنه يتحداها لإصلاح الأذى الذي سببه. وبعد انصرافهما، نزلت الدرجات والتفتت: كانت «ماري»، تقف قرب نافذة غرفتها، تتابع بنظراتها الخيّالين اللذين كانا يبتعدان عبر المشى.

وآنذاك، كان الخدم، قد بدؤوا يهيّؤون المائدة في غرفة الطعام، لتناول الشاي، مع جميع أنواع المشروبات الكحولية الخفيفة ومربيات الفواكه والأقراص المحلاة بالكمون وببذور الخشخاش. واحتجت السيدات، قائلات بأنهن لا يشعرن بالعطش ولا بالجوع، ولكنّ إلحاح «صوفيا» أقنعهنّ بوجوب المشاركة. وشرب الرجال، عدة أقداح، بعد أن شجّعهم «ميشيل بوريسوفيتش» على ذلك، مبرراً احتساء كل قدح بعبارة خاصة. فمع القدح الثاني قال: «الرجل والمرأة يشكلان زوجين». ومع القدح الثالث، قال: «الله يحبّ الثالوث المقدس» ومع الرابع، قال: «البيت له أربع زوايا»، ومع الخامس، قال: «في اليد خمس أصابع»...

وهكذا دواليك.

وأخذ «نيقولا» يُضحك «داريا فيليبوفنا» وهو يروي لها بصوت خافت كيف أنه، أثناء مطاردة الذئاب، كاد يقتل الكونت «تومانوف»، الذي كان يبحث عن شيء مّا، وهو يدبّ على أربع بين شجيرات الدغل. وقد بدت مسرورة بهذا الحديث بحيث أنه استمر طوال تلك الأمسية، وبعد الانتهاء من تناول تلك الوجبة الخفيفة مع الشاي، عاد الجميع إلى الصالون. وفي تلك اللحظة، حضرت «ماري» وهي تبتسم، شاحبة الوجه، فأسرعت «داريا فيليبوفنا» للاطمئنان عليها، وسألتها عن حالها بعد الخوف الذي تعرضت له، وهل استطاعت أن ترتاح قليلاً؟ وكان «فاسّيا» يقف وراء أمه ويبدي اهتماماً شديداً بكل ما كانت تقوله، كما لو أنه لم يكن يجرؤ على الكلام، فكلّفها بأن تكون لسان حاله، وأن تنوب عنه بالكلام. وانتحى

«نيقولا» بـ «صوفيا» جانباً، لكي يعترف لها بتأثره بالمودّة التي تبديها السيدة «فولكوف» نحو أخته. ووثب إلى شفتيه السؤال الذي كان يدور بخلده ويعذبه.

- كيف تجدينها؟

- من؟

- «داريا فيليبوفنا»! أليست امرأة متميزة، تلفت الأنظار؟

فسألته «صوفيا»:

- من أي وجهة نظر؟

فتمتم، حائراً:

- لا أدري.. على أي حال، فهي متميزة، فاتنة، لطيفة، وودودة..

فقالت «صوفيا»:

- متميزة؟! كلا! فاتنة؟ ربما، فهذا يتوقف على الأذواق، لطيفة؟ إني أجد صعوبة في تصديق ذلك، ودودة؟ هذا أمر مؤكد!

فعجز عن تبيّن نسبة السخرية والصدق في جوابها، وتمتم:

- لقد ظننت أنكِ يمكن أن تتخذيها صديقة لك. ولكنّ الدهشة التي بدت في عيني «صوفيا» جعلته يتخلّى عن فكرته.

وسألته:

- لماذا تريد أن اتخذ هذه المرأة صديقة لي؟ فليس بيننا شيء مشترك يجمعنا، وأنا لا أهتم بها ولا تعنيني بشيء، واعتقد أنها، هي أيضاً، لا تهتم بي ولا أعنيها بأي شيء.

فأدرك «نيقولا» أنّ لا جدوى من الإلحاح. ولكنه استغرب أن يكون لـ «صوفيا»، وهي القريبة جداً منه، رأي مختلف جداً عن رأيه فيما يتعلّق بصفات ومزايا «داريا فيليبوفنا».

وقطع عليهما الحديث، أحد الخدم، معلناً أنّ العشاء جاهز.

وقدّم «ميشيل بوريسّوفيتش» ذراعه للسيدة «تومانوفّ» للانتقال إلى المائدة. كان منزعجاً. لأنّ الكونت والكونتيسة، وحدهما، من بين جميع الحاضرين، لم يهنئاه بعدُ، بكنتّه. فهل سيذهبان دون أن يقولا له، كما قال الآخرون بأنها باهرة السحر والجمال، وإنّ لكنتها الفرنسية، عندما تتكلم اللغة الروسية، كانت محبّبة وساحرة، وإنها تلبس وتتزين بشكل مدهش، وألف عبارة من عبارات الإطراء والمديح المشابهة لهذه؟ وإذا ذهبا دون أن يقوما بذلك، فإنه لن يدعوهما بعد الآن أبداً. وهو يرى أنّ مزايا «صوفيا» بارزة للعيان. كان يجول بنظره على جميع المدعوّين. ولا يرى غيرها. وطعام العشاء، الذي كان نصفه من المأكولات الباردة، والنصف الآخر من الساخنة رافقته عدة أنواع من الخمور.

وأثناء تناول لحم الطيور. انحنت الكونتيسة «تومانوفّ» نحو «ميشيل بوريسوفيتش» وهمست في أذنه:

- إنها رائعة حقاً

فاعتقد في بداية الأمر أنها تتكلم عن «السماني» التي كانت تقضم وتمصّ قوائمها حتى العظم، ولكنها أوضحت ما تعني، قائلة:

- كنّتك هي إحدى روائع «باريس»، الحقيقية!

فانتفخت أوداجه، غبطة وسروراً، وفيما بعد، وعند مغادرة الكونت المائدة، قال له بدوره: «رائعة حقيقية من روائع «باريس»، كنّتك» فليس هنالك من شك بأنّ الزوج والزوجة، قد تباحثا في الموضوع، واتفقا على استخدام العبارة نفسها.

ولأنّ الوقت كان قد تأخر، فقد دعا «ميشيل بوريسوفيتش» ضيوفه للمبيت تلك الليلة في منزله. ولكنهم أكدوا له بأنّ الطقس جميل في تلك الليلة، وأنهم يفضلون الرحيل، فشعرت «صوفيا» بارتياح مكتوم، لأنّ ذلك

اليوم، مع وجود جميع هؤلاء الضيوف، كان قد أتعبها كثيراً. وخرج الجميع ووقفوا في أعلى درج المدخل.

كانت العربات جاهزة، وكان هنالك ستة فلاحين من الذين يسميهم «ميشيل بوريسوفيتش»، متباهياً: بأنهم «المرافقون» قد امتطوا أحصنتهم، وفي يد كل منهم مشعل، لكي يرافقوا المسافرين حتى الطريق العام. وعبر ذلك الضوء المتأرجح، كانت تتحرك بسرعة ظلال المدعوين والخدم. وكانت النسوة تتعانق والأولاد يبدون نياماً وهم واقفون، وقد امتلأت جيوبهم بالسكاكر والفاكهة. وأتت بعض الكلاب وأخذت تقترب من الناس وهي تهزّ بأذنابها، آملة أن يداعبها أحدهم. وبعد أن تبادل الضيوف آخر عبارات وتحيات الوداع، صعدت كل أسرة إلى عربتها.

وصاح «ميشيل بوريسوفيتش»:

- في رعاية الله!

وتحرّك الركب. وعندما مرّت عربة آل «فولكوف» من أمام «نيقولا»، لمح، على ضوء أحد المشاعل، «داريا فيليبوفنا» وهي تبتسم له، بعينين ماسيّتين، وتلوّح بيدها الشاحبة، قبل أن تختفي العربة في الظلام.

٧

وحلّ الشتاء بعواصفه ورشقاته البيضاء، وطرقاته التي امّحت معالمها، وصمته الكئيب وبرده القارس. وتجمعّت حياه الأسرة في المسكن القديم ذي النوافذ المزدوجة الدرفات التي سدّت شقوقها باللباد، والمزوّد بالمدافئ الخزفية الشديدة الحرارة. وخُيّل لـ «صوفيا» أنها تنطلق في رحلة طويلة على متن باخرة محملة بالمؤن. كان سكان «كشتوفكا» وقد أصبحوا في عزلة عن بقية العالم يعيشون على مدّخراتهم من المواد الغذائية ومن العواطف. وكان المنزل، المنعزل في صحراء من الثلج، تمرّ به الأيام رتيبة وبانتظام. ووصل طرد من فرنسا، يحوي بعض الكتب الأدبية من مؤلفات «جان سبوغار»، «شارل فودييه»، وكتاب: «دراسة عن اللامبالاة في أمور الديانة» لمؤلفه «لامنّييه» وبعض الصحف القديمة التي جاء فيها أنّ «الليبراليين» قد حققوا نجاحاً كبيراً في الانتخابات التي جرت في شهر أيلول «سبتمبر» وأنّ لويس الثامن عشر متعب جداً، وأنّ قبعات السيدات الدارجة حالياً أصبحت كبيرة ومزدانة بمختلف الأشرطة الملوّنة، بينما أصبح الرجال يرتدون «الريدنجوت» البنية اللون والصدارة المخملية.

كان «نيقولا» يذهب إلى النادي أو إلى منزل آل «فولكوف» ليلتقي مع «فاسيا»، عندما كان الطقس يسمح بذلك. وفي أغلب الأحيان، أيضاً، كان «فاسّيا» هو الذي يأتي ليزوره. كانت رفقتهما قد تدعّمت وقويت، عبر العطالة وعدم قيامهما بأي عمل منتظم. كانت آراؤهما مشتركة فيما يتعلق بالإعجاب بالنظريات الدستورية الفرنسية وبالشعر الرومانسي

الألماني، هذا الإعجاب الذي يرقى لديهما إلى درجة التقديس والعبادة. وفي كل مرة كانت «صوفيا» تستمع لمناقشاتهما، كثيراً ما تستغرب مثابرتهما على ترديد ومناقشة الأفكار نفسها التي كانا كليهما، متفقين عليها منذ زمن طويل. وبعد أن عرفت «صوفيا» «فاسيا» جيداً، لم تقيّمه بشكل أفضل. فمع اعترافها بأنه يتمتع بثقافة جيدة، بالفضيلة، وبأسلوب حسن بالتعامل مع الناس، كانت ترى في وجهه شيئاً ينمّ عن التكلّف، وفي صوته نبرة مشوبة بالتملق المصطنع، وهذا ما يجعلها تبدو ظالمة حياله. وكامرأة، كانت تتفهم شعور «ماري» وتصرّفها، عندما تهرب، حالما ترى أنه قد أتى.

وفي تلك الفترة الأخيرة، كانت الفتاة قد تقرّبت كثيراً من زوجة أخيها، وإن كان بعد ذلك لم يرد بينهما أيّ ذكر لـ «فلاديمير كربوفيتش سيدوفّ» أو أي حديث عنه، فإنّ «ماري» بدت مرتاحة لأنها لم تعد تحمل عبء سرها بمفردها. وكانت تحب أن تذهب مع «صوفيا» في العربة لزيارة بعض القرى التي تملكها الأسرة:

«كرابيسنوفو»، «تشير نياكوفو» «شتكوفو»، «دوبينوفكا»، والتي كانت متشابهة فيما بينها. وكان الفلاحون الأرقاء «الموجيك» الذين يتكوّرون في بيوت حقيرة كالأوكار، يعيشون حياة الحيوانات التي تمضي فترة فصل الشتاء. ولحرصهم على الدفء وعلى قلة الحركة، نادراً ما كانوا يخرجون، أو يعملون على تهوية بيوتهم، بل ينصرف جميع أفراد الأسرة إلى صنع المعالق الخشبية، والأحذية، والسلال من القصب وجذوع بعض النباتات، وكذلك الشباك لصيد السمك. وفي قرية «شكتوفا»، حقق الفتى «نيكتيا» بعض التقدم في تعلم القراءة والكتابة. وكانت «صوفيا» تتألم عندما ترى مسكن ذويه السيئ، ومعيشته التي يبدو من خلالها أنه يعاني من سوء التغذية، مرتدياً تلك الملابس الرثة، بين أبٍ فظ وخالةٍ تبدو البلاهة واضحة على وجهها، وعلاوة على ذلك كان يبدو أثر جرح على جبين الفتى.

وقال الأب:

- الوكيل هو الذي ضربه، وحسناً فعل! لأنّ الفتيان من أمثاله لا يريّون إلا ضرباً بالعصا وهل كان بحاجة لأن يكتب تلك الرسالة؟ لم يتكلم أحد عنها، ومع ذلك فالجميع يعرفون كل شيء، في القرية والوكيل العجوز كان غاضباً، وهذا أمر يمكن تفهّمه، وفي أول فرصة تتاح له، سيضرب «نيكيتا» مرة أخرى، وسأقول أنا، والده، أنّ الوكيل معه الحق أن يفعل ذلك، وعند الحاجة، إذا كان ذراعه ضعيفاً، فإني أعيره ذراعي لأننا، كما تعلمين يا سيدتي، مهما كنّا فقراء، فنحن نحب وطننا، نؤيد النظام، والفضيلة...

كان قد احتسى خمراً. يتلعثم بالكلام واللعاب يسيل على جانبي لحيته الشقراء. وترنّح وكاد يسقط فاستند على طرف المنضدة.

كان «نيكيتا» يتأمله بنظرات يمتزج فيها الخوف بالقرف والاشمئزاز. وفي «الإيسبات» المجاورة شاهدت «صوفيا» البؤس نفسه، بصور وأشكالٍ مختلفة أخرى. كان معظم الفلاحين يشكون بأنّ ليس لديهم المؤونة الكافية من أجل فصل الشتاء. فالمواسم كانت سيئة، لأنّ العواصف والثلوج والجليد، وقد حصلت قبل أوانها قد أتلفت المحاصيل. وكان لا بدّ من مضاعفة كميات الملفوف والحبوب لتأمين معيشة سكان القرية. فوعدتهم «صوفيا» بأنّ سيدهم لن يتركهم يعانون من الجوع.

وفي اليوم التالي، بينما كان «ميشيل بوريسوفيتش»، و «نيقولا» يجلسان في المكتب، متقابلين، يناقشان قضايا ومشكلات الأملاك، سمعا رنين بعض الأجراس، فاقتربا من النافذة: كانت «صوفيا» و «ماري» عائدتين من نزهة قامتا بها بالزحافة. كانتا ملتفتين بملابس صوفية سميكة وقد علقت بها بعض آثار الثلج، وكان يرافقهما شخص، لم يستطع «نيقولا» وأبوه أن يعرفاه. فاستأنفا حديثهما، ولكنّ «ميشيل

بوريسوفيتش» بدا شارداً، مستغرقاً في التفكير، وفي كل لحظة، كانت نظراته تتجه نحو الباب. وأخيراً سمع وقع أقدام تقترب، وبدت «صوفيا»، كان البرد أثناء تلك النزهة قد ورّد خديها. وقوى بريق عينيها، فقالت، موجهة الكلام إلى عمها:

- لقد اضطررت إلى القيام بمبادرة، وآمل أن تؤيدني فيها...

فقال، وهو يلقي عليها نظرة تنم عن العطف والمودة:

- بالتأكيد، ولكن، من أين أنت قادمة؟

- من «شكتوفو»، وقد اصطحبت معي هذا الفتي: «نيكيتا»...

فانقبضت أسارير «ميشيل بوريسوفيتش» وضاقت حدقتا عينيه تحت حاجبيه الرماديّين الكثيفين.

فاستأنفت «صوفيا» الكلام:

- إنه لم يعد يستطيع البقاء في القرية، لأنّ الوكيل ناقم عليه ولا يترك فرصة تمرّ دون أن يوبّخه ويضربه. وفكرتُ بأن من السهل أن نستخدمه في المنزل. فانزعج «ميشيل بوريسوفيتش» من هذه الفكرة، وشعر بأن كنّته، تتطاول على سلطته، وتلوى ذراعه مرة أخرى. فقد اتخذت هذا القرار وهي واثقة بأنه لا يستطيع مخالفتها. ولأنه تأخر في الإعلان عن رأيه، أو إظهار غيظه، فإنّ «نيقولا» هو الذي ردّ عليها، معترضاً:

- هذا غير ممكن، يا «صوفيا»! وإذا كان يكفي أن يشكو أي فتى بأنه يعامل معاملة سيئة في القرية، لكي تأتي به ليقيم معنا في المنزل، فعما قريب سيمتلئ المنزل بالفتيان العاطلين عن العمل الذين سيأتون من كل القرى! وعلى أي حال، كان بإمكانك أن تأخذي رأي أبي ورأيي، في هذا الموضوع..

فانزعج «ميشيل بوريسوفيتش» من لهجة «نيقولا» القاسية والآمرة التي تحدث بها إلى «صوفيا». فإذا كان هنالك من يستطيع أن يرفع صوته،

فهو وحده الذي يمكنه أن يفعل ذلك باعتباره ربّ الأسرة وسيد «كشتوفكا». ولكنه تمالك نفسه، بدافع من اللباقة، بينما كان ابنه، وهو الغندور في الخامسة والعشرين من عمره، يحاول القيام بدور الزوج المسيطر والمتسلّط. وكلّ ما كان يذكّر «ميشيل بوريسوفيتش» بأنّ لـ «نيقولا» حقوقاً على هذه المرأة الشابة، كان يزعجه ويغيظه.

وأخيراً، قال «نيقولا»:

- سأعيد «نيكيتا» إلى بيت أهله، هذا اليوم بالذات!

فانفجر الغضب الذي كان يستبدّ بمشيل بوريسوفستش»، على ابنه، وصاح بأعلى صوته:

- وما دخلك في ذلك؟

فقال له «نيقولا»:

- ولكن، يا أبي لا حاجة لنا بهذا الفتى!

- إن زاد عدد الخدم واحداً، أو نقص عددهم واحداً، ماذا يغير ذلك في الوضع؟! وأنت لن ترفض هذه الفرحة لزوجتك!

فأدهش هذا الردّ «نيقولا» كثيراً. في حين أنّ «ميشيل بوريسوفيتش» اعتبر أنّ في هذه الدهشة شيء من الوقاحة. فهل قال كلاماً غريباً يدعو إلى الدهشة، كي ينظر إليه ابنه بعينين جاحظتين؟!

وتابع كلامه، وهو بادي الانزعاج:

- لديك موهبة تضخيم الأمور التافهة، إلى درجة غير معقولة، ولا يمكن الاعتماد عليك في الأمور والقضايا المهمة، ولكن، عندما يتعلق الأمر بالتوافه والأمور البسيطة، عند ذلك تثبت وجودك، تتألق، وتمثل دور الرجل القوي!...

كانت رغبته بأن يجرح خصمه قد دفعته إلى أبعد مما كان يريد. وتساءلت «صوفيا» عن مبرّر هذه الخناقة: «فكل ما يقوله أو يفعله ابنه يثير غيظه! هل هذا، لأنّ «نيقولا» شاب، وهو لم يعد كذلك؟!»

وقالت بأعلى صوتها:

- تمالك نفسك، يا أبي، أرجوك! فـ «نيقولا» لا يستحق أبداً هذا التوبيخ الذي توجهه له!

فردّ عليها «ميشيل بوريسّوفيتش» بلهجة ساخرة:

- أهنئك على تسامحك، ولكنك إذا كنت تتسامحين معه في بعض الأمور فيما بينكما وفي حياتكما الخاصة، فإنك لا يمكنك أن تجعليني أتردّد في منعه من التصرف بتلك الطريقة في حضوري.

- إنه لم يفعل ما يدعو للتسامح!

- آه! أنت هكذا ترين الأمر؟ إنّ في هذا شيئاً من اللامبالاة الغريبة! أما نحن الروس، فإننا نكنّ احتراماً شديداً للمرأة، لدرجة أننا نعتبر أنّ الشرف يقضي علينا بأن ندافع عنها في كل ظروف الحياة! فهل هذا الأمر مختلف في فرنسا، عما هو في روسيا؟

- دعني من مقارناتك بين فرنسا وروسيا! وأنا لست بحاجة لأن تؤيدني وتدعمني! وإذا أخطأ «نيقولا» بحقي، فأنا التي عليّ أن ألفت نظره إلى ذلك!

كان «ميشيل بوريسوفيتش» في غاية الإثارة. فهذا الغضب الأنثوي أفعمه حبوراً، لأنه موجّه له وحده. ففي ثورة وفوضى غضبها، كانت «صوفيا» تعطيه جانباً من ذاتها، كما لو أنها تعطيه إياه في ثورة وفوضى الحب. كان قد أشعل النار وأخذ يستدفئ على لهيبها.

وقال بسذاجة مصطنعة:

- وهل يمكن أن أكون قد أغضبتك، وأنا أحاول تأييدك والدفاع عن رأيك؟

فهزّت «صوفيا» كتفيها. و «ميشيل بوريسّوفيتش» الذي فقد معنى وسياق الحديث، أصبح شارد اللبّ، يولي انتباهه لكثير من الأشياء

البسيطة، كتموجات شعر «صوفيا»، التطريز الذي يزيّن مشدّها، الشكل الظريف الذي تبدو عليه أظافرها. وجعله ينتفض صوت رجل، كان هذا الرجل هو ابنه. إيه، لقد استيقظ هذا!

وصاح:

- هذا النقاش فظّ وبشع! وكيف أبدو أنا بينكما؟! وإن بقي هذا الفتى أو ذهب، فهذا لا يهمني أبداً! افعلا ما يحلو لكما!...

وخرج، بعد أن صفق الباب بقوة.

فقال «ميشيل بوريسوفيتش»:

- يا له من خروفٍ كَلِب!

وكانت عيناه تشعّان سروراً. واندفعت «صوفيا» بسرعة وراء «نيقولا» ولحقت به إلى الغرفة. كان جالساً على حافة السرير، وقد اسند مرفقيه على ركبتيه، وأحنى رأسه. وقال:

- أبي يكرهني!

فقالت له «صوفيا»:

- كلا، إنّ طبعه كريه، فهو يغضب لأتفه سبب. ولأنك أنت الأقرب إليه، في المنزل، وأنت الذي يحبّك، أساساً، أكثر من الجميع، ولذلك فهو يهاجمك أنت، دون غيرك، عندما يزعجه أي شيء!

ولم تكن مقتنعة بما تقول، ولكنّ «نيقولا» كان يبدو مرهقاً، مهموماً، ولذلك أرادت أولاً أن تواسيه، لكي لا يتألم كثيراً من جرح أصابه في كبريائه.

واستأنفت الكلام:

- لو إني علمت بأن ذلك سيحدث، لتركت «نيكيتا» حيث كان! فهل تريد أن نعيده، أنا وأنت، إلى القرية؟

فقال، ساخراً:

- آه! كلا! إنّ ذلك سيغيظ أبي كثيراً، لأن هذا الفتى، بالنسبة له، أصبح يتمتع بجميع المزايا الحسنة، لمجرد اهتمامك به!

- لكم أنت مضحك!

- لا داعي لأن تقولي هذا لقد غيرتِ أفكار أبي تماماً وأثرتِ مشاعره! ويكفي أن ترفعي أصغر أصابعك لكي يفرح وينتشي، وأن تفتحي فمك لكي يؤيدك ويحبّذ رأيك، أن تذهبي إلى النزهة، لكي يشعر بالسأم، وهو ينتظر عودتك!...

- ولكنك تنسى أنه لا يمرّ يومان دون أن يحدث بيننا خلاف شديد!

- هذا النوع من الخلافات، هو يتقصّدها ويبحث عنها، ويجد فيها منتهى المتعة والسرور!

- خلاصة الأمر، أي أنك تلومه لأنه يشعر بالمودّة نحوي اليوم، كما كنت تلومه فيما مضى لكونه كان يظهر لي العداء! آه! لكم أنتم معقدون، أيها السادة الروس! قالت ذلك بمرح واضح.

فرد بقوله:

- لا تضحكي، يا «صوفيا»، أؤكّد لك أني أتساءل أحياناً، ماذا أفعل هنا. نحن متزوجان وليس لنا حياتنا الخاصة والحميمية. وهذا البيت ليس بيتنا. وبشأن كل أمر يجب علينا أن نأخذ رأي أبي، وأخيراً، فليس بيني وبينك بل بينك وبين أبي يُقرّر كل شيء! وكثيراً ما أشعر بالأسف لمغادرتنا «بطرسبورغ» آه، لو أني أستطيع استعادة وظيفتي في الوزارة...

- هنالك أيضاً، لم تكن سعيداً، يا «نيقولا»!

- لأننا لم نكن نملك من النقود ما يكفينا لكي نعيش كما كنت أرغب أن نعيش! ولكن، مع مرور الزمن، كان لا بدّ من أن يتحسن وضعنا، فجميع الآمال كانت متاحة لي، هناك!

- وهي متاحة لك هنا أيضاً!

فتنهد، وبدا وكأنّ جسمه قد فرغ من محتواه:

- أشعر أني عديم الفائدة.. ولديّ انطباع بأني عدت طفلاً صغيراً...

فقالت وهي تجلس بقربه وتمرّ بيدها على شعره:

- وهل سبق لك أن كنت غير ذلك؟!

وكانت قد لاحظت أنّ المزيد من الحزن، كالمزيد من الفرح، جعله يبدو أصغر سناً، وأكثر شباباً، وتبادر إلى ذهنها:

«إذا أنا لم أنجب له طفلاً، فإنه سيظل هكذا!». وفي كل مرة كانت تتوقف عند هذه الفكرة، كان يزداد شعورها بالألم. وعلى الرغم من انقضاء الوقت. فإنها لم تكن تقتنع وترضخ لحرمانها من طفل ظلت لزمن طويل تأمل بإنجابه، ثم حملته، وولدته. وعلى افتراض أنها أنجبت طفلاً آخر، ألا يمكن أن يموت، هو أيضاً، بعد بضعة أيام؟ لقد طمأنها الطبيب بشأن ذلك، ولكنها لم تكن تستطيع تصديقه. وكلما تأملت «نيقولا»، كانت تقدّر أنّ همومه كرجل، خفيفة وسهلة، إذا ما قورنت بالهموم التي تعاني منها هي.

وقالت له:

- تبدو محبطاً، يائساً، ومع ذلك هنالك كثير من الأعمال ينبغي أن تقوم بها في هذه القرى البائسة التي تحيط بنا! وأنا بحاجة لك لكي تساعدني، وعلينا أن نعمل معاً، فأنا لا أستطيع أن أعمل شيئاً بمفردي، وبدون مساعدتك!

كانت تمتدحه عمداً، فرفع رأسه. وبدا في عينيه بريق ينمّ عن الاهتمام. فحدّثته عن خشية الفلاحين من الفاقة والمجاعة:

- لقد وعدتهم بأن نمدّهم بمزيد من المؤونة، عند الضرورة.

فقال «نيقولا» وقد بدرت منه ضحكة لاذعة:

- إذا طلبت ذلك بلطفٍ من أبي فإنه لا يمكن أن يرفض لك هذا الطلب!

فتظاهرت بأنها لم تسمعه. وقالت:

- يبدو، على الإجمال، أنّ الزراعات ليست موزعة بشكل مناسب. ألا يوجد مساحات واسعة من الأرض، مهملة، ولا تستثمر، إلى الشمال من «شتكوفو»، عند تلك الرابية؟

- بلى.

- لماذا لا يزرعون فيها بطاطا في فصل الربيع، والبطاطا مغذّية جداً. ويستطيع الفلاحون أن يجعلوا منها مؤونة جيدة لفصل الشتاء.

وبدرت من «نيقولا» تكشيرة، تنم عن الاستغراب:

حقاً، إنّ لدى زوجته أفكاراً غريبة في كل المجالات. وأخذ يشرح لها أنّ زراعة البطاطا لا تنجح في روسيا. والحكومة تشجع كثيراً الملاكين على الانطلاق في هذه المغامرة، ولكنّ معظمهم ما زالوا حذرين ومتردّدين. وفي «بسكوف» من بين جميع أعضاء النادي الذي يرتاده «نيقولا»، اثنان فقط كتبا إلى «سان بطرسبورغ» للحصول على درنات البطاطا.

فقالت «صوفيا»:

- إيه! حسن، فلنفعل كما فعل هؤلاء! فالتجربة تستحق أن يبذل الجهد للقيام بها. وفي البداية، لن نزرع سوى قطعة أرض صغيرة!

فقال «نيقولا»:

- علينا أيضاً أن نطلب الإذن من أبي، قبل القيام بهذا العمل!

- هذا أمر مؤكد!

- ولكنه لا يطاق!

فاستاءت «صوفيا»:

- كل شيء يبدو لك أنه لا يطاق، يا «نيقولا»! أبوك، الأراضي، الفلاحون، وربما أنا أيضاً!...

وكان يهمّ بالرد بسخرية لاذعة، عندما حدث تقارب في ذهنه، أوضح له كل شيء: هذه الدرنات ذات الأصل الأجنبي أليست رمزاً للأفكار التحررية، وقد ولدت في البلدان الأكثر تقدماً والأرفع حضارة في أوربا، ستنبت وتزدهر، ذات يوم على الأرض الروسية؟

وهكذا فإنّ حب الحرية والديمقراطية يسير جنباً إلى جنب مع التقدم الماديّ. ويستحيل على المرء أن يكون مؤيداً لحقوق الإنسان ومعارضاً لزراعة البطاطا. وفي هذه المرة أيضاً، كانت «صوفيا» هي التي أجرت الكشف عن هذه الرؤيا، بل عن هذه الحقيقة. آه! ما هذا العناد، وهذا الإصرار لدى هذه المرأة؟! ويا له من حب لديها للتجديد، للنضال، ولبلوغ الكمال المضني والمرهق، في كل شيء!

وعندما سيسمع «فاسّيا» بأنهما قرر زراعة البطاطا، سوف يفرح كثيراً ويتحمس للمشروع! وضمّ «نيقولا» «صوفيا» بين ذراعيه، وأوسعها تقبيلاً، وهو يصيح:

- إنك أعجوبة! إنك فريدة بين بنات جنسك! إني أعبدك! وبكل فرح وسرور، أخذا يستعدان لتناول طعام العشاء.

ولكنّ بداية الوجبة كانت كئيبة، لأنّ «نيقولا» ووالده كان كل منهما يعتبر أنّ الآخر قد وجّه له إهانة، ولم يتبادلا الكلام. ولم يتلطف الجو ويذوب الجليد، إلا عند تناول الحلوى، وذلك بفضل جهود «ماري» والسيد «لوسّور». فاستغلت «صوفيا» هذا الانفراج لتحوّل مجرى الحديث إلى موضوع زراعة البطاطا.

و «ميشيل بوريسوفيتش» الذي أسف بعض الشيء لتلك المشادّة التي أجراها مع ابنه، لم يبدِ أي صعوبة للموافقة على المشروع.

وبعد مغادرة مائدة الطعام، ذهبت «صوفيا» إلى جناح الخدم لتستطلع أخبار الفتى الذي تتولى حمايته. و «فسيليسّا» التي كانت، بشكل من الأشكال، مدبّرة المنزل، فقد عثرت على ثياب نظيفة للفتى. وقصّ له أحد الخدم شعره. وعلّمه «أنتيب» كيف يؤدي التحية للمدعوين عند نزولهم من العربة. وفي بداية الأمر، تقرر أن يعمل «نيكيتا» في نقل الماء، وتهيئة الحطب لإشعال المدافئ، وشحذ سكاكين المطبخ، وتنظيف وجلي الطناجر. كان يبدو قلقاً وسعيداً في آن واحد. وضاع بين مجموعة الخدم، وتوارى عن نظر «صوفيا» التي نسيته، لبضعة أيام.

ثم، صباح ذات يوم، عندما عادت إلى غرفتها، بعد تناولها طعام الإفطار، وجدت دفتراً على منضدة زينتها، فكانت أول حركة بدرت منها تنمّ عن الغضب: كيف تجاسر هذا الفتى على الدخول إلى غرفتها؟ هذا ما تؤدّي إليه المبالغة بإظهار العطف وطيبة القلب نحو الأتباع والمرؤوسين! ولكنها، بعد ذلك، قالت في سرها إنه لا بدّ يجهل العادات والتقاليد، والأساليب المتبعة في مثل هذه الحالات وأنّ شعوراً لطيفاً قد دفعه إلى القيام بهذا العمل، وأرسلت من استدعاه لها.

وسألته بقسوة الأم التي تسأل ابنها:

- من سمح لك أن تأتي إلى هنا، أثناء غيابي؟

- لا أحد، يا سيدتي.

- هل تعلم بأنّ هذا عمل سيئ، وأنه ممنوع؟

- كلا، يا سيدتي.

- لو أنّ أحداً فاجأك هنا، كنت ستجلد بالسّوط، وماذا كنت أستطيع أن أقول هذه المرة، لكي أدافع عنك؟

كانت تجد متعةً في توبيخه وإخافته.

فقال بصوت خافت:

- كان يمكن أن يكون الأمر سيّان، بالنسبة لي، فلا بد من أن أحضر لك الدفتر، مهما كان الثمن...

- هل قراءتي لما تكتب، لها إذن، كل هذه الأهمية؟

فأومأ برأسه، ولم تعد تبدو لعيني «صوفيا» سوى كرة من الشعر الأشقر، القصير، وقد قُصّ حديثاً. وسمعت صوت تنفسّه المتقطّع: «لكم كان قلبه يخفق بقوة!» وفتحت الدفتر، وحاولت قراءة الأسطر الأخيرة:

«أنا في البيت الكبير، ولكني لم أعد أرى، تقريباً، المرأة التي أحسنت إليّ. الخدم طيبون معي. على مائدتهم الحمص، وغيره من الأطعمة. وأنام مع الرجال من الخدم في القاعة المشتركة، على فراش من القش. وسائقو العربات وحراس الأبواب هم الذين يشخرون أكثر من الآخرين. ولا أفهم لماذا يحتاج البيت لكل هؤلاء الناس، من أجل خدمة خمسة أو ستة أشخاص. ومعظم الخدم لا يعملون شيئاً. وفي لقرية، العاطلون عن العمل، كهؤلاء، ينالون نصيبهم جلداً بالعصا. أحب الشتاء، وعندما أنظر إلى الثلج، كل شيء يصبح نظيفاً في ذهني. ولو كنت غنياً وحراً، لتجولت مسرعاً بالعربة في السهول البيضاء لأجلب منها أغاني الرياح، وأكتبها على الورق ثم أبيعها، وسيدفع لي بها ثمناً مرتفعاً، وعند ذلك أصبح أكثر غنى وكذلك أكثر حرية...»

فابتسمت «صوفيا» أغلقت الدفتر، وفكرت: «ينبغي إرساله إلى إحدى المدارس. فإذا درس وتعلم بشكل جدي، فيمكن أن يُعتق بعد ذلك. وأتوقع له مستقبلاً زاهراً، ومنصباً مرموقاً في إدارات الدولة...»

ولكن عندما عادت وألقت نظرة على «نيكيتا» الذي كان يقف أمامها، حافي القدمين، ذليل النظرات، أدركت أنّ المسافة بعيدة بين حلمها الفرنسي والواقع الروسي. فشعرت بضعف الهمة، وأنها تحاول أن تنقل حجراً ثقيلاً، بل صخرة ضخمة مغمورة في الأرض منذ ما يربو على ألف

عام. وكل ما تستطيع أن تعمله لهذا الفتى هو أن تمنحه عطفها ومحبتها وحمايتها، وأن تقدم له النصائح والإرشاد. كان قد رفع رأسه وأخذ يتأملها كما لو أنها كانت أيقونة مقدّسة. وشعرت باللوحة الغريبة التي يشكلانها وهما يقفان معاً، جنباً إلى جنب، فقالت له، بشكل مفاجئ:

- خذ دفترك، وانصرف.

فسألها:

- ينبغي ألا أكتب بعد الآن؟

واتسعت عيناه الزرقاوان. وظنّت أنه يكاد يبكي فهل هي تهدهد طفلاً، صبياً كبيراً وهو يبكي والدموع تنسكب من عينيه! عبرت هذه الفكرة ذهنها بسرعة السهم، فشعرت باضطراب شديد. وقالت له:

- بلى، استمر في الكتابة، فهذا حسن جداً، ولكن عليك ألا تجلب لي أوراقك، بل يجب أن تنتظر حتى أطلبها منك. اذهب بسرعة، الآن. هيا، انصرف...

وظلت تتألم بشكل غريب، وهو يسير القهقرى، إلى أن خرج من الباب.

★★★

وفي أواخر شهر شباط «فبراير» تلقى «نيقولا» رسالة من «كوستيا لادومبروفّ» يخبره فيها بعبارات يتصنّع فيها التأثر، بأنّ فرنسا بأكملها قد ارتدت ملابس الحداد، لأنّ الدوق «دي بيرّي» قد اغتيل عند خروجه من دار الأوبيرا، من قبل عامل «سرّاج»، يدعى «لوفيل». وعلى جناح السرعة كتبت «صوفيا» إلى أصدقائها في «باريس»، آل «بواتوفان» طالبة منهم معلومات إضافية عن الحادث، فردّوا عليها باقتضاب وبمداورة، وذلك، دون شك بدافع الحكمة. وبالمقابل، أرسل لها ذووها نسخة من صحيفة: «لي ديبا»

«المناقشات» التي روت الحادث بأسلوب عاطفي مؤثر. واستدعى «نيقولا» صديقه «فاسيا» لمناقشة هذا الخبر. وكانت خلاصة رأيهما أن هذا الاغتيال السياسي، بعد اغتيال «كوتزوبو» من قبل الطالب «سند» سيدفع عما قريب جميع الملوك والحكام في العالم إلى النزول عند الإرادة الشعبية والاعتماد عليها، وفعلاً، فبعد فترة وجيزة، انتشرت إشاعات ووصلت إلى «بيسكوف» تتحدث عن اضطرابات أحدثها الشباب في ألمانيا، ايطاليا وفي أسبانيا، وبدت أوربا وكأنها قد انتابتها الحمى. ولكن في روسيا، لم يتغير أي شيء. وكما في كل عام، بشّرت عودة «القبّرات» بحلول فصل الربيع. فدفئ الجو وانتفخت أولى البراعم على أغصان الأشجار، وأخذت صفائح الثلج التي كانت متجمدة تنزلق عن الأسطحة، وصارت الزحّافات تغوص وتعلق في الطين. وأصدر «ميشيل بوريسوفيتش» أوامره بإزالة درفات النوافذ المزدوجة، وبعد انتهاء الصوم الكبير، أخذ الطبّاخ يعمل وحوله مساعدوه على تهيئة ما يلزم للاحتفال بعيد الفصح المجيد، كالبيض المسلوق الملوّن ومختلف أنواع الحلوى والمشروبات. وبمناسبة هذا العيد الكبير، ذهب جميع أفراد الأسرة إلى «شكتوفو»، لكي يستمعوا، وكل منهم بيده شمعة، لقدّاس منتصف الليل. وفي اليوم التالي، تقبّل «ميشيل بوريسوفيتش» محاطاً بابنه، ابنته وكنته، تهنئة الخدم بالعيد. وقدّم لكلّ منهم قطعة قماش كهدية بمناسبة العيد. وحسب العادة، ذهب «نيقولا» بالعربة للقيام ببعض زيارات المعايدة والمجاملة، بينما بقيت «صوفيا» و «ماري» وأمامهما مائدة تحمل كثيراً من المأكولات والمشروبات لاستضافة الجيران الأقربين الذين يأتون ليقدّموا التهاني بمناسبة العيد. وتساءلت «صوفيا» عما إذا كان «فلاديمير كريوفيتش سيدوفّ» لديه الجرأة على الحضور. ولكن ها هو قد أتى، في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر، في الوقت الذي كان فيه الصالون يغص بالناس. وحسب التقاليد المتّبعة. لم تكن «صوفيا» ولا «ماري» تستطيعان

الامتناع عن السماح له بقبلة السلام الثلاثية. واقترب من الفتاة، مصرّحاً بتحية العيد التقليدية:

- المسيح قام!

فهمست «ماري» وهي تردّ له التحية:

- حقّاً، قام!

وتركته، وهي شاحبة كالأموات، يقبلها ثلاث مرات. ولم يكد «سيدوف» يلامس خديها بطرف شفتيه. ولكنه عندما ابتعد كادت تفقد توازنها. وكان على «صوفيا» بدورها أن تتلقى التهنئة نفسها وكذلك القبلات الثلاثة تحت أنظار جميع الحاضرين. وعندما غادر «سيدوف» الصالون، لاحظت أنّ شقيقة زوجها قد اختفت أيضاً. وبعد عشر دقائق، سمعت وقع حوافر حصان، وهو يبتعد في المشى. وعادت «ماري» وهي تبدو ساهمة، شاردة اللب كمن يمشي وهو نائم.

فسألتها «صوفيا»:

- هل أمضيتِ برهة بمفردك معه؟

فأجابتها «ماري»:

- كلا، لقد صعدت إلى غرفتي، ولم أره، حتى عندما ذهب..

فأدركت «صوفيا» أنّ الفتاة تكذب، وقد أحزنها ذلك وعاد «نيقولا» في وقت متأخر، تلك الأمسية، وهو مسرور جداً من الزيارات العديدة التي قام بها، حيث كان قد عانق جميع السّادة والسّيدات الذين يعرفهم، وتناول الحلوى والشراب في جميع المنازل، تغمره المحبة المسيحية للجنس البشري. وكان تأثره شديداً لدرجة أنه كان يرفض أن يأوي إلى فراشه بعد أن تجاوزت الساعة الحادية عشرة. واقتادته «صوفيا» إلى غرفتهما. وفي السرير، ظلّ يروي لها أحداث يومه الذي أمضاه في زيارة الأصدقاء. وبدافع من اللباقة والحذر حدّثها عن الجميع باستثناء «داريا فيليبوفنا»، والحال هي أنه كان

قد أمضى أمتع الأوقات بقربها، وكان يتخيلها جالسة قرب «السّماور» بعينيها الباسمتين، بجبينها الأبيض، وبخديها الموردّين، ويقول:

- في منزل آل «سادو فنيكوف» كان يوجد كثير من الناس لدرجة أنّ الزائر لا يجد موطئ قدم!

واقتربت «صوفيا» منه وأوت إلى دفء حرارته وعبير أنفاسه، فمد يده إلى المصباح الزيتي ليضعف ضوءه، وهو يقول بلهجة تنم عن الفرح الشديد:

- أحبّك! فقدّمت له شفتيها، ولم تفكر بعد ذلك إلا بالسعادة التي ستحظى بها.

★★★

وفي اليوم التالي، تبيّن لـ «صوفيا» أنها قد أصيبت بالبرد، كان ذلك بدون شكّ بسبب مرافقتها للزوار إلى درج مدخل المنزل. وقد تجاهلت وعكتها خلال ثمانية وأربعين ساعة، ثم انتابتها الحمى، واقتنعت، بعد ذلك، بناءً على نصيحة شقيقة زوجها، بأن تأوي إلى سريرها. وفي ذلك اليوم بالذات، كان فلاحو قرية «شكتوفو» سيبدؤون زراعة البطاطا. والدرنات التي ستزرع وصلت من «سان بطرسبورغ» ووضعت عند الوكيل، والأراضي كانت قد حرثت وهيّئت قبل ذلك، والسماء التي نظفتها الرياح من الغيوم، يبدو أنها ستظل صافية حتى غروب الشمس. وذهب «ميشيل بوريسوفيتش» و «نيقولا» منذ الفجر للإشراف على العمل. وقد تألمت «صوفيا» لأنها لم تستطع مشاهدة البدء بمشروع كانت هي التي اقترحته وظلّت في سريرها، تسند رأسها على الوسادة، خيالها شارد على الطرقات، بينما كانت «ماري» تقرأ لها بصوت عالٍ رواية «كزافيه دي ميستر»: «أجذم مدينة آوست» وفجأة، دوّى في الممر وقع أقدام سريعة. وقرع أحدهم الباب وهو يصيح:

- سيدتي! سيدتي!

كان هذا صوت «نيكيتا»، ودون أن تفتح الباب، سألته ماذا يريد. فاستأنف الصياح:

- سيدتي! الأمور سيئة جداً في «شكتوفو»! «بيلاجي» أتت بالعربة من هناك. الفلاحون يرفضون أن يزرعوا بطاطا، ويقولون عنها إنها نبات شيطاني. وسيدنا المحبوب «ميشيل بوريسوفيتش» يريد أن يضربهم بالعصى!

فظلّت «صوفيا» برهة حائرة، مترددة، تفكّر مقدّرة ضخامة الخطر، وضعف وسائلها وإمكاناتها. فقد سمعت «نيقولا» وهو يتحدّث عن الفلاحين وكيف أنهم يبدون بعض التردّد والتمنّع، حيال زراعة البطاطا، ولكنها لم يخطر على بالها أبداً، أنهم سيتمادون في ذلك إلى حد التمرد.

وصاحت بـ «نيكيتا»:

- اطلب من الحوذي أن يُجهّز العربة. سنذهب إلى هناك!

فحاولت «ماري» عبثاً أن تثنيها عن الذهاب:

- وأنت على هذه الحالة؟... وحرارتك مرتفعة!.. وها أنت ترتعشين!...

وبعد ذلك بعشر دقائق، كانت العربة تقلّهما معاً، نحو «شكتوفو».

وعند وصولهما، بدت لهما القرية خالية، كأنّ وباءً قد حلّ بها وأفرغها من سكانها. ومرت العربة بين صفين من «الإيسبات» التي أُغلقت أبوابها وأظلمت نوافذها، ودارت حول الكنيسة التي بدت مهجورة هي أيضاً، ثم سارت في طريق وعر عبر الحقول. وبدا لـ «صوفيا» أنّ الأحصنة خاملة تجر نفسها جراً، وقد أثقلت حوافرها الوحول، فطلبت من الحوذي أن يسرع، فأجابها:

- لا ينبغي أبداً الإسراع نحو المصيبة، يا سيدتي!

وخلف غابة صغيرة من أشجار السندر، بدت مساحة من الأرض المحروثة، وقد تجمع هناك نحو ستين فلاحاً، شباباً وشيوخاً، حاسري

الرؤوس، وقد غاصت أرجلهم في الوحل. وأمامهم، وقف «ميشيل بوريسوفيتش» و «نيقولا»، وإلى الوراء قليلاً، وقف الأب «جوزيف» الذي كان وضعه يرغمه على أن يؤيد السيد الملاك، ولكنه، بالتأكيد لم يكن يحبّذ زراعة البطاطا. وعندما لمح «نيقولا» زوجته وشقيقته. أسرع نحوهما وطلب منهما العودة من حيث أتيتا. فأكدت له «صوفيا» أنّ صحتها قد تحسّنت، ولكنه رفض أن يستمع لها:

- مكانك ليس هنا! يمكن أن يحصل حادث مّا، بين لحظة وأخرى! فهؤلاء متوحشون، متوحشون وجهلة!..

فسألته «صوفيا»:

- وماذا يقولون؟

- إنهم يردّدون دائماً العبارات نفسها: «هذه النبتة لم تأتِ من بلد أرثوذكسي! وفي أقبية الدولة ومستودعاتها حيث تخزّن البطاطا ونسمع أصواتاً غريبة وخفية، ووقع أقدام، وضحكات وأغاني...»

- ألم يتحدث إليهم الأب «جوزيف»؟

- بلى، بالتأكيد! لقد رفع صليبه، وقرأ لهم في الكتاب المقدس.. ولكن دون جدوى، وضاع جهده! فقد أصغى إليه الفلاحون، ورسموا إشارة الصليب، ولكنهم لم يتقدموا خطوة نحو الحقل! عند ذلك يئس أبي من القضية وأرسل «أنتيب» إلى «بسكوف» لإحضار الجنود.

فصاحت «صوفيا»:

- لإحضار الجنود؟!

فقال «نيقولا»:

- نعم، وسيضربون خمسة أو ستة من هؤلاء الرجال بالعصي، عند ذلك سيتّعظ الآخرون، ويفهمون أنّ عليهم أن يشتغلوا.

- ولكن هذا فظيع!

- ليس هنالك حلّ آخر!

فتمتمت «ماري»، وهي تتشبّث بذراع زوجة أخيها:

- يجب أن نذهب!

فقالت لها «صوفيا»:

- ليس قبل أن تُسوّى هذه القضية! فانا لا أستطيع أن أصدّق.. لا أستطيع أبداً...

وأخذت تردّد هذه الكلمات وهي تحملق بعينيها نحو جمهور الفلاحين الذين ينتظرون العقوبة. كانوا جميعهم مألوفين بالنسبة لها، ولكنها لم تستطع آنذاك التعرف على وجوههم، فقد جمّدت ملامحهم فكرة غامضة، وقسّت حدقات عيونهم فأصبحت كالزجاج، وخدّرت أجسامهم. وعلى بعدٍ منهم، خلف سياج من العليق، اختبأت نساؤهم وبناتهم وقد أخذن يبكين ويولولن، كالنادبات على الموتى.

و «ميشيل بوريسوفيتش» الذي نفد صبره من سماعه ذلك العويل، صاح بهنّ:

- هل تسكتن؟ وإلا فسأجعل الجنود يضربوكنّ كما يضربون الرجال!...

فخيم الصمت على النساء اللواتي استولى عليهن الذعر.

واستأنف «ميشيل بوريسوفيتش» الكلام، وهو يتقدم نحو الفلاحين:

- أما أنتم، فإني أنصحكم للمرة الأخيرة بأن تفكروا جيداً. فمن عادتي أن أحافظ على وعودي. وسيأتي الجنود بسرعة إلى هنا: إما أن تزرعوا البطاطا وإما فإني أقسم لكم أنه لن تبقى بقعة صغيرة على ظهوركم سليمة، لم تمسها ضربات العصي!

كانت هذه هي المرة الثانية التي يوجّه لهم فيها هذا التهديد.

فأخذ الفلاحون يتهامسون فيما بينهم، ودفعوا الوكيل بمنكبيه، فركع على الأرض، وأخذت الريح تعبث بشعر لحيته، وقد امتلأت عيناه بماء عكر. وبسط ذراعيه، وأخذ يتوسّل:

- يا والدنا العزيز، يا من تحسن إلينا، افعل بنا ما تشاء على الأرض، اضربنا، اقتلنا!.. ولكن لا تجبرنا على إضاعة حقنا في الجنة، بزراعتنا هذه القذارات!...

فصاح «ميشيل بوريسوفيتش» مزمجراً:

- ولكن، أيها البلهاء المغفّلون، لقد سمعتم ما قاله لكم الأب «جوزيف» وهو رجل قديس! يعرف عمّا يتكلم!..

فقال الوكيل:

- الأب «جوزيف» يعرف كل شيء عن نور الله، ولكنه لا يعرف شيئاً عن ظلام الشيطان!

فردّ الأب «جوزيف» بصوت مدوّ:

- بلى، إني أعرف كل شيء: أعرف الخير كما أعرف الشرّ، والعالي والداني، وأنا أقول لكم: لا تخشوا شيئاً، لأني، قبل كل شيء سأبارك الأرض التي ستزرعونها!

وبدا أسود اللون، ضخم الجثة، كبير اللحية، بارز البطن، وهو يرفع عالياً صليباً فضياً ليخيف رعاياه، وانزلق كمّه العريض، فبان ساعده المغطى بالشعر، واستأنف الكلام:

- هيّا! الجميع معاً! إلى العمل!

فظلّ الوكيل صامتاً، ولم يتحرّك أحد.

وقالت «صوفيا»:

- ليس لأحد الحق بتأمين سعادة الناس رغماً عنهم. وإذا كان هؤلاء الفلاحون لا يريدون زراعة البطاطا، فلنتركهم على عاداتهم!

فكل شيء أفضل من العنف... العنف ضد أناس عزّل، ضد ضعفاء، ضد جهلة!...

كانت متعبة، منزعجة، ترتعش من الحمى التي تعاني منها.

فقال لها «نيقولا»:

- ولكن يا «صوفيا»، هذا غير ممكن. فإذا سلّمنا لهم اليوم بما يريدون، فسوف نفقد كل سيطرة عليهم في المستقبل. وبعد فلاحي «شكتوفو»، سيتمرّد فلاحو قرية أخرى، ثم قرية غيرها ويأتي فلاحوها لمناقشة أوامرنا، معتقدين أنّ كل شيء مسموح لهم...

- كيف تخشى أن يعصوا أوامرنا، بينما أنت تؤيد إلغاء العبودية والرق؟

- أنا أؤيد إلغاء العبودية والرق، ولكني أعارض الفوضى. فحتى في الدولة الديمقراطية، ينبغي أن يكون هنالك إدارة، أي سلطة معينة، وإلا فتعم الفوضى، تتشوّش الأذهان، ويحلّ الدمار...

كانت «صوفيا» تتحمل بصعوبة هذا الجدل وهذا الاستدلال أمام جمع من الرجال، مهدّدين بالتعرض للتعذيب، دون أن تعرف كيف تدحض حجج «نيقولا»، ومع ذلك فكانت تحسّ بكل ما هو غير إنساني في سلطة الإصلاح والعقوبة المخوّلة للسيد الملاك على عبيده الأرقّاء، حتى عندما يكون السيد على حق، والعبيد هم المخطئون. واقترب «ميشيل بوريسوفيتش» من «صوفيا» وغمغم باللغة الفرنسية:

- ما رأيك بهذا الذي يحصل؟ آه! إنهم لجميلون، أصدقاؤك الفلاحون! تأملي، يا عزيزتي، مع أيّ رعاع، ومع أيّ أوباش تتعاملين!

فقالت «صوفيا»:

- إنهم كما صُنعوا! أريد أن أتحدّث إليهم.

- لن يصغوا إليكِ أكثر ممّا أصغوا لي، أنا!

- ومع ذلك، دعني أحاول!

- كلا، لقد أخطأتِ بمغادرة سريرك، وأخطأت بالحضور إلى هنا، وقد وافقت في معظم الأحيان على طلباتك اللطيفة. ولكن هذه المرة، القضية مهمة جداً. وسأتمسك بقراري حتى النهاية، وأنتِ لن تتكلمي معهم، وسينالون عقوبتهم ضرباً بالعصا!

ثم حيّاها، واتّجه نحو الفلاحين، الذين كان الكاهن يتابع التحدث إليهم بلا حماس.

وقال «نيقولا» بلهجة تنمّ عن الإعجاب:

- إنّ أبي يتمتع بالحقيقة بصحة تتحمل كل التجارب والصعوبات! فنحن هنا منذ خمس ساعات، دون أن تبدو عليه أي أمارة من أمارات التعب!

فسألته «صوفيا»:

- وهكذا، فأنت تؤيده، إذن؟!

فقال:

- دون أيّ تحفّظ!

وقالت «ماري»:

- وأنا أؤيده، أيضاً.

و «صوفيا»، التي شعرت بالتعب يسري في أوصالها، جلست على جذع شجرة، مرمي هناك، وهي مشوشة الفكر، وأكثر حيرة من يوم وصولها إلى روسيا. وأخذت تفكر، بغيظ ورعب: «وفي كل ما يجري، الذنب ذنبي! ونواياي الحسنة تنقلب ضدي، فلو أنني لم أشأ فرض هذه الزراعة، لكان الفلاحون لا يزالون يعيشون في راحة وأمان. وهل يمكن أن يصبح التغيير عدواً للسعادة، في أي بلد آخر، غير فرنسا؟» وبينما كانت مستغرقة في أفكارها، لمحت خيّالاً، يسير بجانب الغابة، وهو يجلس بتثاقل على سرج

حصانه وقد باعد ما بين رجليه، وجنّح مرفقيه، فعرفت أنه «أنتيب»، عائد من «بسكوف» وما لبث أن صاح:

- الجنود قادمون!

كانت لهجته تنم عن فرحة غريبة. ولم يكد يترجل، حتى أسرع ليحدّث «ميشيل بوريسوفيتش» عن مهمته. ثم، توجّه نحو «صوفيا» و «نيقولا» مردّداً وكأنه يزفّهم بشرى:

- الجنود قادمون! الجنود قادمون!

فقالت له «صوفيا» بلهجة جافة:

- إلا تدري أنهم قادمون ليجلدوا أندادك ورفاقك؟

- بلى، يا سيدتي.

- إذن، ما الذي يفرحك؟!

كان «أنتيب» يلهث ويضحك، ووجهه يتصبب عرقاً:

- إنه لأمر مستحب دائماً أن يرى أحدنا الضرب ينهال على الآخرين، عندما يفكر أنه من الممكن أن يكون مكانهم!.. ولست أنا السعيد، بل السعيد هو ظهري!...

كان في عينيه الصغيرتين بريق ينم عن الخبث، وذهب بسرعة، ووقف بجانب الأب «جوزيف» ليكون قريباً من «جو» الله، أثناء عرض المشهد.

وصاح «ميشيل بوريسوفيتش»

- إيه، أنتم كلكم! لقد سمعتم ما قال «أنتيب»:

«الجنود قادمون!» فلا تجعلوهم ينتظرون! اذهبوا إلى الغابة، واقطعوا القضبان والعصيّ، وأحضروها في الحال!

لم يعد يبدر من «صوفيا» أيّ رد فعل حيال عبثية الوضع وعدم عقلانيته. وكل ما كان يحصل، وكل ما كان يقال هناك بدا لها أنه ضد

المنطق وضد الحس السليم والعامّ. وبعد أن تشاور الفلاحون، انصاعوا للأمر واتجهوا نحو الغابة. ألن يهربوا ويختبئوا بين الأدغال؟ كلا، فقد عادوا، واحداً بعد الآخر، وكل منهم يحمل أربعة قضبان أزال عنها الأوراق، ووضعها عند قدمي «ميشيل بوريسوفيتش» وكأنه يقدم له هدية أو قرباناً.

كانت وجوههم تعبر عن الخضوع. ولأنّ بعضهم قطعوا قضباناً رفيعة، فقد أمرهم «ميشيل بوريسوفيتش» أن يقطعوا غيرها، تكون أكثر صلابة وقوة، فانصاعوا لما أمرهم به، دون تمتمة أو تذمر. وارتفعت كدسة القضبان بسرعة.

وعندما أصبحت القضبان جاهزة، عاد الفلاحون ووقفوا في المكان نفسه. وطلب «ميشيل بوريسوفيتش» من «أنتيب» أن يفتح سلة «الزّوادة»، ورفض «نيقولا» و «صوفيا» و «ماري» مشاركته في وجبته. فجلس على حجرٍ أمام فلاحيه المرعوبين، والتهم بأسنانه القوية كمية من النقانق واحتسى الخمر من فوهة الزجاجة. وكان وجهه يشعّ بالتصميم الذي ينمّ عن القسوة. والدهن يلمع على فمه، بين عارضيه الأشعثين ومسح يديه بسرواله، وأراد أن يتناول قطعة من لحم الخنزير، ولكنه أعادها إلى السلة، عندما سمع وقع حوافر بعض الأحصنة.

وصاح «أنتيب»:

- ها هم، قد وصلوا!

وعرف «نيقولا» من بزاتهم أنهم من فوج الخيالة المقيم في «بسكوف». وعلى رأس المفرزة كان الرائد، «شمنسكي» ممتطياً حصانه، وهو رجل قصير أسمر، كثيراً ما كان «نيقولا» يلتقي به في النادي، وبعد أن أوعز للجنود بالترجّل، تقدم الرائد نحو «ميشيل بوريسوفيتش» أدى له التحية العسكرية، وقال:

- نحن رهن إشارتك! أين المذنبون؟

فأجابه «ميشيل بوريسوفيتش»:

- إنهم جميعهم مذنبون!

- وبمن نبدأ؟

- بالوكيل.

- وكم جلدة؟

- تابعوا، إلى أن أشير لكم بالتوقّف!

وبناء على إيعاز الرائد «شمنسكي» تناول كلّ من الخيّالة قضيباً وجرّبه بضربة عدّة ضربات على جزمته، ثمّ انتظموا في صفّين واستعدّوا لجلد الضحيّة الأولى التي ستمرّ بينهم. كانت وجوههم، هم أيضاً، تبدو وجوه فلاّحين، تحت قبعاتهم المزّينة بالريش. وأمسك أربعة منهم «الوكيل»، نزعوا عنه قميصه، وربطوا يديه خلف ظهره.

فصاحت «صوفيا»:

- هذا غير ممكن، توقّفوا! توقّفوا!

فأمسك بها «نيقولا» بقوّة وضمّها بين ذراعيه.

كان جذع «الوكيل» نحيلاً، وعلى صدره شعر كثيف أبرش، وقد أخذ رأسه يهتزّ وساقاه تلتويان. وكان على الجنود أن يمسكوا به تحت إبطيه لكي يمنعوه من السقوط، وإلقاء وجهه على الأرض.

وصاح به الرائد:

- هيّا، امش!

ورأى «الوكيل»، وهو يجرّ نحو صفّ مزدوج من جلاّديه، القضبان وهي ترتفع، فقال وهو يئنّ ويتوجّع:

- أب جوزيف! أب جوزيف، لقد قلت إنك ستبارك الأرض قبل زراعتها؟ فأجابه الكاهن:

- لقد قلت ذلك، وأردّده، باسم الأب والابن والروح القدس!

- في هـذه الحالـة- ... أعتقـد... أنّ عليـكم أن تـدعوني أتحـدّث مـرّة أخرى إلى الفلاّحين... الأخوة الأرثوذكسيين!...

★★★

صاحب السعادة السامية!... إنهما كلمتان وحسب!...

فأعادوه إلى قرب الفلاحين، الـذين تحلّقوا حولـه. وبدأ نقـاش طويل. وكانت المجموعة تتحـرك وهـي في مكانها، كقطيع مـن الخـراف. فـصاح «ميشيل بوريسّوفيتش» وقد نفد صبره:

- هذا يكفي!

وبدا الوكيل من جديد يُمسك به الجنود، الذين كانت أيـديهم الـتي لوحتها الشمس يختلـف لونهـا عـن بشرة ذراعيـه وكتفيـه، الـشاحبة. وكـان سرواله الواسع جداً، ينزلـق شـيئاً فشيئاً مـع كـل خطـوة يخطوهـا، ولكـي لا يسقط تماماً، كان يباعد ساقيه عن بعضهما.

وسأله الكاهن:

- ماذا ستقول الآن؟

فقال «الوكيل» متلعثماً:

- لقد فكروا، ويريدون أن يتأكّدوا... وإليك مـا يريـدون أن يعرفـوا: «أبعد أن تُبارك الأرض، ألن يبقى لما يُزرع فيها قوة دنسة وشريرة»؟

فقال له الأب «جوزيف»:

- هذا بديهي!

- وهل النبتة التي ستجنيها ونأكلها، تكون نبتة أرثوذكسية؟

هنـا، بـدا الـتردّد علـى الأب «جوزيـف»، كـان واضـحاً أنـه يـأنف مـن إعلان تقبّل الكنيسة لدرنات زراعية ذات أصل مشبوه.

فصاح به «ميشيل بوريسّوفيتش» غاضباً:

- ما بك؟، هيا، أجبه!

فقال الكاهن، متأوّهاً:

- إنها ستكون، بالحقيقة، نبتة أرثوذكسية!

فقال «الوكيل»:

- إذن نحن نوافق، ونخضع، ونطلب من سيدنا أن يصفح عنا. وعلى بركة الله! وتناسوا ما بدر منا من جرأة ووقاحة!

وجثا جميع الفلاحين، وخرجت النساء من بين أدغال العلّيق وهنّ يبكين فرحاً. وعبر البهجة التي عمّت الجميع، وقف الجنود، منتظرين الأمر بإلقاء القضبان جانباً.

وقال «نيقولا»:

- شكراً لله!

وأرخى ذراعيه عن جسم «صوفيا» التي كانت تشعر أنها تخلّصت من كابوس مخيف وأن الدم يعصف بجوانب رأسها، ورأت عبر غبشٍ كان يشوّه الرؤية لديها، الضابط وهو يقود رجاله نحو أحصنتهم، والأب جوزيف وهو يجّمع طرف جبّته بإحدى يديه ويرفع الصليب بالأخرى، متّجهاً نحو الحقل، لكي يباركه.

وقال «ميشيل بوريسّوفيتش» بصوت جهوري:

- ألم أكن على صواب؟

فبحثت عنه «صوفيا» بنظراتها، ولم تر سوى ضبابٍ كثيف، لا يبدو من خلاله شيء، وتساءلت، دون خوف، عمّا حدث لها. كان جسمها يهبط ببطء في حفرة ويلامس فراشاً من أوراق الشجر، وحولها تتعالى صيحات قوية:

- آه! يا إلهي!

- هذا لا شيء! إنه عارض بسيط، ما كان ينبغي أن تأتي وهي مصابة بالحمى!...

- بسرعة، إلى البيت!... هيا إلى البيت، بسرعة!

وبدت لها هذه الكلمات الأخيرة لطيفة جداً: «إلى البيت!... إلى البيت!...» كان «نيقولا» هو الذي يتكلم. فشعرت بشيء من السرور بمرضها، سعيدة لكونها محبوبة، ومتشوّقة لأن تجد نفسها في سرير دافئ.

٨

كان المغلّف قد فُتح في دائرة البريد وأعيد لصقه بشكل سيئ، لدرجة أنّ الأمر كان واضحاً جداً. ولم تغضب «صوفيا» من جرّاء ذلك، لأنها تعرف أنّ المراسلة مع البلاد الأجنبية تخضع لرقابة شديدة. ولحسن الحظ، فإنّ أمها لم تكتب لها شيئاً يمكن أن تستاء منه السلطات الروسية. حتى لقد كان هناك جملة عن تحركات مؤذية في الأذهان والأفكار الجمهورية، وهذه الجملة لا بد أن تبعث السرور في نفوس المراقبين، وفيما تبقّى، كانت الكونتيسّة «دي لمبروفوكس» تروي لابنتها حكايات عديمة الأهمية عن بعض الشخصيات الباريسية، وتكتفي بسؤالها عما إذا كانت قد تعافت من الوعكة التي ألمت بها، وعما إذا كان لديها «أمل جديد» وفيما إذا كانت تفكر بالقيام قريباً برحلة إلى فرنسا، هي وزوجها. العودة إلى فرنسا! ولو كان لبضعة أيام، وحسب! كانت «صوفيا» تفكر بذلك أحياناً، وكأنّ تلك العودة مشروع معقد، باهظ التكاليف يصعب تنفيذه. وقد أخذ وطنها وأسرتها يزدادان بعداً عنها مع مرور السنين، حقّاً، لقد كان الريف القريب من «باريس» أكثر سحراً وجمالاً وأكثر خضرة وتنوعاً من الريف المجاور لمدينة «بسكوف»، والسماء فوق «السين» و «اللوار» تتصف بشفافية لا مثيل لها في مكان آخر. والأذهان الحادة والأرواح الخفيفة المرحة الفرنسية لا يوجد لها نظير في روسيا، ومع ذلك، فعلى هذه الأرض الأجنبية، إنما وجدت «صوفيا» مبرر وجودها. ففي فرنسا لم يكن أحد بحاجة إليها، ولم تكن ضرورية لأحد. أما هنا، فإنّ

شعورها بأنها مفيدة وذات جدوى، يجعلها تحسّ بنشوة لا مثيل لها. كان يخيل لها أنها محاطة بمجموعة من الأطفال، لا يطاقون، ويصعب تحملهم، وكلهم بحاجة لها: «نيقولا»، عمها، «ماري»، «نيكيتا» وجميع فلاحي أملاك الأسرة... وعلى خلفية أفكارها كانت ترتسم وتتكون نظريات عن «الموجيك» الفلاحين العبيد الأرقّاء ذوي الشعر المشعث واللحى الطويلة، بقمصانهم المهلهلة، ونعالهم المصنوعة من الألياف النباتية، وهم يغمزون بعيونهم ويوجهون نحو الشمس وجوهاً صلبة وقاسية كقشور الأشجار. كانوا يجتذبونها ببساطتهم، بخضوعهم، بصبرهم على بؤسهم وشقائهم. كانت ترغب بمساعدتهم، وتتوقع منهم، في الوقت نفسه، لا تدري أي كشف أو بيان.

وإن كانت آنذاك غير منهمكة بالكتابة إلى ذويها، فقد جلست إلى مكتبها، وغمست ريشتها في المحبرة. فهل يمكن أن تتحدث عن حياتها الهادئة في «كشتنوفكا» دون أن تجعل أمها، ووالدها، على الخصوص، يعتقدان أنها تعاني الملل الشديد؟ ويجب أن يكون المرء هناك ليلمس سحر تلك الأيام الأولى من الصيف، الحارّة، الجافة، المعطرة بأريج الأزهار والنباتات. كان فلاحو «شتكوفو» قد اقتنعوا ورضوا، وأخذوا يزرعون البطاطا بثقة واطمئنان.

وفي البيت يسود جو الرضى والوئام. ومع ذلك، فإنّ «نيقولا» يبدو مضطرباً بسبب الأحداث السياسية التي كانت تعصف بأوربا، فمنذ تموز «يوليو» قام الإيطاليون بثورتهم ضد «فيرديناند» الرابع، على غرار الإسبانيين الذين ثاروا وتمردوا على «فيرديناند» السابع. وقد راجت شائعات قوية عن قرب قيام اليونانيين بالتمرد والثورة ضد الأتراك. كان «نيقولا» و «فاسّيا» يلتقيان كثيراً، ويتحدثان بهذه الأمور، ويطلع كل منهما الآخر على الرسائل التي تحمل كثيراً من التلميحات والأخبار، والتي يكون قد تلقاها

من العاصمة. وعلى الرغم من جهودهما فإنهما لم يستطيعا أن يستميلا لتأييد القضية التي يعملان من أجلها، سوى ثلاثة شبان من بين جميع من اختبرا أفكارهم، وهؤلاء المؤيدون الجدد، ليسوا موثوقين تماماً بعد، كي يستحقوا الخاتم الفضي، ولذلك كانت «صوفيا» تقول في سرها، إنها لو كانت مكان زوجها لفترت همتها وخارت عزيمتها، ولكنه كان يغرف من الكتب مبررات الحماسة والإثارة، التي كانت، هي، تطلبها من الحياة. كان، هو، يعيد بناء العالم، على طريقته الخاصة، حسب ما رواه بعض الكتاب من نظريات وأحاديث. والدفتر الذي يدوّن فيه الأفكار والشعارات التي يفضلها، ها هو هنا، على المنضدة. فأخذت تتصفّحه: «عندما تكون براءة المواطنين غير مؤمّنة ومؤكدة، فإنّ الحرية، هي أيضاً، لن تكون كذلك». «مونتيسكو». «في سبيل الدفاع عن الحرية، يجب أن يستطيع المرء التضحية بحياته.» «بنجامين كونستان». «الإنسان يولد حراً!» «شاتوبريان». وابتسمت: «لكم يبذل من الجهد، ويتعب نفسه!» وبعودتها إلى رسالة والديها، انحنت على الصفحة البيضاء وسطرت الكلمات التي يتوقعانها منها: «إني محاطة بالمحبة والعطف، لدرجة أني لولا أسفي لفراقكم، لكنت في غاية السعادة!»

صفحتان من الكتابة المكثفة هدّأتا وساوسها. وفي اللحظة التي كانت تغلق فيها المغلّف سمعت وقع حوافر حصان، كان قد توقف أمام درج المدخل: إنه «نيقولا» عائداً من «بسكوف». فنزلت لتلتقي به، ودهشت لأنها لم تجده في الرواق. فدخلت إلى الصالون ونادته عدة مرات. ففتح باب المكتب. كان «نيقولا» هناك، بجانب والده. وقال لها:

- تعالي بسرعة، لدينا ما نقوله لك!

كان يبدو مبتهجاً بشكل غريب، وأغلق الباب بعناية، بعد دخولها، وكأنّ أقل صوت يمكن أن يسبب لهم مشكلة. كما أنّ «ميشيل

بوريسوّفيتش» كان مسروراً، بشكل يدعو إلى الدهشة، وأشار إلى كنّته بأن تجلس بقربه على الأريكة، وقال:

- لدي خبر مهم أريد إبلاغك إياه: سأزوج ابنتي.

فتمتمت «صوفيا» وقد أذهلتها المفاجأة:

- آه! هكذا إذن؟ ولكنها لم تقل لي شيئاً عن هذا الموضوع!

- ذلك لأنها، هي نفسها، لا تعرف شيئاً عنه، حتى الآن!

فانتاب «صوفيا» بعض القلق، وسألت:

- ومن هو صاحب الحظ السعيد؟

فقال «نيقولا» بلهجة تنم عن المرح والبهجة:

- ألا تستطيعين أن تعرفيه، أنت بنفسك؟

فتحددّت وتركّزت مخاوف «صوفيا»: «إنه الفاحش والوقح «سيدوفّ» وقد حزم أمره أخيراً!» وشعرت بالشفقة وبالرثاء لحال «ماري»، وقالت وهي تتنهّد:

- كلا... لا أستطيع أن أعرفه أبداً...

فقال لها «نيقولا»:

- إنه «فاسّيا»! «فاسّيا فولكوفّ»!

كانت «صوفيا» أبعد ما تكون عن أن تفكر به، لدرجة أنها عجزت عن التلفظ بأيّ كلمة.

واستأنف «نيقولا» الكلام:

- لقد التقيت به قبل قليل، والشاب المسكين يحبها كثيراً، وقد صارحني بذلك وبكل نواياه وطلب مني أن أكون محاميه. والمدافع عنه، وهو لا ينتظر سوى إشارة لكي يقدم طلبه بصورة رسمية إلى والدنا...

وتراءى لـ «صوفيا» يأس أخت زوجها وخيبتها، ولذلك اغتاظت، وقالت بحدّة:

- هذا غير ممكن!

فسألها «نيقولا»:

- ولماذا؟

- صديقك «فاسّيا» غير مجدٍ ولا هو مناسب!

- أنا لست من رأيك.

- بلى، يا «نيقولا»!... إنه بارد وبليد، متكلف، متردّد وضعيف الإرادة!... ولا يمكن أن يرضي أو يعجب أحداً!...

فاعترض «نيقولا»، على ذلك، قائلاً:

- أنت تنسين أنه أفضل صديق لي!

- ذلك لأنه الشاب الوحيد المثقف في هذه المنطقة. ولو كنتما في «سان بطرسبورغ»، لما أثار اهتمامك، ولا حتى لاحظت وجوده!

فسألها، بحدّة، «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- وهو، لو كان في «سان بطرسبورغ» أكانت تلفت نظره «ماري» وتثير اهتمامه؟

- أنا متأكدة من ذلك، يا أبي!

- دعك من ذلك! إنها لطيفة جداً، هذا صحيح، ولكن ليس لديها ما يجذب الرجل! فهي لا تتمتع بسحر ومفاتن المرأة، الجسدية ولا الذهنية.

فصاحت «صوفيا»:

- أنت لست جاداً فيما تقول!

فهزّ «ميشيل بوريسّوفيتش» رأسه وقال:

- بلى! بلى! إنها تبعث الملل لدى من ينظر إليها، وكذلك لمن يستمع إليها...

وشعر أنه بالغ وقسا في انتقاداته، ولكنه لم يكن يقوى على السيطرة على نفسه. فمنذ أن دخلت «صوفيا» إلى ذلك البيت، أخذ ينقم على

«ماري»، لأنها لم تكن أكثر جمالاً وتألقاً منها. وبسحنتها الكئيبة، وحركاتها الطائشة، كانت تشنّع الجنس اللطيف الذي كانت زوجة أخيها تعتبر زينة رائعة له. ومجرّد كونهما خلقتا بنفس الطريقة وعلى الشكل نفسه، وترتدي كلتاهما الفساتين، فهذا أمر لا يطاق، ولا بدّ أن هنالك ما يشبه الخطأ قد ارتكبته الطبيعة.

واستأنف الكلام:

- إنّ «فاسّيا فولكوفّ» خطيب لم نكن نأمل به، ومعه، ستكون «ماري» سعيدة جداً...

- وكيف تجزم بذلك؟

- الأب يدرك هذا النوع من الأمور: فهي لن تغادر المنطقة، ولا شك بأنها ستقيم مع زوجها في «سلافنكيا»...

فتابعت «صوفيا» بحدّة:

- ... إلى جانب «داريا فيليبوفنا»! أنا لا أرغب أن تكون هذه المرأة حماتي!

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش» وهو يقهقه ضاحكاً:

- أنا أوافقك، على أنها تبعث على الضيق والارتباك.

و «نيقولا» الذي صدم، بمعارضتهما لما أبداه من مودة وتعاطف مع صديقه، قال بلهجة جافة:

- إنّ الأمر لا يتعلق، على حدّ علمي، بـ «داريا فيليبوفنا»، بل بأختي! وأعتقد كأب، أنّ هذا الزواج يجب أن يتمّ، وبأسرع ما يمكن! حتى أنه لمصلحة «ماري» بالذات!...

وكاد «ميشيل بزريسّوفيتش» يقول: «إنها سوف تعطيني حفيداً»، ولكنه أوقف هذه الجملة على حافة شفتيه، وبعد ثانية واحدة كان يمكن أن تفلت منه وتنزعج منها «صوفيا» كثيراً. ومن جهة أخرى فلأنها تعيش الآن بقربه

في «كشتوفكا» فهو لم يعد يتمنى أن يراها تنجب طفلاً، حتى أنّ فكرة كونها يمكن أن تصبح حبلى كانت تغيظه وتزعجه. ويدعو الله ألا يجعله يراها وقد شوّه الحمل قامتها وهي تحمل بشكل بادٍ للعيان ثمرة ممارستها الحب مع «نيقولا»! وعندما كان يتصور هذه المرأة الشابة في السرير مع ابنه، يستولي عليه غضب شديد هذا الفتى الذي له عليها جميع الحقوق.

وقالت «صوفيا»:

- أنا متأكدة أنّ «ماري» سترفض هذا الزواج.

فقال «نيقولا»:

- لن ينقصنا سوى هذا! كيف يمكنها أن تخالف إرادة والدها؟

- والدها لن يرغمها على قبول هذا الزواج إذا تبيّن له أنه سيسبّب له التعاسة.

فارتعش «ميشيل بوريسّوفيتش» ونظر إلى «صوفيا» ودهش عندما اكتشف أنها سليمة معافاة وقد تزينت وسرّحت شعرها وزرّرت صدّارها، وقال:

- فلتذهب «صوفيا» لمقابلة «ماري» ولتتحدث إليها!

فسألته «صوفيا»:

- أتعتمد عليّ من أجل إقناعها؟

- نعم، ستكونين أمهر منا في ذلك، وأنا أثق بك.

- ولكني لا أحبّذ أبداً هذا الزواج!

فقال لها «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- عليك أن تتظاهري بأنك تحبّذينه!

كانت عيناه تعبّران عن رجاء آخر، ولم تستطع «صوفيا» تبيّن معنى نظرته، وشعرت منها بخوف غامض، وخرجت من الغرفة وقد تولّد لديها انطباع بأنّ لها سلطة قوية على عمها، أقوى من سلطتها على زوجها.

كانت الفتاة الشابة جالسة تطرز تحت العريشة، في الحديقة. ومنذ أن تلفّظت «صوفيا» بكلماتها الأولى، شحب وجه «ماري» وضعت يديها على فمها، وصرخت بصوت مخنوق:

- لا أريد!... مقابل أي شيء في العالم!... أفضّل الموت على ذلك!...

فقالت لها «صوفيا»:

- اطمئني! فوالدك لن يزوّجك دون رغبتك. ولكن، فكري جيداً: أليست ذكرى «سيدوفّ» هي التي تجعلك ترفضين فكرة الزواج من «فاسّيا»؟ فإذا كان الأمر كذلك، تكونين مخطئة تماماً.

فقالت «ماري»، بلهجة حادّة:

- إني لم أعد أفكّر بـ «سيدوفّ»، على الإطلاق، وأنفر منه، وأنت تعرفين هذا فقد سبق لك أن أبدت رأيي فيه! فلماذا تحاولين الآن البحث عن شيء آخر؟!

كانت قد اتخذت هذا الموقف الذي يعبّر عن الكراهية والضيق عندما فاجأتها زوجة أخيها بين ذراعي «سيدوفّ»، أثناء حملة مطاردة الذئاب.

وفجأة، أخذت تنتحب، وتقول بصوت يشبه العويل:

- حبّاً بالسماء، أرجو أن تحميني يا «صوفيا»!... أنقذيني!... أنت وحدك، في هذا المنزل تفهمينني!... أبي و «نيقولا» أنانيّان... ربما عملا على سحقي!... ولكن أنت... أنت!...

فعادت «صوفيا» إلى المكتب، حيث كان عمها وزوجها ينتظران نتيجة مسعاها. وعندما علم «نيقولا» أنّ «ماري» رفضت طلب «فاسّيا» استشاط غضباً، وصاح:

- إنها فتاة حمقاء!... حمقاء وماكرة!... وهي لا تدري ماذا تفعل لكي تعاكسنا وتغيظنا، كلنا!...

وكانت غضبته غريبة ومضحكة، لدرجة أنّ «صوفيا» قالت له:

- هدئ من روعك، يا «نيقولا»، فلست أنت الذي رُفضت!

الذي رُفض هو أعزّ أصدقائي، إنه أخي، هذا ما ردّ به «نيقولا»، وأضاف بحماسة شديدة: «لا أستطيع تقبّل هذا! وسأتكلم مع «ماري» أنا بنفسي! وسنرى فيما إذا كانت ستستمر في عنادها!»

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»، وهو يضرب المنضدة بقبضته:

- لن نرى شيئاً، على الإطلاق! وأنا أمنعك من التدخل في هذه القضية! و «صوفيا» قد قامت بما كان من الضروري القيام به! وهذا يكفي!

فغمغم «نيقولا»:

- ولكن، يا أبي، أنا لم أعد أفهمك. لقد قلت، قبل قليل...

- ليس هنالك سوى المغفلين، الذين لا يغيرون رأيهم. فإذا كانت أختك تفضّل أن تبقى «عانساً» ولا تتزوج، فهذا أمر يعنيها، هي، وحدها!

فقالت «صوفيا»:

- إنها لن تبقى «عانساً»، ولكنها سوف تتزوج، فيما بعد، الشخص الذي تختاره.

فصحّح «ميشيل بوريسّوفيتش» ما قالته كنّته:

- الشخص الذي نختاره. وبعد التفكير، فإني أنا أيضاً أنفر من «فاسّيا»، هذا، ولا يعجبني، فهو «أمّعة»، دمية متأنقة. وأن تتفاهم جيداً أنت معه، فهذا أمر لا يدهشني! ولكن بالنسبة لفتاة شابة، أسنانها سليمة وقوية، فهو بندقة، سهلة الكسر، أكثر مما ينبغي!

كان يتذوّق كل كلمة ويتلذّذ بها وهو يلفظها. آه! كم كان عذباً بالنسبة له أن يؤيّد كنّته ضدّ ابنه! وفي ذروة الإثارة، كان يمكنه أن يختلق ذرائع جديدة ليربك «نيقولا» ويخفض من قدره، ولكنه كان

يعلم بفطرته أي حكمة يجب أن يتّبع في التأييد الذي يوليه لامرأة شابة هي على خلاف مع زوجها. فلو غيرت مزاجها، وتحولت حالتها النفسية، لسبب أو لآخر، لأصبح إخلاصك لقضيتها يعتبر، ويحسب عليك عدم اعتبار لها.

واستأنف الكلام بتعقّل واتّزان:

- أصغ إذن لما تقوله لك «صوفيا». فهي محقّة فيما تقوله، ليس مرة واحدة، بل مئة مرة. وأنت، بالتأكيد، ستجد طريقة تبلغ بها هذا الرفض لآل «فولكوف» دون أن تجرح مشاعرهم...

فغمغم «نيقولا»:

- يا لها من مهمة ظريفة: إنها ستُفقدني أحد أصدقائي!

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش» وهو ينتصب بقامته الطويلة، خلف مكتبه:

- وهل تفضّل أن تفقد أختك.

وبحث بطرف عينه عن التأثير الذي أحدثه على «صوفيا».

***

وعلى الرغم من توصيات والده، فقد أجرى «نيقولا»، مساء ذلك اليوم نفسه حديثاً مطولاً مع شقيقته من أجل إقناعها. ولكنها صمّت الآذان عن كل الحجج، وكل التهديدات والتوسلات التي أبداها، واضطر إلى الانسحاب متأكداً أنها ليست في أحوالها السويّة والطبيعية. وأرجأ ذهابه إلى «سلافيانسكا» ثلاثة أيام. وأخيراً، وبعد أن حثّته «صوفيا» على ذلك، انطلق على صهوة جواده، وهو يشعر بأنه قد كلّف بالإجهاز على شخص يحتضر. واستقبلته آنسات «آل فولكوفّ» في الحديقة واقتدنه إلى غرفة شقيقهن.

كان «فاسّيا» يطالع وهو مستلق على إحدى الأرائك. وعندما رفع نظره عن الكتاب ورأى وجه «نيقولا» المتجهّم، أدرك كل شيء، وتمتم:

- كنت متأكداً من ذلك!

و «نيقولا»، الذي كان منزعجاً جداً، أخذ يتلعثم، وهو يختلق الأعذار:

- لقد تأثّرت جداً... وطلبت مني أن أبلغك أنها تحبك كأخيها... وأنها تأمل ألاّ تستاء وتنقم عليها، بسبب... بسبب ما حصل من سوء تفاهم...

وسمع تنهدات خلف الباب، ووقع أقدام وهي تبتعد في الممر: فلا شك بأنها كانت إحدى شقيقات «فاسّيا» أو إحدى الخادمات.

وكان «فاسّيا» يضم يديه خلف عنقه، متجهم الوجه، ينظر إلى السقف وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وحيال هذا الألم الصامت الذي بدا على صديقه، شعر «نيقولا» بالكراهية نحو أخته لقسوة قلبها. ولكم كان يود أن تكون معه في تلك الغرفة، لكي يتبّين لها الأذى الذي سببته لصديقه. فقد كان من السهل الضرب عن بعد، دون النظر إلى الضحية ورؤيتها!

وصاح بأعلى صوته:

- «فاسّيا»! يا أخي! إني آسف وحزين جداً!...

وجلس على حافة الأريكة، كيفما اتفق، ووضع يده على كتف الشاب، وظل الاثنان صامتيْن. كانت النافذة تطل على سياج من العليق. وكان هنالك كثير من الكتب على رفوف الجدران وعلى أرض الغرفة، وبين مجموعتين من الكتب، عُلّقت بعض بنادق الصيد، وقصبات صيد السمك، وسكين كبيرة.

واستأنف «نيقولا» الكلام، قائلاً:

- اسمع، يا صديقي، أنا أتفهم وأتقبل منك أن تنقم على أختي، ولكنّ الصداقة بيننا، أنت وأنا، يجب أن تبقى فوق كل هذه الحكايات وفي منأى عنها. وسنستمر في اللقاء، كما كنا نفعل فيما مضى...

فقال له «فاسّيا» بهدوء:

- كلاّ!

- ولماذا؟

- إني سأرحل من هنا.

- بسبب... بسببها؟

ودهش «نيقولا» كثيراً من أن تستطيع أخته، التي يعرف نزواتها ولعبها وأمراض طفولتها، تشويش حياة أحد الرجال.

وقال «فاسّيا»:

- نعم، لأني لو بقيت هنا، لما استطعت تحمل العذاب...

فتمتم «نيقولا»:

- سأظل بقربك على الدوام! وستنسى كل ذلك، في نهاية الأمر!

فقال له «فاسّيا»:

- ولكني لا أريد أن أنسى.

وأعجب «نيقولا» بما أبداه من حزن وأسى، وقال في سره:

«ما هذا النبل؟! ومع ذلك فإنّ أختي تزدري بمخلوق يتحلّى بهذه الصفات!».

واستأنف «فاسّيا» الكلام، قائلاً:

- منذ زمن طويل، وأمي تقوم بمساعي لتوظيفي في وزارة العدل، ولن أجد عائقاً في طريقي للحصول على هذه الوظيفة، فالطريق إليها محدّد وممهّد أمامي!...

وأبدى إشارة بيده وكأنه يمر بها على سطح الماء، فلمع في إصبعه الخاتم الفضي، شعار «أصدقاء الحرية» وشعر «نيقولا» عند ذلك بشيء من الضيق والأسى. وقال متذمراً:

- إنّ هذا جنون! فليس هنالك أي امرأة تستحق أن يُضحّى بصداقة حقيقية ومهمة، من أجلها، وبسببها! وأنت لن تسافر أبداً!

- بلى!

وراود «نيقولا» بصيص من الأمل: ربما استطاعت «داريا فيليبوفنا» مساعدته في إقناع «فاسّيا» بالبقاء، وعدم الرحيل.؟ فقال له:

- على أي حال، لا يمكنك أن تتخذ قراراً مهماً كهذا دون أن تستشير أمك!

- إن وافقت أو لم توافق سأرحل.

- ألا تستطيع أن نتحدث معها، الآن؟

إنها في «بسكوف» وستبقى هناك طوال النهار.

- إذن، سأعود، غداً.

فقال له «فاسّيا» وهو يحدّق في عينيه، بأسى وحزن:

- أرجوك ألاّ تعود. لأنّ حضورك يثير لديّ الكثير من الذكريات الوداع، الوداع إلى الأبد!

ونهض واقفاً، ومدّ له يديه الاثنتين، فشدّ «نيقولا» عليهما بقوة، وهمس: «وداعاً، يا صديقي!» وخرج من الغرفة. وفي طريق العودة، استسلم لأفكاره الحزينة. كانت «داريا فيليبوفنا» تحبّ ابنها كثيراً لدرجة أنها بالتأكيد سوف تعتبر رفض «ماري» قبوله زوجاً لها، إهانة خطيرة. وبعد رحيل «فاسّيا» لن يكون لدى «نيقولا» أي ذريعة للذهاب إلى «سلافينكا». وإذا كانت لديه الجرأة لكي يذهب إلى هناك، فإنه لن يُستقبل أبداً! آه! لقد سبّبت له أخته ضرراً خطيراً! وبالخطأ الذي ارتكبته، حرمته من

صداقة رجل يحبه ومن عطف امرأة يقدّرها أيضاً. وبصراحة، فقد كان حتى مرغماً على الاعتراف بأن استحالة رؤيته مرة أخرى «داريا فيليبوفنا» هي التي كانت تزعجه وتثير غيظه أكثر من أيّ شيء آخر. وفجأة، شعر أنّ فيض استيائه وحزنه، نفسه، قد شفاه مما ألمّ به. ولكي يواسي نفسه، فقد رفض التصديق أنّ هذه القطيعة ستحدث بالفعل. لأنّ «فاسّيا» يمكن أن يغيّر رأيه، بعد أن يمضي إحدى الليالي، مفكراً في هذا الموضوع، وبعد بضعة أيام، سوف يلتقيان في «بسكوف» أو في «سلافينكا»، وتعود المياه إلى مجاريها، ويستأنفان علاقتهما وصداقتهما، كما كانا في الماضي...

كان يمرّ، وهو على صهوة جواده، تحت أشجار إحدى الغابات. وعند اقترابه صمتت العصافير. وفجأة، كأنّ بعضها قد عجز عن التزام الصمت، فأخذت «صفّرة» تصفر بقوة، وسمّنة أخذت ترسل صراخاً حاداً...

وعند وصول «نيقولا» إلى «كشتوفكا» كان قد اطمأن وهدأت أعصابه.

وبعد ذلك بثلاثة أيام، حمل له أحد خدم آل «فولكوفّ» رسالة من «فاسّيا». ولأنه كان متأكداً أنها تتضمن دعوةً له، فقد فضّها وهو في غاية السرور. كان صديقه يخبره أنه قد سافر إلى «بطرسبورغ» صبيحة ذلك اليوم نفسه. فأحنى «نيقولا» رأسه. لقد انهار أمله، بالبطء الصامت الذي تنهار فيه الأبنية في الأحلام. وكان يزيد من قلقه واضطرابه، تأكده من أنّ لا «صوفيا» ولا «ماري» ولا أحد في البيت يمكن أن يتفهّم معاناته.

٩

كان «نيقولا» لكي يُحيي لديه ذكرى الأوقات السعيدة، كثيراً ما يذهب، ممتطياً حصانه إلى المشارف القريبة من «سلافينكا». ومن أعلى إحدى الروابي كان يتأمل البيت ذا النوافذ البرتقالية اللون، الخضراء، والحمراء، والحظيرة المحاطة بحاجز من الأوتاد، والحديقة القديمة بنباتاتها المتشابكة، والدخان الخفيف الذي يتصاعد فوق السطح كالريش الذي يزين القبعة. وفي الأيام التي يحالفه فيها الحظ، كان يتاح له أن يلمح بقعة واضحة تمثل فستاناً في أحد مماشي الحديقة. وكانت المسافة أبعد من أن تتيح له أن يميز فيما إذا كانت تلك هي الأم أم إحدى بناتها، ولكنه لم يكن يشأ الاقتراب لكي لا يُكتشف أمره. لأنه حسب ما قيل له في النادي، فإنّ «داريا فيليبوفنا» كانت تعتبر نفسها على خلاف مع عائلة «أوزاريف». والأمر الذي يدعو إلى الدهشة هو أنّ كل سكان المنطقة كانوا مطلعين على الخيبة العاطفية التي مني بها «فاسّيا»، مع أنّ لا أحداً من أصحاب العلاقة والمعنيين بالأمر ولا أحداً من أقربائهم أو المقرّبين منهم، قد تحدث عن ذلك إلى أحد. ولكن، من المؤكد، أنه لا يمكن المحافظة جيداً على الأسرار في الريف!

وبعد أن يراقب «نيقولا» عن بعد «الأشباح» وهي تذهب وتعود، متجولة حول المنزل، كان يعود إلى البيت معاهداً نفسه على عدم القيام مرة أخرى بهذه الزيارة المخيبة للآمال. ومع ذلك، فإنه بعد يومين أو ثلاثة من التزامه بهذا العهد الذي قطعه على نفسه، كان يعود إلى هناك وكأنه

ذاهب إلى موعد. ومع تساقط الثلج لأول مرة، وجد نفسه في عزلة، محتجزاً في البيت. وعلى الرغم من كتبه الكثيرة كان يعاني من السأم في «كشتنوفكا». وكانت «صوفيا» وقد تبيّنت اضطرابه وحيرته، تحيطه بملاطفاتها، وتحاول أن تستدرجه ليبوح لها بما يزعجه. ولكن منذ قصة «فاسّيا» و «ماري»، التي لم يستطع فهمها، لم يعد يشعر بالحميمية نفسها في التفكير، التي كانت فيما مضى، سائدة بينه وبين زوجته، وعلاوة على ذلك، فهي قد أساءت إلى مشاعره، بالطريقة التي تحدثت بها عن صديقه «فاسّيا»، وعن «داريا فيليبوفنا» بشكل خاص.

وذات مساء من شهر كانون الأول «ديسمّبر»، كانت العائلة قد بدأت بتناول طعام العشاء، عندما سُمع من بعيد رنين أجراس صغيرة. فهل من زائر قادم، في تلك الساعة؟ ونظر الجالسون حول المائدة إلى بعضهم، وقد بدت الدهشة على وجوههم، وسوية، بحركة واحدة، اندفعوا نحو النوافذ: كان الثلج يتساقط بغزارة وبكثافة، بحيث كان يستحيل تمييز وتبين أيّ شيء خلف تلك الظلال البيضاء. ومع ذلك فقد برز بعد قليل من أعماق تلك الزوبعة ظل ذو ثلاثة رؤوس مشعّثة.

فصاحت «ماري»:

- إنها عربة ذات ثلاثة أحصنة. فمن هو القادم فيها؟

وردّدت «صوفيا» السؤال نفسه:

- من القادم فيها، يا ترى؟

فأسرع «نيقولا» إلى الرواق، وتبعته أخته وزوجته والسيد «لوسور»، وكذلك «ميشيل بوريسّوفيتش» الذي كان لا يقل دهشة واستغراباً عن الآخرين، ولكنه كان يمشي ببطء وهو يقول:

- إيه! ماذا هنالك؟ ألا يخيّل لنا أنه لم يسبق أن أتى أحد إلى هذا البيت؟

وعلى درج المدخل لفح البرد القارس والجليدي وجه «نيقولا». وبعينيه اللتين كان يدميهما الثلج، رأى عربة تقف أمام الدرج وهي ترسل صريراً قوياً. وهزت الأحصنة رؤوسها، فترددت في كل الجهات أصداء رنين أجراسها. وإلى خارج صندوق العربة المدهون باللون الأزرق، برز عملاق متدثر بعباءة فضفاضة، ويعتمر قبعة من الفرو. أبيض اللون من الجهة التي تهب منها الريح، بسبب الثلج المتجمد على عباءته. وبدرت من فمه، عبر وجهه المتجمد ضحكة صاخبة:

- «نيقولا»! «نيقولنكا»! يا شقيق نعماني!...

كان هذا «كوستيالادومينوف»

و «نيقولا» الذي جنّ من شدة فرحته بلقاء صديقه، دفعه نحو المدخل، وساعده على خلع عباءته، صدارته وجزمته المبطّنة بالفرو وأوسعه ضرباً باللكمات وبما طرح عليه من الأسئلة. وبينما كان «كوستيا» يضحك ويدافع عن نفسه، روى له بأنه ذاهب إلى «بوروفيتشي» من أجل القيام بقسمة بعض الأراضي، وأنه قام بدورة كبيرة لكي يسلّم على صديقه الذي يقيم هنا، بعيداً، في عزلته. وعندما نُزعت عنه ملابسه الخارجية، بدا نحيلاً بساقيه اللذين يشبهان الفرجار، ورأسه الذي يشبه رأس العصفور. وكان الثلج الذي يذوب يشكل بركة ماء صغيرة حول قدميه. وألحّ «نيقولا» و «صوفيا» عليه لكي يبقى معهما في المنزل بضعة أيام، ولكنه كان قد تأخر في رحلته، وينبغي أن يستأنف السفر في اليوم التالي. وبعد أن تمّ التعارف بينه وبين كلّ من «ميشيل بوريسوفيتش» و «ماري» والسيد «لوسور» وتبادل معهم بعض عبارات المجاملة، صرّح لهم، دون أن يتظاهر بالخجل، أنّ رحلته الطويلة بالعربة قد أثارت شهيته إلى الأكل. وعلى الفور، أصدر «ميشيل بوريسّوفيتش» تعليماته إلى الخدم لتقديم كافة أنواع اللحوم والخضار المحفوظة وكان على الضيف المسافر

أن يتذوّق أيضاً بدهشة، البطاطا المنتجة محلياً، والتي قال عنها إنها طيبة وشهية، وكانت شوكته تقوم برقصة منتظمة بين صحنه وفمه، دون أن يكفّ لحظة عن الكلام والثرثرة. وما كان يرويه عن الحياة الاجتماعية في العاصمة كان يعجب «نيقولا» ويدخل السرور إلى نفسه، ولكنه لم يكن يهمل النشاط السياسي الذي أرجأ الحديث عنه إلى أن اختلى بـ «نيقولا» وجلسا على انفراد، فأخذ يتحدث عند ذلك عن المسائل الجدية: ألا يقال أنه قد حدث تمرّد، في الفترة الأخيرة، في صفوف فوج «سيميونوفسكي» الذي يشكل الوحدة التي يفضلها الإمبراطور والتي تحظى بإعجابه؟

وكان «ميشيل بوريسّوفيتش» قد اقترح، أثناء تناول الضيف الطعام، أن تقدم بعض الأغاني والألحان الموسيقية، فأسرع أحد الخدم إلى الخارج، وعاد وقد اصطحب ثلاثة آخرين: سائس، ناظر عمال، و «نيكيتا». وبعد أن حيّوا السيد، استندوا على الجدار وأخذوا يداعبون أوتار آلاتهم الموسيقية البدائية، فتجاوبت في أرجاء غرفة الطعام ألحان موسيقية مرحة ومتقطّعة. وغنى السائس أغنية شائعة يردّدها الفلاحون، وكان فمه ينفتح ويلتوي، مرسلاً صوتاً أجشاً. وعندما كفّ عن الغناء، وضع «نيكيتا» آلته الموسيقية جانباً، قفز إلى وسط الغرفة وأخذ يرقص، واضعاً إحدى يديه على خصره، وهو يكاد يجلس مقرفصاً، دافعاً ساقيه إلى الأمام الواحدة بعد الأخرى، بخفة تضاهي خفة ورشاقة البهلوان. كانت شفتاه تضحكان وعيناه تلمعان وقد تدلت وتأرجحت خصلة من شعره الأشقر الذهبي، على جبينه.

وقد تذكّرت «صوفيا» وهي تنظر إليه وهو يرقص أمام الجالسين حول المائدة، أولئك الحواة والمشعوذين الذين كانوا يذهبون، في القرون الوسطى، لتسلية السادة والنبلاء في قصورهم. وفجأة، نهض «ميشيل بوريسّوفيتش» دار حول المائدة، دفع «نيكيتا» جانباً، وبدأ القيام بنوع من

النزهة الموزونة وهو لا يكاد يطوي ركبتيه، ولكنه يتقيد بالإيقاع، محدثاً صوتاً قوياً بضربات متتابعة من كعبيه، كان يتحرك ويتلوّى ويفرقع بأصابعه ويصرخ: «هوب تسا! هوب تسا! هوب تسا!...»

وأخذ «نيقولا» و «كوستيا» يصفّقان بإيقاع، لتشجيعه. وعندما وصل بالقرب من ابنته، وجه لها نظرة آمرة، فاضطربت واحمرّ وجهها وقد عجزت عن مقاومة نداء الموسيقا ودعوتها لها لكي ترقص، فتناولت منديلاً من بين طيات حزامها، وأمسكت به بيديها فوق رأسها، واتجهت بمشية انسيابية وموزونة نحو والدها.

فصاح «كوستيا»:

- «ماري ميكايلوفنا»، إني أشرب نخب صحتك!

واحتسى بجرعة واحدة قدحاً كبيراً من الخمر.

وترك «ميشيل بوريسّوفيتش» «ماري» تمرّ من أمامه واندفع مسرعاً في ملاحقتها، ماراً بجانبها، تارة من اليمين وتارة من اليسار، ضاماً ذراعيه ليقدّم نفسه، وهو يغمز بعينيه، لكي يغريها. بينما كانت هي أثناء ذلك، تلتفت قليلاً نحو أبيها الذي يرافقها في الرقص، محاولة التهرب منه دون عجلة، كما لو أنها تريد جذبه واستمالته، وإحباط مبادراته، في آنٍ واحد. وكان هذا المشهد غير متوقع أبداً، لدرجة أنّ «صوفيا» أخذت تتساءل فيما إذا كان فعلاً «ميشيل بوريسّوفيتش» المستبدّ، والخجولة «ماري» هما اللذان يرقصان أمامها. وبالتأكيد، فإنّ الروس يحدث لديهم تحولات وقفزات مفاجئة في مزاجهم، بحيث لا يمكن متابعة أفكارهم ولا التنبؤ بها لأنها تناقض جميع التوقّعات. والخدم أنفسهم، الذين كان أسيادهم لا يكادون يعتبرونهم مخلوقات بشرية، بدوا، ذلك المساء، وكأنهم بعض أفراد عائلة «أوزاريف». كانوا مصطفين بجانب الجدار، يضحكون ويصفّقون، وهم يتأملون ذلك الذي

بمجرد أن غضب على أحدهم، وقطّب حاجبيه، يمكنه أن يرسله إلى «سيبيريا»، وهو يتمايل ويرقص أمامهم. فانحنى «نيقولا» نحو «صوفيا» وهمس في أذنها:

- ألا تجدين هذا مضحكاً وسخيفاً، بعض الشيء؟

فأجابته:

- كلا إنه ظريف ومسلٍّ!

فابتسم لها وكأنه يعتذر عن سؤاله. كان يربّت بيده اليمنى على حافة المنضدة، وعيناه الخضراوان والعميقتان تقولان:

«نحن هكذا، حاولي أن تفهمينا!»

وفي غضون ذلك، كان «نيكيتا» قد استعاد آلته الموسيقية «البلاليكا»، وأخذ الموسيقيون يعزفون ألحاناً أكثر قوة وسرعة. وكان «ميشيل بوريسّوفيتش» أحمر الوجه مشعّث العارضين، وقد فك أزرار سترته، وأخذ يلهث متعباً.

ونهض «نيقولا» عن كرسيه، وأخذ بدوره، يشارك في الرقص، وتبعه «كوستيا». ولم يبق بجانب المائدة، سوى ممثلي فرنسا، الاثنين «صوفيا» والسيد «لوسور».

وسأل «نيقولا»:

- ألا تأتين، يا «صوفيا»؟

فرفضت وهي تبتسم. وأخذ آنذاك الرجال الثلاثة يدورون حول «ماري» التي كانت تهاجمهم وتستفزهم، الواحد بعد الآخر، متظاهرة بأنها تقذفهم بمنديلها. وكانت «صوفيا» تراقب زوجها بإعجاب يشوبه القلق: كان الرقص يجعله يبدو أصغر سناً وأكثر شباباً. لكم كانت تحبه وهو في لهوه وثورة جنونه! كان يقوم بحركات وخطوات شديدة التعقيد، لدرجة أنّ «ماري» و «كوستيا» أخذا يقهقهان ضاحكين، وذهبا وجلسا في

مكانيهما. أما «ميشيل بوريسوّفيتش» من جهته، فقد تابع تمايله، وتحريك ساقيه بشكل دائري، وفرقعة أصابعه، وهو يصرخ:

- هل تعبتما منذ الآن؟... يا للأسف!... فأنا لم أكد أبدأ بعد،... الانطلاق في الرقص!... هوب تسا!... هوب تسا!...

ولأنّ «نيقولا» خشي من أن ينهار أبوه من الإعياء والتعب، وقد بدا وكأنه يتنفس بصعوبة، وأخذ يلهث، فقد أعاده بالقوة إلى مكانه. فانسحب الموسيقيون. ونشّف «ميشيل بوريسوّفيتش» وجهه بمنديله، ثم أمر الخادم أن يهوّي له فتناول الخادم منشفة وأخذ يهزّها ويلوّح بها فوق رأس سيده. فأخذ شعره يرتعش ويهتز كالحشائش عندما تهبّ عليها العاصفة. وكان ينظر إلى الجالسين حوله بسرور ينم عن الزهو والكبرياء.

وقال «كوستيا»:

- آه! ما أحلى الضحك واللهو! هذا هو بالضبط المرح الحقيقي والصحي الروسي! ولكننا، للأسف، لم نعد نجد له أثراً، في العاصمة!

وعند الساعة الحادية عشرة مساءً، تمنى «ميشيل بوريسوّفيتش» ليلة سعيدة للجميع وذهب لينام. وبعد ذلك بقليل ذهب السيد «لوسور» و «ماري» كل منهما إلى غرفته.

وطلب «نيقولا» بعض المشروبات الروحية، وجلس، هو وزوجته و «كوستيا» قرب مدفأة الصالون الكبيرة التي خمدت نارها. وعاد الرجلان إلى هدوئهما التام، واستأنفا الاهتمام بالسياسة والحديث عنها. فدهشت «صوفيا» لأنّ «نيقولا» استطاع أن يناقش، كرجل كبير، بعض الأمور السياسية، بعد أن كان يلهو كطفل صغير، قبل وقت قصير. وفجأة لم يعد يشغل باله سوى قضية فوج «سيميونوفسكي». واعترف «كوستيا» بأنّ الحدث له أهمية كبيرة. وحسب معلوماته، فإنّ جنود هذا الفوج، الذين استاؤوا واستبّد بهم الغيظ بسبب قسوة قائدهم الجديد العميد «سشوارز» عمدوا إلى التمرد وعصيان أوامره.

يوم السادس عشر من شهر تشرين الأول «أكتوبر»، ولكن دون أن يقوموا بأي عمل من أعمال العنف، وبعد أن خافوا من عواقب جرأتهم على ما فعلوا، فقد انصاعوا بسهولة إلى احتجازهم في القلعة.

كان هذا التمرد قد حصل بصورة عفوية وتلقائية، ولم يكن هنالك أثر لأي مؤامرة أو أي دليل على ذلك. ولم ينضمّ أي ضابط إلى تلك الحركة. ولكنّ القيصر، الذي كان آنذاك في «تروبو» لحضور مؤتمر «التحالف المقدس»، اعتبر الاضطراب الذي حصل، كأنه إهانة موجهة لنظام الحكم الملكي، بشكل عام. ولكي يكون فوجه المفضل، الذي يقوده ضباط ينتمون إلى أكبر وأعرق العائلات، قد تجاسر على التمرد وعصيان أوامر العميد «سشوارز» فلا بدّ أن يكون عفن الأفكار الجمهورية قد تغلغل إلى أعماق الثكنات. وإعطاء العبرة للآخرين بفرض نفسه.

وبعد أسبوع أمضاه «أليكسندر الأول» في التفكير، أصدر أوامره بأن تحال عناصر هذا الفوج كلها من ضباط وجنود، إلى الجبهة، وأن يُختار عدد مماثل من الرجال لإعادة تشكيل الفوج من جديد. ولإكمال هذا الإجراء الواسع الذي يقصد منه العقوبة والإذلال، فقد تقرّر أن يحال نحو مئة من كل سرية من بين أشد المتمردين، إلى المحاكم العرفية العسكرية: وهذا يتضمن حكماً بعقوبة تتراوح بين الجلد خمسين ضربة بالسوط وستة آلاف ضربة بالعصيّ والقضبان. وهذه العقوبة التعذيبية الأخيرة تؤدي حتماً إلى الموت، بعد آلام شديدة ومبرّحة. وقد ذهل «نيقولا» و «صوفيا»، واستولى عليهما رعب شديد.

وسألته «صوفيا»:

- وهل تعتقد أنّ هذه العقوبات ستوضع موضع التنفيذ؟

فأجابها «كوستيا»:

- حسب المعلومات الأخيرة، ربما تلطّف الإمبراطور وخفّفها قليلاً، وهكذا فلن تطبّق، كما يقال، إلا عقوبة الجلد بالسوط.

وقال «نيقولا»:

- إني لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يصدر هذا الرد الفعل العنيف عن القيصر.

فقال له «كوستيا»:

- هذا يثبت لك إلى أي درجة هو قلق! فتلميذ «لاهارب» السابق يعيش في حالة من الرعب بسبب المبادئ والعقائد التي يدعو لها مؤلفو الموسوعة. وحالما ترفع الرأس مجموعة من الأشخاص، يعتبر «أليكسندر» هذا العمل الاستقلالي، مبادرة تنم عن الشرّ والأذى. لأنّ مهمة الملك المسيحي، تبدو له أنها تقضي بأن تظلّ السلطة المطلقة المستمدة من إرادة الله، سليمة لا تتعرّض لأيّ تهديد أو خطر في أي بقعة من العالم. والثورات التي اندلعت في إيطاليا وفي إسبانية تقضّ مضجعه، وتكاد تفقده الوعي. ويدفعه حسب رأيهما ووجهة نظرهما: «أراكتشييفّ» وزير الداخلية، و «ميترنيخ» وزير الخارجية. وهو يحلم بأن يصبح الشرطي الذي يسهر على أمن أوربا. ومن الآن، وحتى تضطر فيالق جيشنا إلى الذهاب لإعادة النظام في كل مكان يتمرّد فيه الشعب ويثور على حكومته لن يكون الوقت طويلاً! ولا حاجة لأقول لك أنّ هذه السياسة الخرقاء، وغير المعقولة، سوف تؤدي إلى انضمام الكثيرين لتأييد قضيتنا!

فقال «نيقولا»:

- نعم! نعم! وأعتقد أني لن أعرف بعد الآن «اتحادنا في سبيل الفضيلة والحقيقة» الصغير، فيما لو حضرت بعد الآن أحد اجتماعاتكم.

فقال له «كوستيا»:

- وأنت لن تعرفه أبداً، لأنه بالحقيقة لم يعد له وجود!

فانتفض «نيقولا» واقفاً:

- ماذا تعني؟ أنكم لم تقوموا بحلّه؟!

فقال «كوستيا»:

- بلى، أو بالأحرى، فقد انضممنا إلى رابطة أكثر أهمية: «الاتحاد في سبيل الخير العام.»

فقال «نيقولا»:

- آه! الآن أستطيع أن أتنفس الصعداء!

وعاد فجلس قرب المدفأة، وأضاف:

- آمل أني ما زلت من جماعتكم!

فقال له «كوستيا»:

- كن مطمئناً، فالجميع في «الاتحاد في سبيل الخير العام» يعرفونك حتى أولئك الذين لم يسبق لهم أن رأوك أبداً.

وسألته «صوفيا»:

- وما هي ميول وتوجّهات هذه الرابطة الجديدة؟

فأجابها «كوستيا»:

- جميع الميول والاتجاهات ممثّلة فيها، وأعني: جميع الميول والاتجاهات الليبرالية، التحرّرية. و «نيقولا تورغينييف» و «نيكيتا مورافيفّ» اللذان يقومان بدورٍ مهم ورئيسي في منظمة «الشمال» هما جمهوريان معتدلان. أمّا «بيستيل» الذي يدير ويرأس عملياً منظمة الجنوب، فهو من أنصار الإجراءات العنيفة، وإذا استمر هذا الخلاف، فسوف ننفصل عنه، وسنقوم بعملنا دون أن نستشيره...

فقاطعته «صوفيا» بهدوء:

- وهل لديكم فكرة واضحة عن طبيعة هذا العمل؟

فقال «كوستيا»، معترفاً:

- ليس لدينا بالضبط فكرة واضحة عنه، وسوف نقرر ماذا يكون هنالك مجال للقيام به حسب الفرصة التي ستتاح لنا.

فقالت له:

- أخشى أنكم ستنتظرون هذه الفرصة طويلاً، فأنا بدأت التعرف على الشعب الروسي. فهو، ربما سيثور ويتمرد على السيد الملاك الذي يحاول أن يرغمه على زراعة البطاطا، ولكنه لا يثور ولا يتمرد أبداً على القيصر الذي يستمد سلطته من الله. ولن تستطيعوا أن تجعلوا أبناء وطنكم يحملون السلاح ضد قضايا تتعلق بالحكومة!

فقال لها «كوستيا»:

- إننا حتى لن نفكر بذلك! فالثورة ستكون من عمل النخبة. والشعب سيستفيد من النتائج، دون أن يكون قد قاتل للحصول عليها، بل وحتى دون أن يكون، في واقع الأمر، قد رغب بها أو تمناها!

- أليس من الخطورة بمكان تحقيق سعادة الناس بهذه الطريقة الاستبدادية والمتعالية؟ ففي فرنسا، جميع أولئك الذين يناضلون ضد نظام الحكم الملكي يشعرون بأن شريحة كبيرة من الرأي العام تدعمهم وتؤيدهم. أما في بلادكم، فالمثقفون يتحمّسون لمفاهيم الحرية، السيادة الوطنية، واستقلالية العدالة والقضاء، ولكنهم في مسيرتهم السريعة نحو التحرر والتقدم، لا تتبعهم جماهير الأمة، التي لا تعرف سوى الشيء القليل عن هذه المفاهيم. واسأل «نيقولا» من الذي يهتم بهذه الأمور في «بسكوف»! إنهم ثلاثة أو أربعة أشخاص على أكثر تقدير! ذلك لأنّه يوجد في روسيا شعبان، أحدهما موقعه على مستوى الحضارة، والآخر لم يكد يخرج من عصر الهمجية والتوحش. ولا يمكن التوفيق بين طموحات وتطلعات هذين الشعبين. والشيء الذي يبدو ضرورياً لأحدهما يمكن أن يكون ضاراً للآخر، وما يرغب به الأول بشدة وحرارة، يرفضه الثاني وكأنه غريب عن معتقداته وتقاليده! ولا

ينبغي، على الخصوص، أن تعطوا لروسيا دواءً فرنسياً أو إنكليزياً أو أميركياً! فالبلاد يمكن أن تقضي نحبها بسبب هذه المعالجة العنيفة!

كانت ملاحظات زوجته تثيره وتزعجه، لاسيما وأنّ «نيقولا» كان يشعر أنها على صواب ومحقة في هذه الملاحظات. وبذكائها الحاد، وطريقتها الفرنسية، فقد شوّشت الأحاديث الحماسية وغير الواضحة التي كان يمكنه أن يجريها، هو وصديقه، على انفراد. ولذلك، قال لها:

- دعك من ذلك! كل هذا نعرفه جيداً، وعلى الرغم من سوابقها الأوربية فإن ثورتنا ستكون أصيلة، وفريدة من نوعها، في تاريخ العالم، وأقسم لك على ذلك!

فقال «كوستيا»:

- وأنا أيضاً، مقتنع بذلك، وعلاوة على هذا، فإنّ لحظة ظهور الحقيقة أخذت تقترب، وهنالك أعراض وأدلة كثيرة ومختلفة تجعلنا نشعر بها: ففي «سان بطرسبورغ» أخذ الناس الأكثر هدوءاً، يتحركون وينشطون! ويعمد بعض الموظفين الشباب الذين يعانون من الفقر والجوع، إلى وضع مشاريع للدستور، بصورة سريّة! والقصائد الداعية للثورة وللتخريب، تتناقلها الأيدي! والمسكين «بوشكين» ينال العقاب الآن، بنفيه إلى الجنوب، لأنه نظم نشيداً رائعاً للحرية، وبعض القصائد الأخرى المثيرة. وقد اشتبه أيضاً بصديقنا «ستيبان بوكروفسكي» بأنه نظم قصيدة سخرية وهجاء ضد «أراكتشييف» وزير الداخلية. وبعد أن حققت الشرطة معه، أخلت سبيله، لعدم وجود أدلّة تثبت ما اتّهم به. وهو ينكر، حتى أمامنا نحن، أنّ القصيدة من تأليفه، ولكني متأكد بأنه يكذب! وبالمقابل فإنّ «روزنيكوف» لم يتورّط كثيراً في هذه الأمور: فهو لا يزال مرافقاً للجنرال «ميلورادوفيتش»، وأكثر زهواً وطموحاً، وحماقة، من أي وقت، صاحبنا: «هيبوليت الجميل»!...

كان «نيقولا» يبدو متعطّشاً ومتلهفاً لسماع هذا الحديث: كان وراء «كوستيا» كل العاصمة، «بطرسبورغ» بكاملها التي يتصورها تضجّ بآلاف الأصوات، وتشع فيها آلاف الأضواء. وهل من الممكن أن يكون قد عاش، هو أيضاً، فيما مضى في العاصمة، وأنه قُضي عليه أن يقنع الآن بالعيش في مجتمع ريفي يبعث على الملل؟

وقال له «كوستيا»:

- وبالمناسبة، فقد استقبلنا في الفترة الأخيرة شاباً يدّعي أنه يعرفك: «فاسّيا فولكوفّ»

فشعر «نيقولا» بخفقان قوي في قلبه، وتمتم:

- فعلاً... لقد كنت أراه كثيراً...

فقال «كوستيا»:

- إنه لطيف، ولكن يبدو أنه سخيف وتافه.

فألقى «نيقولا» نظرة نحو «صوفيا». وكان من حسن ذوقها أنها لم تبدِ السرور الذي كان يتيحه لها دون شك، هذا التقييم السيئ لـ «فاسيا».

وقال له «نيقولا» وهو يبذل بعض الجهد:

- لا تجزم بذلك، إنّ «فاسّيا» متحمس. ويمكنكم استخدامه في أشدّ المهمات خطورة.

فغمغم «كوستيا»، وهو يفرغ في جوفه كأساً من خمر الخوخ:

- لحسن الحظ! هكذا يكون أفضل! إنّ هذا الشراب لذيذ وممتاز! ما هذا الهدوء هنا، وما هذا الصمت؟! وكيف يمكن القول أني نصحتك فيما مضى بعدم الرحيل عن العاصمة، والقدوم إلى هنا! والآن أفهم لماذا انسحبت من هناك وأتيت للإقامة في الريف! فما أبشع العاصمة! الضباب، المطر، الثلج، البزّات العسكرية، الدسائس والمكائد، الخوف... أوف، تفاً لها!... أما هنا، في «كشتوفكا»، فأنتم أسياد مصيركم! تعيشون فيها كما يحلو لكم! إنها فردوس حقيقي!

و «نيقولا» بدافع من الكبرياء، لم يجرؤ على الاعتراض، وأخذت «صوفيا» تروي كيف يمضون أيامهم: وجبات طعام عائلية، جولات من اللعب بالشطرنج، نزهات في الغابات، مطالعات، أحاديث مفيدة وبنّاءة مع الفلاحين. إدارة شؤون الأملاك والعناية بها... كانت لوحة ساحرة وعجيبة، هذه التي وصفتها. وربما كانت، في واقع الأمر، هكذا ترى الحياة التي تعيشها في «كشتنوفكا»، مع زوجها، الذي حسدها على السهولة التي استطاعت بها إضفاء صبغة الجمال على الواقع اليومي الذي يعيشانه.

وأضافت، قائلةً:

- حتى لو أتيحت لنا الوسائل والإمكانات للعودة إلى «بطرسبورغ»، فأنا أفضل متابعة العيش هنا، حياة بسيطة، نافعة ومجدية، على الذهاب إلى هناك، وتحمّل مضايقات وصخب الصالونات من جديد!

فخيّل لـ «نيقولا» أنه يسمع صوت مفتاح يدور في قفل: إنه سجين، مقيد ومربوط! وهذا الأبله البليد «كوستيا» الذي كان يؤيد أقوالها، ويهزّ رأسه، موافقاً على ما تقوله:

- مرحى! هذا هو القول الحق، والكلام السليم، يا سيدتي!

ولحسن الحظ، فقد عاد إلى أحاديث أكثر مدعاة للتسلية والبهجة:

- إني جريدة حيّة وناطقة. اذكر لي أيّ شخص معروف في «بطرسبورغ»، وأنا أروي لك عنه بعض الصفات والقصص المسلّية. ولكن، قبل ذلك، صبّ لي لأشرب!

فقال «نيقولا»:

- «السلام عليكم!»

وهذه الذكرى أثارت لديه مرارة في حلقه.

وقالت له «صوفيا»:

- حدثنا عما يُعرض على المسارح، في العاصمة!

وسأله «نيقولا»:

- من هو نجم هواة الرقص والمراقص؟

وأخذ يفكر: «إننا نلقي عليه الأسئلة التي يلقيها سكان الريف على أحد أبناء المدن.» ولكنه لم يكن يستطيع أن يكفّ عن إلقاء الأسئلة على صديقه، مقابل أي شيء في العالم. كان ينبغي الاستفادة من ابن المدينة هذا، والضغط عليه لعصره والحصول منه على أكبر قدر ممكن من العصارة، قبل أن يستأنف السير في طريقه ويرحل. كانت الدقائق تمرّ، و «كوستيا» لا يزال يتحدث باستمرار وهو جالس تحت ضوء المصباح، الأصفر، وفي يده قدح صغير. كانت «صوفيا» تصغي إليه بانتباه ودّي. وكانت النار قد انطفأت في المدفأة الكبيرة، وأخذت برودة الليل تتسرّب إلى الغرفة. وقد هدأت العاصفة الثلجية. وأخذ كلب ينبح باتجاه القمر. وبدأ الحارس الليلي جولته حول المنزل، مرسلاً صوتاً قوياً بخشخيشته. وعند الساعة الثانية، صباحاً، قال «كوستيا»:

- ومع ذلك، فعلى أي حال، يجب أن أذهب لأنام!

فرافقه «نيقولا» و «صوفيا» إلى الغرفة التي أُعدّت له. وفي اليوم التالي، اجتمع جميع أفراد الأسرة لتوديعه، عندما أراد أن يستقّل عربته. وعانقه «نيقولا» للمرة الأخيرة. وانطلقت الأحصنة، مسرعة على الثلج، وشعر أعناقها تتلاعب به الريح، وأجراسها ترسل رنيناً قوياً. وظلّ «كوستيا» لفترة طويلة يلوّح بيده، فوق صندوق العربة، الأزرق، إلى أن اختفت العربة عبر أحد المنعطفات.

و «نيقولا» الذي كان يسند كتفه على أحد أعمدة الواجهة، قال بصوت خافت:

- متى، يا ترى، سأراه ثانية؟

فاستندت «صوفيا» على ذراعه، وعادا إلى البيت.

١٠

في اليوم السادس من كانون الثاني «يناير» سنة ١٨٢١، ذهب جميع أفراد العائلة إلى ضفة النهر، لحضور الاحتفال بمباركة المياه. وقد تجمّع سكان ثلاث قرى على مرتفع يغطيه الثلج. كان الرجال والنساء وقد ارتدوا الملابس الثقيلة والكثيفة، يشبهون الدجاجات الحبشية التي نفضت ريشها. وكانت أجراس كنيسة «شتكوفو»، الصغيرة، ترنّ بعيداً عبر جوّ رمادي. وبين ضفتي النهر، على الجليد، الذي كُنس ونُظّف، نُصبت مظلّة مكوّنة من أربع ركائز تحمل سقفاً من أغصان أشجار الصنوبر. وتحت هذه المظلة، فتح الفلاحون ثغرة كبيرة في قوقعة النهر المتجمّدة. وأخذ الأب «جوزيف»، وهو يشرف من على المرتفع على النهر، وهو يرتدي لباسه الكهنوتي الفضّي، يرتّل الصلاة. وكان البخار الذي يتخلّل لحيته عند كل كلمة يلفظها، لا يقل غزارة عن الدخان الذي يتصاعد من المبخرة التي يؤرجحها الشمّاس. وأخذت جوقة من الفلاحين تنشد الأناشيد الجميلة التي لم تكن «صوفيا» تفهم جيداً معنى كلماتها.

وأخيراً، تم تغطيس الصليب، وعندما اختفى، رسم جميع المؤمنين إشارة الصليب على صدورهم. وعاد موكبهم إلى الكنيسة عبر طريق تغطيه الثلوج، حاملين لافتاتهم وأيقوناتهم ورافعينها عالياً فوق رؤوسهم. وكانت العادات والتقاليد تقضي بأن يغطس في الماء، بعد ذلك أكثر الفلاحين جرأة وإقداماً. وكان من المعترف به أنّ سباحة من هذا النوع

لا يمكن أن تسبّب أذى لأرثوذكسي. وعلى الرغم من هذا اليقين، فلم يكن هواة هذه السباحة كثيرين. واقترحت «ماري» العودة إلى المنزل، ولكنّ «ميشيل بوريسّوفيتش» لم يكن يريد أن يدع المشهد يفوته. ولذلك رفع ذراعيه، وصاح:

- خمسة روبلات لمن سيمكث أطول مدة، في الماء!

وأجابته أصوات كثيرة، تعبّر عن الفرح.

وسألته «صوفيا» بقسوة:

- كيف تستطيع أن تشجّع هذا، يا أبي؟!

فأجابها، ضاحكاً:

- ألست حارس التقاليد؟ إنّ عبيدي لا يستطيعون أن يتفهموا ولا أن يتقبلوا مني اللامبالاة وعدم الاهتمام بالمآثر والبطولات المسيحية!

فأيّد «نيقولا» هذا الرأي، وطلب من «ماري» ومن «صوفيا» أن تصعدا معه إلى العربة، حيث تشعران ببعض الدفء، وتستطيعان أن تريا المشهد، بشكل أفضل. وجلس «ميشيل بوريسّوفيتش» على مقعد الحوذي، لكي يشرف على عالمه، وقال:

- تغطوا جيداً! فالبرد قارس، يقتلع الآذان!

وكان بعض الفلاحين قد أخذوا يخلعون ملابسهم، ورأت «صوفيا» منهم ثلاثة، اثنان منهم في سنّ الشباب، قصيرا القامة، جسماهما قويان، يشبهان بعضهما كثيراً، كأنهما شقيقان، والثالث رجل مسنّ ملتحي، نحيف البنية، ضعيف الجسم، لا يبدو على جسمه سوى الأعصاب والأوردة، وانضم إليهم عجوز آخر، كبير البطن، وكانوا جميعهم، بسبب وجود أسيادهم، قد ربطوا قطعة قماش حول خصورهم.

وقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- استعدّ يا «نيقولا»، عليك أن تعدّ وتحصي الثواني!

فحملقت «صوفيا» عينيها وضمت، بصورة تلقائية يد «ماري» تحت الغطاء. وتسلّل شبح خامس، عاري الجسم من بين مجموعة الفلاحين الذين يرتدون الملابس الثقيلة، والدافئة. كان ذلك هو «نيكيتا» طويل القامة، نحيل الجسم، ضامر الوركين، لم يكتمل تكوّن منكبيه، وقد تدلت على عجزه وعلى فخذه وزرة من قماش الأكياس. كان يقفز وينطّ على الثلج وهو يفرك صدره بيديه لتنشيط دورته الدموية. كانت بشرة جسمه وردية اللون. و «صوفيا» التي كادت تجن بسبب هذا القدر الكبير من الرعونة والطيش، ودّت لو تستطيع أن تصرخ به طالبة منه أن يرتدي ملابسه ويعود إلى المنزل، ولكنها امتنعت عن ذلك، خوفاً من أن يُساء تفسير نصيحتها له. فمن هو بين الأشخاص الحاضرين، الذي يستطيع أن يتفهم الاهتمام الأمومي الذي تشعر به نحو الفتى الذي لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره؟ وتحاشت نظرات شقيقة زوجها، التي كانت، على ما يبدو، تتأملها بشيء من السخرية.

وصاح «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- هيا! انطلقوا!

فاقترب الرجال الخمسة من الخيمة وكأنهم يمشون على إبر، جلسوا على حافة الثغرة، ثم انزلقوا سوية في الماء. وبدأ «نيقولا» يعدّ، بصوت عالٍ:

- واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة...

وفي وسط حقل الجليد، كانت تبدو آنذاك خمسة رؤوس، قُطعت عند العنق وظهرت وكأنها ثمار الفاكهة وقد وضعت على مستوى سطح الماء.. وكانت هذه الرؤوس تلتفت إلى كل الاتجاهات، تنفخ، وتئنّ، والرجل المسن والملتحي هو وحده الذي كان يقوى على الضحك وعلى المزاح:

- إنها تغلي، ألا يمكن تبريدها قليلاً؟

وكان سكان قريته يصفّقون ويهتفون له:

- اصمد جيداً، يا «مكسيمتش»! فالجلد المدبوغ هو الأقوى والأكثر صلابة!

وأخذ أنصار السباحين الآخرين، يصيحون هم أيضاً بصوت عالٍ:

- تحرك يا «نيكيتا»!... هيا يا «ستيبان» تصوّر نفسك في السرير مع «دونياشا» فتشعر بالدفء!... هل أنت ما زلت حياً، على الأقل، وبصحة جيدة؟...

فأجابهم «مكسيميتش»:

- نعم... أنا بصحة جيدة! والماء عذب وناعم كالحرير!... وأستطيع البقاء فيه عدة ساعات!... برّ!... برّ!...

- هذه السنة أيضاً «مكسيميتش» هو الذي سيربح الرهان! ويفوز بالمكافأة! تأمل قوة بريق عينيه، وقارن ذلك مع سنّه!

- كلا، سيكون «ستيبان» هو الرابح، هيا! يا «ستيبان» أنت القوي والماهر، شدّ من عزمك وكزّ على أسنانك، يا «ستيبان»!

- «أغافون»! «أغافون» إنه يانع وسليم كالخيارة!

وكان «نيقولا» لا يزال في مكانه، يتابع العدّ، بكل هدوء:

- اثنان وستون، ثلاثة وستون...

وأول من بدت عليه أمارات التعب والانزعاج كان الأخوين اللذين بديا لـ «صوفيا» قويين جداً. فأنحنى والدهما على حافّة الجليد، وقال لهما، بصوت خافت وفاتر:

- هيّا! اخرجا من الماء! أيها المغفّلون! فشفاهكما تتراقص على أسنانكما!

وجذبهما بعض الفلاحين، بقوة إلى خارج الثغرة، ألقوا عليهما معطفين التفّا بهما، وناولوهما زجاجة ملأى بالخمر. وبعد ذلك في الحال،

كان «أغافون» الضخم هو الذي طلب العفو. وقد احتاج لستة أشخاص حتى أمكن انتشاله وإعادته إلى ضفة النهر. وكان جسمه منتفخاً، شاحباً، تبدو عليه بقع بنفسجية اللون. وأخذ يحرّك لسانه، دون أن يستطيع التلفّظ بكلمة.

وقالت زوجته، متأوّهةً:

- ليكن المسيح معك! بأي حال عدت لي؟ وماذا سأعمل بجثة هامدة؟ اغفر لي يا مولاي، أنت الذي أحييت «أليعازار»، ولكن، يجب عليّ أن أضربه!

وأخذت تصفع زوجها، بينما كانت النساء الحاضرات، يشجّعنها على ذلك. وعندما انتعش واستعاد وعيه، صفعها، هو بدوره. وحيّت قهقهة عالية من الضحك هذا التبادل بالصفعات. وأثناء ذلك، لم يكن بقي في الماء سوى العجوز «مكسيميتش» و «نيكيتا»، كانا يتحديان بعضهما بالنظرات، وقد وقفا وجهاً لوجه وأسنانهما تصطكّ. و «صوفيا» التي لم تعد تطيق رؤية هذا المشهد، صاحت باللغة الفرنسية:

- أوقفوا هذه المباراة السخيفة! إنهما سيموتان، بسببها!

فأجابها «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- لم يسبق أن مات أحد أبداً بسبب السباحة، يوم مباركة المياه، وصاح:

- إني أضاعف مكافأة الرهان: عشرة روبلات!

فغمغم «مكسيميتش»: وهو يؤدي تحية سريعة:

- شكراً، يا سيدي! فالكلام الطيّب يبعث الحرارة في قلب المؤمن!

كانت بعض قطع الجليد قد تشكلت على لحيته، وأخذت حركة لا إرادية تعبث بشفته العليا وترفعها، وقال لنيكيتا:

- ما بك؟ ألا تنسحب أيها الصبيّ الدعيّ؟

فهزّ الفتى رأسه بصمت، وهو بالكاد يبدو حياً: ملامحه متوتّرة ومقلتاه جاحظتان.

وتابع «مكسيميتش»:

- أنت تخطئ، لو كنت ترى نفسك، وكيف هي هيئتك!

وكان «نيقولا» يتابع العدّ:

- مائتان واثنان وتسعون، مائتان وثلاثة وتسعون!

فقال «مكسيميتش»:

- مائتان وأربعة وتسعون!

وفجأة تغيرت ملامحه وتطاول وجهه وجحظت عيناه من الرعب، وأخذ يهذي:

- يا إلهي، القادر على كل شيء! النجدة!

فساعد «نيكيتا» الأشخاص الذين أسرعوا لإنقاذ «مكسيميتش» وإخراجه من الماء، ثم، بينما كانوا يحملون العجوز لكي يدلكوا له جسمه ويلبسوه ثيابه، صعد، بنفسه، فوق الجليد. كان جسمه أحمر اللون، كأنه احترق بالماء الحار جداً حتى منبت عنقه. وكان يقف بصعوبة على ساقيه. فأخذ الفلاحون يصرخون:

- يا لـ «نيكيتا» اللعين! لقد ربح الرهان! الشباب يتكلّم، والشيخوخة تحني رأسها!...

وألقى له أحدهم بطانية على ظهره، وأخذ آخر يفرك له عنقه من الخلف بخرقة من ليف القنب، بينما كان يسنده آخرون، يسقونه قليلاً من الخمر، ويدفعونه نحو عربة السيد الملاّك.

فقال لهم:

- اتركوني! إني أستطيع المشي لوحدي، دون مساعدتكم!

ورأته «صوفيا» يتقدّم وهو يترنّح، وعلى شفتيه ابتسامة غريبة، وغير معقولة بالنسبة لوضعه، والارتياح الذي شعرت به يشبه نوعاً من الضعف.

وتناول «ميشيل بوريسّوفيتش» عشرة روبلات من جيبه، وأخذ يقذف قطع النقود إلى الأعلى ويلتقطها بباطن يده التي يغطيها القفّاز. ولكنّ «نيكيتا» لم يكن ينظر إلى النقود. كانت عيناه مثبّتتين على «صوفيا»، ونظراته تعبر عن الفخر والزهو، كان متوجهاً بمناجاته لها وحدها، مقدماً لها فوزه كهدية. وبعد ذلك بقليل، أصبح قريباً جداً منها، بحيث أنها استطاعت أن تتبيّن قطرات الماء المتجمدة على أهداب عينيه. وكانت البطانية لا تغطي جيداً صدره الأمرد، وبين ثدييه كان يلمع صليب التعميد، الصغير. وقد غطت ساقيه العاريتين جزمة طويلة من اللباد. كان يلهث ويضحك، وفكه الأسفل يرتجف.

وقال له «ميشيل بوريسّوفيتش»، وهو يناوله النقود:

- أنت فتى شجاع! ماذا ستصنع بهذه الروبلات العشرة؟

فأجابه دون تردّد:

- سأشتري بها كتباً وورقاً!

- يا للغرابة! أنت إذن تريد أن تصبح عالماً؟!

فقال:

- نعم، يا سيدي، بعد إذنكم...

- وألقى نظرة على «صوفيا» لكي يرى إذا كان قد أحسن الإجابة.

☆☆☆

وطوال أسبوع، لم تلتقِ «صوفيا» بـ «نيكيتا» في أروقة المنزل، الأمر الذي أقلقها، فسألت عنه «فسّليسّا» فعلمت منها أنه أصيب بالمرض بعد العمل الباهر الذي قام به، فذهبت لتراه في قاعة الخدم المشتركة. كانت

فرشـات القـش الخاصـة بالخـدم الـذكور، وعـددها نحـو عـشرين فراشـاً، مكدّسـة في إحدى زوايـا القاعـة أثنـاء النهـار. وهنالـك مدفأتان كبيرتـان تـدفئان القاعـة وتنـشران فيهـا رائحـة التعـرق والأحذيـة. وكـان «نيكيتـا» وحده، مستلقياً ومتكوراً على نفسه، فوق سـرير صغير. وبالقرب منه جرّة فيهـا مـاء مغطـاة بقطعـة مـن الخبـز الأسـود، وكانـت هنالـك أيـضاً آلتـه الموسيقية: «البلاليكـا». فانحنـت «صوفيا» علـى الفتـى وجسّت جبينه الـذي كان حاراً، فلم يفتح عينيه.

وقالت «فسّيليسـّا» التي دخلت خلف «صوفيا»:

- أوه! لقد تحسن الآن كثيراً، فأنا أسقيه مغلياً من تركيبي، وكل مساء يفـرك لـه «أنتيـب» ظهـره بالفرشـاة. وخـلال أسـبوع سيتعافى، وينهض فيقف على رجليه.

وارتعشت أجفان «نيكيتا». وانساب ضوء أزرق بنفسجي بين أهدابه. وابتسم لرؤيا سماوية، وأخذ يهمس:

- سيدتي! سيدتي! أنت أتيت!...

فقالت له «فسّيليسّا»:

- إيه! نعم، أنت ترى القلق الذي تسببه لأسيادنا! فهل يحسن بك أن تفعل ذلك؟!

وبينمـا كانـت توبّخـه، كانـت تـشدّ عليـه غطـاءه الـصوفي العتيق. ولكم كانت «صوفيا» تودّ أن تفعل هي ذلك، لأنّ حركات تلك المرأة كانت عنيفة جداً! وعندما سوّت «فسّيليسّا» وضعية رأس «نيكيتا» على رزمة من الخرق، سقط من الفـراش دفتر على الأرض. فالتقطتـه «صوفيا» بسرعة. ولاحظت ذلك «فسّيليسّا»، فهمست لها «صوفيا»:

- قولي له إني أخذت الدفتر!

وخرجت من القاعة. وعلى عتبة الباب التقت بالسيد «لوسور» الذي يبدو أنه كان يترصدها، وقال لها، وعلى شفتيه إبتسامة غامضة:

- السيد عمك يبحث عنك.

- ولماذا؟

- لأنه يرغب بإجراء مباراة «شطرنج»، وأنت تعلمين جيداً أنه الآن لم يعد يريد منافساً له في هذه المباريات إلا أنت!

لم يكن لديها أي رغبة بأن تلعب الشطرنج. كان اهتمامها منصرفاً إلى دفتر «نيكيتا»، ولذلك، ردّت بقولها:

- قل له إني مشغولة الآن.

- ألا تستطيعين أن تقولي له هذا، أنت بنفسك؟ لأني لو قمت أنا بهذه المهمة لأساء استقبالي!

فقالت له «صوفيا»:

- إنّ مخاوفك غير معقولة!

وفي كل مرة كان السيد «لوسور» يوجّه لها الكلام، كانت تشعر بنفور يشبه الانزعاج. وكونه أحد أبناء وطنها جعلها تبدو أكثر قسوة حيال هذا الشخص القصير الأصلع والمتملّق. كان هنالك ممر طويل يصل بين مبنى الخدم والمبنى الذي يقيم فيه السادة. وكان السيد «لوسور» وهو يعدو عدو القصير في الممر، إلى جانب «صوفيا» يتابع تأوهاته وشكواه:

- أنت لا تعرفينه على حقيقته، يا سيدتي العزيزة! لقد تغيّر كثيراً بالنسبة لي! كنت فيما مضى أتمتع بثقته، وبصداقته تقريباً. أما الآن، فهو لا يدري ماذا يفعل لكي يبعدني عنه وليقنعني بأني لم يعد لي أي جدوى في منزله...

ورفع نحو «صوفيا» نظرة تعبر عن الرجاء، وأضاف:

- لقد حظيتِ ببعض السلطة عليه! وهو يستمع جيداً، وبحق، لآرائك ونصائحك! ألا تستطيعين أن تقنعيه بأن يعيد النظر في موقفه حيالي؟

فأجابته «صوفيا»:

- ليس لي على عمي هذا النفوذ الذي تتصوّره!

فصاح السيد «لوسور»:

- أوه! بلى، إني متأكد من ذلك، وأعتمد عليك، أليس كذلك؟ ومسبقاً، فأنا أشكرك!...

كانا قد وصلا إلى الرواق. فصعدت «صوفيا» إلى غرفتها. والسيد «لوسور» وقد وقف عند أسفل الدرج، أخذ يتأملها وهي تصعد وقد انتابه شعور بالكراهية نحوها. وعندما يفكر أنه قد فرح كثيراً فيما مضى لإعتقاده أنها ستجلب شيئاً من نسيم الحرية من «باريس» إلى هذا المنزل المغلق بجوه الخانق! وأنه ظنّ أنه سيجد منها حليفاً ضد كل ما كان يزعجه من الأساليب والعادات الروسية! وأنه كان يحلم بحبك مؤامرة معها، لإضفاء الصبغة الفرنسية على أسرة آل «أوزاريف» والهيمنة عليها! ولكن لم يطل به الوقت حتى تبيّن له خطؤه. فقد خيّبت «صوفيا» أمله كثيراً، بطريقتها والأساليب التي اتّبعتها، لدرجة أنه الآن أخذ ينكر عليها أن تكون، حقاً، فرنسية. وهي لا تمثل في نظره الوطن الذي غادره قبل ما يقرب من ثلاثين سنة، بل تمثل بلداً غريباً، شوهه مرور الرعاع «اللامتسرولون»[1] ومرور «نابليون بونابرت». وكانت الآراء التحرّرية التي تبديها هذه المرأة تجرحه. وكان يغتاظ لكونها تهتم بأخلاق الفلاحين وبشؤونهم. وأخيراً فإنه لم يكن يغفر لها احتكارها لانتباه «ميشيل بوريسوّفيتش» واستئثارها باهتمامه. وأولئك الذين سبق لهم أن عرفوه متشدداً، قاسياً، ظالماً، كان يبدو لهم الإعجاب الذي يبديه هذا الرجل لكنّته، ثقيل الوطأة بالنسبة لهم،

١- يقصد بهذا التعبير ثوار سنة ١٧٩٣. - المترجم-

كأنه دليل على فشلهم وإفلاسهم. وكان السيد «لوسور» يقول في سرّه: «فلترحل من هنا! ولتذهب مع زوجها!» وبعد أن استعاد هدوءه، عاد إلى الصالون، حيث كان «ميشيل بوريسوّفيتش» يجلس مسترخياً، على إحدى الأرائك، قرب النافذة التي يغطي الصقيع زجاجها. وعندما سمع وقع الأقدام، فتّح عينيه، وسأل:

- إيه، ماذا هنالك؟

فقال السيد «لوسور»:

- وجدت السيدة «صوفيا» تقف قرب سرير المسكين «نيكيتا»، فهي تبدي نحو هذا الفتى إخلاصاً لا مثيل له، وحالما تنتهي من العناية به، سوف تأتي إليك، فهل تحب، أن نلعب مباراة شطرنج، بينما تأتي السيدة «صوفيا»؟...

فتجاهل «ميشيل بوريسوّفيتش» السؤال، ولم يشأ أن يردّ عليه، وعادت نظراته إلى النافذة البيضاء. آه! لكم كان السيد «لوسور» يفضّل على هذه اللامبالاة، الإهانات والسخرية، وثورات الغضب التي كانت تنتاب «ميشيل بوريسوّفيتش». فعندما كان يسخر منه، يوبّخه، ويعامله بقسوة، كان على الأقل يشعر بأنه يعيش، وأنه حيّ يرزق، بل كثيراً ما كان يشعر بمتعة مضطربة وغامضة لتحمل ألف إهانة، دون أن يكون له الحق بأن يردّ عليها. أما الآن، فكل هذا قد انتهى، وذلك بسبب هذه المرأة، والذنب ذنبها في كل ما يحصل!

وسأله مرة ثانية:

- أتريد أن أقرأ لك بضع صفحات، بصوت عالٍ؟

فقال له «ميشيل بوريسوّفيتش» بلهجة تنم عن الضجر:

- أريد منك أن تدعني وشأني!

فانسحب السيد «لوسور» مسرعاً.

وفي الأيام التالية تابع مراقبته لـ «صوفيا»، وإبلاغ ملاحظاته بشأنها إلى «ميشيل بوريسّوفيتش» الذي كان يصغي في كل مرة لما يرويه له، حتى النهاية، متظاهراً بأنه لا يولي أي انتباه أو اهتمام لتلك الحكايات. وهكذا، فقد أخذ علماً بأن «صوفيا» عملت على نقل «نيكيتا» من قاعة الخدم المشتركة إلى غرفة صغيرة، مجاورة لها، وأنّ «فسيّليسا» تلقت الأمر بأن تضع شراشف وبطانيات جديدة على سرير المريض. وأنه قد تمّ استدعاء الدكتور «بريكوسّوف». وعلاوة على ذلك، فإنّ هذا الخبر الأخير قد أكدته له «صوفيا» نفسها. وهذا لم يمنعه من أن يقطّب حاجبيه ويشعر بالاستياء، لأنّ مبادرة كنّته وضعته في موقف حرج ومزعج. وعندما أبلغه الدكتور «بريكوسّوف» أنّ الفتى قد نجا من الخطر. شعر بالحرج لأنّ عليه أن يشكر الطبيب لمعالجته أحد عبيده، لأنه اعتبر أنّ ذلك يحط من قدره، ويخلق سابقة مزعجة في المنطقة. وقال هذا لـ «صوفيا»، فوافقت عليه بكل لطف ومودة، لدرجة أنها أرضته. ولكي تبرر تصرفها، أطلعت عمها على دفاتر «نيكيتا». وكان السيد «لوسور» قد كمن وراء باب المكتب لكي يسمع ما سيدور في تلك المقابلة، كان يتوقع أن يثور «ميشيل بوريسّوفيتش» ويغضب. ولكنّ الحديث كان هادئاً. وقد صرح هذا الأخير، بأنه فوجيء بالإمكانات التي يتمتع بها هذا الفتى. وفي المساء، عند تناول وجبة العشاء، بدت المرأة الشابة متألّقة، وقد أثارت هيئتها التي تنم عن الارتياح والمهابة حفيظة السيد «لوسور» الذي بقي له أمل واحد: وهو أن يسكرها النجاح، فتتجاوز الحدود وتخسر كل شيء وهي تريد أن تحصل على كل شيء. وقبل عيد الفصح بقليل طلب منها أن تمنحه وقتاً لإجراء حديث معها. وادّعى أنه، هو نفسه، مندهش جداً بالتقدم الذي يحققه «نيكيتا». فلماذا لا تطلب من عمها أن يعتق هذا الشاب النشيط، ويوفده لمتابعة دراسته في العاصمة؟ فأدهشت هذه الفكرة «صوفيا». فلم يكن قد تبادر إلى ذهنها أنّ هذا الأمر ممكن.

فقال لها السيد «لوسور»:

- بلى! إنه ممكن، حتى أني مقتنع بأنّ عمك سيسره أن يحقق لك هذه الرغبة، ويرضيك بشأنها!

فقالت له «صوفيا»:

- إني أشكرك، فهذه بالحقيقة فكرة ممتازة!

فوجد السيد «لوسور» صعوبة في إخفاء فرحته: «صوفيا» لم تكتشف الأحبولة! فمطالبتها في تحقيق هذا المشروع غير المقبول، ستغضب «ميشيل بوريسوّفيتش» وتجعله يفتح عينيه ويراها على حقيقتها: مثيرة للمشكلات والاضطرابات وللتخريب، داعية لنظام الحكم الجمهوري! فكيف العمل كي يحصل هذا الخصام الذي سيضع حتماً هاتين القوّتين وجهاً لوجه؟

وانقضت أعياد الفصح، بقداسها الذي أقيم عند منتصف الليل وحلوياتها التقليدية، والزيارات المتبادلة بين الجيران. وهذه المرّة، لم يأتِ «فلاديمير كريوفيتش سيدوفّ» إلى «كشتنوفكا»، وبعد أن انتظرته «ماري» طوال النهار، صعدت إلى غرفتها لتبكي. وفي اليوم التالي، عندما أنهى «ميشيل بوريسوّفيتش» قيلولته، ذهبت «صوفيا» لمقابلته في مكتبه. كان مرتاحاً، مسترخياً واستقبلها بكل المودّة التي تأملها. ولكنها لم تكد تتحدث إليه عن تحرير «نيكيتا» وإعتاقه حتى تجهّم وجهه، وتحوّل إلى طبقة من الجليد، وقال، وهو يسوي جلسته في أريكته:

- اطردي هذا الحلم من رأسك، أيتها العزيزة «صوفيا»!

فسألته:

- لماذا، يا أبي؟ لديك كثير من الفلاحين، فماذا سيتغيّر بالنسبة لك إذا غادر هذا الفلاح أملاكك؟

- إنها مسألة مبدأ.

- إنه لأمر غريب ويدعو للدهشة أن نسمع كلاماً عن المبادئ في مجال الرق والعبودية!

فازدادت نظرات «ميشيل بوريسّوفيتش» حدةً. لأنه حالما تهتم كنّته كثيراً وعن قرب بشخص ما، يشعر على الفور بالغيرة تنهش قلبه: وكل ما تمنحه لشخص آخر، كانت تأخذه منه هو. ودون أن يحوّل ناظريه عن المرأة الشابة، ردّ بلهجة متزنة:

- إن كنت تؤيدين الرقّ أو لا تؤيدينه، فهو قائم وموجود. وأنا لا أستطيع أن أقف ضد أنظمة وتقاليد بلادي. وإذا كان الإمبراطور، بحكمته السامية يقرر تحرير «الموجيك» «الفلاحون العبيد» وإعتاقهم، فسأكون أول من ينصاع لقراره. ولكن لن تكون لديّ الجرأة لأن أجعل من نفسي قدوة بالأريحية والكرم، طالما ظلّت الحكومة ترغب بالمحافظة على الأمور في وضعها الراهن.

فقالت «صوفيا»:

- ومع ذلك فهنالك ملاكون لا يفكرون مثل تفكيرك!

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- نعم، أعرف بعض هؤلاء، الذين يمنحون، من وقت لآخر، جواز سفر لأحد فلاحيهم، مع ترخيص بالعمل في المدينة. وتعود ثلاثة أرباع ما يربحه الفلاح للسيد الملاك. وعلى الرغم من كل ذلك إذا اغتنى قليلاً العبد الذي أصبح من سكان المدن، فإنّ سيده يحدّد له رقماً مرتفعاً جداً كثمن لحريته التامة. فهل لمثل هذا الأسلوب وهذه التجارة الغريبة تدعينني؟

- كلاّ، وأنت تعلم هذا جيداً. إني أطلب منك أن تعتق «نيكيتا» دون أي مقابل.

فتذكّر «ميشيل بوريسّوفيتش» المراهق الأشقر، المشوق القامة، وهو يخرج من الماء، يوم الاحتفال بمباركة المياه. فمن المؤكد أنّ هنالك

خلفية غامضة ومشوشة في الميل الذي تشعر به «صوفيا» نحو هذا الفلاح الصغير. ولذلك، قال:

- «نيكيتا» وُلد عبداً وسيظل عبداً، طالما أنا على قيد الحياة!

وانزعاج «صوفيا» أتاح له متعة غير عادية. وبعد أن وجّه لها الضربة الأولى، فهو سيعمد إلى تشديد التّعذيب. وكنّته كانت ضحية مختارة وممتازة، فهي قاسية وحسّاسة في آن واحد. كانت محبته لها أكثر من أن تجعله لا يتمنى أن يؤذيها.

واستأنف الكلام بلهجة تنمّ عن المكر والمراوغة:

- إيه! نعم، لقد سبق أن قلت لك يا عزيزتي إني على طرفي نقيض مع المجدّدين! فالآخرون يقتحمون الأبواب ويحطمونها، ويشعلون الحرائق! أما أنا فأسير مع عصري! وأخضع لعادات وتقاليد أبناء عصري! وبهذه المناسبة، سأبوح لك باعتراف سيدهشك: لقد سررت كثيراً عندما تبيّن لي أنك عمدت إلى تمييز «نيكيتا» عن بقية الخدم لدرجة أنك خصصت له مكاناً جيداً في المنزل.

فشعرت «صوفيا» أنّ هنالك مكيدة، فتنبهت وأخذت حذرها. ولأنها لزمت الصمت، فقد تابع «ميشيل بوريسوّفيتش» الكلام، بعد أن خفض صوته قليلاً:

- أنت تفهمينني، أليس كذلك؟

كلاّ.

- أعني أنّ المعاملة المميزة، تجاوز الحقوق، المراعاة والمجاملات من جميع الأنواع، هي نتائج طبيعية لنظام الرّق والعبودية. وجانب كبير من الغبطة التي يشعر بها السيد من التحكم بآلاف الأفراد، يأتيه من تلك القدرة المعطاة له، على اختيار أحدهم وإرضائه، بدافع من إحدى نزواته. وباختيارك وتمييزك هذا الشاب الظريف «نيكيتا»، بينما يظل نظراؤه في

بؤسهم، فأنت تتّبعين التقاليد الأساسية والمهمة لكبار ملاّكي العبيد. وإلى التفاوت الذي تفرضه قوانيننا، تضيعين تفاوتاً تفرضيه أنت بنفسك. ولست أنا الذي ألومك على ذلك!

كان يبتسم بسخرية فيها كثير من التعالي والغطرسة، لدرجة أنه تكوّن لديها انطباع بأنها أمام عدوّ لها. ولكنه عدو لا يستطيع أن يستغني عنها ولا هي تستطيع أن تستغني عنه. وأن تنكر الأهمية التي احتلها في حياتها يكون من العبث وكأنها تريد أن تزيل جبلاً وتمحوه من الأفق. فهذا الكيان، هذا الظل، هذا الصوت، كلها كانت تلقي بثقلها على كل أيام حياتها. كان ينتظر أن تجيبه لكي يستمر بالمناقشة ويطيل أمدها. ولكنها لن تتيح له هذه المتعة. وبهدوء وبطء، نهضت، أدارت ظهرها لعمها وخرجت.

وفي الممر، التقت بالسيد «لوسور» الذي كان يمر، متأبطاً كتاباً. فلم تنخدع بتظاهره بأنه مشغول وعلى عجلة من أمره، فلا شك بأنه كان كعادته، يتنصّت وراء الباب. فحدجته بنظرة تطفح بالاحتقار، وتابعت طريقها. أمّا هو، فكان يشعر بفرحة عارمة وقد وضع يده على قلبه وشكر الله على المنحى الذي اتخذته الأحداث.

☆☆☆

وفي الأسابيع التالية، ضاعف السيد «لوسور» من يقظته، فبعد النقاش الذي حصلت فيه المواجهة بين «ميشيل بوريسوّفيتش» وكنّته، ظل الخصمان في حالة التوقّع والانتظار. ولم يتغير شيء بالنسبة لهما، في ظاهر الأمر، ولكن، في ذلك الجو المتوتر، كانت أقل شرارة يمكنها أن تثير عاصفة هوجاء.

والسيد «لوسور» الذي صمّم على عدم إضاعة أي فرصة، كان يستيقظ كل صباح والأمل يراوده بحصول حادث جديد يحط من قدر

«صوفيا» في نظر عمها ويأوي إلى سريره، كل ليلة، نادباً حظه لأن الوضع لم يتطور لا نحو التحسن ولا نحو التدهور.

وفي أواخر شهر حزيران «يونيو»، عيل صبره، وبلغ تبرّمه الذروة، وانتابته أزمة من القلق والهياج. ولم يكن أحد في المنزل يشفق عليه ويرثي لحاله، فيما عدا «فسّيليسّا» التي أخذت تعتني به وتقدم له النقاعات والمغليّات المرّة. ولم يكد يتحسّن وضعه، حتى أخذ يحاول أن يستعيد موقعه لدى الأسرة. وفي الخامس عشر من تموز «يوليو» أي في عيد القديس «فلاديمير»، نزل من غرفته لكي يتناول طعام العشاء. ولكنه على ما يبدو كان قد بالغ في تقييم قواه:

فعندما جلس في الصالون، في الجهة المقابلة «لميشيل بوريسّوفيتش» أخذ يشعر بطنين قوي في أذنيه، وأنّ عينيه مغمضتان من التعب والإعياء. وكانت «ماري» تدندن أغنية حزينة وهي تنظر إلى الحديقة عبر النافذة المفتوحة. والسيد «لوسور» الذي كانت تفتر همته وكأنه يشعر بدوار قد انتابه، انتعش وتنبه عندما رأى «نيقولا» يدخل هو وزوجته التي بدت متجهمة ومضطربة. ولأنها كانت قد تلقت رسالة من أمها، فقد سألها «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- هل تلقيت أخباراً حسنة من أهلك؟

فقالت بشيء من المواربة:

- حسنة جداً

- نشكر الله على ذلك، لقد رأيتك قلقة جداً، فخشيت فجأة!...

- فقال «نيقولا»:

- ذلك لأننا علمنا بوقوع حدث مهم وغير اعتيادي، حدث من النوع الذي، أيّاً كانت آراؤك، فإنك لا تستطيع إبداء اللامبالاة حياله.

وتوقف قليلاً عن الكلام، ثم قال:

- لقد مات «نابليون».

فخيم صمت ثقيل على الصالون، وخيل لـ «صوفيا» أنّ نفحة التاريخ كانت تهبّ على جميع تلك الوجوه المألوفة.

وحيال جسامة الحدث، لم يكن أحد من الحاضرين لم يتبادر إلى ذهنه شعور بصغره. حتى السيد «لوسور» فقد بدا عليه الوقار والجدية. وأخيراً، سأل «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- هل تلقيت هذا النبأ من أمك؟

فقالت «صوفيا»:

- نعم.

- ومتى توفي؟

- في الخامس من أيار «مايس»، في جزيرة «القديسة هيلانة»

- ولكن مضى على ذلك أكثر من شهرين!

- لقد احتُفظ بالحدث طي الكتمان أطول مدة ممكنة، ويبدو أنّ الصحف الإنكليزية هي التي كانت أول من أعلن ونشر النبأ...

- وكيف هي الحالة النفسية في فرنسا؟

فأجابته «صوفيا» وهي تبتسم:

- ليس عن طريق أهلي أنا أستطيع أن أعرف ذلك بالنسبة لهم لقد تخلّص العالم أخيراً من وحش دموي!

فقال السيد «لوسور»:

- كثير من الناس يفكرون على غرارهم!

وأضاف «ميشيل بوريسّوفيتش»، قائلاً:

- من البديهي، القول أنّ لا أحد، على مرّ العصور، يتحمل مسؤولية ذلك العدد الضخم من القتلى، كالتي يتحملها هذا الطاغية المهزوم الذي فقد تاجه! ولا بد أنّ ما عذبه وقضّ مضجعه في جزيرة «القديسة هيلانة»،

هو أنه لم يكن لديه وتحت تصرفه ألوف الشباب ليرسلهم إلى المذابح كي يُشبع شهوته للشهرة والمجد!

- فردّت عليه «صوفيا»، بقولها:

- إنك تكوّن لنفسك فكرة تافهة وخاطئة عن «نابليون»، إذا كنت تتصوّر أنه لم يدفع فرنسا إلى الحرب إلا لإرضاء طموحه، ومطامعه الشخصية!

فانتفض السيد «لوسور» وارتعش فرحاً. فها هي الفرصة التي يتمناها قد سنحت أخيراً، وللمرة الأولى، يبدو «ميشيل بوريسّوفيتش» متفقاً معه ضد «صوفيا»

وقال «نيقولا»:

- أنا أعتقد، كـ «صوفيا»، بأنه كان يضع نصب عينيه، بصدق وإخلاص، سيادة وازدهار بلاده.

فضم «ميشيل بوريسّوفيتش» ذراعيه بعنف إلى صدره، وقال:

- هل ابني، الضابط السابق في حرس القيصر، وأحد أبطال الحرب الوطنية، هو الذي يتجاسر على النطق بهذا الكلام؟ الرفاق الذين سقطوا قتلى حولك كانوا أكثر من أن يظل لك الحق كي تعذر الرجل الذي لولاه لكان الكثيرون منهم لا يزالون على قيد الحياة!

فردّ «نيقولا»، قائلاً:

- إني أحاول أن أكون منصفاً، فأيّاً كانت عيوب ومساوئ «نابليون»، فإنه كان قائداً عظيماً.

- فعلّق على ذلك السيد «لوسور» ساخراً:

- قائد عظيم، انتهى أسيراً في إحدى الجزر!

فلم يسبق له أبداً. أن حظي بهذه الفرحة، بل بهذا العيد، فقد استعاد حظوته لدى «ميشيل بوريسّوفيتش»، وأخذ يتلذذ بمضاعفة الضربات لـ «صوفيا» و «نيقولا»، متأكداً من عدم تعرضه لأي محاسبة أو عقوبة.

وقال «نيقولا»:

- ليست الطريقة التي ينهي بها رجل الدولة حياته، هي المهمة، ولكنّ الشيء المهم هو ما يتركه بعد موته: أعماله، أسطورته، ذكرى بطولاته!

فصاح السيد «لوسور»

- إيه، هذا حسن جداً فأنت تشاركني الرأي، وأنا أشكرك على ذلك! فماذا بقي من صاحبك بونابرت؟ ففي نهاية عمله كجزار، لم يوفق إلا بتحقيق أمر واحد: وهو جعل فرنسا مكروهة من قبل أوربا كلها!

فسألته «صوفيا»:

- هل هو جعل أوربا تكره فرنسا، أم جعلها تخاف منها؟

فردّ السيد «لوسور» بقوة:

- الخوف ليس أفضل كثيراً من الكراهية. فقديماً، كانت فرنسا تشتهر بأنوار مفكريها، أما بعد الثورة فقد أصبحت تشتهر بعنف جلاديها وجنودها. والتعطش إلى سفك الدماء الذي كان يرويه الرعاع واللامتسرولون بواسطة المقصلة، فإن خلفاءهم جماعة «حكومة القناصل» «LE Consulat» ورجال العهد الإمبراطوري، رووا ذلك التعطش الدموي بالانقضاض على جيرانهم لكي يذبحوهم!

فقالت «صوفيا»:

- هذه، على الأقل، طريقة غريبة وفريدة من نوعها في تفسير التاريخ!

وفي الحال، التفت السيد «لوسور» نحو «ميشيل بوريسّوفيتش»، وكأنه يطلب موافقة وتأييد رئيس له: سأله:

- هل الإمبراطور «اليكسندر» هو الذي استفزّ «نابليون» سنة ١٨٠٥، في سنة ١٨١٢ وفي سنة ١٨١٥؟

ولأنه توجّه إليه متوسلاً، بهذه الطريقة المباشرة، فلم يستطع «ميشيل بوريسّوفيتش» إلاّ أن يجيب، قائلاً

- كلا، بالطبع!

فصاح السيد «لوسور» فرحاً:

- آه! أترون؟! ما كانت روسيا لتفكّر بمهاجمة فرنسا لولا أن فرنسا حاولت احتلال روسيا! وعلاوة على ذلك، فأنت نفسك، يا سيدي الذي لفتّ نظري إلى هذا الأمر عدة مرات!

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»، على مضض:

- نعم، نعم.

وتابع السيد «لوسور» الكلام:

- وأكثر من ذلك، فإنّ جنود «نابليون» تصرفوا في روسيا، كما يتصرّف المتوحشون، في حين أنّ جنود الإمبراطور «اليكسندر» تصرفوا في فرنسا كمحرّرين!

وهذا أيضاً، لم يكن «ميشيل بوريسّوفيتش» يستطيع إنكاره.

وقال له «نيقولا»

- إنك تتحدث عن أمور تجهلها، ولا تعرف شيئاً عنها!

فانتفض السيد «لوسور» متحمّساً، وصاح بصوت يشبه صوت الديك:

- آه! أحقاً ما تقول؟ وهل حُرقت «باريس» ونُهبت كما حصل لموسكو؟

ولأنه لم يتلق جواباً، فقد سرّ وتمتع بفوزه وتفوقه عبر الصمت، لفترة طويلة. وكان «ميشيل بوريسّوفيتش» أثناء ذلك يراقبه خلسة، متذمراً من كونه يشاطر الرأي رجلاً يحتقره كثيراً. وكان تبنيه لآراء السيد «لوسور» يبدو له مدعاة للسخرية وفي منتهى السخف.

وتابع السيد «لوسور» حديثه، قائلاً:

- وبالإضافة إلى ذلك، فأنا يدهشني، يا سيدتي العزيزة، أن تستطيعي التوفيق بين أفكارك الجمهورية وبين الاحترام لشخصٍ، تصرف

طوال حياته كطاغية ومستبد حقيقي! وهل من الممكن أن يكون المرء، في آن واحد، مؤيداً للحرّية، وللقهر والظلم، مؤيداً للمساواة وفي الوقت نفسه مؤيداً للتفاوت الطبقي، ومؤيداً للحرب وللسلم، للثورة وللإمبراطورية؟! فأنا أعترف أني أودّ كثيراً أن أستطيع فهمك...

فغضب «ميشيل بوريسوفيتش»، وصعد الدم إلى رأسه: بأي حق يتهجم هذا المعلم، بل هذا المستخدم، على «صوفيا»؟!

وقالت «صوفيا» بكبرياء:

- كان بإمكانك أن تفهمني لو أنك عشت في فرنسا أثناء الفترة التي كان فيها «نابليون» سيدها! فحتى أولئك الذين كانوا يكرهونه مثلي، كانوا يعترفون له بالنبوغ و العبقرية. ومن الممكن اتهامه بكل شيء، فيما عدا خيانته لبلاده. وأنا متأكدة بأنّ الكثيرين من أعدائه، عندما يبلغهم نبأ وفاته، سيحصل لديهم انطباع بأنّ أحد أنبل وجوه العالم قد اختفى وزال من الوجود. ولكن لكي يشعر المرء بذلك، ينبغي أن يكون لديه حسّ العظمة...

وحدجت السيد «لوسور» بنظراتها، وختمت كلامها، قائلة:

- وأنا لست متأكدة من أنّ هذه هي ميزتك الرئيسية!

فشحب وجه السيد «لوسور» وارتعش منخراه، وانكمشا. وشعر «ميشيل بوريسوفيتش» بالرغبة بالتصفيق، استحسانا لما قالته «صوفيا»، ودون أن يدع مجالاً للمربي كي يستجمع أفكاره، قال مزمجراً:

- كفاية! هذا يكفي! فقد أثار «نابليون» في حياته من الخلافات أكثر من أن أسمح له بإثارة خلافات أخرى بعد موته!

ولم يكد ينهي كلامه، حتى تبادرت إلى ذهنه فكرة القيام بسخرية خبيثة. فأمسك بالابتسامة التي كانت تراوح داخل شفتيه، واستعاد جدّيته، وقال:

- أعتقد أنك على صواب فيما قلته يا سيد «لوسور»: فموهبة فرنسا ومقدرتها ليستا للقيام بالحروب، بل لنشر الثقافة إن كان في مجال الآداب أو العلوم أو الفنون، وأنت تعتبر مثالاً ممتازاً لهذا المبدأ، لأنك أتيت إلى روسيا لكي تعلم الشباب..

فقال السيد «لوسور» وقد احمر وجهه لفرط سروره:

- ليس هنالك ما هو أكثر حقيقة من هذا!

فأضاف «ميشيل بوريسوفيتش»:

- ولكن المزعج في الأمر، هو أنك الآن لم تعد تُعلّم أحداً!

فقال السيد «لوسور» وهو يلقي نظرة عطف وتودّد نحو «نيقولا» و «ماري»:

- لقد أصبح تلاميذي أكبر من أن يحتاجوا للتعليم!

- يجب أن تُعلّم غيرهم!

فأزال القلق الابتسامة عن شفتي السيد «لوسور» وقال:

- وأين أجد هؤلاء؟

- إنّ هواة العلم وطالبيه ليسوا قليلين! ولديّ أحدهم، أقترح عليك أن تعلّمه.

- ومن هو؟

- «نيكيتا»!

وبعد أن لفظ «ميشيل بوريسوفيتش» هذا الاسم لاحظ أنه أحدث الدهشة التي أرادها، على وجوه المحيطين به. وأخذ السيد «لوسور» يتميز غيظاً، وقال:

- إنك لست جاداً فيما تقول، يا سيدي!

فقال «ميشيل بوريسوفيتش»:

- بلى، ألا يعجبك عرضي، وهل استأت منه؟

- «نيكيتا» هذا، ليس سوى فلاح..

- فلاح، وعبد رقّ، نعم، وهل هذه الصفة هي التي تمنعك من تعليمه؟

- لقد عيّنتني لكي أعلم أبناءك، وليس فلاحيك!

- جواب غريب من رجل مهمته تقديم المعرفة وتنوير أذهان جميع الراغبين بالتعلّم! وإذا فكّرنا، نحن الروس، المتوحشون، ملاّك الأراضي الذين ننتعل الجزمات الضخمة، بهذه الطريقة، فأنا أتفهّم ذلك! ولكن أنت، أنت من أبناء وطن «فوليتر»، «مونتسكيو» و «كوندورسيه»!... وهذا الفتى، على ما يبدو، يتمتع بذكاء شديد. وأنت لديك معرفة باللغة الروسية تكفي لإعطائه دروساً في الحساب، في التاريخ والجغرافيا. أما اللغة الفرنسية..

فصاح السيد «لوسور»:

- لن أعطيه أيّ درس! وليس لك الحق أن تجبرني على ذلك! لقد تجاوزت الحدّ!...

و «ميشيل بوريسّوفيتش» الذي كان يتصنّع الغضب الشديد رأي أنّ الوقت قد حان لتفجير غضبه بشكل حقيقي، وصاح:

- أنت الذي تجاوزت الحد! فإذا كنت ترفض العمل الذي أعرضه عليك، فما عليك سوى الرحيل! فلست بحاجة في منزلي لمربٍ لا يقوم بأي عمل!

فترنّح السيد «لوسور» على ساقيه، وانقطعت أنفاسه، وكأنه تلقى صفعة شديدة بيد ثقيلة وقوية.

وصرخ فجأة:

- سأرحل! سأرحل! يا لكم من وحوش، جميعكم!

واندفع مسرعاً خارج الصالون. فوجهت «ماري» نظرة لوم وعتاب لوالدها وأسرعت تلحق بالسيد «لوسور». وتردّد «نيقولا» لحظة، ثم خرج بدوره، وسمعته «صوفيا» وهو يقول، خلف الباب:

- أرجوك أن تهدأ، يا سيد «لوسور»!.. فليس هنالك سوى سوء تفاهم!..

ثم انخفضت الأصوات، فلا شك أنّ تلميذي السيد «لوسور» السابقين قد تبعاه إلى غرفته. فالتفتت «صوفيا» نحو عمها، الذي كان يقف وقد برز بطنه إلى الأمام، ووضع يديه خلف ظهره. وظهر التناقض بين ثقل ذلك الوجه المسنّ، وخبث الابتسامة التي تبدو على شفتيه. وقالت له بصوت يشوبه الغيظ:

- هل أنت راضٍ عن نفسك؟

فقال لها:

- لقد عاملك هذا الرجل بطريقة تنم عن عدم الاحترام، وقد استحقّ أن أوقفه عند حدّه.

- كان يمكنك أن تفعل ذلك دون أن تطرده!

فازدادت ابتسامة «ميشيل بوريسّوفيتش» وضوحاً:

- أنا لم أطرده: هو الذي قررّ الرحيل.

- دعنا من ذلك! فأنت عندما أردت إجباره على إعطاء الدروس إلى «نيكيتا»، كنت تعلم جيداً، أنه يفضّل أن يفقد عمله على الانصياع لما طلبت منه!

- نعم، ولكني أعلم أيضاً أنه لن ينفّذ تهديده. إنه كأحد الخدم! فقد سبق له أن أقسم عشرين مرة أنه سيتركنا ويرحل، على أثر تلقيه إهانة ما، وعشرين مرة، سوّيت الأمور، ولم يرحل! وهل تريدين أن تراهني أنّ «نيقولا» و «ماري» سيحضران بعد عشر دقائق، مسرعين، لإبلاغي بأنّ السيد «لوسور» وقد تأثر بتوسلاتهما، فقد وافق على البقاء بيننا؟

فقالت «صوفيا»:

إنّ احتقاري له أشدّ من أن يجعلني أتقبل أنه ربما تراجع عن قراره، على الرغم من الإهانة التي وجهتها له. ولكنّ الأمر الذي لا أفهمه، هو أنك تجد متعة في هذه اللعبة، وفي طريقة التعامل، غير الصحيحة، هذه، وكيف يستطيع رجل يتمتع بمركزك وبذكائك، أن يلهو ويتسلّى بتعذيب شخص أضعف منه؟

كان في عبارات اللوم والعتاب التي تلفّظت بها «صوفيا» كثير من التقدير لمن توجهها له، لدرجة أنّ «ميشيل بوريسوّفيتش» أصغى إليها بامتنان، وأخيراً قال:

- أنا لا أتسلّى بتعذيب الضعفاء! فهذا يحصل بصورة تلقائية. وكردّ فعل من قبلي، عندما يثيرني أحدهم، وربما يكون ردّ فعلي أقوى مما ينبغي! ولكن ما العمل؟! لقد خلقت هكذا: بدم حامٍ، أعصاب مرهفة، وعزم شديد... وهل الذنب ذنبي إذا كان المحيطون بي ليسوا في المستوى المناسب، وليس لديهم القوة لمنازلتي؟ فأنا أوجه لهم «نقفة» أو دفعة خفيفة وترينهم يتساقطون منقلبين على ظهورهم! وأنتِ تعتبرينني وحشاً مخيفاً؟!

- ستسرّ كثيراً، فيما لو أجبتك بالإيجاب!

- أبداً، وعلى الإطلاق!

- أوه! بلى! إني أعرفك، أيها الوالد! فأنت تحب أن يخافك الآخرون!

- وأنتِ ألا تخافينني؟

- كلا.

- إذن أنت الوحيدة التي لا تخافني.

- هذا ممكن. فمنذ لقائنا الأول الذي مضى عليه ست سنوات. عرفتك جيداً وقيمتك. فبدلاً من أن تستقبلني كابنة لك، حاولت أن تبسط سلطتك عليّ وأن تضع لي حدوداً، وأن تسخر مني، بالطريقة نفسها التي تنجح فيها بالتعامل مع السيد «لوسور».

فقال:

- كنت مغتاظاً من زواجك بابني! وأردت أيضاً أن أعجم عودك كي أعرف إذا كنت تتمتعين بطباع قوية وصلبة. لأني يجب عليّ أن أحاول دائماً إخضاع الأشخاص الذين أحبّهم لكي أتبين مدى ودرجة مقاومتهم...

وأرسل ضحكة قوية، جعلت الدموع تنفر من عينيه:

- ومقاومتك أنت، قوية جداً، أيها العزيزة «صوفيا».

وقد توصلت إلى معرفة ذلك، على حسابي وبعد أن دفعت ثمنه! والحقيقة، هي أننا بالأساس، متشابهان..

فعبرت «صوفيا» عن دهشتها بانتفاضة خفيفة، بينما استأنف عمها الكلام:

- هذه الفكرة، بالطبع تغيظك، لأنك ترين أني رجل عجوز متسلّط، مستبد وأناني.. ولكن فكّري جيداً، وتناسي هيئتي وسني.. فنحن، أعني أنت وأنا، من جنس واحد: نسير في المقدمة، إلى الأمام. ويتبعنا الآخرون...

- عن أي آخرين تتكلم؟

فأوما بإشارة غامضة نحو الباب.

فتمتمت «صوفيا»، وقد شعرت بأنّ كبرياءها قد مسّت:

- «نيقولا» يتمتع بطباع قوية!

فقال «ميشيل بوريسوفيتش» وقد رفع حاجبيه الكثيفين إلى منتصف جبهته:

- أنت تجدينه هكذا؟

- نعم، ولكنّ الاحترام الذي يكنّه لك أصابه بالشلل.

- وكيف حصل، أنكِ أنتِ، لم تصابي بالشلل؟

- ذلك لأني لست ابنتك. ولم أعش طفولتي كلها بقربك..

فقال، بصوت مبهم النبرات:

- وأنت أقرب إليّ مما لو كنت ابنتي، ومن صلبي ودمي.

فظلت حائرة، خلال لحظة، وقد انتابها اضطراب غامض ومجهول. وفجأة، فتح الباب بعنف، وبدت «ماري» عند العتبة، مكفهرة الوجه، وملامحها تنم عن الشفقة الشديدة، وصاحت بأعلى صوتها:

- أبي، السيد «لوسور» مسترسل في البكاء!

فأمضى «ميشيل بوريسّوفيتش» لحظة عاد خلالها إلى الأرض، من الجو الذي كان يحلّق فيه، أرسل تنهيده، وغمغم، بلهجة ساخرة:

- هذا غير ممكن!؟

- بلى، هذا فظيع! و «نيقولا» يحاول أن يواسيه! وربما قبل، على أي حال أن يبقى لدينا، إذا كنت لن تطلب منه بعد الآن أن يعطي دروساً لـ «نيكيتا»!؟

فألقى «ميشيل بوريسوفيتش» على «صوفيا» نظرة ذات مغزى، فابتسمت وخفضت جفنيها، فشعر بموجة من السعادة تغمره، وقال:

- نعم، نعم، بالطبع. لن أطلب منه ذلك بعد الآن! ولتذهب الدروس إلى الشيطان، وليبق هو!..

فقالت الفتاة:

- شكراً لك يا أبي!

فقطّب «ميشيل بوريسّوفيتش»، حاجبيه، وقال:

- اذهبي، إذن وأخبريه، فنحن سنتناول الطعام بعد ربع ساعة. وعليه ألاّ يأتي إلى المائدة وعلى سيمائه أي أثر لما حدث، وإلا فسأطلب منه أن يعود إلى غرفته! وهذا الوعيد كان وقعه خافتاً ومخففاً، كصوت الرعد وهو يذهب ويتلاشى بعيداً.

فأسرعت «ماري» بالذهاب، وعاد «ميشيل بوريسّوفيتش» إلى صوفيا» بوجه متفتح ومبتهج، ولا شك أنه كان يأمل استئناف الحديث معها.

ولكنها هزّت رأسها بهدوء، وكأنها ترفض إعطاءه شيئاً، وإن كان لم يطلب منها أيّ شيء. ثم اتجهت، بدورها، نحو الباب. فقطع عليها الطريق:

- إلى أين أنت ذاهبة؟

فأجابته:

- أريد اللحاق بـ «نيقولا»!

وكان في عينيها من الصفاء ومن الضياء، ما جعل «ميشيل بوريسوّفيتش» عاجزاً لا يعرف بماذا يردّ، وما كان منه إلا أن انحنى، مقدماً لها التحية.

★★★

الجزء الثاني

١

كان «بشمكوف» يكتب بالطبشور أرقاماً على غطاء طاولة اللعب، الأخضر، وغليونه بين أسنانه، وقد أحاطت بجبينه سحابة من الدخان. وكان «نيقولا» يتظاهر بأنه يتابع الحساب دون أي اهتمام أو مبالاة، ولكنه بالحقيقة كان قلقاً لمعرفة النتيجة. لم يكن يملك سوى مئتين وخمسين «روبلاً»، ولعبة الورق كانت حامية. وقد كان يحظى زميله بحظ وافر في تلك اللعبة، أما هو، فعلى العكس منه، فقد كان حظه سيئاً. وبشكل مفاجئ شعر بالكراهية نحو النادي وبالقرف منه، بمقاعده الجلدية القديمة، ورائحة التبغ الباردة المنتشرة فيه، وبتلك الوجوه الكالحة التي تبدو عبر الغبش الذي يغشى المكان. وسجّل «بشمكوف» مجموع الحساب، ووضع خطاً تحته، فانكسرت قطعة الطبشور «أربعمئة وستة وتسعون روبلاً» أي مئتان وثمانية وأربعون لكل من الخاسرين. ولم يحاول «نيقولا» أن يدقق الحساب، واكتفى بإلقاء المبلغ على المنضدة، ثم حيّا الحاضرين وخرج. والنقود التي خسرها، والوقت الذي أضاعه، خلقا لديه انطباعاً ينم عن التبديد والتبذير. وفي كل مرة يذهب فيها إلى «بسكوف»، يشعر فيها بالأسف وبخيبة الأمل. ومع ذلك فإنه لم يستطع الامتناع عن الذهاب إلى هذه المدينة، لشدة ما يعانيه من الضيق والسأم في «كشتوفكا».

وفي الباحة، أخذ يتردّد في اختيار الجهة التي يقصدها أيعود مباشرة إلى المنزل، أم أنه يذهب للتنزه في شوارع المدينة وزيارة معرضها. كان ذلك

في شهر آب «أغسطس» سنة ١٨٢٣، والشمس تسطع عالياً في قبة الفلك. وترك «نيقولا» حصانه في إسطبل النادي، وسار بضع خطوات في الشارع. كان هنالك صف من الحوانيت الصغيرة ذات الواجهات المغبرّة، تفتح أبوابها على أرصفة تغطيها أخشاب سيئة ومحطمة ولا فتات حديدية وملونة معلقة فوق أبوابها. ويخرج، أحياناً، أحد الباعة، لحيته تكاد تصل إلى سرته، وجزمته تصل إلى ركبته، ويقف على عتبة دكانه ليدعو المارة إلى زيارته وشراء بعض ما لديه من بضائع. وكان «نيقولا» يعرف غيباً وعن ظهر قلب كل معروضات تلك الحوانيت. وكانت بعض الفلاحات اللواتي يرتدين الملابس الزاهية الألوان يعبرن من أمامه دون أن يلاحظ ذلك.

ويصادف أن يحيّيه أحد جيرانه من سكان الريف، فيرفع قبعته بصورة آلية ليردّ له التحية. وفجأة، لاحظ وجود عربة أنيقة، متوقفة أمام مخزن «بيربيليويف وأولاده» لبيع الأقمشة. هذان الحصانان الأشقران المجدول شعر رقبتيهما، وهذا الحوذي ذو اللحية المنشطرة إلى قسمين، وصندوق هذه العربة المطلي بمربعات سوداء وصفراء... إنها إذن عربة السيدة «داريا فيليبوفنا»! وليس هنالك أي شك بأنها تقوم بشراء بعض الحاجيات من هذا المخزن. ومن لحظة إلى أخرى، يمكن أن تخرج من هناك. وأول فكرة تبادرت إلى ذهن «نيقولا» هي أن يبتعد ويغادر المكان، ولكنه لم يتحرك، وظل كأنه أسير الرغبة بالتحدي لحدوث كارثة. فهل كانت الكآبة التي أحدثها لديه ذلك اليوم الصيفي الطويل، هي التي جعلته يصبح متهوراً إلى هذا الحد؟ لقد انقضى أكثر من عامين كان يتحاشى خلالهما أن يلتقي بأم صديقه «فاسيا»! والحقيقة، هي أنه استطاع نسيانها بسهولة. وتظاهر بأنه مهتم بمشاهدة لفّات الأقمشة المعروضة في الواجهة. وخلف الزجاج، عبر الغبش الذي يكتنف المخزن، كان يتحرك جسم نسائي يتّسم بشيء من ضخامة الشكل. فعرف أنها «داريا فيليبوفنا» بقبعتها المصنوعة من القش،

والتي تزينها شرائط متعددة الألوان. وبدت له أكثر بدانة مما كانت عليه في ذاكرته. وبعد أن سدّدت قيمة مشترياتها، اتجهت نحو الباب، يتبعها مستخدم ذراعاه مثقلان بالعلب والرزم، وقد أسند ذقنه على أعلاها. وقال «نيقولا» في سره: «لقد فات الأوان على الانسحاب والهرب. لقد ضاع كل شيء، هذه المرة!». ونزع قبعته، فبدرت منها ارتعاشة، وتحول وجهها إلى قناع من البورسلين، تجمد بين الألوان البيضاء والوردية الأكثر صفاءً ونقاءً.

فتمتم «نيقولا»:

- «داريا فيليبوفنا»، اسمحي لي أن أقدم لك..

أن أقدم لك..

ولم يعد يعرف تماماً ماذا كان يريد أن يقدم لها، وهي لم تكن تبدو مستعجلة لمعرفة ذلك. وبعد صراع داخلي عنيف، ابتسمت من طرف شفتيها:

- إننا لم نر بعضنا منذ زمن طويل، يا «نيقولا ميكايلوفيتش».

فقال بحماسة واندفاع:

- ليست الرغبة هي التي تنقضي، يا «داريا فيليبوفنا» المحترمة!

وكان المستخدم يقف وقد تسمّر في مكانه على الرصيف.

واستأنف «نيقولا» الكلام:

- لقد اشتريت بعض الحاجيات!

- نعم، لبناتي.

- إنهن بخير؟

- بخير، وعلى ما يرام.

- لحسن الحظ، لحسن الحظ..

كان ذارعا المستخدم ينوءان بثقل الحاجيات، فقالت له «داريا فيليبوفنا»:

- ضع جميع الحوائج في العربة.

وهمّت بالرحيل، ولم يستطع «نيقولا» أن يطيق ذلك، فسألها:

- أتعودين إلى البيت؟

- طبعا!

- فهل أجرؤ، أيتها العزيزة «داريا فيليبوفنا» أن أطلب منك شرف مرافقتك خلال مرحلة من الطريق؟

لم تكن قد فقدت ميزة الاحمرار، الرائعة. فتورّد خداها، بينما كانت عيناها تبرقان بلونهما الأزرق عبر أهدابها.

وقالت بصوت خافت:

- أنت لديك حصانك، أليس كذلك؟

- نعم.

- تستطيع إذن أن تلحق بي ونلتقي في الطريق.

فقبل يدها وهو يكاد يطير فرحاً، وساعدها برقة ولطف على الصعود إلى العربة، وانطلق مسرعاً نحو إسطبل النادي، وبعد فترة من العدو السريع، اكتشف، بعيداً، عبر الطريق، القبعة النسائية الزاهية التي كانت تتأرجح مع حركة عجلات العربة، التي كانت تسير ببطء. وعندما لحق بـ «داريا فيليبوفنا»، بجانب غابة من أشجار السندر، أبطأ في سيره، فغطتهما أغصان الأشجار الأولى بظلّها المتناثر. وكان على «نيقولا» أن ينحني قليلاً على سرج حصانه لكي يلمح جانباً من وجهها تحت قبعة القش الشقراء. ولم يكن يدري من أي جانب يمكنه استئناف الحديث معها. وأخيراً دفعه الصمت الذي تراكم كأمواج البحر، إلى القول:

- إنك لا تستطيعين أن تتصوري، يا «داريا فيليبوفنا» كم تألمت بسبب تلك القضية المؤسفة، التي لم نكن، لا أنت ولا أنا، مسؤولين عنها، ومع ذلك، فقد فرّقت بيننا!

فتنهدت، قائلة:

- أعترف بأني أُصبت آنذاك بجرح عميق، في عواطفي وفي محبتي لابني.

فأسرع بالقول:

- كنت أشعر بذلك تماماً، لدرجة أني لم أكن أجرؤ على الظهور أمامك! وكان يخيّل لي أنك تشملين كل أسرتنا، بشعور واحد من الاستياء والحقد!

- لم يذهب بي الأمر إلى هذا الحدّ، أبداً، يا «نيقولا ميكايلوفيتش» ولكن، بالطبع، كل ما يصدر عن «كشتوفكا» يذكرني بتلك القضية ويثير حزني، وقلقي على ولدي، الذي حزن كثيراً ولا يزال يعاني الاضطراب والقلق بسبب ذلك الفشل الذي مني به. وكان يكفي أي شيء مهما كان تافهاً لكي يثير شجوني، فعلينا ألا نتحدث عن ذلك بعد الآن: فالزمن يمضي، والجراح تلتئم وتندمل، والعقل يتغلب على كل شيء..

فسألها:

- ألديك أخبار سارة من «فاسّيا»؟

- أخبار ممتازة! إنه مرتاح ومسرور في «بطرسبورغ» ورؤساؤه راضون عنه. ولكنه، على الرغم من توسلاتي الكثيرة، فإنه لم يأتِ مرة واحدة إلى «سلافيتسكا». ولا شك بأنّ ذكرى أختك، هي التي لا تزال تبعده عن هذه المنطقة!...

فتمتم «نيقولا»:

- إني شديد الأسف، لذلك!

فوجّهت له نظرة تنم عن التسامح العميق:

- لا تأسف كثيراً، ربما تكون الأمور أفضل هكذا، أضف إلى ذلك أني لست يائسة من إمكانية استعادة ابني لكي يعيش بيننا. وهل تعلم أني

اشتريت أرض «ايلاغين»؟ وأعمل على بناء منزل على الطراز الصيني هناك. وسيكون هذا المنزل لـ «فاسّيا»، عندما يأتي لقضاء إجازاته، بمثابة مأوى وركن هادئ للمطالعة والتأمل، بعيداً عن ضجيج وصخب البيت والمقيمين فيه. وباختصار، فإنّ هذا ما كان يتمناه ويحلم به على الدوام! وينبغي أن أذهب إلى هناك كي أرى إلى أين وصلت الأعمال. فهل تريد أن ترافقني؟

فصاح بأعلى صوته:

- بكل سرور!

فسارا في درب ضيق، يقع بجانب بحيرة، قال عنها «نيقولا» إنها جميلة وشاعرية، واتجها نحو مكان ينبعث منه ضجيج المناشير والفؤوس والمطارق، ويقع في فرجة وسط الغابة. كان هنالك شيء مدهش في هؤلاء الفلاحين الذين يبنون هذا المنزل الذي يشبه المعابد الصينية. فالسقف المرفوع على جوانبه، والمحفوف بالقباب الصغيرة، لم يكن في مكانه المناسب، بين أشجار السندر الروسية. وبين أعمدة درج المدخل، الرفيعة، كانت التزيينات المصنوعة من القطع الخشبية، تصدم النظر بتعقيداتها الكثيرة وأشكالها الغريبة، ولم يجرؤ «نيقولا» على القول أنّ ذلك البناء بشع جداً، واكتفى بأن يهزّ رأسه، متمتماً:

- إنّ هذا يتّصف بالأصالة!.. وكل شيء فيه قد نُفّذ بطريقة ساحرة!..

- لقد اعتمدت في تخطيطه على رسم كان قد وضعه ابني، عندما كان في الخامسة عشرة من عمره!

فوضع قولها هذا حداً للدهشة التي اعترت «نيقولا» من نتيجة الأعمال في هذا البناء، ومن الشكل الذي بدا فيه.

واستأنفت الكلام، قائلة:

- كان هذا هو المنزل الذي يحلم به، وعندما يطلى بالألوان الزاهية، سيبدو منظره أكثر جمالاً!

واقترب رئيس الورشة من «داريا فيليبوفنا» بعد أن نزع قبعته تحية لها، ليستشيرها بشأن إحدى المشكلات المتعلقة بالبناء. وأعجب «نيقولا» بالرفق الذي يصاحبه الحزم في الطريقة التي تعامل بها هذه المرأة التي تبلغ الأربعين من العمر، العمال العبيد. كانت أبسط ملاحظاتها يعتبرونها أوامر مشدّدة. كان كل شيء ينحني وينصاع حيال لطفها ورقتها. واقتادت «نيقولا» إلى داخل المبنى لكي تريه أمكنة رفوف الكتب، و «الصوفا» والمكتب. والأرائك. ووجد «نيقولا» صعوبة كبيرة في تصور صديقه كشخصية صينية مهمة، تقيم في هذا المنزل، ولكنه، بدافع من التهذيب، صرّح لها بأنّ المبنى يشكل إطاراً صالحاً لتحقيق السعادة لمن يقيم فيه. ولشدة تأثر «داريا فيليبوفنا» بهذا الثناء، فقد دعته للذهاب لتناول الشاي معها في المنزل. فقبل الدعوة، باللهفة التي يشعر بها من به عطش شديد.

وفي «سلافينكا» وجد الحديقة التي لم تتغير، والفتيات الثلاث اللواتي كبرن: فالكبرى «هيلين» التي ناهزت العشرين من العمر، كانت، لسوء الحظ قد سمنت وأصبحت بدينة، والوسطى «ناتالي» وهي في الثامنة عشرة من عمرها، عيناها الحزينتان جميلتان. أما الصغرى «أوفرازي» وهي في السادسة عشرة، فهي تتمتع بعذوبة وأناقة، وجرأة، ساحرة. وكانت ضحكاتها تشيع البهجة في المنزل. ولم تكن تخفض بصرها حيال نظرات «نيقولا».

وتناولوا الشاي في ظل شجرات الزيزفون. وبدا «نيقولا» متباهياً وكأنه يجلس على عرش إحدى الممالك، وهو الرجل الوحيد بين أربع نساء. وكان هذا الوضع ظريفاً وممتعاً بالنسبة له. وقال في سره: «لا بدّ أنّ الأم والبنات الثلاث لا يستقبلن كثيراً من الزوار، حتى أبدين كل ذلك الانتباه والاهتمام لأقل حركة تبدر منه أو أيّ كلمة ينطق بها». كان يقدّر أنهن مسحورات ببريق صورته، وأنهنّ يتمعّن في دقائقها وتفاصيلها، ويقلبنها، وكل واحدة منهن تكيّفها مع أحلامها الشخصية. كان فضولهنّ

واهتمامهنّ به على درجة كبيرة من الجاذبية والإغراء، لدرجة أنه نسي الوقت. وأبدت له «داريا فيليبوفنا» مزيداً من الطيبة واللطف، لدرجة أنها سألته عن أخبار شقيقته «ماري». فأجابها وهو بادي التأثر أنّ شقيقته ما زالت على حالها راضية في الكآبة والعزلة.

فقالت «داريا فيليبوفنا»:

- في أيامنا هذه، إنه لأمر مرهق وعصيب أن تعيش الفتيات في الريف. فمن الذي سيأتي ليكتشفهن ويخرجهن من وراء الأشجار التي تخفيهنّ؟ ولذلك فأنا أفكر باصطحاب بناتي إلى موسكو لتمضيه فصل الشتاء هناك.

فاحمرت وجوه الآنسات «فولكوف» الثلاث، وأحنين رؤوسهن، فمنذ زمن طويل وعدن بهذه الرحلة.

ثم تحدثت «داريا فيليبوفنا» مع «نيقولا» عن زوجته، التي تعرف الجميع، في المنطقة، مدى اهتمامها بشؤون الفلاحين العبيد «الموجيك».

فقال «نيقولا»:

- نعم، إنها تريد أن تحقق لهم السعادة، رغماً عنهم، ولكني أشك بأنها ستنجح في ذلك، إذا إنّ الفلاح الروسي لا يحب أن يزعجه أحد ويحاول أن يغيّر له عاداته التي ألفها ودرج عليها. وإذا حاول أحدهم تعليمه القراءة أو الاستحمام، فإنه يرتاب في الأمر ويحذره! وإذا منحت له الحرية، فإنه يتردّد في قبولها!

فقالت «داريا فيليبوفنا»، مبتسمة:

- ومع ذلك، فهذه هي الهدية الغريبة التي تنوون تقديمها له، في أحد الأيام المقبلة، بعد موافقة القيصر!

فأدرك أنها مطّلعة على كل شيء، بواسطة ابنها، ولم يشعر بالاستياء بسبب ذلك. حتى أنّ الفتيات لا بدّ أنهن يستشعرن المؤامرة، عن بعد. فبدت تعابير الجدّ السياسي على وجه «نيقولا»، وقال:

- الأمر يتعلق بمشروع ضخم، كثيرون نحن الذين كرسنا له أنفسنا.

فتأملته الصغيرة «أوفرازي» بإعجاب يشبه الاشتهاء. وبالمقابل، كانت «داريا فيليبوفنا» كثيرة الشكوك. فقد كان تحسين أوضاع الفلاحين يبدو لها خطيراً، مثله في ذلك مثل التجديد في مجال الدين. وشرحت ذلك بكثير من العذوبة والطلاوة، بحيث أنّ «نيقولا» لم ينقم عليها بسبب خطئها. كانت الأفكار المحافظة تشكل جانباً من فتنة وسحر هذه المرأة، مثلها في ذلك مثل أوشحة «الكشمير»، ومثل حسّ تدبير الشؤون المنزلية، وقبعات القش الكبيرة، وحب الحلوى والمربيات. واستأذن منها مودعاً، وآملاً أن تدعوه لزيارتهم مرة أخرى.

فقالت له:

- احضر في أي وقت تشاء! وسأكون سعيدة، على الدوام، باستقبالك!...

ولا كلمة لدعوة زوجته! فيا له من حدس! ويا لها من بديهة! فلا يمكن أن تكون «داريا فيليبوفنا» من بنات جنسها إن لم تكن قد أحست بالعداء الشديد الذي تضمره لها «صوفيا». وكان «نيقولا» يفضّل في قرارة نفسه أن تكون الأمور على هذا الشكل. وخلافاً لما كان يعتقد في بداية الأمر، فالصداقة بينهما يمكن أن تربكه.

وعندما امتطى صهوة حصانه، كان قد اتخذ قراره:

إنه لن يتحدث إلى «صوفيا» لا عن خسارته في القمار ولا عن لقائه مع «داريا فيليبوفنا». فالرجل يجب أن يحافظ على بعض أسرار حياته، وإلا فإنه يتخلى عن مقومات شخصيته.

ظلت «داريا فيليبوفنا» وبناتها ينظرن إليه إلى أن ابتعد، فعدن إلى المائدة، والأربعة يسرن سوية، وقد طوقت كل منهن خصر الأخرى بذارعها.

وكانت «أوفرازان» هي الأولى التي أطلقت العنان لمشاعرها وعبّرت عن عواطفها:

- آه! ما أجمله! إني أجده أيضاً أكثر جمالاً، وتميّزاً عما كان عليه منذ سنتين!

وهذا الرأي من فتاة، كانت لا تزال، بالأمس تلهو وتلعب بالدمى، أثار حنين «داريا فيليبوفنا»، فقالت مع ابتسامة تتسم برصانة الأم:

- ومع ذلك، فإنه لم يتغير أبداً.

فقالت «ناتالي»:

- بلى، لقد نما، ونضج، وأصبح يبدو رجلاً، أكثر مما كان عليه فيما مضى!

فتمتمت «داريا فيليبوفنا» وقد شعرت فجأة بشيء من القلق:

- وهل لاحظت ذلك، أنت؟

فأجابتها «ناتالي»:

- نعم، يا أمي! فهذا بارز للعيان!

وقالت «هيلين»:

- أنا لا أدري ماذا تجدون فيه، مما هو غريب وخارق للعادة!

فانزعجت «داريا فيليبوفنا» من هذا الكلام، وأخذت تراقب ابنتها الكبرى، فاكتشفت أنّ سيماءها تنمّ عن البلاهة. ومع قامتها الضخمة، وبشرتها الشاحبة، ونظرتها الباهتة، فهي بالتأكيد لم تكن مؤهلة لإعطاء رأيها بأيّ رجل. والجواب الذي أرادت أمها توجيهه لها، سبقتها إليه الأخت الصغيرة:

- أنت لا تفقهين شيئاً في هذه الأمور! «ونيقولا ميكايلوفيتش» بكل بساطة، يستحق أن يعبد! ولو أنّ أحداً مثله يطلب يدي فلن أتردد في القبول، ثانية واحدة!

وأضافت «ناتالي» على ذلك، قائلة:

- ولا أنا، ما كنت لأتردّد في القبول، أبداً.

فشعرت «داريا فيليبوفنا» بالانزعاج، وقد دهشت من أنّ «نيقولا» استطاع إغراء فتيات مراهقات لم يتجاوزن الثامنة عشرة من العمر. وهذا الذي تبينته قد راق لها، في النطاق الذي ترى فيه مبرراً لميلها الخاص، ويزعجها فيما إذا فكرت أنّ ضيفها، بسبب عامل السن، هو أقرب إلى بناتها، منها نفسها. وقالت:

- أنتنّ نسيتنّ أنّ «نيقولا ميكايلوفيتش» رجل متزوج!

فقالت «أوفرازي»:

- واهاً! كلا، يا أماه، إننا لم ننسَ ذلك. وإلاّ لكنت رأيت..

فسألتها أمها:

- وماذا كان يمكن أن أرى؟

وعادت فجلست مكانها، أمام فنجان فارغ وصحن عليه اثر مربى الفاكهة.

فصاحت «أوفرازي» وهي تطوّق عنق أمها بذارعيها، وتقبلّها على الخدّين:

- كان يمكن أن أقوم بكثير من حركات الغنج والدلال، والإثارة أمامه، كي أجعله يلتهب كما تلتهب كومة من القش اليابس!

فتخلّصت منها أمها، متذمرة ومستاءة:

- إنك بلهاء!

فتأوهت «أوفرازي» وارتمت على أحد الكراسي، وقد تباعد ساقاها، وتدلى ذراعاها، وكأنها منهكة، وقالت:

- يا لغرابة لون عينيه، إنهما خضراوان بشكل مدهش!

فصححت لها «ناتالي» ما قالته:

- خضراوان، وفي داخلهما شذرات ذهبية! ولكني أنا أكثر ما أحب فيه، هو جبينه!

وأثناء بضع ثوان، كانت «داريا فيليبوفنا» خلالها شاردة تحلق بين الغيوم، سمعت بناتها يصفن تفاصيل ودقائق هيئة وسيماء «نيقولا»، وفجأة، دقّت «أوفرازي» بإصبعها على المنضدة، وقالت:

- يبدو أنه غير سعيد مع أسرته! وهذا واضح في نظرته! أليس كذلك يا أمي؟

فغمغمت «داريا فيليبوفنا»:

- كلا! أخيراً... لا أعرف شيئاً عن ذلك..

- إنه لا يكاد يتكلم عن زوجته!

- ليس هذا مبرّراً للاعتقاد بأنه يهملها أو يهجرها.

- أوه! بلى! أوه! بلى! وعلاوة على ذلك، فإنّ رجلاً مثله لا يمكنه أن يتفاهم مع فرنسية!

فقالت «هيلين» وهي تلتهم ملء ملعقة كبيرة من المربّى:

- على أي حال، فهي جميلة جداً!

فتبادر إلى ذهن «داريا فيليبوفنا»: إنّ ابنتي الكبرى، بالتأكيد، حمقاء، أو أنها تتعمّد أن تخالفني في جميع أفكاري! وقالت لها بقسوة:

- أنت تأكلين كثيراً من الحلوى والسكريات، يا «هيلين»!

- ولكني ما زلت جائعة يا أمي!

- إذا استمريت هكذا، فستصابين بالبدانة!

فانزعجت «هيلين» وتجهّم وجهها، وألقت الملعقة في الصحن فأحدثت صوتاً قوياً.

واستأنفت «أوفرازي» الكلام:

- أنا أرى أنّ «صوفيا» هذه، نحيلة جداً، وسمراء جداً...

فقالت «ناتالي» بلهجة تنم عن الأسف:

- ولنفكر لو أنّ «فاسيا» تزوج «ماري» لأصبح «نيقولا ميكايلوفيتش» أخ زوجة أخينا، أي ابن عمنا!

فردّت «أوفرازي»:

- وما كان ليهمني أمره كابن عم لنا، أبداً! كان يمكن أن أريده كعاشق محب! آه! لو أنه ضمني بين ذراعيه، وأردفني وراءه على حصانه..

وهكذا فقد تشعب الحديث في أقاويل صبيانية.

فقالت «داريا فيليبوفنا»:

- كفاية، يا آنساتي العزيزات!

فصمتت البنات.

كان قد خيم الظلام. وشمت «داريا فيليبوفنا» أريج الأرض الحارّة، تمطّت، كتمت تثاؤبها ونهضت، مبتعدة عن المائدة، لتتمشى قليلاً في الحديقة، مستندة على ذراعي ابنتيها المفضّلتين: «أوفرازي» و «ناتالي» بينما سارت خلفهن «هيلين» بفستانها الوردي، وبيدها قطعة «كاتو». كانت بعض القرويات ينظفن مماشي الحديقة. وبدا القمر في السماء الزرقاء.

فتنهدت «أوفرازي»:

- آه! يا أماه! ما أجمل هذه الأمسية! كل شيء هادئ جداً، ونقي جداً، بحيث أني أشعر برغبة بالبكاء!

أتستطيعين تفهّم ذلك؟

فأجابتها أمها:

- نعم، يا ابنتي!

كان قلبها يريد الانطلاق والهرب من صدرها. وأحست فجأة بأنّ لديها رغبة قوية بأن تعود لتعيش وتستأنف حياتها بكل ما فيها من أوهام وأحلام الشباب.

٢

كانت قد انقضت ساعة، و «أليكسي نيكيتيتش بيسكوروف»، نقيب أشراف منطقة «أوبوتشكا» لا يزال مختلياً مع «ميشيل بوريسوفيتش» في المكتب. وقد أثارت هذه المقابلة المطوّلة اهتمام «نيقولا» الذي كان يتمشى في الحديقة، مطرقاً وهو يضع يديه خلف ظهره. وكلما فكّر بهذه الزيارة التي يقوم بها هذا الوجيه الريفي الصغير، كلما تأكد له بأن الدافع لها هو موضوع سياسي. ففي السنة السابقة انزعج القيصر ونفد صبره بسبب أصداء الثورتين الأسبانية والإيطالية، وبسبب الصعوبات والمتاعب التي سببتها له انتفاضة اليونانيين ضد الأتراك. ولذلك فقد قرر توجيه ضربة كبيرة وقوية إلى «المفكرين الأحرار» في روسيا وذلك بإصدار الأوامر بحل جميع الجمعيات السرية، بما فيها المحافل الماسونية. ولكنّ اتحاديْ المتآمرين في «الشمال» وفي «الجنوب»، لم يكن قد انتابهما القلق آنذاك. ولا شك في أنّ «نقيب الأشراف» قد تلقى وشاية مّا، فأتى يستفسر من «ميشيل بوريسّوفيتش» عن حقيقة آراء وأفكار ابنه. فعادت إلى ذاكرة «نيقولا» جميع العبارات والآراء الطائشة التي تفوّه بها في النادي، في منازل بعض الأصدقاء وفي الشارع. واعتبر نفسه مجنوناً، وشعر بالأسف لأنّ «صوفيا» ليست بجانبه لكي تشاطره مخاوفه. ففي اللحظات الخطيرة كان يشعر بمزيد من الشدة بالحاجة لكي تكون بقربه كي يشكلا زوجين متحدين. ولكنها كانت قد ذهبت، هي وماري والسيد «لوسور» للقيام بنزهة، ولجمع بعض الأعشاب الطبية: الذي أصبح هوساً جديداً لدى العائلة!

وكـرّر «نيقـولا» المـرور أمـام نافـذة المكتـب. كـان الحـديث يـدور بصوت خافت، فلم يستطيع سماع شيء واختبأ خلف دغلة من العلّيق. وبعد عشر دقائق. فُتح أحد الأبواب، وصُفق وهو يُغلق، وبدا على درج المدخل «ميشيل بوريسوفيتش» ورجل قصير، محدودب الظهر، إنه «نقيب الأشراف»، كان يرتدي بزة خضراء، وساقاه المقوسان يرسمان شكل المعيّن بين ركبتيه. وأقلقته العرية بينما كان يرفع قبعته العالية فوق رأسه الأصلع. فاطمأن «نيقولا» بعض الشيء. فلا بدّ أنّ القضية ليست كبيرة الأهمية، لأنّ «بيشوروفّ» لم يطلب أن يراه شخصياً. وقرّر عدم إلقاء أي سؤال على والده، لكي لا يثير شكوكه. ومن جهة أخرى، فإنّ «صوفيا» عادت من النزهة في وقت متأخر جداً بحيث أنه لم يكد يتاح له أن يتبادل معها بضع كلمات، قبل الذهاب إلى مائدة العشاء.

وأثناء تناول الطعام، تحدّث «ميشيل بوريسوفيتش» عن كل شيء، فيما عدا الحديث الذي دار بينه وبين زائره، بعد ظهر ذلك اليوم. وهذا الصمت عن حدث غير عادي بدا لـ «نيقولا» مدروساً ومقصوداً ولذلك فهو يُخشى شره وبين لقمة وأخرى، كان يتوقع انطلاق الهجوم. وكان يبتلع أول قطعة لحم بالكريمة، عندما قال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- لقد شرفني «اليكسي نيكيتش بيشوروفّ» بإحدى زياراته، اليوم. كان عليك أن تأتي لتحيته، عند ذهابه، يا «نيقولا»!

فتمتم «نيقولا» وهو يستعد لتلقي أسوأ ما هنالك:

- لم أشأ إزعاجكما، يا أبي.

- عليك بالأحرى أن تعترف أنّ مقابلته تزعجك! إنك لن تستطيع أبداً أن تتنبأ بماذا قال لي! إني ما زلت أشعر بسبب ذلك، أنّ رأسي ليس في وضعه الطبيعي والسويّ!

وتوقف قليلاً عن الكلام لكي يستقطب انتباه أفراد الأسرة، ثم تابع:

- لقد كلّفه أحدهم باستشارتي حول فكرة زواجه بماري.

وتلا بسرعة الارتياح الذي أحسّ به «نيقولا» شعور جديد بالقلق، وألقى نظرة على أخته. كانت شاحبة الوجه.

وسألت «صوفيا»

- ومن هو الشخص الذي يطلب يدها؟

- لا ينبغي لي حتى أن أذكر اسمه، وإلى هذا الحد يبدو لي طلبه غير معقول! والمقصود هو ابن أخت «بيسشوروفّ»: «فلاديمير كريوفيتش سيدوفّ».

فانتفضت «ماري» واضطربت عيناها.

واستأنف «ميشيل بوريسّوفيتش» الكلام:

- سمعته كريهة، غارق في الديون حتى عنقه، ولم يعد يعرف ممن يستطيع أن يستدين نقوداً، ولذلك وجد طريقة ظريفة وأنيقة لكي يكتسي بالريش: وهي أن يتزوج ابنتي. ولكني لست مغفلاً، ولا أريد أن أصبح صرّافاً لدى صهري. وقد قلت هذا لـ «بيسشوروفّ»، وفي نهاية الأمر أعطاني الحق. ولن يضع «سيدوفّ» قدمه، بعد الآن هنا!

ولأنّ «صوفيا» مطّلعة على محبة أخت زوجها لـ «سيدوفّ» فقد كانت تودّ أن تسرع لمساعدتها، ولكنها لم تستطع سوى أن تلزم الصمت وأن ترثي لحالها.

وسأل «ميشيل بوريسّوفيتش» ابنته:

- الم أحسن صنعاً، يا ماري؟

فأجابته بصوت واهن:

- بلى، يا أبي.

- حسب المعلومات التي أكدها لي «بيسشوروف» نفسه، أنت الفتاة الثالثة في المنطقة التي طلب يدها هذا الشخص آملاً إصلاح أحواله المادية. ولا يمكن أن تكوني ترغبين بالزواج من شخص كهذا، أليس كذلك؟

- كلا، يا أبي.

- فالذي سيتزوجك، أفترض أنه ينبغي أن يكون قد اختارك، لشخصك أنت، وليس طمعاً بثروتي ونقودي. وعلاوة على ذلك، فهو لا يتمتع بشيء من حسن الخلق ولا الأخلاق. وبيته ماخور، ولا يدهشني أن يكون مصاباً بعاهة أو بمرض مّا. وأخيراً، ماذا في ذلك، إني لم أجد حتى أي فائدة من استشارتك وأخذ رأيك في هذا الموضوع. لديك الوقت!.. أليس كذلك؟ لديك الوقت!...

كان يخيّل لـ «صوفيا» أن الفتاة كانت ضحية موثوقة الكتفين ومربوطة بكرسيها، محطمة الأعصاب، عاجزة عن تحمل المزيد من الألم وهي تتلقى الضربات، دون أن تعترض أو أن يرف لها جفن. وكان أبوها يضرب بقسوة وعنف على بشرة ماتت منذ زمن طويل. ودون أن يشعر بقسوته، غمز «نيقولا» بعينه، وقال له:

- أعرف قصصاً مثيرة جداً، عن «سيدوف» هذا، ذكّرني لأرويها لك، عندما نكون، رجلين وحسب وعلى انفراد. فتقلّص قليلاً فم «ماري» فحوّلت «صوفيا» مجرى الحديث، متحدثة عن نماذج النباتات التي جناها السيد «لوسور» أثناء النزهة. وعندما حان وقت النوم، ذهبت «صوفيا» للقاء الفتاة في غرفتها. فاستقبلتها «ماري» بجفاء. وقالت، بأعلى صوتها:

- أنا مسرورة جداً بهذا الجواب الذي أعطاه أبي للسيد «بيسشوروفّ»! ولن أقبل مقابل أي شيء في العالم أن أتزوج رجلاً له مطامع وضيعة! وأنا لم أره منذ سنين، وفجأة يطلبني للزواج! بل وأكثر من ذلك، فهو يرسل موفداً لتهيئة الجو! هذا فظيع!.. وغير لائق، أبداً!... وكان يمكن أن تريدي مني أن أثور واضطرب؟!

فقالت «صوفيا» بكثير من المداراة:

- ما كنت لأرغب بذلك يا «ماري» بل كنت أخشاه.

- ها أنت قد تطمّنت إذن!

- لم اطمئن تماماً، فأنا أجدك متوترة الأعصاب جداً.

- فليكن! إني أكره أن يتدخل أحد في شؤوني، في حياتي وفي كل مرة يبدو خطيب في الأفق، يقوم البيت ولا يقعد، ويتحرك كل من فيه! أولاً «فاسّيا»، ثم «فلاديمير كريوفيتش سيدوف»! كفاية! لقد مللت! أريد أن يدعوني وشأني! كان على وجه الفتاة لمحة من الكبرياء الجريحة، أهابت بـ «صوفيا» إلى إبداء المزيد من التسامح معها، وقالت لها:

- حسن، أرجو لك ليلة سعيدة يا ماري، ولا تستائي مني لمجيئي، فأنا أتيت بدافع الصداقة. وماري، التي تحولت إلى تمثال، لم تبدر منها أي حركة لاستبقاء زوجة أخيها. وغادرت «صوفيا» الغرفة، وهي متأكدة أن الفتاة، خلف الباب، قد انهارت على سريرها، وأخذت تنتحب.

★★★

استعادت «ماري» حالتها النفسية الحسنة، ولكن النزهات لجمع الأعشاب الطبية لم تعد تروق لها. فقد عادت إلى ولعها بركوب الخيل. وفي كل صباح، كانت تجوب البراري التي لوّنها الخريف باللون الأصفر المحمر، يرافقها أحد الخدم، تعبر الغابات وتقفز فوق السياجات. وفي بداية الأمر اقتصرت مشاويرها عند حدود أملاك الأسرة. وبعد ذلك، ذهبت إلى أبعد من ذلك، دون أن تقول لأحد شيئاً عن هذا الأمر. كان هنالك فكرة ثابتة تدفعها: فهي تريد أن ترى مسكن الرجل الذي تجرأ على طلبها للزواج، مع أنه لا يحبها. كانت تعرف أنّ ملكية «سيدوف» تقع في الجهة الجنوبية، باتجاه «أوستروف». وهي منطقة لا تعرفها جيداً، فحصل الخادم على بعض المعلومات عنها من القرى التي تقع على طريقهما، وأخيراً التقيا باثنين من القرويين، وافقا على ارشادهما إلى المكان المقصود. فوقفت «ماري» على

مرتفع تغطيه شجيرات العليق، واكتشفت، وقد تملكها تأثر عنيف، في أسفل المنخفض بيتاً سيئ البناء، له أربعة أعمدة في الجهة الأمامية، وكتلة كبيرة من الأبنية الخشبية في الجهة الخلفية؛ وقال أحد القرويين:

- هذه «أوترادنوي»، ملكية «فلاديمير كريوفيتش سيدوف»

فتمتمت «ماري»:

- هيا بنا، ولنذهب!

ولوت بعنف رأس حصانها.

وعند عودتها إلى «كشتوفكا» وجدت «نيكيتا» جالساً على اسكملة في الباحة، قرب الإسطبل، وعلى ركبتيه عدّادة وقد انهمك في التدرب على العد والحساب بأسرع ما يمكن. وكانت «صوفيا» تقف بالقرب منه وتتابع تمرينه بانتباه.

وسألت «ماري» عندما لمحتها:

- أكانت النزهة جيدة؟

فأجابتها:

- رائعة، وأنت؟

- لقد جمعنا بعض الأعشاب، أنا والسيد «لوسور»، والآن كما ترين، فأنا أتأمل «نيكيتا» بإعجاب، فقد أصبح ماهراً جداً في الحساب، وبعد أن يتدرب جيداً، يستطيع «نيقولا» استخدامه كمحاسب.

فألقت «ماري» نظرة ذات مغزى على زوجة أخيها التي كانت منحنية برعاية واهتمام على الفلاح ذي الشعر الأشقر جداً والعينين الشديدتي الزرقة، وضمت شفتيها بشدة لكي لا تصرخ بأنّ هذا التقارب سخيف ويدعو إلى الضحك ورفعت طرف ثوبها واتجهت نحو المنزل. وعلى درج المدخل، التقت بـ «نيقولا»، فسألها، بلهجة مرحة:

- أرأيت «صوفيا»؟

فأجابته «ماري»:

- نعم، هي في الباحة، مع «نيكيتا».

فلم يبد على «نيقولا» ما يدل على أن جواب «ماري» قد أدهشه، كان عائداً لتوه من «بيسكوف» ولا شك أنه التقى هناك ببعض الفتيات. كانت «ماري» متأكدة بأنه في كل مرة يذهب إلى المدينة، فذلك لكي يخون زوجته، مع بعض النساء اللواتي يبعن الهوى والغرام بالنقود.

وكانت تشم رائحة الخيانة التي تفوح منه. و «صوفيا» لا تعرف ولا تلاحظ شيئاً! أو أنها بالأحرى، لا تهتم بذلك! كما أنه هو لا يهتم بمعرفة كون زوجته تهتم كثيراً وعن قرب بتربية فلاح في العشرين من العمر! والوالد، ما شأنه في كل ذلك؟ الوالد سحرته كنته، لدرجة أنه لم يعد يحب أبناءه! والسيد «لوسور» الذي يحمل علبة عالم النبات على بطنه ويجمع النباتات الطبية، ربما كان يحلم بتركيب نقيعة، أو مغلي من الأعشاب السامة ليقضي على جميع أفراد الأسرة! والخدم والخادمات، كل هذا الجمهور من الناس التابعين والأتباع، الذين هم أيضاً لهم رؤوس، سيقان سواعد، شعر وأعضاء تناسلية! فتيات وفتيان لا بد أنهم يتزاوجون في الأدغال وعلى كدسات التبن. وبعد ذلك يولد الأطفال من أجسام النساء، الملوثة. كان ذلك بشعاً وسافلاً وكانت «ماري» في غاية الذهول تكاد تختنق قرفاً واشمئزازا، وسط عالم، حيث الحيوانات وحدها جديرة بالاحترام. وحتى المساء، فقد عاشت على مسافة لا يمكن تقدير طولها، بينها وبين الناس الذين يحيطون بها ويعتقدون أنهم يعرفونها.

وأثناء ثلاثة أيام، على التوالي، رجعت إلى «أوترادنوي» يرافقها أحد الخدم. ومن مركز المراقبة الذي كانت تقف فيه، كانت ترى جيداً البيت. الباحة. وفي المرة الرابعة، بينما كانت مستغرقة في تأمل ذلك المنظر. انفرجت الأدغال وراءها. وظهر «فلاديمير كريوفيتش سيدوف» لقد أتى سيراً على

قدميه، وبدا نحيلاً، مبتسماً منتعلاً جزمة طويلة، وبيده عصا. وبصمت وهدوء، انحنى أمام الفتاة. فأرادت أن تضرب حصانها بالسوط، لينطلق بها عدواً. ولكنها ظلّت في مكانها، تغمرها السعادة وقد استبدّ بها الرعب، في آن واحد.

***

منذ أن أعاد «نيقولا» علاقته الودّية مع «داريا فيليبوفنا» إلى سابق عهدها، أصبح يذهب كثيراً إلى «سلافينكا». وكل زيارة كانت تترك لديه ذكرى أكثر عذوبة وإثارة. كانت الأم وبناتها الثلاث يتنافسن في إظهار الملاطفات والإغراء حياله. وكان يتمتع بقربهن بمسرّة مزدوجة لشعوره بأنه يتعرض للإغراء ويغريهنّ، في آن واحد. ولكنّ إجراء أي حديث على انفراد مع إحداهن كان مستحيلاً، ضمن هذه الأسرة المتعددة الأفراد، وهكذا، فإن الوفرة قد أدّت إلى الحرمان. وكانت «داريا فيليبوفنا» تتحدث عرضاً إلى «نيقولا» عن الأعمال في المنزل الصيني، التي أوشكت على الانتهاء. وبعد ظهر أحد أيام شهر تشرين الأول «أكتوبر» اللطيفة الجو، وأثناء عودته من «بسكوف» حوّل طريقه ليمرّ بذلك المنزل لمشاهدة تقدّم الأعمال، وهل انتهت أم لا.

وفي فرجة الغابة كان ينتصب المبنى وقد طُلي حديثاً. كان سقفه أحمر تتخلّله خطوط صفراء، والحيطان صفراء، وإطارات النوافذ زرقاء. وترجل «نيقولا» عن جواده، وقد بهرت عينيه هذه الألوان الزاهية، واقترب من فلاحين كانا يطليان قاعدة البناء، قائلاً:

- إيه، أيها الشباب! أهذه آخر أعمال الطلاء؟!

- نعم، يا سيدي! وبعد هذا، لم يعد هنالك سوى دعوة الكاهن مع الماء المبارك. ولكنه مهما رش منه، كيف تريد أن تصبح هذه الجدران أرثوذكسية؟ فالسكنى في أقفاص كهذه تصلح للصينيين، فقط!

فقهقه «نيقولا» ضاحكاً، ثم رفع رأسه وصمت وقد غمرته فرحة عارمة عندما لمح وجهاً نسائياً عبر إحدى النوافذ وبعد ذلك بثانية واحدة، كان في القاعة الرئيسية، أمام «داريا فيليبوفنا»، التي مدّت له يديها الاثنتين. كانت الكراسي مكدّسة في إحدى الزوايا، وكذلك المناضد والاسكملات، والأواني الغريبة والمتعددة الأشكال. وهنالك أيضاً أريكة عريضة وضعت بجانب الجدار.

وقالت «داريا فيليبوفنا»:

- يا لها من مفاجأة!

فتمتم «نيقولا»:

- كنت ماراً بالقرب من هنا، فأردت أن أرى أين وصلت أعمال البناء، ويبدو أنك بدأت بفرشه وتزويده بما يحتاج من أثاث؟...

- لقد بدأت بذلك للتوّ..

وبحث بنظراته عن الفتيات الثلاث اللواتي لا يفارقن أمهن، وأخيراً سألها:

- هل أنت وحدك هنا؟

فهمست:

- نعم

فانتابت «نيقولا» خشية مستحبة وسارة. وببطء وهدوء، جلست «داريا فيليبوفنا» على زاوية الأريكة. ولم يكن فستانها سوى مجموعة من زهور الربيع المتعددة الأشكال و الألوان، منثورة على خلفية وردية اللون، ومن بين أزهار الحقل الجميلة، هذه برز ذراعان قويان عاريان وعنق طويل أغيد.

وقالت له:

- سوف تمدّني برأيك بمقترحاتك بشأن المفروشات.

- لست مؤهلاً لذلك، أبداً!

- أوه! بلى! إني أشعر أنّ ذوقك يتفق مع ذوقي!

- أنت تجاملينني بهذا المديح، أيتها العزيزة «داريا فيليبوفنا»!

- بأقل مما تستحق، أيها المحترم «نيقولا ميكايلوفيتش»! كان «نيقولا» لا يزال واقفاً أمامها، وعيناه مثبتتان على بشرة صدرها الشقراء والناعمة، ضمن ذلك الإطار اللطيف. وبينما كان يتأملها هكذا، عبرت ذهنه أفكار متنافرة: فتذكر «باريس»، وخليلته «دلفين» وهي تخلع قبعتها أمام المرآة، أحد رفاقه، الذي قتل في الحرب، القيصر على صهوة جواده، وهو يستعرض الجيش المنتصر، وبقدر ما كانت هذه الصور تبدو بعيدة عن الوضع الحالي، بقدر ما كان يشعر أنها ضرورية لتهدئة وساوسه. كان كما لو أنّ كل ماضي غزواته قد عاد إلى ذاكرته من أجل تبرير تقبله الإغراء. وبدا وقد اكتنفته نفحة ملحمية، كأنه عاد وأصبح «نيقولا» الزمن الماضي، الذي لا يقاوم، ولا يمكن أن يُسأل عن شيء. ومن جهة أخرى، فهنالك ظروف لا يستطيع أي رجل شريف التراجع أمام الخطأ. وأن يتظاهر بعدم ملاحظة اضطراب «داريا فيليبوفنا» فهذا يعتبر خطأ وعدم لياقة. وأن يلاحظه ولا يقدره ويتجاوب معه فهذا يمكن أن يكون أكثر خشونة، وأقل تهذيباً.

ونهضت وقالت له:

- ساعدني على وضع هذه المنضدة أمام النافذة!

كانت تكلمه عن قرب، بحيث أنه كان يستنشق أنفاسها، دون أن يسمع كلماتها.

فكررت طلبها:

- ألا تريد أن تساعدني؟

وهذا الرجاء جعله يضطرب ويحتار. فالمنضدة خفيفة. ولكن الاثنين تعاونا على حملها كأنها تزن مئة «ليبرة»[1]. وأثناء نقلها تلامست يداهما،

١ـ ليبرة: ٥٠ كيلوغرام.

فلم تسحب «داريا فيليبوفنا» يدها. وبعد أن وضعا المنضدة في مكانها، زاغت عيناها، وفتحت فمها وكأنها تحتضر، وقالت، متأوهة:

- يا إلهي، القادر على كل شيء، ماذا حدث؟

وأدرك «نيقولا» أنّ الكلام موجّه له. وكان يريد أن يفقد عقله ولكنه لم يتوصل لذلك. وبدلاً من أن يكرس نفسه تماماً لـ «داريا فيليبوفنا».

كان يلازمه ويسيطر على تفكيره، همّ عدم التفكير بعد الآن بـ «صوفيا». كان يطردها من ذهنه، ولكنها كانت تعود إليه من منفذ مّا.

وكررت «داريا فيليبوفنا» تساؤلها بصوت ينمّ عن التذمر ونفاد الصبر:

- ماذا حدث؟

وشهد «نيقولا» اللحظة التي يمكن أن تعتبره فيها هذه المرأة أنه أخرق ومغفل، فثارت كبرياؤه ودفعته إلى القيام بحركة عنيفة وحتمية. فقبل «داريا فيليبوفنا» على فمها. فأرسلت صرخة فزعة وألقت بنفسها على صدر غاويها. فعاود تقبيلها بمزيد من المتعة، لأنّ شفتيها كانتا عذبتين وحلوتين.

وتأوهت وهي تقول:

- مجنونان، نحن مجنونان! يمكن أن يرانا العمال!...

فليس هنالك ستائر على النوافذ!.. اذهب، يا «نيقولا ميكايلوفيتش»، يا ملاكي!.. اقسم لي أنك تحبني، وانصرف!...

وشعر «نيقولا» بالخيبة وبالارتياح، في آن واحد من هذا التحذير. فرغبته الجسدية ظلت غير مشبعة، ولكنّ ضميره هدأ واستراح. وأبسط شروط الرقة و المجاملة كانت تلزمه بوجوب إبداء الاعتراض على طلبها منه أن يذهب، ولذلك، صاح:

- لن أذهب إلا إذا قلت لي متى يمكننا أن نلتقي ثانية!

- آه! يا إلهي! أنت مدهش، يا ملاكي!.. أنت تعرف ظروف حياتي.. يصعب علي الهروب.. تعال إلى هنا، السبت المقبل.. فإذا رأيت أصيص زهور، على حافة النافذة، فهذا يعني أني هنا بمفردي ومستعدة لاستقبالك!.. وإلاّ، فعليك أن تحضر يوم الاثنين، في نفس الساعة. وسمعا وقع أقدام خلف الباب كان العمال، آنذاك يعملون على درج المدخل. وتسرّبت رائحة الدهان إلى الغرفة. فوقفت «داريا فيليبوفنا» على رؤوس أصابع رجليها، كما لو أنها كانت امرأة صغيرة وقصيرة، ولكنّ هذه الحركة جعلتها تبدو أطول من «نيقولا». وكان على وجهها التعابير الجذابة والمغرية نفسها التي كانت عليه عندما كانت تقدم له الحلوى والمربى. فأبدى مزيداً من الحمية والحرارة في هذا العناق الأخير.

وقالت وهي تنفصل عنه، وفمها يؤلمها، ودموع الفرح تطفر من عينيها:

- فليحفظك الله، يا ملاكي!

ولم يبدّد هذا الدعاء الورع، قلق «نيقولا» وهو يهم بامتطاء صهوة جواده. ومع ابتعاده عن «المنزل الصيني»، كانت مغامرته تبدو له أكثر حماقة. ودون أن ينكر ويتجاهل مفاتن «داريا فيليبوفنا» فإنه كان يعتقد أنه لا يحبها إلى درجة تجعله يقبل التعرض لأخطار علاقة حقيقية ودائمة معها وكان شعوره بأنه خان ثقة «صوفيا» قد أخذ يعذبه، ومع ذلك فإنّ الأمر لم يكن قد تعدّى آنذاك سوى بعض القبلات، فماذا سيحصل وكيف سيكون الحل إذا اتخذت الأمور مجراها الطبيعي؟ وفي جميع الأحوال، لن تكون «داريا فيليبوفنا» بالنسبة له سوى مجرد تسلية. وهو لن يعطيها أفضل ما في نفسه من عواطف، وقد أقسم على ذلك! وعلاوة على هذا فإنه غير متأكد من أنه سيذهب يوم السبت إلى «البيت الصيني»،

وربما لن يعود إليه إلا لكي يقترح على «داريا فيليبوفنا» أن يعودا صديقين، وحسب؟!

ولأنها امرأة مستقيمة وشريفة فهي ستتفهّم ذلك.

وسيكون هنالك كثير من النبل في رفضهما ارتكاب الخطيئة، مع الاستمرار باللقاء.

وبينما كانت هذه الأحلام تساور «نيقولا» وجد نفسه واقفاً على بساط من أوراق الأشجار اليابسة، أمام درج مدخل المنزل، وأعمدته الصغيرة البيضاء. فألقى نظرة على المصابيح التي كانت تنير نوافذ الطابق الأرضي، وتطايرت من ذهنه جميع الأفكار الثانوية. وفجأة لم يعد يشغل باله سوى الطريقة التي سيلتقي بها مع «صوفيا». فهي التي تتمتع بموهبة دقة الملاحظة، ألن تكتشف من أول نظرة، أنه قد قبّل امرأة؟

كانت الأسرة مجتمعة في الصالون. «صوفيا» و «ميشيل بوريسوفيتش» يلعبان الشطرنج، بانتظار موعد العشاء. و «ماري» تقرأ إحدى صحف الأزياء. بينما كان السيد «لوسور» يتصفح كتاباً يتحدث عن الأعشاب الطبية. وكان وقع صوت «نيقولا» زائفاً في أذنيه، عندما أخذ يعتذر عن تأخره في النادي. ولكن، لم يلاحظ أحد ارتباكه. وقدمت له «صوفيا» جبينها فمسه بشفتيه بشكل ينم عن الاحترام. لكم كان يحبها في تلك اللحظة! ولكم كان يتمنى أن تظل سعيدة على الدوام! وشعر برغبة قوية بأن يلقي بنفسه عند قدميها وأن يضم ركبتيها، لكي يشكرها لكونها في آن معاً، جميلة إلى هذا الحد، وقليلة الريبة والشكوك!

٣

حتى الساعة الثامنة والنصف صباحاً، لم تكن «ماري» قد نزلت، بعد، من غرفتها، و «ميشيل بوريسوفيتش» الذي أغاظه تأخرها، أمر بعدم انتظارها من أجل تقديم طعام الفطور. وبعد أن تناولت «صوفيا» فنجانا من الشاي، تركت عمها مع «نيقولا» والسيد «لوسور» وذهبت لتطلب من الفتاة الإسراع بإنهاء زينتها. ولكن، لا بد أن يكون نوم «ماري» عميقاً وثقيلاً، لأنها لم تردّ على الضربات القوية التي قرعت بها «صوفيا» الباب. عند ذلك دفعته: لم يكن في الغرفة أحد. والسرير، على حاله لم يُمسّ منذ الأمس. والخزانة مفتوحة على مصراعيها، وجوارير الخزانة الصغيرة، مفتوحة إلى النصف، وبعض الملابس ملقاة كيفما اتفق على الكراسي، أي أنّ المشهد كان يدل على هروب حصل على عجلة. وعلى الوسادة رسالة علقت بدبوس: إلى «صوفيا». ففضت المغلف، وقرأت، وقد انتابتها الحيرة والذهول:

«لقد ذهبتُ للانضمام إلى الرجل الذي أحبّ، والذي لا يعترف أحد هنا بمزاياه، ولا شك أني سأكون تعيسة معه، ولكن، على الأقل، سيكون لحياتي طعم ومعنى. حاولي أن تشرحي هذا لأبي، لأنّ لديك القدرة على إقناعه. وعلى الخصوص، لا يحاول أحد منكم رؤيتي ثانية، لم أعد أريد معرفة أي شيء يذكرني بماضيّ. وهذا لن يمنعني من القول أني أحتفظ لك بذكرى كلها عطف ومحبة.- ماري.»

لم يدم ذهول المرأة طويلاً، فالحدث أخطر من أن يجعلها تضيع الوقت من أجل معرفة كيف حصل ذلك. والمهم هو العثور على «ماري»

وإعادتها إلى «كشتوفكا»، قبل أن يكتشف أحد هربها من المنزل. وإن لم يكن لهذا المسعى سوى واحد بالمئة من فرص النجاح، فقد عزمت «صوفيا» على القيام به. وخرجت من الغرفة، وهي متماسكة ومتظاهرة بالهدوء؛ أغلقت الباب جيداً، وخبأت المفتاح والرسالة في جيب صدارتها، وعادت إلى قاعة الطعام لكي تعلن أنّ «ماري» تشكو من بعض الآلام، وأنها يجب أن تترك لكي ترتاح.

وكانت سيماؤها التي تنم عن الحياء والتكتم معاً، جعلت الرجال يفترضون أنّ الأمر يتعلق بتوعك نسائي، ولذلك فلم يجرؤ أحد منهم على إلقاء الأسئلة وطلب تفسيرات إضافية أخرى. وبعد ذلك، ذهبت إلى الإسطبل وسألت العاملين هناك. فاعترف أحدهم، وهو يبكي ويرسم على صدره إشارة الصليب أنّ «سيدته» أيقظته عند الساعة الرابعة صباحاً، لكي يسرج لها حصانها. واعترف عامل آخر بأنها أمرته، ذات يوم، بمرافقتها إلى «أوترادنوي»، ملكية «فلاديمير كريوفيتش سيدوفّ».

فقالت له «صوفيا»:

- حسن! وسترافقني إلى هناك، أنا أيضاً!

كانت تهم بالصعود إلى العربة، عندما أتى «نيقولا» واقترح عليها أن يرافقها، معتقداً أنها ذاهبة للقيام بنزهة. فمنذ بضعة أيام، أخذ يتعامل معها بمودة ورعاية يدعوان إلى التأثر. ولذلك كان عليها أن تبذل بعض الجهد لكي تجيبه بأنها، في هذا الصباح، تريد أن تذهب بمفردها. واقتنع دون أن يلقي عليها أي سؤال، وكأنّ لديه، من جهته، ما يلوم نفسه عليه، وقال لها، بلهجة تنمّ عن الحزن:

- اذهبي، ولكن لا تتأخري كثيراً في العودة!

وظل واقفا على درج المدخل ينظر إلى العربة وهي تبتعد، يرافقها أحد الخدم.

لم تكن «صوفيا» تستطيع الاهتمام بالمناظر، لأنها كانت تركز اهتمامها على المعركة التي عليها أن تخوضها ضد «ماري» و «سيدوف». كانت تجمع وتهيئ حججها، وتحاول تبين حجج خصميها، رافضة تقبل إمكانية فشلها في مهمتها. ومع ذلك، فعندما توقفت العربة أمام المنزل، في «أوترادنوي»، حصل لديها انطباع بأنها مخطئة، وأنها كانت تفكر في فراغ، وأنّ لا شيء يمكن أن يحدث على الشكل الذي توقعته.

واستقبلتها على درج المدخل، فتاة جميلة تضع على رأسها وشاحاً أحمر اللون. فتذكرت «صوفيا» ما كان يرويه الجيران عن فلاحات «سيدوفّ». وهذه أدخلت الزائرة، وهي تبتسم إلى الصالون، وقالت لها بأنها ستخبر سيدها بقدومها.

فتساءلت «صوفيا» عندئذ: «وماذا لو ادعى أنّ «ماري» ليست هنا، في منزله، فماذا سأفعل؟» وأوقفت الخادمة، وقالت لها:

- أريد أولاً التكلم مع «ماري ميكايلوفنا أوزاريف».

فتمتمت الفتاة:

- لا أعرف من هذه التي تريدين التكلم معها.

- أنها فتاة وصلت إلى هنا، صباح اليوم.

- لم يقل لي أحد شيئاً عن ذلك!

- ومن البديهي أنها تنصاع لأوامر تلقتها، فلم تلح عليها «صوفيا» بالأسئلة، وانسحبت الفتاة وهي تهزّ وركيها، وعقد من الخرزات الزجاجية يخشخش حول عنقها. وعندما بقيت «صوفيا» وحدها، أخذت تتفحص المكان. كانت قطع الأثاث الخفيفة تضفي على الغرفة منظر مقصورة في

إحدى السفن، وكأنها تذكر بأنّ «فلاديمير كربوفيتش سيدوفّ» ضابط بحار متقاعد. ولم تكن هنالك أي أريكة تقف مستقيمة على قوائمها. والستائر المصنوعة من قماش رقيق أصفر، تمزقت بعض أطرافها السفلى. وعلى الجدران علقت صور ولوحات تمثل بحراً هائجاً، سفينة تغرق، إحدى المعارك البحرية، بعض السفن الراسية في أحد المرافئ نموذجاً مصغراً لسفينة ذات ثلاث سواري، تبحر وقد نشرت أشرعتها، تحت ساتر زجاجي مكور. وأخذت «صوفيا» تتأمل بإعجاب دقائق هذا العمل الفني، عندما دخل «فلاديمير كربوفيتش سيدوفّ». كان يبدو طلق المحيا، وفي سيمائه مسحة تنم عن شيء من الوقاحة، وبادرها بالقول:

- أعتقد أنك تريدين رؤية «ماري» فهي تتهيأ، و ستكون هنا بعد لحظة.

ودعا «صوفيا» للجلوس. كانت تتمالك نفسها بصعوبة أمام هذا الشخص الواثق أكثر مما ينبغي بوسائله وإمكاناته.

وقالت له:

- إنّ ما فعلته شائن ومعيب، أيها السيد! وليس لك الحق أن تستغل سلطتك على «ماري» لكي تجذبها إلى منزلك وتحدث الشقاق والخصام بينها وبين والدها، وتسيئ إلى سمعتها بين جميع الجيران!

فردّ «سيدوفّ» بقوله:

- كان من الممكن أن أستحق منك هذا اللوم، بل هذا التوبيخ، لو أني أنا الذي نظمت هذا الهروب. ولكني كنت أول من دهش عندما رأيت أخت زوجك تصل، عند الفجر إلى منزلي.

- لا تقل لي إنها لم تأت أبداً إلى هنا، فيما مضى!

- لقد أتت إلى هنا ثلاث أو أربع مرات، بزيارات ودّية، ولكن دون أن تذكر لي أنها تنوي الإقامة في منزلي.

كانت أصابع «صوفيا» متشنجة تتقلص على متّكأي أريكتها، وقالت له:

- أنت تكذب!

- هذا، بالفعل، يمكن أن يبدو مستبعداً ولا يصدق لمن لا يعرف «ماري» جيداً، ولكن أنت، لا بد أنك تعرفين أنها تستطيع أن تركب رأسها وتفعل ما تشاء. وهل كان يجب عليّ أن أطردها لتعود إلى بيت أهلها، وهي التي تعرضت لكثير من المخاطر بدافع من حبها لي؟ لأنها تحبني، يا سيدتي، ويبدو أنك نسيت ذلك!

فسألته «صوفيا» بعنف:

- وأنت، أيها السيد، هل تحبها؟

فأجابها:

- بالطبع، وإلاّ لما كانت الآن هنا.

- وما هي نواياك؟

- سأتزوجها.

- بعد أن فضحتها وألبستها ثوب العار!

- أنا رجل أتمسك بكلمتي. وسأحترم «ماري» إلى اليوم الذي ستصبح فيه زوجتي أمام الله.

- هذا الزواج لن يحصل، وأنت تعرف ذلك، إلا ضد إرادة ورغبة والدها!

فبدت على شفتي «سيدوفّ» ابتسامة ساخرة، وقال:

- في هذا النوع من القضايا، لا يمكن أن يكون الرفض نهائياً، أبداً.

فلاحت لـ «صوفيا» بارقة أمل بتسوية المشكلة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولذلك قالت له، بأعلى صوتها:

- دع «ماري» تعود معي. وسأحاول استمالة عمي وإقناعه بتأييد قضيتكما، وهكذا فإننا، على الأقلّ، نتحاشى الفضيحة، ويتم الزواج بصورة طبيعية.

فخيم صمت دام فترة طويلة. ثم قال «سيدوف» بلهجة جادّة وهادئة:

- لن أقع في الفخ، يا سيدتي! فطالما بقيت «ماري» بقربي سيكون معي ورقة رابحة ضد «ميشيل بوريسوفيتش»، وأستطيع أن أهدّد وأن أطلب...

- وماذا ستطلب؟

فتغضّنت عينا «سيدوف»:

- أن يزوجني ابنته، مع جميع الامتيازات التي يقتضيها مثل هذا الزواج.

فقالت «صوفيا» بغيظ شديد:

- فأنت تعترف إذن أنك تريد أن تتزوج أخت زوجي من أجل نقودها؟

- إني لم أقل ذلك!

- بلى! إنّ حبك لها ما هو سوى الديون التي عليك أن تسدّدها! وليست عاطفتك هي التي تدفعك، بل الخوف من المواعيد القادمة قريباً لتسديد تلك الديون.

- ومنذ متى كانت المصلحة والعواطف غير قابلة للتوافق فيما بينها؟ ومن جهتي فإني لا أخفي أنّ وجهي المشكلة يبدوان لي مغريين!

- و «ماري» تتصور..

- هي لا تتصور شيئاً إنها تعرف هذا تماماً!

واقترب وقع أقدام. وفتح الباب بحزم، وبدت «ماري» عند العتبة. وكانت ملابسها السوداء تبرز شحوب ملامحها. وبدا التأثر على وجهها عندما رأت «صوفيا» وخلال لحظة، اعتقدت هذه أنّ الفتاة تهم بإلقاء نفسها بين ذراعيها. ولكنّ «ماري» بدر منها ما ينم عن التصميم، وسألتها:

- أبي هو الذي أوفدك؟

- إنّ أباك لا يعرف شيئاً حتى الآن عن هربك، وقد أكدت للجميع بأنك باقية في الغرفة بسبب توعك أصابك، فإذا عدت معي، فسنتجنب أي سوء، وسأسوي كل شيء. وعليك أن تثقي بي..

فسألتها «ماري» بلهجة تنمّ عن عزة النفس:

- إلى أين تريدين مني أن أذهب. إنّ بيتي هو هنا.

- انتظري إلى أن تتزوجي، وتكلمي بهذه الطريقة!

- لقد سبق لي أن تزوجت بقلبي وعواطفي.

- كنت أظنك أكثر اهتماماً بالإكليل ومباركة الكنيسة للزواج!

- الله يراني ويؤيد تصرفي!

- وأبوك؟

- لقد وجه لي إهانة خطيرة برفضه طلب «فلاديمير كربوفيتش» أن يتزوجني، لدرجة أني لم أعد أريد سماع أي شيء عنه. ولست بحاجة لموافقته ولا لمحبته ولا لنقوده، لكي أكون سعيدة!

فألقت «صوفيا» نظرة على «سيدوف» الذي كان يقهقه ضاحكاً، وقال:

- إنّ عزيزتنا «ماري» فتاة مثالية!

إني لا أشك أبداً بأنك ستبدّد لها أوهامها بسرعة! قالت هذا «صوفيا» وهي تنهض.

فقال «سيدروف»

- لا بد من ذلك، ولا أحد يستطيع أن يتغذى بالأوهام. وأيّا كانت طباع من سيصبح عمي في المستقبل، وغضبه علينا، فإنه لا يستطيع أن ينكر ابنته بصورة نهائية. وبعد بضعة أيام من الغيظ والغضب، سيرى أنّ النخوة تدفعه لمساعدتنا، وبخاصة إذا سارت الأمور، كما آمل ومنحناه أحفاداً...

كان يبدو عليه أنه يتعمد أن يبدو كريها وقبيحاً. كان على وجهه أمارات الخبث والاحتيال.

واستأنف الكلام، وهو يطوّق خصر «ماري» بذراعه:

- سوف نمنحه أحفاداً على قدر كبير من الجمال.

فذابت «ماري» خجلاً. وصمت فمها، ولكنّ عينيها اللتين اتسعت حدقتاهما، كانتا تنمان عن كونها خائفة من أن تكون قد أخطأت وخدعت، وأنّ هذا الرجل يوحي لها بالقرف والاشمئزاز، ومع ذلك فهي في الوقت نفسه خاضعة له، ولم يعد لديها إرادة، ولا عزة نفس ولا أمل، وأنها أخذت تسقط في هاوية سحيقة. فلاحظت «صوفيا» هذا الضيق المكتوم الذي تعاني منه «ماري» وتأثرت لذلك كثيراً، ولذلك، قالت لها:

- ألم تفهمي يا ماري؟ مكانك ليس هنا! سأصطحبك معي! هيا ولنذهب بسرعة! إنها فرصتك الأخيرة!...

فازدادت «ماري» اقتراباً من «سيدوف» واستندت على كتفه، وأحنت رأسها. لقد فُتح لها باب السجن، ولكنها ترفض الخروج.

فسألها «سيدوف»، بلهجة من يسأل فتاة متخلفة عقلياً:

- هل سمعت ما قالت لك زوجة أخيك؟

فأجابته:

- نعم، يا «فلاديمير».

- وبماذا تجيبينها؟

- فلتذهب من هنا!

فبدت على شفتي «سيدوف» ابتسامة شاحبة:

- كان باستطاعتك أن تقولي لها ذلك، بعبارة أكثر لطفاً ومودة. لقد برهنت لك عن محبة شديدة، بإسراعها بالحضور إلى هنا، على الفور، وعلاوة على ذلك، فإني آمل أن تكون الآن مقتنعة بعمق وثبات نوايانا.

فقالت «صوفيا»:

- إني، بالفعل، غير نادمة على قيامي بهذه الزيارة.

وقال «سيدوف»:

- يسرنا كثيراً أن تأتي دائماً لزيارتنا، فأنت وحدك تستطيعين تخفيف حدّة الخلاف، بل ربما تمكنت أيضاً من إجراء المصالحة بين الجانبين. وفكّري بأنّ عزيزتنا الصغيرة «ماري» لن تكون سعيدة طالما ظلّت أسرتها مصرة على نبذها.

فغمغمت «ماري»:

- بلى، يا «فلاديمير»

فقال لها «سيدوف»

- اسكتي، يا صغيرتي، فكبرياؤك يمكن أن يجعلك تبدين حمقاء. ومس لها بطرف شفتيه أناملها الخاملة، وكأن لا حياة فيها. فوجهت إلى «صوفيا» نظرة تنمّ عن زهو بائس، وكأنها تقول: «أترين، إنه يقبل يدي، كما يقبل يد إحدى السيدات!»

فشعرت «صوفيا» أنها عاجزة عن زحزحة هذا الجبل من الحب والعناد والبراءة والعبودية. فماري المتكبرة تريد أن تصبح عبدة. لذلك ينبغي تركها لتنعم بمتعة الخضوع، الغريبة. وفي الممر، تعالت ضحكة إحدى الفتيات. وسُمع وقع أقدام حافية تسرع الخطى. فقطّب «سيدوف» حاجبيه.

وقالت «صوفيا»:

- إلى اللقاء، يا «ماري» سأتكلم مع والدك، وإني لآمل أن يساعده غيظه على التغلب على حزنه.

فقال «سيدوف»

- بلى، هو ذلك، اعملي على تهدئة الجو وتلطيفه، ولا تنسي أننا نعتمد عليك، ونأمل حضورك يوم عقد القران. وستكتب لك ماري، لإعطائك علماً بموعده.

ورافق «صوفيا» إلى درج المدخل، وهو لا يزال يضم ماري إليه. وحملق الحوذي والخادم المرافق بأعينهما وهما يريان سيدتهما بين ذراعي أحد الرجال. ولفرط دهشتهما، نسيا أن يؤديا لها التحية.

★★★

لقد أخطأت «صوفيا» في تقدير وحساب الوقت فعندما وصلت إلى «كشتوفكا» كان قد فات موعد تناول الغداء، و «ميشيل بوريسوفيتش» وقد استشاط غضباً، رفض الجلوس إلى المائدة، و «نيقولا» الذي ساورته الشكوك، كان قد خلع باب غرفة أخته. فاصطحبت «صوفيا» الاثنين إلى المكتب لكي تشرح لهما سبب اختفاء الفتاة. وأثناء حديثها، ظل وجه «ميشيل بوريسوفيتش» جامداً، لا يبدو عليه أيّ تأثر. ولكن عندما لفظت كنته كلمة «زواج»، بدا وكأنه استيقظ فجأة من سباته، وكأنّ بخار الدم قد نفخ له وجهه. واحمرت عيناه، وظهرت على خديه عروق وبقع بنفسجية اللون، وصاح:

- أبداً! أبداً! وعلى الإطلاق، لن أوافق على ذلك!

فقالت له «صوفيا»:

- أعتقد أنها عازمة على الاستغناء عن موافقتك!

- آه! هكذا إذن؟ حسن! فإذا تزوجته على الرغم من ذلك فلن تحصل مني على «كوبيك» واحد! فأنا لست ممن يُخضعون بالقوة والتهديد! وسيدفع ذلك الوغد «سيدوف» الثمن غالياً ومن حسابه، كي يعرف ذلك! عندما يجد نفسه مع امرأة لا يحبها وليس لديه ما يطبخه لكي يأكل ويطعمها!

فقالت «صوفيا»:

- إنـي أتفهـم غيظـك مـن هـذا الـزواج، أيهـا الوالـد، ولكـن ربمـا أنّ ماري تحب هذا الرجل..

- إنها لا تحبه! لقد ذهبت مسرعة نحوه، كالكلبة التي تسرع في الصيد لملاحقة الطريدة!

- ذلك لأنها لم تعد تستطيع اللقاء معه بصورة طبيعية، بعد رفضك طلبه الزواج بها!

- كان عليّ إذن، حسب رأيك، أن أنخدع بحيلة هذا الطامع بالبائنة وبنقودي، وأوافق على طلبه؟

- كان عليك أن تستشير ابنتك وتأخذ رأيها، قبل أن تقرر أي شيء!

فقال «ميشيل بوريسوفيتش» بتمهل مرعب:

- في روسيا، وحتى إشعار آخر، ليس الأبناء، بل الآباء هم الذين يتمتعون بميّزة الحكمة والسلطة!

فقال «نيقولا»:

- هـذا صحيح، يـا أبـي. ولكـن إذا كانـت «مـاري» قـد أخطـأت وارتكبت حماقة، فهي ليست مجرمة، امنحها فرصة لكي تندم، وتكفّر عن ذنبها، وتعود إلينا!

فأبدى «ميشيل بوريسوفيتش» حركة بيده، وكأنه يكنّس الهواء أمامه، وقال، بأعلى صوته:

- كلا، كلا! لقد عصتني وتمرّدت علي، وألبستني ثوب العار! وإن تزوجت أو لم تتزوج، فإنها لن تطأ عتبة هذا البيت! وإذا التقيت بها فإني سأبصق في وجهها! أما ذلك الوغد الذي أغواها فعليه ألا يغامر ويطأ أرضي!

وهذا المساء سأصدر أمري إلى رجالي بأن يطلقوا عليه النار، إذا شاهدوه يفعل ذلك!...

ولم يتلق «ميشيل بوريسوفيتش» أي جواب أو تعليق على كلامه، وخيم على جو المكتب صمت ثقيل، فنظر إلى ابنه وإلى كنته، فتبيّن له أنّ الاثنين، كليهما، يستنكران ثورته وغضبه، عند ذلك لاح بريق الريبة والحذر في حدقتيه، وقال، بعد أن خفف من حدة لهجته:

- ماذا بكما، حتى تتفرسان بي بهذه الطريقة؟ أيمكن أن تكونا، بالمصادفة، مويديْن لها، ضدي؟ إني أفترض أنّ عليكما أن تقطعا كل علاقاتكما مع هذه الفتاة الغريبة الأطوار!

فقالت «صوفيا» بهدوء:

- كلا، يا أبي، إنها إذا تزوجت «سيدوف» فإني سأذهب لحضور حفل زفافها.

وقال «نيقولا»:

- وأنا، سأذهب أيضاً!

فانتصب «ميشيل بوريسوفيتس» واقفاً، خلف مكتبه، ودفع رأسه إلى الأمام، كما تفعل السلحفاة:

- إنّ حضوركما ذلك الحفل سيكون بمثابة إهانة بالنسبة لي في نظر الجميع، لأنّ هذا يعني أنكما تعطونها الحق وتؤيدانها!

فسأله «نيقولا»:

- وهل الصلاة في الكنيسة من أجل إنسان، تعني تأييده واعطاءه الحق؟

فأجابه «ميشيل بوريسوفيتش» بحدة:

- إنها لا تستحق أن يصلّى من أجلها!

- إنك لا تتكلم كمسيحي مؤمن! فعلى الرغم من كل غضبك من أختي وحقدك عليها، ينبغي أن تتمنى لها أن تكون سعيدة في حياتها!

- إني لن أتمنى لها أن تكون سعيدة في حياتها، وحسب، بل إني آمل أنها ستدفع غالياً ثمن تجاسرها على مخالفتي وعلى تصرفها الشائن ضد رغبتي وإرادتي.

فسألته «صوفيا» بصوتها العذب، وبلهجة هادئة:

- ألم تفكر بالطريقة نفسها بشأن «نيقولا» عندما تزوجني دون موافقتك؟

فخفف «ميشيل بوريسوفيتش» على الفور من حماسته وخيمت سحابة من الماضي على عينيه.

واستأنفت «صوفيا» الكلام:

- اعترف بأنك كنت مخطئاً، لأننا، على الرغم من مخاوفك، فنحن نشكل أسرة سعيدة. والزمن كفيل بتسوية كل شيء بالنسبة لماري، كما بالنسبة لنا...

كان «ميشيل بوريسوفيتش» يقف، ساكناً وهو يقدّر مدى عزلته. والمرأة التي كانت تدحض حججه وأفكاره، كانت هي التي يكنّ لها تماماً مزيداً من المحبة ومزيداً من الاحترام، وشعر بالخوف من أنه لن يستطيع بعد ذلك الاعتماد على أحد. وقد تخلّى عنه جميع أفراد أسرته. فعاودته نوبة الغضب وضرب المنضدة براحة كفه، وقال:

- ما كان ينبغي لك أن تذكّريني بذلك يا «صوفيا». فهذا صحيح! وأنا ليس لي سوى ولدين، والاثنان تمردا عليّ! وكل منهما كوّن حياته كما يحلو له! وبالنسبة للاثنين، لم أكن سوى شيخ أحمق، يسهل خداعه والسخرية منه وجعله يغير رأيه!...

وشعر، وهو مندفع بالكلام، أنه تجاوز الهدف: ويمكن أن تعتقد «صوفيا» أنه يقرنها مع «سيدوف» الفظيع ويعتبرها مثله. فتمتم وهو لا يدري كيف يصحح خطأه:

- أنت تفهمين ما أعني، يا «صوفيا» فأنت نفسك لست مقصودة فيما قلت، ولكن في نهاية الأمر، عليك أن تعترفي أنّ الابنة بعد الابن.. فهذا كثيرا... بل أكثر مما ينبغي!...

- نعم، يا أبي.

- وأنا ما زلت موجوداً!..

- بالتأكيد.

وصمت، وقد ضاق صدره، وكان انفعاله شديداً جداً، لدرجة أنه، لكي يخفّفه ويعمل على تهدئته، اتجه نحو الأيقونة و ضمّ يديه. كان قد خيم الظلام، وأخذت رياح الخريف تعصف حول المنزل وتلقي بعناقيد المطر على زجاج النوافذ.

وفجأة، تذكر «نيقولا» أنّ ذلك اليوم كان السبت وأنّ «داريا فيليبوفنا» تنتظره منذ الساعة الثالثة بعد الظهر، في المنزل الصيني. وكان قد نسي هذا الموعد بسبب الاضطراب الذي أصابه من جراء هرب أخته. وآنذاك كان قد فات الأوان للذهاب إلى هناك! فلا بد أنها قد عادت إلى البيت، حزينة، وناقمة عليه. فقال في سره، دون أن يكون مقتنعاً تماماً بذلك: «يا للأسف!» ففي الأساس، كان هذا الظرف الطارئ يسوي له المشكلة ويناسبه. وهو الذي ظل وفياً رغما عنه، أخذ يتذوق متعة انتصار أخلاقي حققه بثمن زهيد. وعاهد نفسه، بأنه لن يرى «داريا فيليبوفنا» ثانية، قبل بضعة أسابيع وربما قبل بضعة شهور.. ولكي يثبّت قراره، أخذ ينظر إلى «صوفيا» بشوق وحماسة من يشعر أنه طاهر الذيل، ولم يرتكب الخطيئة. ولكنها لم تكن تنظر إلا إلى عمها، الذي كان راكعاً أمام الصورة المقدسة، يتمتم بالصلوات ويتنهد ويتأوّه،

ويرسم إشارة الصليب على صدره. وأخيراً، عاد إلى خلف مكتبه، جلس متثاقلاً، وبدا، عبر الغبش، وجهه متعباً. وافترضت «صوفيا» أنّ الصلاة قد أحدثت تأثيرها، وأنه سيغفر لماري ولكنه لن يبوح بذلك الآن. وتناول قطعة ورق، تفحّصها عن قرب، وفجأة، قال:

- لقد أصبحت أفكاري، الآن، واضحة تماماً: لم يعد لي بنت. ولا أريد حتى معرفة ماذا ستصبح تلك التي تدعي هذه الصفة، ولا ما يحدث لها. ولكني، بالطبع، لا أمنعكما من الاتصال بها والتردّد عليها. ويمكنكما الذهاب إلى حفل زواجها، وحتى الذهاب للسير في جنازتها! أما أنا، فإني لن أزعج نفسي بالذهاب إلى أيّ من هذين الحفلين! كانت هذه الكلمات تدوّي في الغرفة وكأنها الإعلان عن عقوبة الحكم بالإعدام. وبين أجفان «ميشيل بوريسوفيتش» لمعت نظرة تنم عن قسوة وضراوة تتسمان بالبرود.

فأدركت «صوفيا» أنه مصرّ على البقاء في هذا الوضع الذي ينم عن الكبرياء، وقالت له:

- إني أرثي لك، يا أبي.

وأشارت إلى «نيقولا» أن يتبعها إلى خارج المكتب.

٤

وقبل عيد الميلاد بقليل، مرّ أحد أقارب «كوستيا» بـ «بيسكوف» فسلّم «نيقولا» كراسات ومنشورات فرنسية، كانت قد دخلت إلى روسيا دون أن تثير شكوك السلطات. كان بين تلك المجموعة عدة أعمال بقلم الكونت «كلود هنري دي سان سيمون» الذي لا بد أنّ اسمه الأرستقراطي قد خدع به موظفو الرقابة.

وانطلق «نيقولا» بحماسة شديدة في مطالعة فلسفة هذا الرجل الأريحي، الذي بعد أن جاب العالم، يحاول أن يحسّن بواسطة العلم أوضاع ومصير البشرية، وبخاصة طبقتها الأكثر عدداً والأشد فقراً، ويدعو إلى إعادة تنظيم المجتمع، واتخاذ العمل كأساس لكل تراتب طبقي في المجتمع، وإلى إدانة البطالة واعتبارها جريمة بحق الطبيعة، وتسليم إدارة البلاد إلى نخبة من العلماء والفنانين والصناعيين، وإصلاح أوضاع الأسرة والملكية. كان «نيقولا» يحاول أن يكيّفها مع الواقع الروسي! وقد دفعته حماسته لهذه الأمور حتى إلى محاولة وضع دستور للبلاد، ولكنّ المبادئ لم تكن تتناسق وتتلاحم بشكل جيد. فقد كانت «صوفيا» على حق، فيما كانت تقول: «كان من الصعب جداً أن نُخضع لقانون واحد أناساً مختلفين جداً عن بعضهم كالفلاحين العبيد «الموجيك» والبرجوازيين والعسكريين وملاكي الأراضي والعقارات والأرستقراطيين. وأجرى حديثاً مطولاً معها حول هذا الموضوع».

فاعترفت له بأنّ العقلية الروسية جعلتها تيأس وتهرب من المعركة. فقد تبين لها أنّ عقلية الشعب الروسي التي تعاني من تناقضات لا يحصى عددها، لا بد أن تعقّد و تصعّب مهمة الحكومة، أي حكومة، إن كانت استبدادية أو جمهورية.

وقالت له:

- أساساً، لديّ انطباع بأن المناظر التي ترونها حولكم تؤثر على كيانكم وأسلوب عيشكم: هذه السهول المستوية والموحدة الشكل والمنظر، المغطاة بالثلوج لفترة تقارب نصف السنة، هذه السماء الداكنة، هذه المنعزلات الواسعة تجعل نفوسكم تغوص في أحلام تتسم بالخمول واللامبالاة.

ولتحاشي هذا الأذى والتخلص منه، تضطرون إلى اللجوء إلى ما ينشط احساساتكم لاستخدامها من أجل ذلك: كتقلبات الأحوال في الألعاب وفي القمار، حركات الرقص العنيفة، إيقاع الأغاني، المرتجّ والمهتزّ، صخب وضجيج الاجتماعات العائلية، حرارة وحماسة المناقشات الودّية متعة وملذّات المائدة، شدة سرعة الزحافات لهيب ونيران الحب، أي أن كل ما يمكنه تبديد رتابة حياة أسرة، يصبح بالنسبة لكم حاجة ملحة لا تقاوم!

وضحك من هذا الوصف الفرنسي للطباع السلافية، ولكنه اعترف بصحة وصفها لبعض الملامح. وكما لو أنّ ما حدث كان تشجيعاً لـ «صوفيا» وتأييداً لرأيها في شدة حماسة الروس واندفاعاتهم، فقد تلقّت، بعد ذلك بقليل، رسالة حماسية من «ماري» تخبرها فيها أنّ موعد عقد قرانها، قد حدد له يوم الثامن من كانون الثاني «يناير» ١٨٢٤، وأنها تأمل أن يحضر أخوها وزوجته حفل الزواج، وأنها كتبت إلى والدها، طالبة، للمرة الأخيرة، عفوه ومغفرته.

وعندما سألت «صوفيا» «ميشيل بوريسوفيتش» عن ذلك، اعترف بأنه مزّق الرسالة التي أرسلتها له ابنته، دون أن يكلف نفسه عناء قراءتها. وعلى الرغم من ما صرح له به «نيقولا» و «صوفيا» كان متأكداً من أنهما لن يذهبا إلى حفل الزواج. وعندما علم أنهما مصرّان على قرارهما، انزعج. وعندما عبّر السيد «لوسور» عن رغبته بمرافقتهما، منعه عن ذلك بصورة حاسمة: «لا يهمني أن تكون ابنتي قد بلغت سن الرشد! فليس في المنطقة من يجهل أنّ هذا الزواج يتم دون موافقتي، وسأحاول الحصول على أسماء جميع الأشخاص الذين سيتواجدون في الكنسية، وبهذه الطريقة، سأعرف من هم أعدائي!» فشعر السيد «لوسور» بالخوف وندم على إبدائه تلك الرغبة، ولكي يعيد اعتباره لدى «ميشيل بوريسوفيتس»، ضاعف من انتقاداته ضد «الفتاة البائسة التي هربت من منزل أسرتها». وهنا أيضاً تحوّلت حماسته ضده. لأنّ والدها قال له عند ذلك: «من الذي منحك الأذن بالتدخل في هذه القضية؟ وكونك تأكل على مائدتنا لا يعني أبداً أنك من عائلتنا!»

ومع تقدم موعد الحدث المعروف، كان يزداد الصمت الذي يخيم على المنزل، وطأة وثقلاً. وكأنّ الجميع قد اتفقوا فيما بينهم، على ألاّ يتحدث أحد منهم عن «ماري». فكانت تعتبر وكأنها قد ماتت وكانت تبدو على وجه «ميشيل بوريسوفيتش» تارة أمارات الحزن والحداد، وتارة أمارات الغيظ المكتوم. وفي اليوم الذي سبق موعد عقد القران، طلب منه «نيقولا» الآذن بأخذ أيقونة الأسرة من أجل مباركة «ماري» حسب التقاليد المتبعة، قبل ذهابها إلى الكنيسة.

فرد عليه والده:

- هذه الأيقونة لن تتزحزح من مكانها في تلك الزاوية! وأختك أصبحت غريبة بالنسبة لي، وليس لها الحق بأن تحظى بحماية الصورة

المقدّسة التي تسود منزلنا وتباركه. ولا بدّ أنه يوجد أيقونة ما عند ذلك الذي أغواها. وأيقونته تلك، تكون مناسبة لها، وينبغي أن تكتفي بها!

وفي اليوم التالي، منذ الفجر، أخذ «نيقولا» و «صوفيا» يستعدان للسفر. و «ميشيل بوريسّوفيتش» الذي استيقظ باكراً مثلهما، بذل جهداً لكي لا يتبعهما في تحركهما ذهاباً وإياباً في المنزل. كان موزعاً بين الغضب من رؤيتهما يذهبان على الرغم من إرادته إلى حفل الزواج وبين فضول يتسم بالكراهية، لما سيشاهدان ويكتشفان هناك. وكان يمكنه أن يدفع ثمناً غالياً، لكي يعرف، عند عودتهما أنّ ابنته كانت حزينة، وإنّ «سيدوف» لم يستطع تنظيم حفلة استقبال، لعدم وجود ما يكفي لذلك من النقود معه، وأنّ الملابس والزينات كانت قبيحة، وأنّ جوقة المرتلين أساءت الترتيل والإنشاد...

والخدم، الذين كانوا كلهم على علم بالفضيحة، أخذوا يتحاشون نظرات سيدهم، ويتحولون إلى أشباح عند مروره بهم. وفي إحدى زوايا غرفة الخدمة، كانت «فسيليسّا» تبكي لأنّ الطفلة التي أشرفت هي على خطواتها الأولى، سيعقد قرانها في مكان بعيد دون موافقة والدها. وسلمت لـ «صوفيا» غطاء للمائدة، طرزته خفية. وأعطاها «نيكيتا» و «أنتيب» بعض الهدايا الصغيرة لماري: ملاعق وأقداح صنعت من الخشب الملوّن وأطواق من الشرائط. فخبأت «صوفيا» هذه الهدايا في حقيبة السفر، خوفا من أن يراها عمها، فيستولي عليها. كان قد قرّر ألاّ يبدو في اللحظة التي يغادر فيها المنزل ابنه وكنته، ولكن التجربة بدت له فوق طاقته، فلحق بهما إلى الرواق، وكانت هيئته التي تنم عن اللامبالاة تعني أنه يمر من هناك بمحض المصادفة.

وغمم، قائلاً:

- هنالك شيء مؤكد تماماً: الطقس سيئ وكريه، فلو أوصى عليه الشيطان، لما كان أسوأ من ذلك!

وأخذ يفرك يديه بمرح بارد ومصطنع، ويحدّق بالثلج الذي يتساقط برشقات كثيفة وراء أعمدة درج المدخل. وتدثر «نيقولا» و «صوفيا» بمعطفين من الفرو، وانتعلا جزمتين مبطّنتين باللباد، واتجها نحو الباب.

وعند العتبة سأل «نيقولا» والده:

- ألا أستطيع حقاً أن أقول شيئاً من قبلك لماري؟

فحجب الظل عيني «ميشيل بوريسوفيتش» كما لو أن واقية الوجه في إحدى الخوذات قد انخفضت على جبينه. ودون أن يجيب، استدار وعاد إلى مكتبه. وعندما انطلقت الزحافة، لمحت «صوفيا» خيال عمها الذي بدا عبر زجاج النافذة، الذي تغطيه طبقة خفيفة من الجليد.

وقد استهواها ما في ذلك الطبع من إفراط وتطرف، وقد اكتشفت وهي تلاحظه وتدرسه أعماقاً مخيفة وجذابة..

وبعد رحلة شاقة ومتعبة في الثلج، وجد «نيقولا» و «صوفيا» في أوترادنوي» منزلاً، الحرارة فيه مرتفعة، ومزدحماً بالخادمات. وكان «فلاديمير كريوفيتش»، محافظةً منه على المظاهر واحتراماً للتقاليد واللياقة، يقيم مؤقتاً في بيت صغير من بيوت الخدم، تاركاً لخطيبته الحرية باستخدام المنزل الرئيسي.

وبينما بقي «نيقولا» في الصالون، ذهبت «صوفيا» إلى الغرفة، التي كانت شقيقة زوجها ترتدي فيها ملابسها.

كانت «ماري» بالكاد تبدو حية، وعلى قيد الحياة، بفستانها الأبيض، ورأسها الذي يتوجه الإكليل. وبالتناقض مع بريق القماش، اللؤلؤي، بدا وجهها أيضاً أكثر شحوباً من العادة. كانت قرويتان تجلسان القرفصاء أمامها وتتجزان خياطة حاشية على طرف الفستان. وعندما لمحت «صوفيا»، أطلقت صرخة تنم عن الفرح الشديد:

- لقد أتيت! فيا للسعادة! شكراً! شكراً!

و «نيقولا»؟

- إنه ينتظر في الغرفة المجاورة.

- وأبي؟!... عندما أفكر أنه حتى لم يجب على رسالتي!.. أخيراً، علينا ألا نتحدث عن ذلك بعد الآن!.. اليوم لا أريد أن أرى حولي سوى وجوه ودودة ومحبّبه!..

وأعطتها «صوفيا» هدايا «فسّليستا»، وهدايا الخدم الآخرين. فتأثرت عند ذلك، وقالت:

- آه! يا إلهي، هنالك إذن من العاطفة لدى الناس البسطاء أكثر مما لدى الناس الذين أفسدتهم الثروة!

وقرع الباب، ودخل فتى في العاشرة من عمره، وهو من أقرباء «سيدوف»، يحمل إلى «ماري» حذاء خفيفاً مصنوعاً من الأطلس الأبيض. كان الفتى يدعى «ايغور» ووجهه مغطى بالنمش حتى جبهته. وفي يده اليمنى، كان يمسك قطعة نقود ذهبية من ذات العشرة روبلات، ودسّها، حسب التقاليد المتبعة، في إحدى فردتي الحذاء، كتميمة تجلب السعادة، ثم ساعد «ماري» على انتعال هذا الحذاء.

وقالت لها «صوفيا»:

- إنّ هندامك وزينتك مدهشان!

والحقيقة هي أنها لم تكن تؤمن بذلك. إذ إنّ الفستان قد تمت خياطته في المنزل، بدافع التوفير. وطياته غير متناسقة، وآثار الأصابع تحيط بعروات الأزرار.

وتأوّهت «ماري» قائلة، وهي تصرف الفتى الصغير والخادمتين، بإشارة من يدها:

- آه! لو تعلمين كم هو الأمر سيان لديّ!

- ألست سعيدة؟

- أوه! بلى.. بشكل مّا.. سعيدة لأني تخلصت من القهر والمضايقات، ولأني حققت استقلاليتي..

- وهذا كل شيء؟

- نعم.

- إذن لماذا، بهذه الشروط والأحوال، تتزوجين؟

- أتزوج بدافع من روح المعارضة والمناقضة، بدافع من الخوف، من القرف.. بدافع من.. الكراهية!.. لم أعد أعرف!..

وطفرت الدموع من عينيها. وعضّت شفتيها حتى أدمتهما، ثم، بعد أن استعادت أنفاسها، همست:

- اقسمي لي أنك لن تقولي ما سأقوله لك لأبي، ولا لـ «نيقولا» ولا لأحدّ..

فقالت لها «صوفيا»:

- أقسم لك على ذلك.

- ومع ذلك، فإنّ ما قلته ليس صحيحاً! فأنا أحب «فلاديمير كربوفيتش»! يا له من رجل مدهش! أتعلمين أنه حافظ على وعده، واحترم كلمته؟ فأنا لا أزال طاهرة اليوم، كما كنت يوم دخلت إلى هذا المنزل! ولكي ينصاع للتقاليد، فإنه لم يرني منذ البارحة. وسيذهب من هناك بمفرده إلى الكنيسة. وأنا أريد أن يكون «نيقولا» هو الذي يصطحبني إلى المذبح المقدس!

كانت متحمسة ومتهيجة بشكل غريب، لدرجة أنّ «صوفيا» فكرت، في بداية الأمر، بطريقة تنم عن عدم الروية والتفكير:

«من الملحّ أن تتزوج بسرعة.» ولكنها، في الحال لامت نفسها على هذا الحكم المتسرع. فقد كان عذاب «ماري» يتجاوز العذاب المعتاد الذي يشاهد لدى الفتيات، في هذا الظرف فهي كانت تبدو مصممة على البحث عن تحقيق بؤسها وتعاستها. فهل هذا أيضاً من ملامح الطباع الروسية؟

وأتى خادم وأعلن أنّ «فلاديمير كربوفيتش» قد ذهب في تلك اللحظة إلى الكنيسة.

فقالت «ماري»:

- وأنا على استعداد للذهاب، هيا، أحضر الزحّافة. ونادت أخاها، فدخل «نيقولا» مرتبكاً، منفعلاً، وعلى شفتيه ابتسامة تقليدية. فتعانقا.

وتمتم:

- يا صغيرتي «ماري» أكاد لا أعرفك في هذا الفستان الجميل! أرجو أن تكوني سعيدة!..

وكان يشعر، وهو يتكلم أن انزعاجه يتزايد. كان قد رأى «سيدوف» قبل ذلك بعشر دقائق، في الصالون. وقد أصبح يمقته أكثر، منذ أن قررت «ماري» أن تتزوجه، فماذا سيحلّ بها بين يدي هذا المخلوق البارد الفاسق والوقح؟

وناولت أخاها أيقونة صغيرة:

- والآن، باركني!

ثم ألقت وسادة على الأرض وركعت عليها. ورفع «نيقولا» الأيقونة، بكلتا يديه. وكان يشعر أنه غير جدير بهذه المهمة وهو الذي يحمل ضميره كثيراً من الأحلام المذنبة. ومع ذلك فقد لفظ بصوت حازم:

- إني أباركك، يا ماري!

فأحنت رأسها، رسمت إشارة الصليب، ونهضت، فانتهى الأمر. وقالت:

- هيا بنا، ولنذهب بسرعة! فلا بدّ من أن يكون جميع المدعويين قد أصبحوا هناك في الكنيسة، ولا ينبغي أن ندعهم ينتظرون.

كان الخدم قد اصطفوا في الرواق وعلى درج المدخل، وارتفعت تمتمة ودية تحية للعروس، عند مرورها. كانت متدثرة بالفرو، وتحمل ذيل

فستانها خادمتان. والريح تتلاعب بوشاحها الأبيض. وفجأة أخذ الثلج يتم
حولها. وساعدها «نيقولا» على الصعود إلى زحافة، نصفها مغطى فق
وجلس بجانبها. وجلس «ايغور» الصغير أمامهما، والأيقونة على ركبت
وكان عليه أن يقوم بالرحلة، وهو على هذا الوضع، حتى الوصول
الكنيسة. وصعدت «صوفيا» إلى الزحافة التالية، مع سيّدتين مس
ترتديان الملابس الأنيقة، ولم تكن تعرفهما، ولكنها اعتقدت أنهما
أقارب «سيدوف». وامتلأت ثلاث زحافات أخرى بالأقارب والأصدقاء، الـ
كانت تبدو البهجة على وجوههم.

وانطلقت القافلة عبر العاصفة.

كان وجه «صوفيا» متجمداً من شدة البرد، وعيناها تلتهبان من ن
الضوء الزائف المنبعث من الثلج المنهمر، وأخذت تتساءل كيف يست
الحوذي تبين طريقة عبر هذه الهاوية التي لا قرار لها. كانت المزالج لا تن
في الأرض البيضاء، وبالكاد كانت تلامسها، وكأنها تستمدّ السرعة
ملامستها. كان صندوق الزحافة يقفز، ويهبط ويعود فيقفز، يميل يم
ويساراً، ويكاد ينقلب عند أحد المنحدرات. وكانت الزحافة تصد
مقدمتها بكتل متجمدة كبيرة، محدثة صوتاً قوياً، وكان حصان المقد
يعدو خبباً، رافعاً رأسه المحاط بقوس مطلي بألوان زاهية، ويشد بكل ق
والحصانان الجانبيان المربوطان بعارضة العريش، كانا يعدوان وقد ،
عنقيهما إلى الخارج.

ولحقت زحافة «صوفيا» الزحافة التي تقل شقيقة زوجها. واخـ
الرنين الفضي المنبعث من أجراس الزحافتين. وعبر تراقص ندفات الـ
الجنوني، لمحت «صوفيا» خيال الفتاة التي كانت متكوّرة تحت غـ
الزحافة وبريق الأيقونة الذهبي، ومظهر «نيقولا» الجانبي. وكان كل ذ
يبدو كصورة شبحية سريعة كوميض الفكرة التي من ثانية إلى أخر

تتبدّد في الهواء. وظلت الزحافتان تسيران بسرعة، خلال فترة طويلة، جنباً إلى جنب، عبر الغياب التام لأي منظر من المناظر الطبيعية. ثم برزت عبر هذا الوشاح الأبيض اللانهائي قبة الكنيسة الخضراء. فأفسحت زحافة «ماري» المجال للزحافات الأخرى كي تسبقها: كان يجب أن يكون جميع المدعوين في أماكنهم عند دخول العروس إلى جناح الكنيسة.

ورائحة البخور، بعد الهواء الطلق الشديد البرودة، بدت لـ «صوفيا»، مثيرة للغثيان. وتقدمت إلى الصف الأول بين الحاضرين، في الجهة اليسرى بجانب النساء. كانت الشموع المشتعلة تتلألأ فوق رؤوس المؤمنين. وكان «فلاديمير كريوفيتش سيدوف» ينتظر «ماري» في الممشى الرئيسي، مقابل الحاجز المزين بالأيقونات، الذي كانت أبوابه الثلاثة مغلقة. وبدا جامد الوجه، حلق ذقنه حديثاً، وأخذ يوجه نظراته نحو القبة، المزدانة بصور القديسين بمظهرهم الجميل ولحاهم الطويلة. وألقت «صوفيا» نظرة على الوجوه التي تحيط بها، ولم تكتشف بينها سوى نحو عشرة من معارفها. والكنيسة لم تكن ممتلئة إلا إلى النصف. ويبدو أنّ الطقس السيئ والخوف من إغاظة «ميشيل بوريسوفيتش» قد حدا بكثير من الناس إلى البقاء في بيوتهم. وحتى «نقيب أشراف» «أوبوتشكا»، «أليكسي نيكيتيش بيسشوروف» لم ير جدوى من أن يتكبّد مشقّة الحضور، على الرغم من صلة القرابة التي تربطه بـ «سيدوف» وأولئك الذين كانت لديهم الجرأة على الحضور، أخذوا يرتجفون من البرد. وهم يتأففون ويسعلون ويضربون الأرض بنعال أحذيتهم وكان الفتيان الذين يشكلون حرس الشرف، متجمعين حول «سيدوف» ينفخون في أيديهم لتدفئتها بأنفاسهم.

وحدثت حركة وضجة من جهة الباب، وأنشدت جماعة من الفلاحين والفلاحات النشيد المرح: «إنها تطير، وها هي تقترب الحمامة البيضاء!» ودخلت «ماري» إلى الكنيسة مستندة على ذراع «نيقولا» وبدت

كشبح في ثوب عروس، يتقدم بخطى وئيدة نحو المذبح المقدس، وأمامها كان يمشي الصغير «ايغور» حاملاً الأيقونة. وعندما وصل «نيقولا» بالقرب من «حرس الشرف» أدّى التحية وانسحب، فتقدم «فلاديمير كربوفيتش سيدوف» ووقف إلى يمين عروسه. وفتح الباب الكبير في الحاجز الذي يحمل الأيقونات، على مصراعيه، وعبر سحابة من دخان البخور، بدا الكاهن بلحيته السوداء ولباسه الكهنوتي المذهب. فتذكرت «صوفيا» بتأثر شديد، دقائق وتفاصيل حفل عقد قرانها. وبعد إقامة الصلاة المتعلقة بالزواج، أشار الكاهن إلى العروسين بأن يتقدما على الطريق المفروش بالحرير الوردي اللون، إلى أمام منبر الترتيل. وهنالك اعتقاد شعبي بأنّ أول من يطأ بقدمه البساط الحريري، من بين العروسين يعتبر هو الذي سيكون الآمر والناهي في شؤون البيت والأسرة. وسرى الهمس بين الحاضرين، وأخذت السيدات يتراهنّ فيما بينهن على من يفوز بهذه الحظوة: أيكون العريس أم العروس؟ وفي اللحظة الأخيرة، بدت على شفتي «سيدوفّ» ابتسامة تنم عن السخرية، وتخلّى عن هذا الامتياز لـ «ماري».

وناولهما الكاهن شمعتين مشتعلتين وسلم لاثنين من الفتيان المرافقين التاجين المرصعين بالمجوهرات اللذين عليهما أن يرفعاهما وهما يسيران، فوق رأسي العروسين، زوجي المستقبل. ثم دوّت الأسئلة القدسية المتعلقة بعقد القران، وسأل الكاهن، «سيدوف»:

- ألم تعد فتاة أخرى بعقد قرانك عليها؟

فأجابه «سيدوف»:

- كلا!

وألقى السؤال نفسه على «ماري»:

- الم تعدي شاباً آخر بعقد قرانك عليه؟

فأجابته «ماري»:

- كلا!

وثلاث مرات، جعلهما الكاهن يتبادلان خاتمي الزواج. ثم قرأ مقاطع من كلام القديس بولس الرسول، تتعلق بالزفاف وعقد القران، وقصة أعراس «قانا» ومقاطع أخرى من الإنجيل. وكان زئير الرياح، بين حين وآخر، يطغى على صوته. وكانت بعض الأبواب ودرفات النوافذ تصفق بشدة، دون أن يعرف أحد أين كان يحدث ذلك. وكان لهب الشموع يميل مع اتجاه مجرى تيار الهواء. ومع تقدم الاحتفال نحو نهايته، كان الحاضرون يبدون أكثر شروداً وأقل عدداً. بينما أخذ الأصدقاء الحقيقيون يرصون صفوفهم. وعندما التفت «نيقولا» نحو الباب لمراقبة حركة التسلل والهروب، لاحظ شكلاً نسائياً قرب أحد الأعمدة، فقفز قلبه في صدره: هذه القامة الطويلة المشوقة، هذه الملابس الأنيقة وهذا المظهر المهيب، وهذه الياقة المصنوعة من الفرو، تعود كلها، دون جدال، إلى «داريا فيليبوفنا» التي لم يكن قد رآها ثانية منذ أن تبادلا القبلات في المنزل الصيني. وذلك لم يمنعه من أن يفكر بها بحرارة في كثير من الأحيان. وأن تكون قد أتت لهذا الاحتفال، في حين أنّ ماري كانت قد رفضت أن تتزوج ابنها، فهذا دليل على كرم أخلاقها وطيبة قلبها بشكل لا مثيل له. وبإعجابه بهذه المرأة لأريحيتها وشهامتها، كان يبرر رغبته باستعادة علاقته معها. وبأي كيفية سيتم لقاؤهما بعد القداس؟

وماذا ستقول «ماري» و «صوفيا»؟. كانتا رِجلا «نيقولا» مجمدّتين في جزمته المبطنة باللباد، وكانت أذناه وأنفه كأنها قطعت بسكين، ولكنّ أفكاره كانت ملتهبة. وأطلقت الجوقة نشيداً يبعث على البهجة:

«ايزايي، النبي، يتهلّل بهجةً في السموات!»

ودارت «ماري» و «سيدوف» ثلاث مرات، حول المنبر، يقودهما الكاهن الذي يمسك بيديهما متّحدتين تحت الوشاح الكهنوتي الذي يغطي صدره. يمشي خلفهما الصبيان اللذان يحملان عالياً التاجين الثقيلين. فقال «نيقولا» في سره، بارتياح، إن الاحتفال قد أوشك على الانتهاء. فقد توقفت الأناشيد فجأة، وتجاوبت أصداء نوبات السعال تحت القبة. وتقدم العروسان لتقبيل الصور على الحاجز الذي يحمل الأيقونات. وكان الكاهن هو أول من هنأهما. ولم يكن خطيباً مفوهاً، فاكتفى بالقول:

- إيه حسن! ها قد عقد قرانكما! وأصبحتما زوجين! تذكرا كلام القديس «ماتيو»: «الرجل سيتحد مع امرأته، ولن يعودا بعد ذلك، وهما اثنان، سوى جسد واحد.»

كان التذكير دقيقاً وصريحاً جداً، لدرجة أنّ وجه «ماري» قد احمرّ، بينما كان «سيدوف» يحاول أن يكتم ابتسامته. وتقدّم منهما، بعد ذلك «نيقولا» و «صوفيا»، والناس يتدافعون خلفهم من أجل الخروج. وبعد أن قبّل «نيقولا» أخته وصهره، وقف على رؤوس أصابع رجليه، لكي يرى بقية المدعوين، وهم ينصرفون. فانتابته خيبة أمل شديدة. فقد أخطأ، بسبب البعد، تبين له أنّ من ظنها «داريا فيليبوفنا»، كانت امرأة أكبر منها سناً، وعلاوة على ذلك، فإنه لم يكن يعرفها. ومع هذا فإنّ هذا الخطأ لم يكن غير ذي فائدة. فقد بدا لـ «نيقولا» أنّ «داريا فيليبوفنا» قد حضرت حفل الزواج، وإذا لم تكن قد حضرته بجسمها، فقد حضرته، على الأقل، بالروح والفكر. وقرّر وهو في ذروة انفعاله، بأن يقوم بزيارتها في «سلافينكا» خلال الأيام المقبلة.

وبعد المباركات والتهاني المعتادة أراد المدعوون أن يصطفوا تحت سقيفة المدخل لمشاهدة العريسين، عند خروجهما، ولكنّ الرياح التي

كانت تعصف بعنف شيطاني، دفعتهم إلى الداخل. كانت عاصفة ثلجية عنيفة وحقيقية تحيط بالكنيسة.

ولم يكن أحد يستطيع تبين أو تمييز أي شيء على بعد ثلاث خطوات.؟ فقال الكاهن:

- لا تستطيعون الذهاب! انتظروا إلى أن تهدأ العاصفة! وطلب من الشماس أن يحضر بضعة كراسي للسيدات، فجلسن على شكل نصف دائرة، في حماية الأبواب المغلقة. وظلّ الرجال واقفين، ينتظرون، وقد تجهمت وجوههم. وأحياناً، كان أحدهم يخرج ساعته من جيب صدارته. وفي وسط هؤلاء الناس الذين كانوا يضيعون وقتهم بسببها، كانت «ماري» تبدو مريضة من شدة ارتباكها وخجلها. وقد أحنت رأسها وأخذت تنظر إلى الأرض. ومن بين أسفل درفات الباب وحجر العتبة، كانت الريح تدخل بعنف وهي تئز وتصفر وتدفع في كل جانب مسحوقاً متلألئاً.

وقال «سيدوفّ»:

- افعلوا ما تشاؤون، يا أصدقائي! أما أنا، فقد مللت ويكفيني انتظاراً، فأنا ذاهب!..

وأسرع الشماس لكي ينبه الحوذيين، الذين كانوا قد احتموا تحت سقيفة، في الكنيسة، فأتوا وهم يرتجفون، نصحوا سيدهم ألا يقدم على القيام برحلة، على هذه الدرجة من الخطورة.

فقال «سيدوفّ»:

- سأقود زحافتي، بنفسي، وأنا أعرف الطريق جيداً. فإذا كان هنالك أحد يريد أن يتبعني، معتمداً على رنين الأجراس، فليسرع!

فقال «نيقولا»:

- أنا، سأتبعك.

ولم يستشر «صوفيا» قبل أن يتكلم. ولكنها كانت موافقة على قراره، وممتنة منه. وفضّل المدعوون الآخرون البقاء في أماكنهم، إلى أن تهدأ العاصفة.

وبمشقة كبيرة، استطاع الحوذيون إحضار زحافتين إلى أمام المدخل. فأجلس «سيدوف» «ماري» في الصندوق وصعد فجلس على مقعد السائق. كان يرتدي معطفاً مبطناً بالفرو، فوق ملابسه التي ارتداها بمناسبة الاحتفال. وانطلقت الأحصنة. وصعد «نيقولا» إلى الزحّافة الثانية. وعندما جلست «صوفيا» على المقعد، قال لها، بأعلى صوته: «تغطي جيداً!» ولوّح بالسوط، فاندفعت الزحافة عبر العاصفة.

كانت زحّافة «سيدوفّ» قد اختفت في فجوة مظلمة، وأسدلت خلفها ستائر ندفات الثلج، البيضاء. وكان «نيقولا» وكأنه قد استغرق في حلم تجري فيه المطاردة، أخذ يتساءل إلى أين يأخذ «ماري» هذا الرجل. ألا يُخشى عليها أن تذوب مع مختطفها في الفضاء المتجمد والعديم اللون؟ ولم يبق منهما في العالم سوى رنين الأجراس الذي لم يتوقف. وكان الأمر الأساسي هو مواصلة سماع هذه الإشارة، التي كانت تبتعد، تقترب، و تتحول من اليسار إلى اليمين. وكان «نيقولا» يتجّه على العمياء حسب سماعه لتلك الإشارة. وكانت الأحصنة تصارع العاصفة بصدورها. وعلى الرغم من عنف جهودها، كانت تتقدم ببطء شديد على درب تارة متجمد وتارة سائل، له لون الحليب، ويطفح بقطع الثلج المتجمد، التي أصبحت واخزة كالإبر. وكان البرد الشديد قد قضى أيضاً على مفهومي الوقت والمسافة. ولم تستيقظ «صوفيا» من سباتها إلا عندما لمحت بيت «أوترادنوي»، كانت بعض الخيالات والأشباح تتحرك في الباحة. وفي تلك اللحظة بالضبط، كان «سيدوف» و «ماري» ينزلان من الزحافة، أمام درج المدخل. وصفّ «نيقولا» زحافته خلف زحافة صهره. كان البخار يتصاعد من

أجسام الأحصنة التي كانت تهزّ رؤوسها صعوداً وهبوطاً وتنثر حولها رذاذ الزبد.

وفي الرواق، قدّمت إحدى الخادمات الخبز الأسود والملح على صينية من الفضة، ولمس «سيدوفّ» بإصبعه ذقن الفتاة وغمزها بعينه، دون أن يهتم بما يمكن أن تظن بسبب ذلك، عروسه «ماري» وقال:

- يا له من مشوار جميل! ويا لؤلئك الجبناء الذين ما زالوا ينتظرون هناك، في الكنيسة!..

كان يبدو مزهواً بالعمل الباهر الذي قام به. وكانت «ماري» تتأمله بإعجاب وخضوع، وتبادر إلى ذهن «نيقولا» أنها سينتهي بها الأمر إلى أن تمسح له حذاءه!». وانتقلوا إلى الصالون، لم يكن هنالك نبتة خضراء تزين هذا المكان الذي يغص بقطع الأثاث الخشبية، وبالصور البحرية وبرائحة التبغ. وكان هنالك مائدة طعام وشراب في إحدى الزوايا. وشرب «نيقولا» و «صوفيا» نخب العروسين. وبعد أن تبادلوا بعض الملاحظات المتعلقة بالاحتفال، لم يعرفوا بعد ذلك ماذا يمكنهم أن يقولوا. وبالتزامهم الصمت إنما بدوا أكثر صدقاً وإخلاصاً. ولحسن الحظ، فإنه لم يمض وقت طويل حتى هدأت العاصفة. فوصل بقية المدعويين، وتم الاستعداد لتناول الطعام بحماسة مصطنعة.

والمائدة التي هُيّئت لاستقبال ثلاثين شخصاً، لم تضم سوى ما يقرب من خمسة عشر. وكانت تلك الأماكن الشاغرة تعطي للوجبة طابع الحفلة الفاشلة. والكاهن الذي دعي لحضور وليمة العرس، كان يبدو في وضع رسمي ومهيب، وبدت عيناه كعيني امرأة حزينة، فوق لحية سوداء، ولم يلفظ ثلاث كلمات دون أن يتلو بعض فقرات من الكتاب المقدس. ولاحظ «نيقولا» أنّ الطعام كان وفيراً، ولكنّ الخمور كانت من نوعية سيئة، وكذلك بقية المشروبات. فممّن استدان «سيدوفّ» نقوداً،

لإقامة حفلة الاستقبال، هذه؟ وعند تناول التحلية، قدمت «الشمبانيا»، وكما هي العادة، فقد صاح الجميع: «غوركو! غوركو!» وهذا يعني أنّ الشراب يبدو مرّاً إذا لم يتعانق العروسان علناً، أمام الحاضرين. فمدّت «ماري» خدّها لـ «سيدوفّ». فقبّل بطرف شفتيه ذلك التمثال المصنوع من الشمع. وهو نفسه، كانت تبدو على وجهه أمارات اللامبالاة وعدم الاهتمام. ولم ينتعش ويستعيد حيويته من جديد، إلا عندما ملأت له كأسه خادمة شابة. فالتفت نحوها، ووجّه لها، أمام الجميع، نظرة تنمّ عن التفاهم والتواطؤ. ولم يكن «نيقولا» و «صوفيا» بحاجة للتشاور لكي يسرعا بالرحيل. وحاول «سيدوفّ» برخاوة وفتور أن يستبقيهما. ورافقتهما «ماري» إلى الرواق. وخلفهما، في الصالون، كانت تتجاوب الضحكات، وقرقعة الأواني.

وقال «نيقولا»:

- نحن أول من يذهب ويفارقك، وعليك أن تعذرينا.. فالطريق طويل..

فهمست «ماري»:

- انصرفا بسرعة! وانسيا ما رأيتما هنا!...

فسألتها «صوفيا»:

- ماذا تعنين بذلك؟

فأجابتها «ماري»:

- أنت تفهمينني جيداً! انسيا كل شيء! انسياني! فأنا لم أعد موجودة!...

كانت تثير الشفقة، بثوب العروس البائس الذي ترتديه، وإكليلها الموضوع بشكل منحرف على شعرها الأشقر، وبذراعيها المتدليين، وعينيها المغرورقتين بالدموع.

فقالت لها «صوفيا»:

- سأعود لأراك، بعد بضعة أيام، وآمل أن تخبريني، أنت نفسك، أنك سعيدة تماماً!

كان بعض الخدم، يحملون المشاعل، ويقفون على درج المدخل. وفي السماء التي انقشعت عنها الغيوم، وصفت بعض الشيء، أخذت تتلألأ بعض النجوم القليلة. وسائق زحّافة «نيقولا»، الذي عاد من الكنيسة في آخر عربة، كان قد صعد وجلس على مقعده، ممسكا بالأعنّة، ولحيته تكاد تغطي صدره، منتظراً الأوامر.

وانطلقت الزحافة على الثلج الذي اصطبغ بلون ضوء القمر. وتبادر إلى ذهن «صوفيا»: «يا له من أمر فظيع أن يتزوج رجل بامرأة دون أن يكون يبادلها الحب!»

وبحثت عن يد «نيقولا» تحت الغطاء المصنوع من جلد الدب. وتماسكت أصابعهما بقوة، فقالت في سرها، إنهما يشكلان، هي وهو، كتلة سرمدية، لا يمكن تجزئتها ولا أن تنفصم عراها. ودون أن تتبادل كلمة مع زوجها، طوال الرحلة كانت تتذوق متعة التّنزه كسيدة في رأس هذا الرجل.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة مساءً، عندما مرّت الزحافة في «ممشى الصنوبر». وبدا منزل «كشتوفكا» الذي يغطيه الثلج، أكثر انخفاضاً. وكان الضوء يسطع في الرواق، وضوء آخر ينير المكتب. «فمشيل بوريسوفيتش» لم ياوِ، بعد، إلى سريره، إذن!

فقال «نيقولا»:

- إنه سيستجوبنا، فهل سنعترف له أنّ حفل الزواج كان محزناً ومثيراً للشفقة؟

فأجابته «صوفيا»:

- إنّ ذلك سيسره كثيراً، ويؤلمه كثيراً، في آنٍ معاً، والرأفة تقضي بأن نكذب قليلاً.

كـان «نيكيتـا»، «فسّليسـّا» و «أنتيـب» ينتظـرون مترصـدين، في الرواق. فأسرعوا نحو المسافرين، وسألوهما بصوت خافت، عمّا إذا كانت العروس جميلة.

فأجابتهم «صوفيا»:

- إنها بدت كالملاك!

فرسمت «فسّليسّا» على صدرها إشارة الصليب وكعادتها، أجهشت بالبكاء وانهمرت الدموع من عينيها. وبينما كانت تعلّق المعطفين، اتجه «نيقولا» نحو المكتب، وتبعته «صوفيا». وقرع الباب، ولما لم يتلقّ جواباً، دفع الدرفة. كانت الغرفة خالية ومظلمة، ورائحة الزيت الحار تفوح من مصباح، كان «ميشيل بوريسوفيتش» قد أطفأه لتوّه.

فتمتم «نيقولا»:

- لقد انتظر عودتنا كي يعرف كيف جرت الأمور، وعندما وصلنا، صعد إلى غرفته! فماذا يعني ذلك؟

فأجابته «صوفيا»:

- ذلك يعني أنّ كبرياءه كانت أقوى من فضوله!

ومع ابتسامة مكتومة، أخذت تفكّر أنها بدأت تفهم عمها، بشكل جيد.

في اللحظة التي رأى فيها «نيقولا» «داريا فيليبوفنا» من جديد، تبيّن له ضعف الأعذار التي كان قد هيأها. وهل بإمكانه أن يقنعها بأنه، إذا كان لم يبد لها أي إشارة تدل على أنه، ما زال على قيد الحياة، منذ زمن طويل، فالسبب الوحيد لذلك، هو اضطرابه وقلقة، عندما هربت أخته من المنزل وتزوجت بدون موافقة والدها؟ وعندما وصل إلى «سلافينكا» حيث لم يكن أحد يتوقع قدومه للقيام بتلك الزيارة أدرك أنه كان مخطئاً في تخوّفه. ولو أنّ الشمس بنفسها دخلت إلى ذلك البيت لما أنارت الوجوه، كما أنارها دخوله، هو. فشعرت كل واحدة من الفتيات الثلاث كأنّ خطيباً أتى يطلب يدها، على حين غرّة. و «داريا فيليبوفنا» التي اغرورقت عيناها بالدموع، وأخذت شفتها ترتعش، كانت تبحث عن كلمات تخاطب بها «نيقولا». وكان قد انتابها خوف شديد من أن تفقده، وكانت في غاية السعادة للقائه ثانية، لدرجة أنها لم تعد تفكر حتى بلومه على غيابه عنها. ولو أنه لم يقدّم لها أي شرح أو معذرة لكانت استقبلته بالترحيب نفسه وبالامتنان. ولكي تطمئنه وتجعله يشعر بالارتياح، همست له بأنها مطلعة على كل شيء. وأنها تتفهّم غيظه كأخ، وأنّ هذا لم يزدها إلا تقديراً له. وجملة عن الحزن الذي يمكن أن يسببه للأهل بعض الأولاد غير الانضباطيين ذكّرت الفتيات الثلاث أنهنّ لسن في منأى عن مثل هذه الحادثة المزعجة. ولأنهم لم يجدوا شيئاً أفضل، يقومون به، فقد قاموا بتناول الشاي.

وفيما بعد، اقترحت «أوفرازي» على «نيقولا» اللعب بالأحجيات، ولكنّ أمها اعترضت على ذلك. لأنها رأت أن هذه التسلية صبيانية أكثر مما ينبغي بالنسبة لضيفها، أما «ناتالي» فقد تذرّعت بالجرأة وجلبت له آخر مارسمت من اللوحات المائية. فأثنى عليها بدافع اللياقة والتهذيب، وهو يتصفح «ألبوماً» يغصّ بالأزهار الشاحبة والمناظر الباهتة. و «داريا فيليبوفنا» التي انزعجت من احتكار بناتها له، طلبت من الصغيرتين التزام الهدوء، بينما كان على الكبرى أن تعزف على البيانو. وجلست هي، على حافة أريكة صغيرة، واستغرقت في التفكير. فجلس «نيقولا» بقربها. وأخذت «أوفرازي» و «ناتالي» تتهامسان. فحدجتهما أمهما بنظرة قاسية بدت لهما كالضربة الشديدة بمسطرة على رأسيهما.

ودوّت ألحان معزوفةٍ قديمة وهي تنتشر في الصالون كمياه الشلال. كانت «هيلين» تعزف بحماسة، ولكن دون مهارة تذكر. وظهرها الذي كان يتحرك كثيراً، بدا منحنيا فوق البيانو، وضفائرها تهتز تبعاً للإيقاع. و «نيقولا» الذي كان منحنياً نحو مضيفته، سألها، بصوت خافت:

- هل أنجزت العمل في فرش المنزل الصيني؟

فأجابته، عبر تنهيده مكتومة:

- نعم.

- ألا أستطيع رؤيته؟

- بلى.

- متى؟

- غداً، الساعة الثالثة.

كان دقيقاً في ذهابه إلى اللقاء الذي حددت له موعده، ولكنه عندما اجتاز عتبة المنزل، اعتقد أنه يشاهد حريقاً. فعلى الرغم من أنّ

الكوّة كانت مفتوحة، فقد ظل الدخان الكثيف منتشراً في الغرفة. وفي وسط تلك السحابة، كانت «داريا فيليبوفنا» تسعل، تئنّ وتتأوّه:

- المدفأة لا تعمل! ومنذ ساعة وأنا أحاول، دون جدوى إشعالها! ولم أشأ أن أصطحب معي خادماً...

فقال لها:

- الأمر بسيط! دعيني أعمل.

واشتغل كالوقّاد، طوال عشرين دقيقة، مرتباً قطع الحطب، وعاملاً على إشعالها وإذكاء اشتعالها، وأخيراً هدرت النار مشتعلة في المدفأة المصنوعة من الخزف الصيني الأخضر. ولكن كان لا يزال يوجد كثير من الدخان في الغرفة، والبرد قارس جداً. وهذا لا يساهم في إيجاد الجو الحميمي المرغوب. وعلاوة على ذلك، فإنّ «نيقولا» كان منزعجاً من تلك التماثيل البشعة والغليظة، ومن الأقنعة المكشّرة، والكراسي الملتوية بشكل مشوّه، التي أضيف إلى أثاث وديكور المنزل. لدرجة أنه كان يشعر أنه ضائع في مغارة تعود لجماعة من الأشقياء ذوي السمعة السيّئة.

فسألها:

- من أين أتت بهذه الأشياء؟

- إنّ أبي هو الذي اشتراها، قديماً، من بعض الباعة الصينيين، في «نيني- نوفغورود».

بهذا أجابته «داريا فيليبوفنا» ثم سألته:

- أليست جميلة؟

- أوه! بلى! إنها جميلة، وغريبة الشكل!..

كان يقف وهو يكاد يتجمدّ من شدة البرد أمام امرأة لا تزال ترتدي معطفها، وقبعتها على رأسها، وحوله تماثيل صغيرة وبشعة تسخر من فشله وخيبة أمله. و «داريا فيليبوفنا» وقد شعرت بأنها لم توفّق بترتيب الأمور

كما تشتهي، بذلت جهداً لكي تتماسك ولا تجهش بالبكاء، وهمست في أذن «نيقولا»:

- هيا! اجلس، على الأقل!

كانت كل أريكة تشبه إحدى آلات وأدوات التعذيب. كان الديوان وحده يبدو من السهل الجلوس عليه، على الرغم من وجود تنّين مذهّب على كل زاوية من زواياه، لحمايته. وفي الوقت الذي ضايقته فيه الظروف، شعر «نيقولا» بيقظة رجولته. فلم يكن مقبولاً منه القول بأنّ البرد وعدم توفر أسباب الراحة قد منعاه من إثبات وتبرير سمعته أمام امرأة تحبه. ولذلك فقد تناسى الصين، وأمسك «داريا فيليبوفنا» من رسغيها وقبّلها بعنف، على شفتيها. فاعتبرت أنّ ذلك ناجم عن حماسة واندفاع في الحب والهيام، وهو لم يكن بالحقيقة سوى ممارسة للرغبة وبادرة من بوادر الإرادة. ولم تحاول، هذه المرة، أن تتمنع أو تقاومه، خوفاً منها من أن يتوقف في أول الطريق، وهكذا فإنها تغلبت على حيائها، وتركته ينزع عنها ملابسها، وهي تتأوّه وتتنهّد. وأرسل، هو، لهاث الفوز عندما كشف عن منكبيها الممتلئين والمستديرين، وعن صدرها العامر. فاقشعرّ بدنها، وأخذت أسنانها تصطك. فقال في سره، وهو يطيح بها ويقلبها على الديوان: «إذا لم أتوصل إلى بغيتي فإني سأفقد سمعتي وألبس ثوب العار!»

وقد توصل إلى ذلك تماماً، لدرجة أنهما كانا لا يزالان متعانقين، وكل منهما يحتضن الآخر، حتى الساعة السادسة، مساءً. وكانت هي التي طلبت منه الرحيل. وأثناء عودته إلى «كشتنوفكا» كان سعيداً لشعوره بضآلة ذنبه: ذلك لأنّ بيئة المنزل الصيني وجوّه ومفروشاته، كلها كانت تضفي طابعاً استثنائياً، ويكاد يكون خيالياً وغير واقعي، على المتعة التي حصل عليها فيه، كما أنّ تصرفه تشمله المعذرة التي يتمتع بها البحارة عن الخيانات لعهد الزوجية التي يقترفونها في المدن الساحلية التي

يمرون بها. والتقى بـ «صوفيا» متمتعاً بالحالة النفسية التي يتمتع بها القادم من رحلة طويلة.

وبسرعة انتظمت العادة: فكل يوم أربعاء، بدلاً من أن يذهب «نيقولا» إلى النادي، كان يذهب إلى لقاء «داريا فيليبوفنا»، التي كانت تستقبله وهي ترتدي مئزراً فضفاضاً وغريباً. وكان البيت قد أصبح آنذاك حسن التدفئة، والوحوش الصينية خبأت مخالبها وهدّأت من غلوائها. و «السماور» يتربع على منضدة أنيقة. وبين عناقين، كانت العاشقة، وهي في غاية السعادة، تقدم لمعشوقها الشاي الثقيل. وكانت هذه اللقاءات التي تتم بتلك السهولة تسرّ «نيقولا» وترضيه، لأنها تتيح له التخلص من الرتابة التي تسود مجرى حياته، وبفضلها كان يستعيد ثقته بنفسه، ويكوّن لنفسه أسراراً صغيرة وبسيطة، غير مؤذية، وأصبح لديه هدف يحققه كل أسبوع. وباختصار، فإنه لم يعد يشعر بالفراغ وبالسأم كالسابق، بعد أن أصبح لديه أمر يشغل باله ويستطيع أن يلوم نفسه عليه. وكان همّه الرئيسي هو أن تظل «صوفيا» واثقة به ومطمئنة، لا تشك بشيء. ولكنها بالحقيقة كانت تثق به بشكل مطلق. وكان يمكن أن تكون مخطئة لو اتهمته بشيء من الفتور والتواني، بينما يظل مستمراً في ملاطفتها بمزيد من المحبة والمودّة. حتى أنه، ربما كان، بدافع من ظاهرة التجديد، أكثر محبة وعشقاً لزوجته، منذ أن أصبح له خليلة!؟

وفي المساء، عندما كان يجتاز عتبة الصالون، كان يتبدّد تبكيت ضميره، عندما يرى والده و «صوفيا»، جالسين أمام رقعة الشطرنج، مستغرقين في مشكلات تكتيكية مهمة، وهما لا يكادان يلاحظان وجود السيد «لوسور» الذي يشعر بالغيرة، وهو قابع في مكانه، ولا وجود «نيقولا»، الذي وصل، حاملاً سره الخفي.

وكانت لعبة الشطرنج هذه، قد أصبحت، بالنسبة لـ «ميشيل بوريسوفيتش» تتصف بضرورة حيوية، كضرورة الغذاء. وإذا مرّ يومان، دون أن تجد «صوفيا» متسعاً من الوقت، لكي تتبارى معه، كان يبدأ بالشكوى والتألم. ولم يكن اللعب بحد ذاته هو الذي يشغفه ويثير اهتمامه، بل مجابهة كنته، هي التي كانت تجذبه وتخلب لبّه. ودون أن يمسّها بإصبعه، كان يتصارع معها مجابهةً، وجسماً لجسم، يلتحم معها، يحصرها ويضمها عن قرب، فتنسحب وتهرب بيسر وسهولة، فيمسك بها من رسغيها، فتقع متدحرجة على الحشائش، فيثبتها على الأرض، فتنهض منتفضة وهي تضحك، وتهرب، وقد تشعث شعرها. وهذه المعركة المتعة، كانت تترجم بمجرد نقل بيدق من تربيعة شطرنج إلى أخرى. وعندما يحالفه الحظ، وينتزع أهم بيادق «صوفيا» الواحد بعد الآخر، كان يشعر كما لو أنه قد عراها ونزع عنها ملابسها. وكانت هي، وقد استسلمت لإرادة المنتصر، تنتظر، بين خدمها الموزعين حولها أن يوجه لها طلقة الرحمة. وعندما يلفظ عبارة: «الشاه مات»، كان يشعر بسرور شديد، لدرجة أنه بعد ذلك يتجاسر بالكاد، على أن يرفع نظره نحو كنته. وبالمقابل كانت في أيام أخرى، هي التي تحظى بالفوز، وكان يدافع عن نفسه بحيلة وخبث، ثم حيال ذلك الاستبسال الأنثوي للتغلب عليه وتحطيمه، كان يجد من المسلي والممتع أن يسمح لنفسه بأن يسرق أحد البيادق، كالخيّال أو الرخّ. وفي الحال كانت «صوفيا» تستغل ذلك الفوز الأولي، ضد عمها، ولم يعد هنالك مكان، لا تهاجمه به بشكل مفاجئ. آه! لكم كان يحبّ ألاّ تشعر بالشفقة عليه أبداً! وكان يفكر أنها عندما توشك على الفوز، كانت تبدر منها النظرة المتلألئة نفسها، والابتسامة نفسها التي تتسم بالقسوة الحانية، عند بلوغ اللذة الجسدية ذروتها. وعندما يسحق من قبلها، يستسلم وهو يشعر بالمتعة ويتمتم: «إني أنحني أمامك، فأنت الأقوى!» وكان

مـن المـستحيل ألا تـشعر هـي أيـضاً، وإن كـان علـى درجـة أخـفّ بالرضـا والمسرّة، التي يشعر هو بهما. وعلى أي حـال، فإنها نـادراً مـا كـانت تـرفض اللعـب بالـشطرنج. وكـانت المبـاراة تنتهـي بحـديث روتـيني مبتـذل وعـادي، تسترخي وترتاح خلاله أعصاب الخصمين.

وكانت «صوفيا» تستغلّ حالة عمها النفسية الحسنة، فتحاول أحياناً تذكيره بوجوب الاهتمام بمصير «ماري» عند ذلك يصبح كأنه قد أصيب فجأة بالصمم. فمنذ زواج ابنته، لم يبدر منه أي سؤال بشأنها، وعلاوة على ذلـك، فإنـه حتـى لـو ألقـى بعـض الأسئلة عنهـا، لوجـدت «صـوفيا» صعوبة كبيرة في الردّ على أسئلته، لأنها لم تكن تتلقى أي خبر منها.

وانقضت ثلاثة أشهر على هـذه الحال. وأخيراً، قررت «صـوفيا» وقد أقلقها صمت أخت زوجهـا، وانقطـاع أخبارهـا، أن تقـوم بزيارتهـا. فـذهبت بمفردها، خوفاً من أن يمنع وجود «نيقولا» «ماري» من البوح بكل مـا لـديها من شكاوى وأسرار.

ومع بدايات الخضرة التي يضفيها الربيع على الطبيعة، بـدا منـزل «أوترادنـوي» لـ «صـوفيا» أكثـر ظرفـاً وجاذبيـة. ولكنهـا حالمـا دخلـت إلى الـصالون، حـصل لـديها انطبـاع باسـتمرار الإهمـال، والحـزن والـضائقة. وكانت قد انقضت خمس عشرة دقيقة وهـي تنتظر، جالـسة علـى أحـد الكراسي، عندما فتحت «ماري» الباب، وصاحت:

- آه! يا إلهي! هذه أنت!؟ لم يخبرني أحد بوصولك!

- ومع ذلك، فإني قلت..

- هؤلاء الفتيات فقدن عقولهن! لكم أنـا سعيدة بلقياك! وأرجـو أن تعـذريني: فـشعري مـشعث تمامـاً.. كـان شـعرها الأشـقر المـشعث يتـدلى منسدلاً على ظهرهـا. وكـانت ترتـدي فستاناً أزرق اللـون، بـدا قـديماً وقـد فقد رونقه.

وقالت:

- برهة قصيرة، أسرّح خلالها شعري، وأعود إليك في الحال.

وعند عودتها بدت أحسن مما كانت عليه، وبصورة مقبولة، ولكن كان لا يزال في عينيها ما يوحي بأنها تعاني من قلق شديد. واقتادت «صوفيا» إلى غرفة الطعام، وهزّت جرساً صغيراً لكي تطلب إحضار «السماور». ولكن لم يردّ أحد على ندائها.

وسألتها «صوفيا»:

- كيف حال «فلاديمير كربوفيتش»؟

فأجابتها «ماري» بسرعة:

- إنه مسافر، من أجل أعماله.. وهو في «فرسوفيا».. وهزّت الجرس، مرة ثانية. وكان تشنج عصبي لا إرادي يعبث بزاويتي فمها. فهي بالطبع، كانت تأسف لكون زوجة أخيها قد لاحظت أنّ الخدم لا يطيعونها كما يجب أن يفعلوا. وأخذت «صوفيا» تتصور هذه الحياة البائسة: فماري التي تزوجت بناء على نزوة عابرة، وباندفاع طائش، أنكرها أبوها، وأهملها زوجها بعد بضعة أسابيع، وقضي عليها أن تعيش في مسكن غريب، تهزأ فيه منها الخادمات اللواتي حصلن، قبلها، على الحظوة والمتعة لدى سيدهن، فماذا يمكنها أن تأمل من المستقبل؟ ولأنها رنّت الجرس للمرة الثالثة، دون أن يردّ عليها أحد، فقد نهضت وخرجت من غرفة الطعام بحركة تنم عن الاستياء والغضب. وعادت بعد عشر دقائق، وهي تدفع أمامها صبياً يرتدي أسمالاً بالية، ويحمل «سماوراً» صغيراً، مصنوعاً من النحاس الأحمر. وتحمل، هي، صينية عليها أواني فيها مربى، وشرائح من الخبز الأسمر في صحن صغير. وقالت:

- سنخدم أنفسنا بأنفسنا: سيكون ذلك أظرف وأعذب!

كانت الفناجين مشرومة والمعالق غير متجانسة. وتبادر إلى ذهن «صوفيا»: «عليّ، من كل بد، أن أقول للوالد أن يساعدها، فلو رأى ابنته في هذه الحالة لشعر بالخجل، ولنسي حقده عليها...»

وسألتها «ماري»:

- هل الجميع بخير في «كستوفكا»؟

فحدثتها «صوفيا» عن أخبار العائلة.

وقالت «ماري» بلهجة تنم عن فرح مصطنع:

- وذلك الظريف «نيكيتا» كيف حاله، وماذا حصل له؟

- إنه يحقق تقدماً سريعاً في دراسة المحاسبة.

- وهو لا يزال يسجل انطباعاته في أحد الدفاتر؟

- دون شك.

- على أي حال، فهذا الفتى أجمل من أن يظلّ عبداً، آمل أنك ستحاولين اعتاقه، ومنحه الحرية، في نهاية الأمر! كان هذا الكلام يبدو لـ «صوفيا» مبطّنا، لدرجة أنها تساءلت عما تقصد به أخت زوجها. ومرت بعض الإوزات، وهي تقاقئ، تحت النافذة. وتمتمت «صوفيا»

- هذا الأمر ليس بيدي!

- بيدك أم بيد أبي، فالأمر سيّان، فهو لا يرفض لك أيّ طلب.

فأجابتها «صوفيا» بهدوء:

- بلى، وأنت تعرفين ذلك جيداً.

- ماذا؟

- الصفح عنك، فأنا لا أكفّ عن مطالبته به.

فغضبت «ماري»، وغمغمت:

- إني حمقاء! فأنت الشخص الوحيد في العالم الذي يستطيع مساعدتي وإنقاذي، وأنا أسمعك كلاماً خبيثاً عند استقبالي لك، فلا

ينبغي أن تعيري اهتماماً لذلك، إنّ ذلك بسبب الوحدة، فأنا مريضة بسبب هذه الوحدة، التي أعيش فيها..

- ومتى سيعود؟

- لا أدري.

- هو لا يذكر ذلك في رسائله؟

- كلا!

وفكّرت «صوفيا» وقد راودها بعض الشك: «وهل هو يكتب لها، أصلاً؟»، وتابعت بهدوءٍ وحذر:

- أفترض أنه ترك لكِ ما يكفي للنفقة على البيت وتسيير شؤونه..

فقالت «ماري» بحماسة:

- بالتأكيد! فأنا لا تنقصني النقود! وماذا يمكن أن تتصوري؟...

وبدت على شفتيها ابتسامة تنمّ عن الكبرياء، جعلت وجهها يتقلّص. كانت تكذب بتصميم، يدعو إلى الحزن والأسف.

وأضافت «ماري»:

- وعلاوة على ذلك، فقد أعطاني «فلاديمير كريوفيتش» وكالة رسمية، فإذا احتجت نقوداً، يمكنني استخدامها. وقد فكرت ببيع «أنيوتا». هل رأيتيها؟ إنها فتاة جميلة. وسيعطونني ثمنها أكثر من ألفي «روبل»!

فقالت لها «صوفيا»:

- نعم، ولكن إذا فعلت ذلك، فإنّ هذا لن يُسر له زوجك.

فقالت بلهجة تنم عن الاستخفاف وعدم التروي، لدرجة أنها بدت كالمجنونة:

- لا تصدقي ذلك! فهو يوافق على جميع نزواتي!

وفارقتها «صوفيا» وقد حصل لديها انطباع بأنها لم تأتها بأي عزاء وتشجيع.

ولزمن طويل، بعد ذلك، استمرّت «ماري» ملتزمة الصمت. وبدت «أوترادنوي» وكأنها تبتعد عن «كشتوفكا»، أكثر من ألف كيلومتر. وأتى الصيف، بشمسه وغباره، وعواصفه.. وبعد عيد «تجلّي السيد المسيح» كلف «ميشيل بوريسوفيتش» «نيكيتا» بصورة رسمية، بالقيام بأعمال محاسبة ملكيته. وأصبح يقيم مع سجلاته وعدادته في غرفة صغيرة ملاصقة لمكتب «نيقولا». وشعرت «صوفيا» بالزهو لهذه الميزة التي حصل عليها هذا الفتى الذي تولت رعايته. وبعد أن حظي «نيكيتا» برضا ومودة أسياده، أخذ يعتني كثيراً بهندامه وبزينته: سروال واسع من الجوخ الأزرق، حذاء نظيف ولماع، قميص قطني أبيض، أزراره على الجانب الأيسر، نطاق أحمر اللون. وكانت هذه الملابس الريفية تبرز قامته المشوقة ومنكبيه العريضين والقويين. وكانت الفتيات من الخادمات العبدات يمررن ويعاودن المرور. تحت نافذة غرفته، يتكلمن بصوت عال، ويتضاحكن لكي يلفتن نظره ويجذبنه كي يخرج إليهن، ولكنه لم يكن يلاحظ حركاتهنّ وحيلهنّ.

وفي معظم الأحيان، عندما تدخل «صوفيا» بشكل مفاجئ إلى مكتب العمل، كانت تجد «نيكيتا» منكباً على كتاب، أعاره إياه «نيقولا» أو أنه استعاره منها. وأخذ يحرك شفتيه ويتابع الأسطر بإصبعه. وعندما يرى سيدته، ينهض واقفاً بسرعة، والبهجة على وجهه. فتتبادل معه بعض الكلمات، وتثني عليه بشأن قيامه بأعمال المحاسبة، وتسأله عن مطالعاته. وقرأ لها، ذات يوم، قصيدة للشاعر «اومونوسوفّ» كان قد عثر عليها:

«أفواه الحكماء تنادي معلنة:

يوجد هناك آلاف العوالم المختلفة،

يوجد هناك ألف شمس ملتهبة،

يوجد هناك شعوب وعصور..»

كان في عينيه بريق ينمّ عن انفعال شديد، لدرجة أنّ «صوفيا» قاطعته بعد البيت الرابع.

فقال لها:

- لقد مللت من المحاسبة، ولكم أودّ أن أتعلم الشعر، الرياضيات، السياسة، وكل ما يهذب النفس وينميّ الذهن! فلامته على مغالاته في الطموح بينما اعترفت بينها وبين نفسها، أنه على صواب فيما قاله.

وتابع كلامه، قائلاً:

- لو أني فقط كنت أجيد اللغة الفرنسية، لاستطعت مطالعة الكتب نفسها التي يطالعها «نيقولا ميكايلوفيتش». ويبدو لي أنّ كل علوم المستقبل موجودة في الكتب الفرنسية، وكل علوم الماضي موجودة في الكتب الروسية.

فطمأنته، مؤكدة وهي تضحك أنّ التمييز بين هاتين الثقافتين ليس محدّداً وحاسماً إلى هذه الدرجة. عند ذلك ذكر لها بعض الكلمات الفرنسية التي كان قد تعلمها بنفسه: «بيت، سماء، طريق، غابة..» فتأثرت عندما لاحظت أنه يلاقي صعوبة في لفظ تلك الكلمات، وأنهت الحديث بسرعة، خوفاً من أن يؤدي بها الأمر إلى متابعة نصحه وإرشاده، لأنها على أي حال لا تستطيع أن تعطيه دروساً، ولا أن تعلمه اللغة الفرنسية!

كانت قد انقطعت عنها أخبار أهلها، منذ وقت طويل، هذا ما جعلها تبدو عصبية المزاج. وفجأة وصلت الرسائل، وكانت محتجزة في دوائر المراقبة، كلها دفعة واحدة. وكان معظمها قد فتح في تلك الدوائر. وعندما قرأتها «صوفيا» بعد تأخرها عدة أسابيع، علمت من أمها أنّ فرنسا تمرّ بأوقات مضطربة وعصيبة، وأنّ أعضاء وأنصار جمعية «الكاربوناري»

«الفحامين»[1] منتشرون في كل مكان، وأنه بعد اكتشاف المؤامرة التي قام بها أربعة من الرقباء في مدينة «لاروشيلّ» اضطرت الشرطة إلى أن تصبح أكثر يقظة، والسلطات أصبحت أكثر حزماً وصلابة. وأنّ السيدة «كايلا» محظية الملك تقيم حفلات فخمة، ولكنّ الملك مريض جداً. وفي أواخر شهر أيلول - «سبتمبر» نشرت الصحف الروسية خبر وفاة الملك «لويس الثامن عشر»، ودخول «شارل العاشر» إلى «باريس». وكانت «صوفيا» تفكر بفرنسا، كبلاد لن تعود إليها أبداً، وهذا اليقين لديها كان يزيد من حنينها إلى وطنها. وكانت رؤية صحيفة فرنسية، تجعل الدموع تنهمر من عينيها. وفي الأيام الأولى من شهر تشرين الأول «أكتوبر» تلقت رسالة تنم عن الفرح من أخت زوجها: لقد عاد «فلاديمير كربوفيتش»! و «ماري» السعيدة جداً بذلك، تلحّ بقوة في رسالتها على «نيقولا» و «صوفيا» كي يقوما بزيارتهما.

فتهرب «نيقولا». أما «صوفيا» فانتظرت أسبوعاً، ثم طلبت تحضير العربة، وذهبت وحدها إلى «أوترادنوي»، وكان «سيدوف» قد غادرها، مرة أخرى!

و «ماري» التي كانت شاحبة الوجه، بادية الحزن، دامعة العينين، اختلت بـ «صوفيا»، في غرفتها، وهي تشكو وتئنّ:

- البارحة، سافر، ثانية!

- ولكن، لماذا سافر ثانية؟!

١- الكاربوناري: جمعية سياسية شكلت في إيطاليا أولاً في القرن التاسع عشر، ١٨٠٦-١٨١٥) للنضال ضد سيطرة «نابليون» ثم ضد تسلط الملوك الإيطاليين، ثم انتشرت في فرنسا بعد سنة ١٨١٨، وقد أعدم الرقباء الأربعة لاتهامهم بالانتماء إلى هذه الجمعية التي لقب أفرادها بالفحامين لأنهم في بداية الأمر كانوا يجتمعون في مستودعات الفحم- المترجم-

- يفعل ذلك، على الدوام، من أجل أعماله!

- وأي أعمال؟!

- لا أدري. فهو لا يحدثني عنها. ورحلته إلى «فرسوفيا» لم تعط أي نتيجة. وخلال الأيام القليلة التي قضاها هنا، بقربي، لاحظت أنه لا يستقر في مكان وعلى حال. والهموم تلازمه وتعذّبه. فأعاد تحضير حقائبه.. ورحل..

كان الصدق بادياً على وجهها، ويداها، تلوي أحداهما الأخرى، على ركبتيها.

وسألتها «صوفيا»:

- أتحبين، حقاً، زوجك؟

فهمست «ماري»:

- نعم!

- وهو، هل يحبك؟

- إنه تعيس جداً. تنقصه النقود، وهذا ما يمنعه من التفكير بي، كما كان ينبغي عليه أن يفعل..

وأرسلت ضحكة بائسة صفراء، وتابعت:

- أساساً، هو يشعر في قرارة نفسه أنه تزوج فتاة فقيرة، فأنا لم أجلب له أي بائنة. وهو لا يستطيع حتى أن يبيعني كما يبيع أي فتاة عبدة من عبيده! وماذا أنا بالنسبة له؟ مصدر للهموم وللمتاعب! ولكن لو سويت أموره وازدهرت أعماله، فسوف يتغير كل شيء. وسأصبح سيدة..

وأبدت الحركة الظريفة التي تظاهرت بها أنها تلوح بها بمروحة أمام عنقها وتغطيه بها:

- سأرتدي الملابس الأنيقة.. وأتعطر بالعطور الغالية.. وسيصبح عند قدميّ، بدلاً من أن يصرخ في وجهي.. لأنه يصرخ كثيراً في وجهي، أتعرفين

ذلك؟!.. كما لو كنت خادمته! وهو يضربني!.. نعم إنه يضربني!.. وقد سبب لي كدمات زرقاء في جسمي!... وسأريك إياها!..

وكانت تكاد تبدو فخورة ومزهرة بذلك!

وتابعت الكلام:

- واهاً! إني أخشى كثيراً من أن يعود مرة أخرى بخفي حنين، خالي الوفاض، لم يحصل على شيء! ففي هذه الحالة، لا أدري ماذا سنفعل. لم يعد لدينا أرض لنبيعها، وسنضطر لبيع آخر ما لدينا من الفلاحين، وأكثرهم مرهونون!

فقالت لها «صوفيا»:

- لا يمكن أن تبقي هكذا، في هذا الوضع الصعب! تعالي معي. وسنرى والدك، وسنتحدث إليه سوية، أنا وأنت. فإذا استطعنا إقناعه، فقد نجوت. وألا فإنك لن تحظي بالسعادة مع رجل كـ «فلاديمير كربوفيتش».

فبدا الرعب في عيني «ماري» وأخذت ترتجف:

- لن أذهب إلى أبي.. لم أعد أريد..

- سيكون هذا ثمناً عليك أن تؤدّيه لقاء إنقاذ بيتك!

- فانهار منكبا «ماري» وتكورت على أريكتها، وهي تتمتم:

- حسن، سأذهب..

عند ذلك فقط، تبين لماري طيشها، وأدركت خطورة اقتراحها. ووصلتا إلى «كشتنوفكا» قبل موعد العشاء بقليل. وعندما رأى الخدم، الذين أسرعوا عند سماعهم رنين أجراس العربة «ماري» تنزل منها، توقفوا، وقد انتابهم الاضطراب والحيرة، وكأنّ امرأة موبوءة، مصابة بالطاعون تتقدم نحوهم. كانت تبتسم لهم، وكانوا، هم، يسيرون القهقرى، مبتعدين، والخوف بادٍ على وجوههم. حتى أنّ «فسّليسّا» نفسها، لم يكن وجهها يبدو على حقيقته، كانت تبارك القادمة الجديدة، من بعيد، وهي تغمغم:

- فليحفظك الله، يا حمامتي الصغيرة! وأرجو ألا يكون عشك القديم يحتفظ لك بكثير من الأشواك!..

وفي الرواق، التقت المرأتان بـ «نيقولا»، الذي خرج مضطرباً من الصالون، وسأل بصوت خافت:

- ماذا حدث؟ ولماذا أتت «ماري» معك؟

فأجابته «صوفيا»:

- لكي تقابل والدها.

- أمجنونة أنت؟ ألا تعلمين أنه لا يريد!..

فقاطعته «صوفيا»، بسؤالها:

- هل رآنا عند وصولنا؟

فأجابها «نيقولا»:

- بالطبع! كان يقف بجانب النافذة، وهو الآن غاضب جداً؟

فتمتمت «ماري»:

- كنت متأكدة من ذلك! ومن الأفضل أن أعود من حيث أتيت!

فأمسكتها «صوفيا» من يدها:

- لا تخشي شيئاً. اتبعيني، وتعال أنت أيضاً، يا «نيقولا»! كانت معتادة على مجابهة خصمها، ولكنّ ذلك لم يكن يمنعها من أن تخشى عنفه. فماذا سيحدث بينهما الآن؟ وقرعت الباب، فتحته، وأفسحت الطريق لشقيقة زوجها، التي رأت والدها واقفاً وقد أسند ظهره إلى النافذة، وانهارت بتثاقل، راكعة على ركبتيها، وهي تتمتم:

- أبي، أرجو أن تصفح عني..

فالتفت نحو «صوفيا» وسألها:

- هل أنت التي أحضرتها؟

فأجابته:

- نعم.

- رغم أوامري؟

فقالت له «صوفيا»:

- ربما أنك قد أصدرت أوامرك إلى خدمك، ولكن أمامي فإنك لم تعبّر إلا عن تمنيات، وذلك بدافع المجاملة! فهي تعرف أنّ هذا النوع من الأجوبة الحاضرة والسريعة يخلب لبّ عمها، وإن كان يتظاهر أحياناً بأنه ينزعج منها.

وقال:

- لا تعتمدي على التلاعب بالكلمات! كفاية! ولتتصرف! فردّت «صوفيا» بقولها:

- لن تتصرف قبل أن تتحدث إليك.

- لم يعد لدى أحد منا شيء يقوله للآخر.

- وهذا هو ما يجعلك تقع في الخطأ، يا أبي، إنّ ابنتك في غاية التعاسة..

- وعلى من يقع الذنب، في ذلك؟

- لسنا هنا الآن لمناقشة هذا الأمر، فما حصل قد حصل، والمهم الآن، هو أن نتحاشى حصول الأسوأ. و «ماري» بحاجة لعطفك، ولإرشاداتك...

- عليك، بالأحرى، أن تقولي إنها بحاجة لنقودي!

عندما سمعت «ماري» هذه الكلمات، رفعت رأسها، وتفجّر في عينيها بريق يعبر عن الكراهية والخجل، وهمت بالهرب، ولكنّ «صوفيا» ربتت بيدها على كتفها، وقالت:

- ولماذا كتمان ذلك؟ فهي بحاجة إلى نقودك، أيضاً! فهل هنالك فتيات لا يحتجن لمساعدة أهلهن في بداية عهدهن بالزواج؟

فردّ «ميشيل بوريسوفيتش»، قائلاً:

- كنت قد سبقتها لتلبية رغباتها، قبل أن تطلب شيئاً مني، لو أنها تزوجت شخصاً اخترته أنا، لها.

- ألم يعد لها الحق بأن تأكل، بحجة أنها أحبت رجلاً، لا تريده، أنت، صهراً لك؟

فأبدى «ميشيل بوريسوفيتش» الكبرياء، واضعاً بأهميه في ثنيات صدارته، دون أن يبدو عليه أيّ تأثّر، كان يتعاظم بطريقة مسرحية، ويشعر بالقرف من ابنته الراكعة عند قدميه، ولم يكن يستطيع أن يتقبل منها أن تكون قد احتكّت بجسم رجل. ويرى أنها لا تستحق أي شفقة. وأنّ ليس هنالك سوى امرأة واحدة في العالم تستحق التقدير، وهذه المرأة هي: «صوفيا»!

وقال «نيقولا»:

- حقاً، يا أبي! يحق لك أن تستنكر تصرف «ماري»، ولكن أعطها، على الأقل، ما يؤمن لها معيشتها!

وأضافت «صوفيا»:

- إنه لمن العدل، أن يستفيد ولداك، بالتساوي من دخل أملاكك. وأنت تعطينا، لي ولابنك مبلغاً يكفي تماماً لتأمين المعيشة الهادئة والمريحة، هنا، أعطِ مثله لماري!.. ومرة أخرى، استغرق «ميشيل بوريسوفيتش» في التفكير. كان يشعر بأنه يخوض مع كنته معركة متمثلة في مباراة بلعبة الشطرنج، ولكنها، هذه المرة، أكثر دقة ونفاذاً من المعتاد. فكيف العمل لتأمين حصوله على امتنان «صوفيا»، مع رفضه التام للتنازل عمّا هو أساسي، بالنسبة له؟ وكيف يمكنه أن يخدعها، بحيث تعتقد أنها هي المنتصرة، بينما يكون هو الفائز والرابح؟ والبائسة المتعبة «ماري»، مع حبها غير الموفق، وحاجتها الملحة للنقود، أصبحت فجأة، بالنسبة له ذريعة لإجراء

حسابات لتدابير خارقة للعادة، وهذا ما جعله ينسى تقريباً أنه سبق له أن لعنها ونبذها. وتبادرت إلى ذهنه فكرة، مبتكرة وحاذقة جداً لدرجة أنه شعر بالخوف منها، في بداية الأمر. فهي تشبه إحدى حيل الشيطان. وكبيدق نقل من مكانه، دون علم الخصم! وخلال الصمت الذي خيّم على المكتب، ساعدت «صوفيا» «ماري» على النهوض. وكان «نيقولا» يقف خلفهما، كأنه فارس يحميهما. وشعر «ميشيل بوريسوفيتش» أنّ الوقت المناسب قد حان ليعرض خطته. وبكل وقار، ومع كل تأثير تقدّمه في السن، قال:

- لن أعطي لماري «كوبيكاً» واحداً، من نقودي. فهذه مسألة مبدأ. ولكنّ منزلنا في «سان بطرسبورغ» ورثناه من زوجتي. وحسب وصيتها، فإنّ لـ «نيقولا» ولماري حصة فيه، مثلي أنا. فليبيعاه، وأنا أسمح لهما بذلك، ثم نتقاسم ثمنه حسب النسب التي حدّدتها الراحلة العزيزة: النصف لهما، والنصف لي. وسر من الدهشة التي أحدثها اقتراحه. وقال، متابعاً كلامه:

- إيه! نعم، أساساً، سيكون من الحكمة أن نبيع هذا المنزل! ويستطيع «نيقولا» الاهتمام بهذه القضية. وسأوقع له على جميع الأوراق التي يمكن أن يحتاجها. ولكن، سيكون عليك يا عزيزي أن تذهب إلى «سان بطرسبورغ» للقيام بهذه المهمة! وكان، وهو يتكلم، يتصور ابنه وقد سافر في تلك الرحلة الطويلة، وبقي وحده مع «صوفيا» في «كشتتوفكا». وكان يعرف جيداً أنّ أوراق ملكية المنزل ليست نظامية، وأنّ إنجاز عملية البيع يستغرق بضعة أسابيع، وربما عدة شهور، ينبغي على «نيقولا» القيام خلالها بكثير من المساعي والمراجعات التي تقتضيها تلك العملية. وانتابه تنمل في رقبته من الخلف، وشعر بحرارة شديدة، لدرجة أنه دسّ إصبعه بين ياقته ورقبته.

وقال «نيقولا»:

- ليس هنالك أي عائق، يا أبي! سأذهب وأعود بأسرع ما يمكن!...

وسأل «ميشيل بوريسوفيتش» «صوفيا»:

- ما رأيك بذلك، يا «صوفيا»؟

فهل ستقع في الفخ؟ كان يشعر برغبة قوية بأن يحصل ذلك!

فابتسمت المرأة الشابة بثقة وسرور، وقالت:

- إنّ هذا، يبدو لي حلاً جيداً للمشكلة.

فارتعش «ميشيل بوريسوفيتش» من شدة سروره، وتلمظ، ماراً بلسانه على شفتيه:

وسأل «نيقولا» أخته:

- وأنت، يا ماري، أيسرك ذلك؟

فهزّت «ماري رأسها، دون أن تجيب. كانت تتمنى أن يكون بإمكانها أن ترفض هذا العرض، ولكنّ وضع زوجها المالي كان سيئاً للغاية: ولذلك، كان عليها أن تفرض الصمت على كبريائها. وماذا، لو أنّ والدها قد أرفق عرضه ببعض الكلمات المشجعة والمواسية، على الأقل، ولو أنه ترك مجالاً لابنته أن تأمل أنه لا يعتبر نفسه قد فقدها نهائياً، وإلى الأبد! وتمتمت، بخجل وعلى استحياء:

- هل أستطيع أن آمل أنك تريد أن تهتم بي، من جديد، يا أبي، وأنّ ما ستعطيني إياه ليس مجرد صدقة تتصدّق بها عليّ؟...

فصاح وقد احمرّ وجهه:

- تسمّين هذا صدقة؟ صدقة تجلب لك ما يقرب من عشرين ألف روبل!؟

فهمست «ماري» وقد انتابها ذعر شديد:

- أنت تفهم جيداً ما عنيت!

- كلا!

- بقدومي إلى هنا، حلمت بشيء آخر! كنت أظن أنك وأنا..

- إيه! كنت مخطئة! أنا لا أغيّر رأيي! وما انقطع، قد انقطع نهائياً! ستحصلين على نقودك! ولكن عليك أن ترحلي وتختفي، وألا تظهري أبداً لناظري! ومدّ ذراعه، مشيراً لها إلى الباب، فأجهشت «ماري» بالبكاء، واندفعت مسرعة بالخروج، وتبعها «نيقولا» و «صوفيا». فجلس «ميشيل بوريسوفيتش» على أريكته، وفرك جبينه براحة يده. وهدأ تنفسه، وتناقصت سرعة تسلسل أفكاره. وبعد عشرين دقيقة، سمع ضجة في الرواق. كان «نيقولا» و «صوفيا» قد أعادا «ماري» بعد أن واسياها وطيبا خاطرها. وقاوم «ميشيل بوريسوفيتش» الرغبة التي راودته بأن يلقي عليهم نظرة من النافذة. كان يتصور كل شيء: الدموع، التنهيدات، العناق والوعود.. وأخيراً، انطلقت العربة، وأخذت عجلاتها ترسل الصرير، وأجراسها ترسل الرنين.

فغمغم «ميشيل بوريسوفيتش» متذمراً:

- اذهبي إلى شياطين الجحيم!

وأخذ يستعدّ، بلا اكتراث لتلقي لوم ابنه وكنته.

☆☆☆

وفي اليوم التالي، أثناء تناول الطعام، تعقّد كل شيء: إذا إنّ «صوفيا» التي لم تكتفي بتوجيه اللوم لعمها على قسوته، أبدت فجأة رغبتها بمرافقة «نيقولا» إلى «سان بطرسبورغ». ولأنّ «ميشيل بوريسوفيتش» لا يستطيع الاعتراض على هذا القرار المنطقي والمشروع، فقد تمتم، بهدوء:

- وهل هذا ضروري جداً؟.. فـ «نيقولا» لن يطول غيابه! وعلاوة على ذلك، فهو سيكون مشغولاً جداً، هناك!.. بحيث تكادين لا تستطيعين رؤيته!..

ولكن لا شيء كان يمكنه تغيير نوايا «صوفيا». ووجد «ميشيل بوريسوفيتش» صعوبة بالمحافظة على هدوئه ووقاره أثناء تناول الطعام. وعندما ذهب إلى غرفته ليمضي فترة القيلولة، لم يجد أي متعة في حك رجليه، وطرد «فسّليسّا»، وأخذ يشكو من ألم في قلبه. كان مستلقياً، وهو بكامل ملابسه، على الأريكة، وقد أدخل يده تحت قميصه، وأخذ يصغي لتلك الدقات غير المنتظمة، التي تتردّد في صدره، ويفكر بالموت، قائلاً في سرّه أنّ مشواره قد انتهى، وأنّ لا أحد في العالم يهتم أو يتمسك به، وأنّ ولديه سيتقاسمان ثروته، دون أن يكونا يستحقانها، وأنه، إذا لم يضلّ سبيله، فسوف يلتقي بزوجته في السماء، وعند حلول الظلام، اتخذت تأملاته منحى أكثر مأساوية، وشيئاً فشيئاً، بعد ذلك، تبين له أنّ مرضه يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة بالنسبة له. ولذلك فإنه، عندما حان موعد العشاء، هز الجرس بيد ضعيفة، فواربت «فسّليسّا» الباب، أشعلت المصباح، فانتابها شيء من الجنون، وأسرعت لتنادي «نيقولا» و «صوفيا». وعندما رآهما «ميشيل بوريسوفيتش» تظاهر بأنه متعب جداً، مع أنه بالحقيقة كان يشعر بأنه في أحسن حال. وعندما سألاه بماذا يشعر، أجاب بصراحة مصطنعة أنه يشعر أنّ قلبه يتوقف بين حين وآخر. فقلقت «صوفيا»، وجسّت نبضه، فلاحظت أنه طبيعي تقريباً. وجلبت له «فسّليسّا» بيضاً مخفوقاً بالروم والسكر، لتقويته. وتحدث «نيقولا» عن نيته بإرسال أحد الخدم لاستدعاء الطبيب، ليلاً، من «بيسكوف». ولكنّ والده اعترض على ذلك، قائلاً:

- لا حاجة لإزعاج الطبيب، لأنّ الأزمة مرّت بسلام!

فقالت «صوفيا»:

- بالتأكيد! ولكن علينا أن نحرص على عدم تكرارها!

وبدرت من «ميشيل بوريسوفيتش» ابتسامة فيلسوف، وهو يقول:

- إذا كنا نتصور دائماً أسوأ الحالات، فلن نبقى، عند ذلك على قيد الحياة!

وكان يأمل، وهو يقول ذلك، أنّ «صوفيا» وقد عرفت أنّ صحته سيئة، سوف تتردّد بالسفر. وهي التي وافقت أخيراً على الانتظار إلى الصباح، لاستدعاء الطبيب «بريكوسّوفّ»، وهو متقدم في السن، يمارس الطب منذ زمن طويل، خجول ومجدّ، وهو يعالج أفراد الأسرة، منذ خمس وعشرين سنة. وأتى ومعه حقيبته السوداء ونظارته الضخمة، بملابسه التي تفوح منها رائحة الأدوية، ورائحة روث الحصان. وكان «ميشيل بوريسوفيتش» حذراً، ويخشى الفحص الطبي لسببين: فإذا تبين أنه مريض فعلاً، فيمكن أن يخاف من النهاية المحتومة، وإذا تبين أنه معافى وسليم، فعليه أن يتوقع رؤية «صوفيا» وهي تسافر برفقة زوجها إلى «سان بطرسبورغ»، ولحسن الحظ، فإنّ الدكتور «بريكوسّوف» يحب التباين والتنويع. وبعد أن أجرى الفحوص اللازمة، استدعى أفراد الأسرة وأخبرهم أنّ المريض بالطبع قلبه ضعيف جداً ودمه كثيف وثقيل، ولكنه يمكن أن يعيش مئة عام، شريطة تحسين حالة دمه وتقوية قلبه. والعلاج الذي وصفه يقضي بأن يوضع له، على الفور، بعض العلقات، وبعد ذلك عليه أن يتناول، كل مساء، قبل النوم، جرعة من دواء معين، وكل صباح، يجب عليه أن يتناول على الريق، كأساً صغيراً من الندى، وقد أكد الدكتور «بريكوسّوفَ» بشكل أساسي، على هذا الكأس الصغير من الندى، الذي قال عنه أنه أفاد معظم مرضاه وأنهم سرّوا به كثيراً. ولم يكن هنالك بدّ من تكليف بعض الفتيات للذهاب كل يوم، عند الفجر، كي يلتقطن ويجمعن نقاط هذا السائل الثمين من حقول وغابات الملكية. وفيما تبقى، عليه بالراحة، وألا يتعرض إلا إلى أقل ما يمكن من المضايقات... ولأنّ «ميشيل بوريسوفيتش» كان قد قال سراً، لطبيبه، إنه يعاني من

أزمات من القلق، تنتابه في معظم الأحيان، لذلك أوصى الطبيب «نيقولا» و «صوفيا» بألا يتركاه لوحده. وعند سماعه هذه التوصية، تظاهر بأنه استاء منها، وصاح:

- هذا مستحيل، أيها الطبيب! إذ إنّ عليهما، كليهما أن يسافرا، للقيام بمهمة كبيرة الأهمية! وأستطيع الجزم، بأني لن أتعرض لأي خطر أثناء غيابهما!

وكان يكفي الاعتراض على أي توصية يقدمها الدكتور «بريكوشوف»، حتى يتشدد بالتمسك بها، ويصبح، هو، التصلب بعينه، ولذلك، فإنه صاح مزمجراً:

- وأنا أقول لك، وأكرر ما أقوله بأنك بحاجة لرقابة دائمة!

فقال «ميشيل بوريسوفيتش»:

- هنالك الخدم، من أجل ذلك.

فقالت «صوفيا»:

- لا نستطيع أن نعتمد عليهم للقيام بهذه العناية، يا أبي! وكان «نيقولا» قد شعر بفرحة كبيرة من مشروع رحلته إلى العاصمة وإقامته فيها بضعة أسابيع، لدرجة أنّ فكرة أيّ عائق لتلك الرحلة كان يجعله يستاء ويشعر باليأس. أفلا تستطيع «صوفيا» البقاء في «كشتوفكا» لتسهر على راحة المريض، بينما يذهب، هو بمفرده إلى «سان بطرسبورغ» ولكنه؟ لم يجرؤ على إبداء هذا الرأي، وإن كان يشعر برغبة شديدة ليفعل ذلك. فقد بدأ يشعر بالملل من «داريا فيليبوفنا» ومن مفروشات منزلها الصيني..

وكان «ميشيل بوريسوفيتش»، بردائه المنزلي «الروب دي شامبر» جالساً على أريكته، يراقب ابنه خلسة، وهو، ضمناً، في غاية السرور، ولكنه يتظاهر بأنه متعب ومهموم:

- آه! يا أولادي المساكين، إني أسبب لكم المتاعب، وأعقّد عليكم حياتكم!

فقال «نيقولا» بحزم، ورباطة جأش:

- كلا، يا أبي، سنؤجل السفر، إلى وقت آخر! فردّ «ميشيل بوريسوفيتش»، متأوّهاً: و «ماري التي تنتظر النتيجة بفارغ الصبر! كان يخشى من أن يكون قد قوى لهجته، وأن تبدو عنايته مشبوهة في نظر «صوفيا»، ولكنّ هذه نظرت إليه بدهشة، وبشيء من الأمل. فهل تصورت أنه يعود للاهتمام بابنته، بعد أن شعر بالندم وبتبكيت الضمير؟ إذ إنّ سلامة نيّة أكثر النساء ذكاءً، ليس لها حدود، عندما يتعلق الأمر، بالأحاديث العاطفية.

بعد ذهاب الدكتور «بريكوسّوفّ»، أخذ «ميشيل بوريسوفيتش» يشكو مجدداً من انقباض وتشنج في صدره. كان يكشر، يلهث ويتلجلج:

- هذا لا شيء! إنه بسيط! يا إلهي!... آه!... لقد زال!.. فألحّ عليه ابنه وكنته، أن يأوي إلى سريره في وقت مبكر وبعد أن شرب كأساً من مغلي الزيزفون. أمضى ليلة ممتازة. وعند تناول طعام الفطور، صباح اليوم التالي، أخبرته «صوفيا» أنّ «نيقولا» سيذهب بمفرده إلى العاصمة. فشعر «ميشيل بوريسوفيتش» بسعادة غامرة، فكل شيء يسير كما كان يريد. وأخذ يقول في سره: يا لهذا النسيج الجميل من الأكاذيب! فأنا مسرور لتخلصي من ابني، وأتظاهر بأني آسف لذهابه وحده، ودن أن ترافقه زوجته. و «نيقولا» مسرور لأنه يسافر بمفرده كالعازب إلى «سان بطرسبورغ»، ويتظاهر بأنه ذاهب إلى هناك بدافع من الواجب. و «صوفيا» مسرورة لبقائها في «كشتوفكا» وتتظاهر بأنها مضطرة إلى ذلك بسبب الظروف..

وكانت الفكرة في العبارة الأخيرة، هي التي كان أقل تأكداً من صحتها بين الثلاثة. وعندما فكر «ميشيل بوريسوفيتش» في ذلك، وضع

كلتا يديه على قلبه، فلاحظ ابنه وكنته حركته بسرعة، تبادلا نظرة تنم عن التفاهم. ولكي لا تقلق «صوفيا» المريض، دون جدوى، قالت له:

- لا تتصور، على الخصوص، يا أبي، أني أبقى هنا بسببك، لأنّ كل ما هنالك أني أخشى أن يتعبني السفر كثيراً، في هذا الفصل!

فهمس، قائلاً:

إذا كان الأمر كذلك، فأنا موافق. وأحنى رأسه على صدره، كأنه مغلوب على أمره وراضخ لكرم وأريحية ولديه.

٦

في ليلة السادس إلى السابع من شهر تشرين الثاني «نوفمبر» استيقظ «نيقولا» على هدير الرياح المخيف في المدخنة. فأشعل شمعة كانت على المنضدة القريبة من السرير. فأخذ تيار الهواء يتلاعب بشعلتها. وعلى الجدار ارتسم ظل ضخم لرجل يخرج من قبره. وفي كل الجهات أخذت الأرضية الخشبية تفرقع، وصرير الأبواب يتعالى، والألواح الزجاجية تهتز وترتجف في إطاراتها. وكما يفعل «نيقولا» دائماً عندما يستبد به الأرق، فقد رفع نظره نحو الأيقونة، ورسم على صدره إشارة الصليب. كان قد وصل إلى «سان بطرسبورغ» منذ ثمانية وأربعين ساعة، ولم يشعر أنه يقيم في بيته وهو في تلك الشقة الواسعة والخالية. وكانت أولى الزيارات التي قام بها هي ذهابه لمقابلة مسجّل العقود الذي يتعامل معه والده: «ديمتري لفوفيتش موكانوفّ»، الذي سيتولى إنجاز عملية بيع المنزل. وحسب أقوال رجل القانون، هذا، فإنّ القضية تبدو معقدة وصعبة الحلّ. فقد فقدت بعض الوثائق من الاضبارة. وربما كان من الممكن الحصول على بعض المعلومات من مدينة «سمولنسك»، مسقط رأس والدة «نيقولا»، وحيث لا يزال يعيش بعض أفراد أسرتها، ولحسن الحظ، فإنّ مسجل العقود المذكور، له زميل ممتاز في تلك المدينة، وسيطلب منه القيام بما ينبغي عمله هناك، ولكنّ هذا سوف يستغرق بعض الوقت. وهذه المهلة لم تكن تقلق «نيقولا» بل على العكس من ذلك، فقد جعلته يشعر بالارتياح. وكأنّ «ميشيل بوريسوفيتش» كان يتوقع أن تطول إقامة ابنه في العاصمة، ولذلك فإنه زوّده بمبلغ مناسب

من النقود. أما «صوفيا» فكانت قد استعدت لفراق يدوم أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، باعتبار أنّ الرحلة، ذهاباً وإياباً تستغرق ثمانية أيام. بينما لم يسبق لـ «نيقولا»، منذ زواجه، أن تمتع بمثل هذه الحرية!

وفور مغادرته لمكتب موثق العقود «كاتب العدل»، ذهب «نيقولا» إلى منزل «كوستيا لادوميروفّ»: كانت تلك لحظة رائعة! فقد أخذ «كوستيا» يبكي من شدة فرحه وهو يعانق صديقه العائد من منفاه الاختياري. وقد شهد هذا اللقاء ثلاثة رفاق من «الرابطة من أجل الفضيلة والحقيقة» القديمة، وكانوا كلهم، كذكرى لأول سنة من تآمرهم، يضعون الخواتم الفضية في أصابعهم. وقد رووا لـ «نيقولا» أنه على الرغم من الزيارة التي قام بها العميد «بيستل» للعاصمة، في شهر أيار «مايس» الماضي، فإنه لم يحصل أي تقدم في محاولة التقارب بين «اتحاد الشمال» و «اتحاد الجنوب». ومع ذلك، فإنّ «اتحاد الشمال» يضم الآن، إلى جانب الزعماء القدماء المعتدلين، مثل الأمير «تروبتزكوي» و «نيكيتا مورافيف» عضواً جديداً أكثر تطرفاً، هو الشاعر «كونراد فيدوروفيتش ريلييفّ». وكان «كوستيا» يولي هذا الشخص تقديراً عالياً وهو الذي كان قد غادر الجيش برتبة ملازم ثانٍ، وبعد العمل لفترة قصيرة في دوائر القضاء، عين مديراً للشركة الروسية- الأميركية، التي تعمل في مجال اكتشاف واستثمار الأراضي في العالم الجديد. وبالتعاون مع صديقه «أليكسندر بيستوجيفّ»، كان قد أسس، وأخذ ينشر مجلة، أطلق عليها اسم: «نجمة القطب»، وكان يساهم في تحريرها أفضل كتاب الجيل الجديد. وبعد أن حصل «نيقولا» على هذه المعلومات، أخذ ينتظر بفارغ الصبر أن يصطحبه «كوستيا» لمقابلة «ريلييفّ».

وكانت هذه المقابلة قد حصلت مساء الأمس، في مقر الشركة الروسية- الأميركية. ووجد «نيقولا» نفسه مع رجل نحيف البنية، يكاد

يكون نحيلاً، ملامحه تنم عن الصلابة والقوة، عيناه واسعتان وداكنتان، وحاجباه كثيفان يلتقيان فوق منبت أنفه.

ومنذ البداية، قال له «ريلييف»: «لقد أطلعني «كوستيا» على النشاط، والعمل الجديد. الذي تقوم به في «بيسكوف» وعليك أن تتابع العمل! فنحن بحاجة لمرشدين في كل المناطق المهمة!». فتضايق «نيقولا» من هذا الإطراء، وشعر بالحرج، لأنّ نشاطه السياسي كان قد تباطأ في الفترة الأخيرة. وكيف استطاع مضيفه، الذي يعرفه منذ ربع ساعة، لا أكثر، أن يتحدث معه بهذه الصراحة التي تنم عن ثقة كبيرة؟ ألا يخشى أن يخان وأن يوشى به؟! كان في عينيه بريق يعبر عن الشهامة والأريحية، له فعل السحر وخلال بضع دقائق من الحديث معه، فهم «نيقولا» الأوضاع في روسيا، أكثر من فهمه لها خلال خمس سنوات من العزلة، في «كستوفكا». وحسب رأي «ريلييف»، فإنّ الحكومة تتقدم، كل يوم، أكثر فأكثر في طريقها لفرض التعتيم ومقاومة التقدم والعلم، والجنرال «أركتشييف»، بعد أن استطاع إبعاد الأميرين: «فولكونسكي» و «غاليترين»، اللذين كانا المستشارين المقربين من القيصر، أصبح يهيمن وحده، في الوقت الحاضر على ذهن مليكه. والدين والشرطة هما أفضل دعامتين من الدعائم التي يستند عليها العرش. ولكن إذا تحرك الجيش، فإنّ نظام الحكم، ينهار في الحال. وصرّح «ريلييف» بقوله: «أعتقد أننا، خلال سنتين، أو ثلاث سنوات، سوف نستطيع العمل، وتكون لدينا كل فرص النجاح! وستنطلق الحركة من القطعات العسكرية، ولا ينبغي على الخصوص، أن تتدخل فيها بقية عناصر الأمة، نريدها ثورة يقودها الضباط، وليس ثورة يوجهها بعض الخطباء الشعبيين..

وعندما كان «نيقولا» يعود للتفكير في هذا الحديث، كان يشعر بالقلق وبالسعادة: فما لم يكن فيما مضى، بالنسبة له سوى مجرد أحلام وتخيلات، ها هو يصبح فجأة واقعاً قريباً، مخيفاً، مثقلاً بالنتائج الجسام.

كان يصغي لهدير الإعصار وهو يسمع كلام «ريلييفّ». كانت عينا هذا الرجل تلاحقانه في كل مكان. ولكي يلهو عن هذا الحصار الذي يلاحقه وهذه الفكرة الثابتة التي تلازمه، أخذ يفكر بأنّ الغد يمكن أن يكون أيضاً أكثر أهمية وتميزاً. كان «فاسّيا فولكوف» قد أرسل له رسالة يدعوه فيها لتناول طعام العشاء معه، ولقاؤهما لا يمكن أن يكون إلا مثيراً جداً. وكانت «داريا فيليبوفنا» قد توسّلت إلى «نيقولا» أن يستعلم عن تصرفات ومعاشرات ابنها. فهي تخاف عليه، في آن واحد، من الرجال المغرقين في الجدية ومن النساء الخفيفات والمتساهلات. وهذا المطلب، بل هذه الرعاية، سبّبت صدمة لـ «نيقولا»، كتصرف ينقصه الحسّ السليم. فهو لا يحب أن تكون خليلته، أيضاً أماً. وفراقهما، في المنزل الصيني، كان محزناً، يتسم بالتمزق. فقد انهارت «داريا فيليبوفنا» على الأرض، وهي في المئزر المطرز بأزهار اللوتس وضمت ركبتيه، وقالت وهي تئن وتتأوه: «أقسم لي أنك تظل وفياً لي!» و «صوفيا» لم تكن قد طلبت منه أن يؤدّي لها هذا القسم. وابتسم لهذه الفكرة، وحاول أن يستسلم للنوم. ولكنّ الإعصار كان أقوى من أن يجعله يستطيع أن يغمض عينيه. ومن وقت لآخر، كان البيت يبدو وكأنه تعصف به من جميع جوانبه أصوات ناجمة عن صفقة بشراع ثقيل مبتل بالمياه. وخلف باب الغرفة، كان «أنتيب» يتقلّب على فراشه المحشو بالقش، وهو يئنّ ويتنهّد. فهو، كعادته، قد رافق سيده في رحلته. وأراد «نيقولا» إيقاظه لكي يحضر له الشاي. ولكنه، بعد التفكير، شعر بأن رغبته بالنوم، أقوى من رغبته بشرب الشاي.

فاستلقى ثانية، بعد أن أطفأ الشمعة. واستند خدّه على «الدومكة»: «La doumka» وهي وسادة صغيرة، صنعتها له، منذ زمن «فسّليسّا» وهو يأخذها دائماً مع أمتعته أينما يذهب، ثم كما كان يفعل عندما كان لا يزال طفلاً، فقد أطبق يده اليمنى على صليب عمادته، واستغرق، دون

خوف ولا وجل، في ليل مسكون بالذئاب التي تعوي. إنها لم تلحق به أيّ أذى حتى ظهور بصيص أضواء الفجر الأولى، وفي تلك اللحظة انقض أحدها على السرير، بعنف شديد، لدرجة أنّ «نيقولا» أرسل صرخة حادة، وأخذ يكافح، وبينما كان يفعل ذلك، بكل جهده، لاحظ أنّ لذلك الذئب عيني رجل، وشعر أشقر، وأنه يشبه «أنتيب» بشكل مدهش وغريب.

كان يقول، وهو يهز كتف سيده، بقوة:

- سيدي! سيدي! انهض بسرعة! تعال وانظر!..

كان مذعوراً جداً، لدرجة أنّ «نيقولا» قفز من سريره، واقفاً على ساقيه. كانت الغرفة غارقة في ضوء باهت. وفتح «أنتيب» النافذة، فاندفعت منها ريح قوية وباردة أزاحت الستائر، وجعلت الأوراق تتطاير عن المنضدة. ومن المدينة كان يتصاعد ضجيج غير اعتيادي تتخلله صدمات واصطخاب مياه. فانحنى «نيقولا» على النافذة، فقطعت الدهشة أنفاسه: كان الشارع قد تحول إلى نهر، وأخذت المياه القذرة والصّاخبة تلامس أسفل الأبواب. وكان المطر ينهمر على شكل خطوط ضخمة ومائلة من سماء رصاصية اللون. ومن النوافذ، كانت تبرز وجوه قلقة. وحتى تلك اللحظة، كانت الأقبية وحدها هي التي اجتاحتها المياه. ولكنّ الفيضان كان يتزايد بسرعة. ودوّت مدافع قلعة «بطرس وبولس» على فترات متباعدة، محذّرة من الكارثة.

وقال «أنتيب»:

- لقد حصل ذلك بلمح البصر. فقد دفعت رياح البحر مياه نهر «النيفا» نحو الداخل، وفجأة خرجت من مجرى النهر وتدفقت في الشوارع. فإذا كان الله يريد أن يغسل المدينة ليذهب عنها خطاياها، فلن ننتهي من رؤية المياه وهي تجري من حولنا! ونأمل، على الأقل، ألا تصل إلى طابقنا!

ورأى «نيقولا» تحته، على جانب بارز في الواجهة، موكباً من أشكال رمادية اللون. كانت تلك مجموعة من الجرذان تهرب من القبو وتبحث عن مكان جافّ تلجأ إليه. كانت تتدافع ويعض بعضها البعض الآخر، وهي مسرعة في هربها. وخرج البواب فوقف على الرصيف. وقد وصلت المياه تقريباً إلى ركبتيه، ووضع يديه كالبوق أمام فمه، وأخذ يبلغ شيئاً مّا، بأعلى صوته إلى زميله، في الجهة المقابلة، الذي كان هو أيضاً، قد جازف بالخروج لكي يتمتع بمشاهدة المنظر. وكان بعض العاملين في الإسطبلات، يخرجون الأحصنة منه ويقتادونها بعيداً عن نهر «النيفا» وعن أقنيته نحو الجهة الشرقية من المدينة، حيث كان الوضع يبدو أقل خطورة، وتلك الأحصنة وقد استبد بها الذعر، كانت تصهل تشب وتقنطر. وكان بعض البرجوازيين يسرعون بالهرب، في عرباتهم، التي كانت عجلاتها تغوص في الماء وترشقه بعيداً وهي تدور. والحوذيون الذين يشبهون آلهة الأساطير «الميثولوجيا» وكل منهم، السوط بيده، كانوا يقودون عربات برّمائية. وتذكّر «نيقولا» عربته والأحصنة، والحوذي، الذين كانوا في مكان غير بعيد، وقال:

- آمل أن يكون «سيرافان» استطاع إيواءهم في مكان آمن!

فقال «أنتيب»:

- بالتأكيد، يا سيدي، فهو يحب المشروبات الروحية أكثر مما ينبغي، فكيف لا يخشى المياه؟!

- كان علينا، مع ذلك، أن نذهب لنرى، ماذا حصل معه!

- لن يكون ذلك من الحكمة بشيء، يا سيدي.. انظر، انظر!...

كان هنالك أطفال يجلسون على بعض الحجارة وهم يضحكون ويشيرون بأصابعهم إلى قطع الخشب وإلى الصناديق وقشور الخضار التي يجرفها التيار. وفجأة هربوا جميعهم وهم يصرخون، فقد اندفعت موجات

ضخمة خضراء اللون مزرقة، يعلوها زبد أصفر، واصطدمت بواجهات المنازل، ورفعت عربة البريد، فبدت كأنها قارب بين تلك الأمواج فنزل الحوذي وفكّ الحصان وأمسكه من أذنه، وأخذ الاثنان يسبحان. وتذكّر «نيقولا» أنّ الطابق الأرضي يسكنه أناس بسطاء: مستخدمون، حرفيون، بعض صغار الموظفين المتقاعدين، فشعر بالقلق، وارتدى ملابسه واجتاز الشقة مسرعاً، وخرج فوقف على درج المدخل.

كان رواق المنزل، الكبير، قد أصبح بركة ماء. وكان هنالك ما يقرب من عشرين شخصاً يقفون على الدرج، بعد أن هربوا من غرفهم التي امتلأت بالمياه وبعض النساء اللواتي انتابهنّ الذعر، كن يحملن على أذرعهن صرر الملابس، بعض الأدوات المنزلية، والأيقونات وكان هنالك فتاة تبكي لأنها فقدت دميتها. وبعض الرجال المسنّين، وقد شمروا سراويلهم إلى ركبهم، أخذوا يعودون إلى بيوتهم لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من قطع الأثاث ومن الملابس والأواني العتيقة. وأخذت الفرش، أقفاص طيور الكناري وغيرها، أسرّة الأطفال، الصناديق، الطناجر، الأغطية والبطانيات، كلها تتكدس عند قدمي «نيقولا» كأنها تُقدم هدية له. ومع كل نقلة، كان، هؤلاء الرجال الذين ينقلون أمتعتهم وحوائجهم، يغوصون أكثر فأكثر في المياه الموحلة. وأخذت بعض الأمواج تصطدم بأسفل الدرج. وكانت النساء تصرخ موصيات أزواجهن:

- أحضر وشاحي الأخضر!

- أجلب معك اسكملة!

وكان بينهن امرأة متقدمة في السنّ نحيلة وضعيفة الجسم أسرعت نحو «نيقولا» عندما لمحته، وأخذت تشكو وتتوسل إليه:

- يا صاحب السعادة، أيها النبيل الشريف، أنت صاحب المنزل، أليس كذلك؟

فأجابها:

- نعم

- أنا «مارفا غفريلوفنا» من الساكنات بالأجرة في منزلك! أدفع خمسة وأربعين روبلاً في الشهر، أجرة الغرفة! ولا أتأخر أبداً في الدفع! لذلك أرجوك أن تأمر بأن يعطوني قارباً!

- ولكن ليس لدينا هنا قوارب!

- أنا متأكدة من وجود القوارب، ابذل جهداً، يا صاحب السعادة! وسترضى عنك سيدة السماء! لأني أريد الذهاب لأرى ماذا أصاب ابني.. ابني، يا صاحب السعادة!..

وتوقفت بالكلام، لأنها غصت بالبكاء، وذهبت فجلست على أحد الصناديق. وقال بعض جيرانها لـ «نيقولا» إنّ ابن هذه العجوز يسكن في بيت صغير يقع في جزيرة «فاسّيلي»، وأنّ تلك المنطقة من المدينة، هي الأكثر تعرضاً للخطر..

وقال لها البواب:

- اهدئي، يا «غفريلوفنا»! يحسن بك أن تصلّي وتدعي الله كي يساعد ابنك ويحفظه، بدلاً من أن تزعجي السيد.

وسأله «نيقولا»:

- أين سيمضي هؤلاء البؤساء ليلتهم؟

ففتح البواب ذراعيه، ورفعهما، كأنه يريد أن يضم إليه القضاء والقدر، وقال:

- على الدرج، إذا لم يرتفع منسوب المياه، عما هو عليه.

- هل الشقتان في الطابق الثاني، مشغولتان كلتاهما؟

- نعم، يا سيدي، فقد عاد الجنرال «ماسّلوفّ» وأسرته من الريف، حتى تحت تخشيبات السقف، لم يعد هنالك أماكن!

فقال «نيقولا»:

- حسن، سندبر أمورنا بطريقة أخرى!

فأدرك «أنتيب» نية سيده، وهمس في أذنه:

- سيدي، سيدي، إنك لن تسكّنهم في بيتنا!

فقال له «نيقولا»:

- ينبغي علينا تماماً، أن نفعل ذلك، ريثما تنحسر المياه.

- ولكنّ هؤلاء الناس ليسوا من طبقتك!

فشعر «نيقولا» فجأة أنه يستلهم «صوفيا» وكليبرالي، تحرري حقيقي، قال:

- ليس هنالك طبقات عند حلول المصائب، وأنا سأضع الصالون الكبير تحت تصرفهم!

فأكثر مستأجرو الطابق الأرضي من تمتمات الشكر والامتنان، ومع هذا القدر الكبير من عبارات الثناء والتبريك، شعر «نيقولا» بالسعادة وبالخجل في آن واحد، لمبالغتهم في شكرهم إياه، من أجل أمر يعتبره هو، طبيعياً جداً، وتبادر إلى ذهنه، وهو يفكر: «إني أحد رجال الأزمنة الحديثة»، بينما كان أولئك الناس المجهولون، يحملون أمتعتهم وحوائجهم البائسة، ويجتازون عتبة باب منزله. وكان يهمّ بأن يتبعهم، عندما دخل قارب كبير، يدفعه مجذفان، إلى رواق المنزل، وكأنه يدخل إلى أحد المرافئ، وانساب بين الأعمدة، ثم توقف عند أسفل الدرج. وفي مؤخرة القارب، كان يقف «كوستيا لادميروف» متدثراً بمعطف أسود، وصاح:

- إيه! «نيقولا»! تعال بسرعة!

فأرسلت «مارغا غفريلوفنا» صيحة الفوز والفرح:

- شكراً أيها الأب الصغير! لقد أخبرك هذا الرجل الذي تصدّق علينا وأحسن لنا! هذا من أجل ابني!..

فزمجر البواب، غاضباً:

- ها هي قد عادت تهذي من جديد! ألا تدركين أنّ هذا السيد أتى ليصطحب صاحب السعادة، مالك المنزل، أيتها البلهاء؟!

فأخذت «مارفا» تبكي، من جديد.

وسأل «نيقولا» «كوستيا»

- من أين حصلت على هذا القارب؟

فأجابه «كوستيا»:

- باعني إياه صياد، بثقله ذهباً، سنقوم بجولة على الأصدقاء، أعرف أن بعضهم لا بدّ أن يكونوا في خطر! فتناول «نيقولا» معطفه وقبعته ونزل إلى القارب. وهذه الطريقة التي غادر فيها منزله كانت غريبة وغير اعتيادية، لدرجة أنه وهو يرثي لحال ضحايا الفيضانات، كان يشعر بشيء من الارتياح حيال تلك الأحداث غير المتوقعة، ورأى، وهو يجلس في مؤخرة القارب، «مارفا غرفيلوفنا» وهي تلوي يديها، فشعر بالشفقة عليها، وقال:

- ألا نستطيع، حقاً، أن نصطحبها معنا؟

فقال له «كوستيا»:

- أمجنون أنت؟ إنّ قاربنا يكاد لا يتسع لرفاقنا، وتريد أن تتكفل بهذه العجوز المجنونة؟! هيا، إلى الأمام، أيها الشباب!

فأمسك الرجلان بالمجاذيف، واستدار القارب ببطء، فرأى «نيقولا» نفسه يمر، وكأنه في حلم غير معقول، في قارب للصيد، في المرآة المثبتة عند المدخل. كان «كوستيا» يمسك بدفّة القارب. وعند خروجهم لفح وجوههم رذاذ ناعم وشديد البرودة.

وقال «نيقولا»:

- أريد أن أرى ماذا حدث لعربتي. مكانها قريب من هنا، استدر إلى اليسار..

وعند باب المستودع. كان هنالك خادم، يستعد، هو أيضاً للذهاب في قارب صغير، وهذا الخادم طمأن «نيقولا» بقوله: «لقد أخذ «سيرافان» الأحصنة والعربة إلى مكان آمن».

فشعر «نيقولا» بالارتياح، وسأل:

- والآن، إلى أين سنذهب؟

فأجابه «كوستيا»:

- سنذهب لنتفقد «فاسّيا فولكوف» ونستطلع أخباره. فهو يسكن في شارع «الضباط»، الذي يقع في منطقة سيئة، وتتعرض للخطر، عندما يفيض نهر «النيفا».

- وبالمصادفة، أنا على موعد معه لتناول الطعام سوية!

- حسن! إذا كنت لا تريد أن تتناول الطعام، والماء يغمر رجليك، عليك أن تذهب إلى مكان آخر!

فقال «نيقولا» متأوهاً:

- يا لها من كارثة! كيف استطاع رجل ذكي كبطرس الأكبر بناء مدينة في مكان، أقل فيضان يحوله إلى مستنقع، بل إلى بالوعة للمياه القذرة؟

فقال «كوستيا»:

- لقد اعتقد أنّ إرادته أقوى من الطبيعة، وهذا أفضل مثال يمكن تصوره، عن جنون الحاكم المتسبدّ كان المجذّفان يلهثان، وهيكل القارب يفرقع وأصوات الاستغاثة تتعالى من المنازل. و «نيقولا» الذي أحنى رأسه تحت زخّات المطر، لمح طوافة من ألواح خشبية، عليها مجموعة من الناجين من الغرق، يحيطون ببقرة اصطحبوها معهم. وراء تلك الطوّافة، كان يندفع فوق الماء حارس ببزته الرسمية، وقد جلس مفرشخاً ساقيه، على محرسه المطلي بعدة ألوان، مستخدماً بلطته كمجذاف. وفي الاتجاه

المعاكس، كان ينساب أحد زوارق البحرية، الذي كانت مجاذيفه وعددها ستة أزواج، تضرب الماء بتزامن تام. وكان أحد الضباط واقفاً وقد مدّ ذراعه، موجهاً تعليماته إلى طاقم الزورق والمطر كان قد بلل قبعته ذات القرنين، وتدلى أحدها فوق كتفه. وعند تقاطع شارعين، كانت المياه تشكل دوّامه تتراقص فيها بعض البراميل وقطع الحطب والخشب. وكان هنالك شاب جريء، انحنى على إحدى النوافذ وأخذ يلتقط قطع الخشب بواسطة قضيب حديدي معقوف. وأمام مستودع أحد صانعي العربات، الذي خلعت أبوابه، كانت بعض العربات تسبح فوق الماء، بعضها يسير على خط مستقيم، والبعض الآخر ينحرف إلى اليمين أو إلى اليسار، صناديقها إلى الأسفل، وعجلاتها مشرعة في الهواء. ومرّت بعض الصلبان التي اقتلعتها العاصفة من إحدى المقابر، وهي تدور حول نفسها. وعلى شرفة أحد القصور الخاصة، بدا حصان أبقع. فكيف صعد على هناك؟!

وفي شارع «الضبابط» كانت المنازل مغمورة بالمياه إلى منتصف ارتفاعها. وبعض العائلات، بكامل أفرادها، كانت قد أوت إلى أسطحة تلك المنازل. وكان هنالك راصد، ، جثم فوق إحدى المداخن وأخذ يلوح في الهواء بخرقة بيضاء. وكان «فاسّيا فولكوفّ» يسكن في بيت خشبي صغير، يقع داخل إحدى الحدائق. التي كان حاجزها الخشبي قد تحطم و تبعثرت أجزاؤه، وانساب القارب بين أغصان تخرج من النهر، وتبدو كالمخالب السوداء. وكان هنالك رجل يجلس على حافة إحدى النوافذ، وترك ساقيه تتدليان إلى الخارج. فعرف «نيقولا» صديقه، وصاح من شدة فرحه. فقفز «فاسّيا» في القارب معرضاً إياه لأن ينقلب. وتعانق الصديقان على الرغم من العاصفة التي ضاعفت من شدتها وعنفها.

وقال «نيقولا»:

- لقد انتظرت هذه الدقيقة طوال أربع سنوات! وصداقتي لك لم تتغير ولم تضعف!

- وصداقتي لك لم تزدد إلا نمواً!

بهذا ردّ «فاسّيا» على صديقه، وأضاف:

- آه! لماذا قدر لنا أن نلتقي في وسط هذه الكارثة؟!

فقال «كوستيا» وقد خشي استمرار الحديث وتشعّبه:

- ليس الآن وقت الثرثرة! أحضر معك أغلى ما تملك، سنصطحبك معنا.

- إلى أين؟

فقال له «نيقولا»:

- لتقيم معي، في المنزل.

فبدا على وجه «فاسّيا» الأنثوي، التأثر الشديد، وارتعشت أهدابه، وهو يتمتم:

- شكراً، يا صديقي العظيم! شكراً! لقد سبق أن هيأت جوائجي، بالمصادفة، متوقعاً كل الاحتمالات.. وعاد إلى غرفته، فأخرج من النافذة حقيبة السفر، وصعد إلى القارب. فوجه «كوستيا» المجذفين للسير بمحاذاة قناة «كريوكوف». وكان يأمرهما بالتوقف، من وقت لآخر، لكي يستطلع أخبار أحد أعضاء الجمعية، الذي يتعرض منزله للخطر، بسبب الفيضان. ومن بين الرفاق الذين بحث عنهم وناداهم، كان «يوري ألمازوف» و «ستيفان بوكروفسكي» وحدهما، اللذين قبلا مرافقة المنقذين، لأنّ كليهما عازبان ويقيمان في طابق أرضي. وأصبح القارب مثقلاً بالحمولة، لدرجة أنه كان يتقدم بصعوبة كبيرة. وجلس «نيقولا» و «فاسّيا» بجانب المجذفين لكي يساعداهما في عملهم. وكان «كوستيا» الذي يمسك مقبض دفة القارب، يصيح:

- واحد، اثنان! واحد، اثنان!

وبعد أن مرّ القارب في أحد الشوارع، وصل إلى ساحة «مجلس الشيوخ» التي كانت قد أصبحت كبحيرة كبيرة تصطخب فيها أمواج المياه. وكانت ألوان مياه السماء ومياه النهر الداكنة تمتزج مع بعضها. وكان بناء «الأميرالية» الضخم يبدو عائماً في الضباب، وكأنه قد اقتلع من أساساته وضاع سهمه العظيم في أجواء السماء. وعلى رصيف مرتفع تتكسر عليه الأمواج، كان ينتصب تمثال «بطرس الأكبر» على صهوة جواده الجامح على ضفة النهر العظيم، مادّاً ذراعه ليأمر نهر «النيفا» بالعودة إلى سريره ومجراه الطبيعي، ولكنّ «النيفا» كان يرفض الانصياع والخضوع. فهل سيكون الأمر كذلك، ذات يوم، بالنسبة للشعب الروسي؟!

وقال «ستيبان بوكروفسكي»:

- نحن نُحكم من قبل تمثال!

وتجاوز القارب ذلك النصب التذكاري المشهور، ولم يكن «نيقولا» يستطيع تحويل نظراته عنه. كان يبدو له عن بعد أنّ «بطرس الأكبر» يعدو به حصانه مسرعاً، وهو يسبح فوق المياه. ولمح من بعد، على سطح الأبنية الصغيرة التابعة للإدراة العسكرية، جميع عناصر مركز الحراسة، وهم يقفون وبجانبهم أسلحتهم، والمطر ينهمر بغزارة على أولئك الجنود، الذين لا يتحركون قيد أنملة. وقلنسواتهم السوداء تنتصب، على مسافات متساوية، وكأنها بواري المدافئ. فمنذ كم من الوقت وهم ينتظرون استبدالهم بجنود آخرين؟! واقترب من موقعهم أحد زوارق الأسطول، وهو يتأرجح على اليمّ. فأصدر ضابط الصف المسؤول عن مركز الحراسة أمراً، بصوت أجش. وفي الحال قدّم الجنود السلاح. وهذه الحركة الجماعية التي نفذت في أعلى أحد المباني، تحت المطر المنهمر، من قبل «فزّاعات» ترتدي البزات الرسمية المبتلة، عبّرت في نظر «نيقولا» عن كل عظمة وسخافة

الانضباط العسكري المدفوع إلى حد المبالغة والمغالاة. ولم يكن يدري إذا كان عليه أن يعجب بخاصية الطاعة هذه التي يتمتع بها الشعب الروسي، أو أنّ عليه أن يخشاها. وبشكل مفاجئ بدا له أنّ الثورة مستحلية.

ودعا «كوستيا» الجميع لتناول طعام الغداء في منزله. وكان مطمئناً لأنه يسكن في الطابق الثاني. ورفع العجوز «بلاتون» ذراعيه، عندما رأى أولئك الخمسة الناجين من الغرق، البردانين بثيابهم المبتلة، يدخلون فجأة إلى غرفة الانتظار. فساعدهم على التخلص من معاطفهم ومن أحذيتهم، وأحضر لهم أردية منزلية «روب دوشامبر» وأحذية خفيفة مبطنة بالفرو. وعلى المائدة لم يمسّوا تقريباً الطعام. كانت تلازم أذهانهم. مناظر الطوفان التي رأوها ولذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يتحدثوا عن غيرها. وحسب المعلومات الأخيرة، لم يكن قد حدث طوفان مثله منذ تأسيس المدينة. ففي الجزر وفي الضواحي الغربية، اقتلعت صفوف من المنازل الخشبية، بكاملها، والضحايا تعدّ بالمئات. وكان العجوز «بلاتون» يشكو ويتأوه وهو يقوم بخدمة الضيوف.

وسأله «كوستيا»:

- ألم تشهد الفيضان الذي حصل سنة ١٧٧٧.

- بلى، يا سيدي، وأذكره كأنه حدث البارحة، وفيضان سنة ١٧٥٥، وفيضان سنة ١٧٦٢، وكذلك الذي حصل سنة ١٧٦٤!

فقد اركبني أبي وجدّي على طوافة. وكدنا نغرق، نحن الثلاثة..

فصاح «يوري ألمازوف»:

- خمسة فيضانات، خلال حياة رجل، هذا فظيع!

وقال «بلاتون»:

- يبدو أنّ أبانا الصغير «القيصر» قد أصابه حزن شديد. فوعد بمساعدة جميع البائسين المنكوبين. وهو يتجول بالقارب بين الخراب، وآثار الدمار..

فقال «فاسيا»:

- مهما تجول في كل مكان، فهذه الكارثة سيكون لها في نظر الناس الفقراء طابع العقوبة الإلهية.

وقال «كوستيا»:

- تذكروا النبوءة! لقد دلّ فيضان كبير، سنة ١٧٧٧ على ولادة «أليكسندر الأول»، وسيدل على موته فيضان آخر، أكثر شدة وضخامة!

فسأله «نيقولا»:

- أيمكن أن تكون متطيراً، ومن الذين يؤمنون بالخرافات؟

- وكيف لا يكون المرء كذلك، عندما تبدو الطبيعة كلها ثائرة ضد هذا الذي يحكمنا؟

كان «ستيبان بوكروفسكي» هو الذي ردّ بهذا الجواب، على سؤال «نيقولا»، وأضاف، قائلاً:

إنّ خطايا القيصر وآثامه تقع على الأمة، وهذا ما يردّده الجميع، في الثكنات وفي «الايسبات» وبيوت الفلاحين.

- وماذا يعرفون عن خطايا القيصر؟

- هنالك خطيئة واحدة، على الأقل، يستطيع كل أرثوذكسي أن يعرفها: فقد رفض «أليكسندر» مساعدة وإغاثة أخوته في الدين، أبناء اليونان الشهيدة. ولكي يرضي الفرنسيين والإنكليز والنمساويين، ترك الأتراك المسلمين يذبحون أولئك الذين يصلّون في الكنائس نفسها التي نصلي نحن فيها. وفضّل أولئك الجلادين على الأبطال، أحفاد أسرة «ايبسيلنتي» «Ypsilanti» الذين سبق لهم أن رفعوا عالياً علم الثورة!

فقال «نيقولا»:

- وهكذا، فأنت إذن ترى أنّ هذا الطوفان الفظيع سيخدم قضيتنا في نهاية الأمر؟

فتوهّجت عينا «ستيبان بوكروفسكي» خلف عدستي نظارته، وبدت على وجهه الممتلئ تعابير النشوة، وقال:

- أنا متأكد من ذلك، لأني أؤمن بالله! وهنالك جملة في التوراة، لا تغيب عن ذاكرتي، ومفادها: «نور العادلين يمنح الفرح. ومصباح الأشرار سينطفئ.» وها هو قد أتى، الإعصار الذي سيطفئ جميع مصابيح «قصر الشتاء»!

وانتهت الوجبة عبر الصمت.؟ وبعد ذلك قرر الأصدقاء الخمسة أن يصعدوا ثانية إلى قاربهم وأن يتجولوا في المدينة، لكي يحاولوا مساعدة أكبر عدد ممكن من الناس. وهكذا فقد تجولوا خلال عدة ساعات؛ في الضواحي، وزوّدوا بعض الناس المعزولين، بالخبز وبالماء العذب، ونقلوا بعض العائلات من منزل إلى آخر، كما نقلوا أيضاً بعض الجرحى إلى مراكز الإسعاف في ثكنات مختلفة. ولم يوقفوا حملتهم إلا عندما خيّم الظلام.

عند ذلك، عاد «كوستيا» إلى منزله ويصحبته «ستيبان بوكروفسكي» و «يوري ألمازوف» اللذين كان قد وعدهما بتأمين إقامتهما في ضيافته. وتابع «نيقولا» و «فاسّيا» رحلتهما في القارب.

ومنذ الساعة الرابعة مساءً، كان منسوب المياه قد أخذ ينحسر، ولكنّ العاصفة لم تهدأ. وكانت عصفات الرياح الباردة ورشقات المطر الغزير، تعيق جهود المجذفين. وفي لحظات معيّنة، كان القارب يبدو وكأنه تشد به مرساة نحو قاع المياه. كان الضباب الليلي الكثيف يحيط بالمنازل، ويحجبها عن الأنظار. وكانت جيف الأحصنة والكلاب، والهرر، منتفخة البطون، تسبح، طافية على سطح الماء المتموج. وفي كل مرة كان القارب يصطدم بإحدى تلك الجيف، كان «فاسّيا» ينتفض، قرفاً واشمئزازاً. وأشعل أحد المجذفين مشعلاً وثبته في مؤخرة القارب، فأخذت المادّة المشتعلة

ترسل صريراً ونشيشاً، وتنشر دخاناً كثيفاً، وخيال شعلتها ينعكس متراقصاً مع تموجات المياه. وكانت نقاط مضيئة أخرى تتراءى من وقت لآخر، عبر أرجاء العاصمة الميتة. وكان «نيقولا» يفكر بأصدقائه، بالثورة، وبعذوبة ونشوة التضحية.. أمن الممكن أن يبزغ الفجر، ويطلع الصبح، غداً؟

واستقبل «أنتيب» المسافرين، في أعلى الدرج، وفي يده مصباح. وكان وجهه الذي تبدو فيه التجاعيد السوداء كخادم يمثل دوره في إحدى المسرحيات، وصمته غير الاعتيادي، ينذران بكارثة جديدة. وعندما دخل «نيقولا» إلى الصالون الكبير، اكتشف فيه مخيّماً للبوهيميين، كان مستأجرو الطابق الأرضي يقيمون هناك بشكل فوضوي، وكيفما اتفق، مع حوائجهم وأمتعتهم. وكانت بعض الستائر المعلقة على حبال رفيعة من الخيطان تحدّد المكان الخاص بكل أسرة. وخلف تلك الستائر، كانت شموع الشحم، الموزعة في كل الجهات، تبدو كالنجوم المتلألئة. كما أنّ رائحة الملابس المبتلّة، والأحذية، والحساء السيئ، كان ينقبض لها صدر المرء، منذ أن تطأ قدماه العتبة.

وقال «أنتيب»:

- أنت أردت هذا، يا سيدي!

وابتسم «نيقولا» بعطف مغتصب بعض الشيء، لكل هؤلاء الناس الذين بثّوا الفوضى والإزعاج في منزله، وأمسك بذراع «فاسّيا» واقتاده نحو غرفته. وفي وسط الممر، التقيا بامرأة شابة، عائدة من المطبخ، تحمل جرة صغيرة. وحيت الرجلين بانحناءة ظريفة من رأسها. وبناءً على إشارة من «نيقولا» إلى «أنتيب» الذي يتبعه، رفع هذا، المصباح: كانت المرأة الشّابة شقراء، عيناها صغيرتان عسليتان، أنفها خانس، ولها شامة على منخرها الأيسر. ومن ينظر إلى تلك الشامة، ينسى كل ما تبقى من صفات عادية، في ذلك الوجه.

وعندما مرّت، سأل «نيقولا»:

- من هذه؟

فأجابه «أنتيب»:

- هذه «تمارا كازيميروفنا». بولونية مسكينة لا تساوي شيئاً. تعيش مع أختها، وتشتغل في المدينة كخياطة. كان يمكنه أن يظل يتحدث زمناً طويلاً عن الأضرار والمساوئ التي تلحق بالمرء، عندما يستقبل في منزله، أيّاً كان، بحجة حدوث طوفان؛ ولكنّ «نيقولا» أسرع وأمره بأن يحضر إلى غرفته بعض المأكولات الخفيفة وأن يهيء سريراً لـ «فاسيا»، في الغرفة المجاورة. وجلس الصديقان إلى مائدة عليها زجاجة نبيذ، بعض النقانق وفطائر «ستراسبورغ» المحشوة، فأكلا بشهية كبيرة وهما صامتان، في بداية الأمر، ثم، بعد أن شبعا، وشعرا بالدفء، طابت لهما العودة إلى الكلام. وكلّ ذكرى كانا يستعيدانها كانت تزيد من فرحتهم باللقاء. وخلالّ الحديث، قال «نيقولا» عرضاً، إنه التقى، من جديد بـ: «داريا فيليبوفنا». ولم يسأله «فاسيّا» عن أخبار «ماري» فليس هنالك من شك بأنه سمع بأنها تزوجت «سيدوفّ» كانت فتيلة المصباح تدخّن، والنار تشتعل في المدفأة الصغيرة، مقابل النافذة المظلمة التي ينهمر عليها المطر. ولم يكن تلاطم المياه على الجدران، يشوّش عليهما الحديث. ونحو الساعة الواحدة صباحاً، هدأت الرياح.

٧

لقد جدّد رحيل «نيقولا» شباب «ميشيل بوريسوفيتش». فمنذ استيقاظه، كان يشعر بفيض من الأمل، كما لو أنّ حدثاً سعيداً، سيحصل له في ذلك اليوم. وأخذ يعتني بهندامه ويحلق ذقنه كل يوم، ويحرص على تسريح شعره وعارضيه، ويختار بمتعة وعناية صدارته وربطة عنقه. وعندما كانت «فسّليسّا» تُحضر له كاس الندى، الصغير، الذي وصفه له الطبيب، تشعر بدهشة كبيرة عندما تراه أنيقاً إلى ذلك الحدّ. كان يشرب تلك الجرعة من الماء الذي يصلح الصحة ويجدّد الحيوية والنشاط، وهو يفكر بأولئك الفتيات اللواتي اشتغلن من أجله، عبر ضباب الفجر، ويبتسم لشعوره بالراحة وبالرفاهية. وكل تلك الخطوات على الدروب الضيقة، والانحناءات فوق الأعشاب، والتعب في الركب، لكي يجمعن بضع قطرات من الماء النقي! كان ذلك برأيه، رمزاً لأعظم المسرّات البشرية. ومقابل أيّ شيء في العالم، ما كان يقبل أن يتخلى عن هذا الدواء الذي، مع ذلك، لم يكن بحاجة إليه. كانت سياسته تقضي بإقامة توازن صحيح بين مظاهر المرض ومظاهر سلامة الصحة. إذ إنّ «صوفيا» لم تكن لتتفهم وتتقبل شفاءً مفاجئاً وسريعاً إلى تلك الدرجة، حتى أنها ربما كان يمكن أن تشعر بالخيبة بسبب ذلك. وكان عليه أن يبدو سقيماً، ضعيف الصحة، لكي تشعر بأنّ من الضروري أن تظل تقوم بدورها كممرضة تعتني به وتسهر على تأمين حاجاته، وفي الوقت نفسه، عليه أن يبدو أيضاً بمزاج رائق، وحالة نفسية جيدة، لكي لا تنزعج وتملّ من البقاء معه. وحتى

ذلك الحين، لم يكن قد فشل في تمثيل ذلك الدور وفي القيام بتلك اللعبة المزدوجة. وبعد مرور ثمانية أيام على سفر «نيقولا»، لم تبد المرأة الشابة أيّ حزن أو ملل، كل ما هنالك أنها كانت تقول في سرّها إنها قلقة لأنها لم تتلق أيّ خبر من زوجها. وعندما تتلقى أول رسالة منه سوف تتبدّد سحابة القلق هذه. وكان «ميشيل بوريسوفيتش» يتمنى أن يراها تشعر بمزيد من السرور والراحة في المنزل أثناء غياب «نيقولا» ومن أجل ذلك كان يحاول إيجاد شيء جديد وغير متوقع، في كل لحظة من حياتهما. وأخذ يتصفح سراً كتب التاريخ، ويحفظ بعض العبارات والأخبار الغريبة والمثيرة للفضول، ويوردها في الأحاديث. وعلى مائدة الطعام، إنما كان يبدو أكثر تألقاً في أحاديثه عن فترة حكم «بطرس الأكبر» و «كاترين الثانية» لروسيا. وكان يتظاهر بأنّ تلك الحكايات تأتيه عفو الخاطر وبالمصادفة. وكان السيد «لوسور» يلاحظ لعبته، ويوجّه له نظرة ساخرة. ولكنّ «صوفيا» كانت تبدو مسرورة بتلك الأحاديث، وتبدي نحوه كثيراً من الرقّة والعناية. وعندما يضع نظارته، كانت تقول له بأعلى صوتها: «يا إلهي، كم عليها من الغبار! إنك لن تستطيع أن تميّز شيئاً من خلالها!» فيعطيها إياها متظاهراً بالانزعاج، وأثناء تنظيفها إياها، وهي تنفخ على عدستيها وتمسحهما بطرف منديلها، كان يتلذّذ لرؤيتها وهي تمسك بيدها شيئاً يخصه، وتعتني بتنظيفه. وبعد الانتهاء من تناول طعام الغداء كانت تلحّ على عمها لكي يذهب ويخلد للراحة والقيلولة، فكان يحتجّ لكي يحصل على المتعة الغريبة من لومها وتوبيخها إياه. وكانت ترافقه أحياناً إلى عتبة باب غرفته. وفي هذه الحالة، كان يرفض خدمات «فسّليسّا»، وينام سعيداً دون أن يسمح لها بأن تحك له رجليه.

وبعد الظهر، كانت «صوفيا» تقرأ له بصوت عالٍ إحدى الروايات الفرنسية. فلم يكن يصغي لها، بل يتابع مراقبة شفتيها. كانت طريقتها

بلفظ الكلمات تذكّر بالقبلات. والمساء كان يعتبر غاية المتعة وخاتمتها، في مباراة الشطرنج. وفي كل مرّة، كان «ميشيل بروبسوفيتش» يرفع نظره عن رقعة الشطرنج، كان يؤخذ بجمال تلك المرأة الشابة السمراء، ذات الملامح الدقيقة والجذابة. وإذا تحرك رأسها المكلل بشعرها الأسود الفاحم، أو تمدّ يدها لكي تتناول بيدقاً، أو تحني جذعها الممتلئ، فوق المنضدة، كانت جميع خطوط جسمها تتحرك وتغير وضعها ثم تعود بتناسق وتناغم ساحرين إلى وضعها السابق. وكان هنالك تناقض مثير للغاية بين رقة ولباقة أساليبها وتصرفاتها وبين كل ما توحي وتعد به من جنون حسّي، حدقتاها السوداوان، بشرتها العنبرية اللون، شفتاها الحمراوان غمازتا خديها، واستدارة منكبيها. وبعد أن تنتهي المباراة، ويتم ترتيب البيادق، كان «ميشيل بوريسوفيتش» ينسحب متعباً، تغمره السعادة وهو يرتعش من التعب الغرامي.

وفي إحدى الليالي، لم يستطع النوم من شدة الانفعال الذي انتابه، فنهض وخرج إلى الممر لكي يتمتع بالمرور أمام باب غرفة «صوفيا»، وعندما ألصق أذنه بدرفة الباب، خيّل له أنه يسمع تنفساً منتظماً. ومرت عبر ذهنه رؤى من العري، وشم عطراً، كان يخيل له أنه يخترق خشب الباب. لم يكن في المنزل أحد، سواهما! كان «نيقولا» و «ماري» بعيدين، والخدم لا يحسب لهم حساب، والسيد «لوسور» نفسه، كان شاهداً لا يؤبه له ويمكن تجاهله وإهماله! فماذا لو قبلت!.. وسببت له هذه الفكرة لذة وخجلاً. لقد انغمس فجأة في الخطيئة حتى فكّيه، «صوفيا» تستسلم له. وبعنف هزّ رأسه، فتطايرت الصورة شظايا، وشعر بضعف في ركبتيه. وبعد فترة طويلة، رسم إشارة الصليب على صدره، ضم رداءه على جنبيه وعاد إلى غرفته لينام.

وفي اليوم التالي، على مائدة الإفطار، لاحظت «صوفيا» أنّ هيئته غريبة، فقلقت، في الحال، على صحته، ولكنه أقسم لها أنّ صحته ليست

أسوأ ولا أحسن مما كانت عليه في اليوم السابق، ولكي يغيّر مجرى الحديث، أخذ يثني على هندامها، ويمتدح زينتها، فستان من الجوخ الأخضر اللوزي، مزين

على أطرافه السفلى بقطع متشابهة من المخمل، كان ذلك حسب نموذج باريسي، استطاعت الخياطات الخادمات في المنزل تقليده بمهارة، تبعاً لإرشادات «صوفيا». وكانت ترتدي هذا الفستان للمرة الأولى. ومع زهوها بنيل إعجاب عمها، كانت تقدّر مخاطر المبالغة في تأنقها. ودون أن يكون قد تغيّر أي شيء في علاقاتهما، فإنها كانت تشعر أنه يحيطها بعطف ومحبة، يزدادان شدة باستمرار. وصباح ذلك اليوم، كانت طريقته بالتحدث إليها وبالنظر إليها وتأملها، هي طريقة زوجٍ، بهره حسن حظه بحصوله على زوجته، وكما لو أنها أرادت إبعاد خطر يتهدّدها، سألته:

- هل أرسلت أحداً إلى مكتب بريد «بيسكو»؟

فأجابها «ميشيل برويسوفيتش»:

- بالطبع، يا عزيزتي! فإني أكثر تشوقاً منك لمعرفة ماذا يحدث في «بطرسبورغ»! لقد ذهب «فيدكا» في الخامسة صباحاً، ولن يتأخر في العودة.

وبكل هدوء، كان يحتسي الشاي في كاس كبير، قاعدته من الفضة. هذا الوجه المتعب الكثير التجاعيد، وهذا الشعر الأشيب، وهذه الأوردة البارزة على اليدين، بعثت الطمأنينة في قلب «صوفيا». فكيف استطاعت أن تتصور أنه يحبّها بصورة غير أبوية؟

واستأنفت الكلام، قائلة:

- سيكون اليوم هو التاسع!

- أنت تنسين أنه كتب لك من إحدى محطات الاستراحة!؟

- هذا صحيح! ولكن منذ ذلك الحين، لم يصلني شيء! وعليك أن تعترف أنّ ذلك غير اعتيادي!

فقال السيد «لوسور» وهو يلتهم فطيرة ضخمة:

- لا بدّ أنه كان لديه الكثير مما ينبغي عليه أن يعمله عند وصوله إلى العاصمة!

فأمّن «ميشيل بوريسوفيتش» على ذلك، قائلاً:

- فهناك كاتب العدل، والأصدقاء..

كان المطر ينهمر بغزارة ويقرع بقوة ألواح الزجاج المزدوجة، في النوافذ ودهشت «صوفيا» عندما شعرت بأنها لم تكن أكثر تعاسة مما كانت عليه. كان عمها يرتدي صدارة رمادية اللون موشاة بالفضة، لم تكن تعهدها عنده فسألته:

- هل تنتظر زائراً مّا؟

- كلا. لماذا؟

- لا لشيء.

فتغضّن أنف السيد «لوسور» في تكشيرة ثعلب، وقطّب «ميشيل بوريسوفيتش» حاجبيه. وتبادر إلى ذهن «صوفيا»: «إنه يصلح هندامه ويتزين من أجلي، إنّ هذا تصرّف سخيف، يثير الضحك!»

وقال «ميشيل بوريسوفيتش»:

- أتريدين اللعب بالشطرنج؟

فأجابته:

- كلاّ، إني أشعر بصداع شديد.

فنظر إليها وهيئته تنم عن الغضب واليأس، وكأنها برفضها اللعب، قد رفضت أن تستسلم له بكلّيتها. ومرت بضع دقائق، مثقلة بالمطالب المكتومة التي لا يمكن التعبير عنها. وأشعل «ميشيل بوريسوفيتش» غليونه. وكان قد عاود التدخين منذ بعض الوقت، قليلاً بدافع حبّه للتدخين، وكثيراً من أجل إثارة قلق ومخاوف كنته التي كانت ترى أنّ هذه العادة

مؤذية وغير معقولة. وتوقفت عربة أمام درج المدخل، بعد أن أرسلت عجلاتها صريراً قوياً. فخرجت «صوفيا» وعمها لملاقاة «فيدكا»

وقال الفلاح، وهو يضرب حقيبته الفارغة بيده:

- لا يوجد شيء، يا سيدتي!

فأحنت «صوفيا» رأسها، وعادت إلى غرفة الطعام، حيث كان السيد «لوسور» آنذاك، يأكل عسلاً بالملعقة. وكانت تسمع وقع أقدام عمها، وتنفسه الحيواني القوي، وهو يتبعها، وفجأة، شعرت بالرغبة بإدخال السرور إلى قلبه، ولذلك، التفتت وقالت له:

- إيه، حسن! فلنلعب الشطرنج، إذا كنت تريد ذلك.

وكان الوجه الذي لمحته، عند ذلك يعبّر عن فرحة لا تتناسب مع اقتراحها. وحصل لديها انطباع بأنها فتحت باباً لن تستطيع إغلاقه بعد ذلك. فقد هبّ إعصار في حياتها. ووضع «ميشيل بوريسوفيتش» غليونه جانباً وأخذ يفرك يديه:

- حسن جداً! هذا رائع!.. هيا، ولنبدأ في الحال!

فتبادر إلى ذهنها: «إنه سيترك لي المجال للفوز في هذه المباراة!». والحال، هي أنه عمل كل ما بوسعه ليتغلّب عليها، وعندما لفظ عبارة: «الشاه مات!» بدت نظرته تنمّ عن الفرح، وتكاد تكون مؤلمة.

فقالت له «صوفيا»:

- لقد لعبت بطريقة جيدة جداً.

- كلا، لقد كنت خبيثاً، وكنت أنت لاهية، شاردة الذهن! وبالفعل، فقد كانت تحلم وتفكر بـ «نيقولا»، طوال الوقت الذي استغرقته المباراة. وكانت عينا «ميشيل بوريسوفيتش» تلومانها، وتوبخانها من أجل ذلك، والحزن بادٍ فيهما. وطلبت منه أن يلعبا مباراة الثأر، فوافق بكل سرور. فلعبت بشكل أفضل من السابق. وكانت المعركة لم تحسم بعد،

عندما حان موعد الغداء، فقرّرا تأجيل اللعب إلى المساء. وبعد تناول الطعام، انسحب عمها إلى غرفته ليتمتع بالقيلولة. فأتت «فسّليستا» لتقدّم له خدماتها. فضم رجليه تحت الغطاء. فضمت العجوز يديها، وتمتمت:

- البارحة أيضاً لم تشأ أن أحكّ لك رجليك، يا سيدي! فهل أنا لا أجيد هذا العمل؟

فغمغم، مزمجراً:

- إنك تزعجينني! فأنا لا أرغب بذلك، وهذا كل شيء! هيا، انصرفي!

فقالت «فسّليستا»:

- لقد لحق العار بشيخوختي!

وانصرفت وهي تبكي. فنام «ميشيل بوريسوفيتش» نوماً خفيفاً حتى الساعة الخامسة، عندما استيقظ على رنين أجراس إحدى العربات. ومن النافذة عرف أنها عربة نقيب أشراف «أوبوتشكا»، «بيسشوروفّ» الثقيل، فقال، وهو يكتم تثاؤباً غير مألوف كتثاؤب الأسد:

- ماذا يريد مني أيضاً هذا؟

ولأنه غضب من هذا الزائر الذي أزعجه، في الوقت الذي كان يعد نفسه فيه باستئناف مباراة الشطرنج مع «صوفيا» فقد تقدم نحوه وأدخله إلى المكتب، دون أن يقدم له أي شراب. ولم يكد «بيسشوروفّ» يجلس، حتى أحنى ظهره، ومدّ عنقه، وقال:

- أحقاً أن ابنك قد سافر إلى «بطرسبورغ»؟

فأجابه «ميشيل بوريسوفيتش»، مندهشاً:

- نعم، لماذا؟..

- وهل تلقيت منه بعض الأخبار؟

- ليس بعد.

- أتدري ماذا حصل هناك؟

- كلاّ.

- وهذا ما ظننته تماماً! إذا إنّ الحكومة منعت نشر أي خبر عما حدث في العاصمة. ولكن في الدوائر الرسمية التي أتردد عليها، كل شيء أصبح معروفاً. ومدير مكتب البريد روى لي أيضاً بعض التفاصيل، صباح اليوم. ورأيت من واجبي أن أخبرك بذلك، وأنا أمرّ من هنا.

وبهذه المقدمة المطولة، أحدث «بيسشوروف» التأثير الذي يريده، حملق بعينين كعيني الدجاجة المرعوبة، وختم حديثه، قائلاً:

- لقد تعرضت العاصمة بكاملها للطوفان!

فشعر «ميشيل بوريسوفيتش» بفراغ مؤلم في صدره. هذا الألم المزعج فاجأه بشكل عنيف، لدرجة أنه خاف على نفسه قبل أن يفكر بابنه. وعندما عاد قلبه ليدقّ بصورة طبيعية، تمتم:

- هذه ليست أول مرّة..

فقال «بيسشوروف»

- الفيضانات الأخرى كانت هيّنة وبسيطة بالنسبة لهذه. ويؤكد البعض أنّ القيصر وأفراد أسرته اضطروا إلى الهرب من المدينة، وأنّ واحداً من اثنين من السكان قد غرق، وأنّ جميع المنازل قد تهدّمت..

كان «ميشيل بوريسوفيتش» يعرف أنّ «بيسشوروف» يميل إلى المبالغة في التحدث عن المآسي وأنه لا يستطيع أن يتحدث عن كارثة دون أن يضيف عليها في حديثه بعض التفاصيل المخيفة. ولكن، مع أخذ جانب المبالغة بالحسبان، فمن المحتمل أن يكون الفيضان قد أحدث ضحايا كثيرة. وفي هذه الظروف، فإنّ صمت «نيقولا» الذي طال أمده يبرر حصول القلق الشديد والمخاوف الجدّية. وبينما كان «بيسشوروف» مندفعاً في سرد حديثه بحماسة، يُغرق قصر الشتاء والأمرالية، ويُلبس ثياب الحداد للطبقة

الأرستقراطية الروسية كافة، ويمحو «سان بطرسبورغ» من خارطة العالم، كان «ميشيل بوريسوفيتش» يتابع فكرته الخاصة به بشغف بارد. وأخيراً قال:

- أشكرك لأنك أخبرتني بما حدث، يا عزيزي «أليكسي نيكيتتش»، ولكن إذا التقيت بـ «كنتي»، لا تردّد على مسمعها ما أخبرتني به. فسيكون دائماً هنالك متسع من الوقت للقيام بذلك..

وأنت تفهمني، أليس كذلك؟

فصاح «بيسشوروف» وهو يشدّ على يده:

- إني أفهمك، وأؤيدك فيما ذهبت إليه.

وتمهل قليلاً بالإنصراف، لأنه، دون شك، كان يأمل أن يقدم له الشاي أو بعض الشراب، ولكنه انصرف أخيراً، منزعجاً، بعد أن خاب أمله، وبقي حلقه جافاً. فرافقه «ميشيل بوريسوفيتش» إلى الرواق، خوفاً من أن يلتقي بـ «صوفيا». ولأنه يعرف حماقة «بيسشوروف» فهو يظن أنه يمكن أن يفشي السر. ولحسن الحظ فإنّ المرأة ظلّت في غرفتها، على الرغم من قوة صوت الزائر الذي يهمّ بالانصراف والذي كان يتكلم باللغة الفرنسية، لكي لا يفهم الخدم كلامه.

وبعد انصرافه، عاد «ميشيل بوريسوفيتش»، بسرعة إلى مكتبه، وكأنّ قضية مهمة وملحة تنتظره هنالك، وبعد أن أغلق الباب، انهار على أريكته. فماذا يمكن أن يحدث إذا لم يرجع «نيقولا»؟ وتصوّر ابنه وقد مات أثناء الطوفان، وألم «صوفيا» وحزنها، وهو يواسيها، ويشجعها على تحمل المصيبة، وهي شاحبة جداً وقد ارتدت ملابس الحداد، وإذا استطاع أن يبدو مقنعاً، واطمأنت إليه، فيمكن أن تبقى معه في «كشتنوفكا». ولن يكون «نيقولا» بعد الآن هناك، لكي يفرّق بينهما. والعالم بكامله سيبتعد عنهما، ويتركهما متقابلين، منفردين، وجهاً لوجه. وسوف تصبح

زوجته، دون أن يعلم أحد بذلك. وسيمنحها حباً لم تكن قد عرفته أبداً مع ابنه. وأدرك «ميشيل بوريسوفيتش» فجأة أنه يتمنى موت «نيقولا»، فانتابه ذعر شديد، ولكنه لم يتخلّ عن أحلامه. وبعد أن وصل إلى تلك النقطة من التوتر والهيجان، فلم يكن هنالك أي تبكيت من الضمير، مهما عظم واشتد يستطيع أن يثنيه ويجعله يقلع عن تنفيذ رغبته. كان يسير، مستبقاً الأحداث، وعلى ظهره يجثم عدوه اللدود. وقرع الباب بهدوء ثلاث مرات، فارتعش. إنها «صوفيا» أتت لتقترح عليه استئناف مباراة الشطرنج. كانت تبتسم، خالية البال، على مسافة ألف ميل من المأساة التي تدور حولها. وسألت عمها:

- أليس هذا، «بيسشوروف» الذي أتى ليراك، يا أبي؟

- بلى.

- وماذا كان يريد؟

- أوه! لا شيء.. إنها مجرد زيارة مجاملة.

وكان يتأملها وهو يتكلم، بخشية واضحة وبتلذّذ أثيم كانت ترتدي فستاناً فاتح اللون، وهو يراها متشحة بالسواد، وكانت هذه أرملة ابنه التي تبعها إلى الصالون. وأمام رقعة الشطرنج، ثم على المائدة، فيما بعد، ظل يعيش حياة مزدوجة: كان يقوم بالحركات ويلفظ الكلمات التي يتوقعونها منه، ولكنّ جانباً بكامله من كيانه، وهو الجانب المهم، كان قد فقد الصلة والتماسّ مع الحقيقة والواقع، وعندما حان موعد النوم، رافقته «صوفيا» حتى باب غرفته، وتظاهر أنه متعب، فاستند على ذراع كنته. وعبر قماش الفستان، كان يشعر، وهي ملتصقة تماماً به، حرارة ذلك الدم الفتيّ. وفي تلك الأمسية، ركع أمام الأيقونة، وصلى صلاة أطول مما كانت عليه العادة. وإشارات الصليب الكثيرة والكبيرة التي كان يقوم بها، لم تطرد الهاجس الذي استقر في ذهنه، وصعد إلى السرير، دون

أن يتخلص من وسواسه. وفي تلك الليلة، فكّر كثيراً بـ «صوفيا»، لدرجة أنه لم يكن بحاجة للذهاب والتمشي في الممر، لكي يتصور ما يريد.

وفي اليوم التالي، تحسّن الطقس، فاستغلّت «صوفيا» ذلك للقيام بزيارة لشقيقة زوجها. فأمضى «ميشيل بوريسوفيتش» نهاره، متذمراً، يشكو الضجر والملل. وعبثاً اقترح عليه السيد «لوسور» اللعب بالشطرنج. فلم يكن يهتم بشيء، ولا يجد ما يسليه في غياب «صوفيا» سوى السخرية بالرجل الإفرنسي ومراقبة تجهّمه وتكشيراته. وفي موعد إشعال المصابيح، عادت العربة. وعندما استقبل «ميشيل بوريسوفيتش» «صوفيا» في المكتب، دهش كثيراً لتعابير الألم البادية على وجهها. وقالت له:

- أبي، لقد أبلغتني «ماري» خبراً مخيفاً: «سان بطرسبورغ» تعرضت لطوفان شديد!..

كانت لديه القدرة على التظاهر بالدهشة، وأنه فوجئ بهذا النبأ. ولكنّ عضلات وجهه لم تمتثل لرغبته، وصوته بدا زائفاً. ولكنّ «صوفيا» التي كانت تعاني من قلق شديد، لم تلاحظ، أثناء ذلك، أنه يمكر، ويتظاهر بما لا يضمر. وقال:

آه! يا إلهي! هذا لا يصدّق! ولكن من أين حصلت «ماري» على هذا الخبر؟

فقالت «صوفيا»:

- من «فلاديمير كريوفيتش» الذي سمع به البارحة، عندما كان في «بسسكوف»

- إني أشك بالإشاعات والأقاويل التي تنتشر في الريف، وعلينا أن ننتظر مزيداً من المعلومات المفصلة والدقيقة، قبل أن يستولي علينا الهلع!

فقالت له:

- كلا، يا أبي، إني سأذهب إلى هناك.

فاستولى عليه الذعر، وقال متلعثماً.

- تذهبين؟... وكيف تذهبين؟.. ولماذا تذهبين؟.. فأنت لا تستطعين!.. سيكون ذلك.. سيكون عبثاً، وغير معقول!..

- أنت تنسى أني لم أتلق أي رسالة من «نيقولا» منذ أن غادر المنزل!

- إيه، حسن! وماذا في ذلك، ستتلقين منه رسالة غداً أو بعد غد.. وعلاوة على ذلك، فإنّ منزلنا بعيد عن القناة..

وهذا ينبغي أن يطمئنك.. «نيقولا» لم يصب بأذى.. لم يصب بأي أذى، على الإطلاق!..

- لن اطمئن، قبل أن أحصل على دليل يثبت ذلك. فأحنى «ميشيل بوريسوفيتش» رأسه. كان عناد كنته يحيّره، فكم هي متمسكة بزوجها ومتعلقة به! كانت قد جلست على أريكة، قرب النافذة، والتعب بادٍ على وجهها، فقد بكت كثيراً، وأهدابها لا تزال تبللها الدموع. ولم يكن يستطيع أن يتحمل رؤيتها تتألم بسبب شخص آخر.

أفلا تشعر بقسوتها؟ كان قد اكتسب حقوقاً عليها، خلال بضعة أيام. وعندما فكر بأنه يمكن أن يفقدها، أخذ يرتجف من الغيرة. أن يمسك بها ويضمها بين ذراعيه، يدعكها ويلحس آثار الدموع على خديها!

وفجأة، قال لها:

- سأذهب معك!

فصاحت، بأعلى صوتها:

- آه! كلا!

- لا أستطيع أن أتركك تسيرين على الطرقات بمفردك!

- إني لن أتعرض لأي خطر!

- أوه! بلى، يا «صوفيا»، ثم كيف تتركينني في هذا البيت، لوحدي، وليس لديّ ابني ولا «كنتي»؟..

- لست في صحة جيدة تساعدك على تحمل مشقات هذه الرحلة، يا أبي!

- دعك من ذلك! لقد تحسنت صحتي كثيراً!

وتصور نفسه معها، داخل العربة، يلامسها ويحتك بها لدى كل ارتجاج يحصل للعربة. ثم هنالك التوقف في فنادق الاستراحات على الطريق، والوجبات هو وهي، على انفراد والنوم على أسرة سيئة لا يفصل بينهما سوى حاجز رقيق! أربعة أيام تغمره فيها السعادة!..

وبعد هذه الرحلة، سيكون هنالك، إذا أراد الله ذلك، النبأ المخيف، المدهش والعجيب عن موت «نيقولا»!

واستأنف الكلام:

- نعم، هذا مؤكد، لقد قررت ذلك: إذا لم تصلك غداً رسالة من «نيقولا»، سنسافر، سويّة!

وتمتمت، وكأنها لم تسمع ما قال لها:

- لقد تذكرت في هذه اللحظة: هنالك من يستطيع أن يعطيني بعض المعلومات عما حدث في العاصمة!

- ومن هو؟

- إنها «داريا فيليبوفنا»، إذ إنّ ابنها في «سان بطرسبورغ»، وربما يكون قد حدّثها عن «نيقولا» في رسائله الأخيرة؟

سأذهب لمقابلتها!

- لا يمكن أن تفكري بذلك! بعد الذي حصل بين عائلتينا!..

فردّت «صوفيا» بقولها:

- إنّ مصير «نيقولا» يشغل بالي كثيراً، بحيث لا تمنعني من الذهاب إلى هناك، تلك الخلافات البائسة.

فنادت أحد الخدم، وأمرته بتحضير العربة من جديد.

فقال «ميشيل بوريسوفيتش»، متأوّهاً:

- حسن، سأرسل أحد الخدم، لكي يرافقك في هذه الرحلة: فهدأ بالها قليلاً، وقالت وهي تمدّ له يديها ليقبلهما:

- لن يطول غيابي، أعدك بذلك، ولا بد أنك شعرت أني مزعجة، لا أطاق. ولكن عليك أن تتفهم شدة قلقي.. فأنا اشعر أني لم أعد على قيد الحياة..

.فتمتم:

- مثلي! مثلي تماماً! اذهبي يا ابنتي، وليكن الله معك!

★★★

كانت عائلة «فولكوف» تهمّ بالجلوس إلى المائدة، عندما فتح العجوز «سيمون» رئيس الخدم، باب الصالون، وأعلن بصوت مرتعش أنّ السيدة «أوزاريف» ترغب بالتحدث إلى سيدة المنزل. فشعرت «داريا فيليبوفنا»، على الفور، وبشكل مفاجئ، بشلل في ساقيها، ولم تعد تستطيع النهوض عن أريكتها، وأخذت تتساءل: «من الذي أخبرها؟ هل هو أحد الخدم، أم جار عدواني ميال للإيذاء؟» وكانت تتوقع ماذا سيحصل الآن: لوم، توبيخ، صراخ، شتائم! ووقعت نظراتها الشاردة، على بناتها الثلاث. إنها تفضل الموت على التعرض للفضيحة وللعار أمامهن! كانت تلك المخلوقات البريئة، وقد عقلت الدهشة ألسنتهن، بدون وكأنهن يقلن: «ماذا تريد منا هذه الدخيلة؟» كان العجوز «سيمون» قد انسحب، مفسحاً الطريق للسيدة الزائرة. وسمع حفيف القماش. ودخلت العدالة الإلهية إلى الصالون تحت قسمات وجه «صوفيا». وبناء على إشارة من أمهنّ، انحنت الفتيات الثلاث: «هيلين»، «ناتالي» و «أوفرازي» تحية للسيدة الزائرة، وانصرفن بهدوء، وتبادر إلى ذهن «داريا فيليبوفنا»: «فلتتحقق إرادتك، يا إلهي! لقد

ارتكبت الخطيئة في الظلام، عاقبني تحت الأضواء!» وعند ذلك، تبادر إلى ذهنها أنها تقدم عنقها للسكين.

وقالت لها «صوفيا»:

- سيدتي، إني أعتذر عن إزعاجك في هذه الساعة المتأخرة فدهشت «داريا فيليبوفنا» من هذه المقدمة اللطيفة وراودها الأمل، على استحياء. وعندما شرحت لها «صوفيا» الهدف من زيارتها، تلاشت آخر مخاوفها، وشعرت بموجة من البهجة المحمومة. وكادت تجد أنّ زوجة «نيقولا» جذابة وخفيفة الروح. وقالت لـ «صوفيا»:

- واحسرتاه! إني في حالتك نفسها، وأعاني من هذه المشكلة بالذات. لأنّ ابني لم يكتب لي. ولولا أن يمر لزيارتي «أليكس بيسشوروف»، البارحة، لم أكن، حتى قد عرفت أنّ العاصمة تعرضت للطوفان»!

- كيف، هل السيد «بيسشوروف»، هو الذي؟...

- نعم، بالطبع، ألم يذهب لزيارتكم، بعد أن غادر منزلنا؟ لقد قال لي، إنه سيفعل ذلك.

فتمتمت «صوفيا»:

- لقد فعل ذلك، حقاً، لقد فعل ذلك!

وأخذت تتساءل لماذا كتم عنها عمها أنّ «بيسشوروف» قد أبلغه نبأ الكارثة. لا شك أنه لم يشأ أن يقلقها قبل أن يتأكد تماماً من كل ما حدث. كان هذا هو التفسير المشرف، الأكثر جدارة بالقبول والاحترام. ولكم كانت تودّ أن تكتفي به، ولكنها تذكرت كيف تظاهر عمها بالدهشة، عندما روت له، ما كان قد سبقت له معرفته، وشعرت عند ذلك بانزعاج شديد. حتى وأن كان هذا التكتم بدافع الشفقة والإحسان، فهو غير مقبول منه، ولا يليق به أن يلجأ إليه، ولم تعد تستطيع التمييز بين الحقيقة والكذب. وبدت لها

جميع علاقاتها مع هذا الرجل، غامضة وملتبسة، لطيفة وخطرة في آن واحد.

وعاهدت نفسها أنها ستقول له بأنها استاءت كثيراً، لأنه لم يخبرها على الفور بالخطر الذي كان يتعرض له «نيقولا». ثم عادت وغيرت رأيها، مقتنعة بعدم جدوى نقاش كهذا، لأنّ «ميشيل بوريسوفيتش» سيدحض جميع حججها، مبدياً الوجه النبيل لرب الأسرة، الحريص على راحة وطمأنينة أفراد أسرته. وفي نهاية الأمر، ستكون هي المخطئة!

ومما قالته «داريا فيليبوفنا»

- «فاسّيا» مهمل جداً، وهو يسكن في أحد الأحياء الأكثر عرضة للخطر! وأنا أعيش عبر كابوس يلازمني منذ البارحة!..

وعندما علمت أنّ «صوفيا» تنوي السفر في اليوم التالي إلى «سان بطرسبورغ»، حسدتها في سرّها. ولولا بناتها الثلاث، لكانت أسرعت بالسفر إلى هناك هي أيضاً، وكان لها الحق أكثر من أيّ كان بالقيام بهذه الرحلة: إذ إنّ ابنها وعشيقها مهددان هناك بالموت غرقاً في ذلك الفيضان! وكانت تخلط بينهما تماماً في توجيه رعايتها وإبداء اهتمامها، لدرجة أنها كادت تخطئ نحو عشر مرات وتلفظ اسم «نيقولا» في حين أنها كانت تتحدث عن «فاسّيا» وازداد اضطرابها فجأة، عندما لمحت، على إحدى الاسكملات، كتاباً، كان «نيقولا» قد أعارها إياه، قبل سفره: كان يتضمن بعض قصائد الشاعر «جوكوفسكي»، والكتاب مجلد بالسختيان الأخضر، وعلى غلافه أكليل من الزهور المطعّمة بالذهب. وهو من كتب مكتبة «كشتنوفكا». فلو عرفته «صوفيا» لآثار لديها بعض الشكوك. وتحت ضوء المصباح كان الكتاب يبدو معروضاً بتباه مؤذٍ له تأثير سيئ كان غلافه يلمع، ولم تكن «داريا» ترى شيئاً غيره. وحتى اللحظة التي

نهضت فيها «صوفيا» لتودّعها وتنصرف، ظلت «داريا فيليبوفنا» تعاني من رعدات مميتة، من الذعر.

★★★

«ميشيل بوريسوفيتش» الذي كان يقف في وسط الباحة، أخذ يصرخ مخاطباً «فسّليسّا»، التي كانت تنتف ريش إحدى الإوزات:

- متى ستفهمين إذن، أيتها الغبية أنّ ريشات الإوزة مغروزة بطريقة تصبح معها ريشات الجانح الأيسر، هي وحدها الصالحة للكتابة؟ وأنّ ريشات الجانح الأيمن تلتوي تحت الإصبع ولا تصلح للكتابة. ولذلك عليك ألاّ تخلطي ريشات الجانحين مع بعضها!

و «فسّليسّا» التي كانت تصغي لسيدها باحترام شديد، قاطعته بشكل مفاجئ:

- سيدي! سيدي! أتسمع؟

- ماذا؟

- الأجراس! إنه «فيدكا» وقد عاد من مكتب البريد!

فترك «ميشيل بوريسوفيتش» «فسّليسّا» وإوزتها الميتة هناك، وأسرع نحو المنزل. ولكنّ رجليه كانتا تغوصان في الوحل، عند كل خطوة. وأمام درج المدخل رأى «فيدكا» الذي أخذ يفك الحصان عن العربة. وقال «فيدكا»:

- كان هنالك رسالة من «سان بطرسبورغ» لسيدتي.

- وهل أعطيتها إياها؟

- نعم، يا سيدي.

- وماذا قالت؟

- لا شيء. لقد شحب وجهها، وذهبت إلى غرفتها لتقرأها. فانقبض قلب «ميشيل بوريسوفيتش» وصعد على الدرج، اجتاز الرواق ودخل إلى

الصالون، وعندما لم يجد فيه أحداً، غضب لأنه أسرع دون جدوى، وذهب ليجتر تذمره ونفاد صبره، في المكتب. وإلى هناك لحقت به «صوفيا» بعد عشر دقائق. كانت الفرحة بادية على وجهها: عيناها تتلألآن، فمها يضحك، كل جسمها كان ينبض ويتحرك بخفة ورشاقة غير واقعيتين، بين قطع الأثاث الضخمة التي تملأ الغرفة. فتبادر إلى ذهن «ميشيل بوريسوفيتش»: «إنه لا يزال على قيد الحياة!»

وصاحت «صوفيا» في الوقت نفسه، تقريباً:

- اطمئن، يا أبي

وبدلاً من الغيظ الذي كان يتوقعه خفية، حصل لديه ارتياح خفيف. حقاً، كان هنالك ذلك المشروع الذي عليه أن يتخلى عنه: هو و «صوفيا» وحدهما في منزل «كشتنوفكا» الكبير.. ولكنّ خيبة أمله كانت شيئاً لا يكاد يذكر بجانب الجحيم الذي كان من الممكن أن يزج نفسه فيه لو أنّ الله قضى بموت ابنه. وسمع كنته تقول، بينما كان شارد اللبّ محلقاً في سحابة من الأفكار السوداء والعنيفة:

- سأقرأ لك الرسالة!

فشكرها بإيماءة من رأسه، ومع ذلك فإنه لم يكن لديه أي رغبة بأن يصغي إليها. إذ إنّ التقلبات التي مرّ بها منذ بضعة أيام قد أتلفت مقاومته العصبية. وتلا لديه الشعور بالخلاص الأخلاقي، شعور بالقرف والغثيان. كانت ممارسة الفضيلة بالنسبة له تشبه العقوبة. كان يرى أنه من الظلم ألا يكون الرجل الذي تتقدم به السن حراً بأن يختار من يريد أن يحب، وأن تلاحقه الكنيسة والمجتمع والأسرة لمنعه من الذهاب إلى حيث يشاء، وأن تنجذب النساء الشابات والجميلات نحو المغفلين والبلهاء من أبناء جيلهن، لمجرد أنّ بشرتهم غير مجعدة ونظرتهم براقة، وأن يكون نصيب أولئك الذين تجاوزوا الستين من العمر، التشوّق والاشتهاء القاحلين، وانتظار العدم!

وأخذت «صوفيا» تقرأ بصوت عالٍ وهو جالس على متّكأ إحدى الأرائك:

- أعتقد أنك على الرغم من إجراءات الرقابة، لا بد قد سمعت بالكارثة الرهيبة التي حلّت بالعاصمة، وألبست جميع سكانها ثياب الحداد.. فلاحظ «ميشيل بوريسوفيتش» أنها بدأت تقرأ من منتصف الصفحة الأولى: فليس هنالك من شك أنّ بداية الرسالة تتضمن عبارات ذات طابع حميمي جداً، وخاص جداً، بحيث لا ينبغي نشرها وإسماعها لأيّ كان.

- «لن أصف لكِ المشاهد والأحداث المخيفة التي شهدتها، فذلك سيسبب لك حزناً شديداً. ألا فأعلمي، مع ذلك، أنّ النهر الذي دفعه الإعصار نحو منبعه، غمرت مياهه الضواحي، والجزر والمدينة بكاملها، وجرفت معها العربات والخيل، وهدمت الجسور. وكثير من العجزة والمرضى والمسنين وكذلك بعض الأطفال الذين داهمتهم السيول على حين غرّة، جرفتهم أيضاً، وقضوا نحبهم غرقاً في أمواجها المتلاطمة. وفي مرفأ الزوارق الشراعية، وحده، وفي بعض المعامل، لقي أكثر من خمسمائة عامل، حتفهم كما أنّ مؤن الشتاء كلها قد أتلفت. وعدد كبير من المساكن قد دمرت، وأخرى أصبحت غير صالحة للسكن. والآلاف من سيئي الحظ والمنكوبين الذين لم يعد لديهم سقف يأويهم، يسيرون على غير هدى، في الشوارع التي تتراكم فيها الأنقاض. ومن فضل الله أن منزلنا لم يتضرّر كثيراً، فبعد أن اجتاحت السيول الطابق الأرضي، انخفض مستواها، بعد ذلك. وقد آويت فيه، بصورة مؤقتة، المستأجرين البؤساء الذين طردهم «النيفا» من غرفهم. ولا يوجد ضحايا بين أصدقائنا..»

فتوقفت «صوفيا» عن القراءة، وقالت:

- يجب أن أخبر «داريا فيليبوفنا» بذلك، كي تطمئن على ابنها! ثم استأنفت القراءة، بحماسة:

- «وبالطبع، فإنّ هذه الكارثة الرهيبة، قد أهابت بالناس في كل مكان بوجوب القيام بأعمال الإغاثة ومساعدة المنكوبين، وقد فعلوا ذلك بشكل ينم عن الإخلاص الشديد، بعد أن حثهم القيصر على العمل والتبرع، وقد ضرب له المثال، عندما تبرع، هو نفسه بمليون روبل، مفتتحاً الاكتتاب لمساعدة المنكوبين. وأخذت طبقة النبلاء تتنافس في الكرم مع طبقة التجار. وتشكلت بعض اللجان للإشراف على أعمال الإغاثة، وعلى جمع التبرعات وتوزيعها على المحتاجين. ومن جهتي فقد تبرعت بمئتي روبل...»

فقالت «صوفيا»:

- هذا حسن، أليس كذلك، يا أبي؟

فقال لها:

- حسن جداً، تابعي..

-«ويا للأسف، فكما لو أنّ الرب قد اعتبر أنّ العقوبة غير كافية، فقد تجمد كل شيء، بشكل مفاجئ، بعد أن انحسرت السيول، وأكثر البيوت، التي لم يمر عليها وقت كاف لكي تجف، غطتها طبقة من الجليد. والناس الذين لم يستطيعوا تدارك الحطب للتدفئة كان عليهم أن يتحملوا البرد الشديد الذي بلغ عشر درجات تحت الصفر. ومن جهتي، أنا بصحة جيدة جداً، ولديّ رغبة شديدة لمساعدة أبناء وطني المساكين..»

فتساءل «ميشيل بوريسوفيتش»:

- وقضية بيع المنزل؟

فقالت «صوفيا»:

- سآتي عليها:

«وبسبب ذلك الدمار الهائل الذي حصل، فإنّ أسعار المنازل المتينة البناء، سوف ترتفع. و «موخانوف» متأكد بأننا سوف نستطيع بيع منزلنا في ظروف مواتية تماماً وبسعر جيد. فهو لم يعد يتحدّث عن ثمانين ألف روبل، بل عن مئة ألف. وبالطبع، فهو ينصحني بالتريث والصبر. وبالإضافة على ذلك، فهو لم يحصل بعد على جميع الأوراق اللازمة، وأخشى أن يكون عليّ أن أمدّد إقامتي هنا ثلاثة أو أربعة أسابيع...»

كان هذا أمل «ميشيل بوريسوفيتش» الوحيد، منذ أن عرف أن «نيقولا» لا يزال حياً. فضم شفتيه لكي يمتنع عن الابتسام.

وقالت «صوفيا»:

- هذا مزعج، ويبعث على الملل!

فردّ عليها عمها، قائلاً:

- كان لا بد من أن نتوقعّ ذلك، إذ إنّ قضية بهذه الأهمية، لا يمكن أن تُحلّ ببضعة أيام.

واستأنفت «صوفيا» قراءة الرسالة:

- «إذا شئتم، فإني أستطيع إعطاء وكالة «لموخانوف» لكي يتابع عملية البيع نيابة عني!...»

فصاح «ميشيل بوريسوفيتش»:

- كل شيء إلا هذا!. فهو سوف يغشنا، ويسرقنا!

فتابعت «صوفيا» القراءة:

- ولكني أعتقد أنّ ذلك لن يكون فيه شيء من الحكمة. كوني إذن عاقلة، يا عزيزتي، مثل ما أكون أنا نفسي. آه لو تعلمين كم أنا أتألم بسبب فراقنا! وفي بعض الأمسيات، وأنا منعزل في وحدتي، كثيراً ما ألعن الفكرة التي حدت بي للسفر. ثم أقول لنفسي إنّ هذه الرحلة، كان من واجبي القيام بها، من أجل «ماري» من أجلك، من أجلنا جميعاً!.. المدينة

موحشة، وأنا أرى أحياناً، من جديد، رفاقي القدماء، الذين أصبحوا يبدون مزيداً من التعقل، وأحلم بحزن وأسى أحلاماً تذكرني ببيتنا العزيز في «كشتوفكا». كيف حال الوالد؟ هل تحسنت صحته؟ أليس هنالك دواء مّا، أستطيع أن أحضره له من «سان بطرسبورغ؟»

كان «ميشيل برويسوفيتش» يهزّ رأسه. ومبادرات الاهتمام هذه، كانت ترضيه وتروق له، لأنها تسد لديه حاجة شديدة للتقدير والاحترام.

- «وأنت، يا حلوتي العزيزة، بماذا تشغلين أيامك؟ وكيف تقضين أوقاتك؟ أحاول أن أتصورك في غرفتك...»

فاضطربت «صوفيا»، طوت الرسالة ودسّتها في جيب صدارتها.

فوجّه لها عمها نظرة تنمّ عن الدهشة، وسألها:

- أهذا كل شيء؟

- نعم.

كانت تتحداه بجرأة ساحرة، لدرجة أنه شعر بالنار تسري في أوردته. ونهض، وقد تندّى وجهه بالعرق. وتمتم، وهو يمسك يدي المرأة الشابة:

- لقد تبيّن لك تماماً، إنك كنت مخطئة، عندما أبديت المخاوف والقلق!

فقالت:

- نعم، يا أبي.

- أفترض أنه لم يعد لديك نية للسفر، وبأن تتركيني؟

- أوه! كلا..

- وهل أنت سعيدة؟

- سعيدة جداً، وأنوي أن أكتب لـ «نيقولا»!

وحتى لو ضربها! لظلّت تبتسم، ترك يديها. فامتلأت الغرفة بطنين النحل. وتفجرت صدمة قوية في صدر «ميشيل برويسوفيتش» فاستند على متّكأ إحدى الأرائك. وهمس:

- لست على ما يرام!

فساعدته كنته على الجلوس. وفي الحال تبدّد الانزعاج. كان يلهث، يتأمل الوجه النضر المنحني فوقه عبر الضباب، ولم يعد يعرف فيما إذا كان هو حقاً ضعيفاً جداً أم أنه تظاهر بفقدان الوعي وتصنّع الضعف لكي يستدرّ شفقة وعطف «صوفيا».

٨

وأخيراً، تجمدت مياه النهر، بكل عرضه واتّساعه، وبين ضفتي «النيفا» الغرانيتين، غطّت قوقعة بيضاء ذكريات الطوفان. وهنا، حيث كانت، فيما مضى، الأمواج العاتية تجرف الأنقاض وجيف الحيوانات، والأكواخ والعربات، أخذ الأولاد، الآن يتزلّجون، وباعة المشروبات الساخنة يضربون تلك الطبقة البيضاء بأقدامهم. وأخذت عربات السادة تتسابق، وحيوانات الرنّة والأيل ذات القرون الطويلة تجر الزحافات التي تحمل الجليد الشفاف. وجراحات البيت تلقّت ضمادات شكّلها لها الثلج. وعاد سهم مقر إمارة البحرية، فأخذ يتلألأ كالذهب، تحت أشعة شمس الشتاء. وبدت جبهيات وزخارف مداخل القصور تستند على أعمدة بيضاء كأنها مغشّاة بالطحين. وفي الشوارع، حلّ انزلاق الزحافات الصامت محل ضوضاء العربات ذات الدواليب. وبدت المدينة بكاملها، تغفو، مسترخية، بهدوء وصفاء مزيفين. وغادر مستأجرو الطابق الأرضي، صالون «نيقولا» للإقامة في غرفهم التي تشوّهت أبوابها ونوافذها والوحل ما زال يغطي أرضها. ولا شك أنهم كانوا لا يزالون يفضلون البؤس والبرد على الفوضى والتشوش والاختلاط عن قرب بجيران مزعجين. كما أنّ «فاسّيا» عاد أيضاً إلى منزله الصغير، الكائن في شارع الضباط.

وبعد تلك التجربة من الحياة المشتركة، وجد «نيقولا» نفسه سعيداً عندما أصبح من جديد وحيداً، مع «أنتيب» كان قد تعرّف على «تمارا» البولونية الحسناء، وأخذ يفكر بإغوائها للتسلية وتمضية الوقت. وبحجة

إصلاح بعض الملابس، كان قد قام بزيارتها عدة مرات، في الغرفة الوحيدة التي تقيم فيها مع أختها. وفي المرتين، الأولى والثانية، الأخت، وهي عرجاء وفظّة، حضرت لقاءهما. وفي المرة الثالثة، وجد «تمارا» لوحدها، فأمسك يدها وهو يحدثها عن مشكلة تسرب المياه في الجدران وعن خطورة هذه المشكلة. فنظرت إليه بخوف، ولم تجرؤ على سحب يدها: فهو مالك المنزل، رجل غني وجدير بالاحترام، يستطيع أن يطردها، أو أن يضاعف لها أجرة الغرفة لكي يعاقبها! ولكن ربما كان أيضاً قد أعجبها وناسب ذوقها؟!

وفي اليوم التالي، كتب لها «نيقولا» بطاقة، يدعوها فيها للحضور، ذات مساء لتناول طعام العشاء معه، في أي يوم تراه مناسباً لها. وكان يقول في سره: إنّ أي خياطة لن ترفض دعوة مغرية كهذه! ولكنّ الأيام أخذت تمر، دون أن تردّ «تمارا» ودون أن تلبي الدعوة، فأخذ «نيقولا» يتذمر وقد نفد صبره. وانتهى به الأمر إلى عدم الاهتمام بها، ومحاولة نسيانها، لدرجة أنه لم يفكر بعد ذلك برؤيتها من جديد.

وعلاوة على ذلك، فإنّ مشاغله كانت أكثر من أن يترك لديه فراغاً أو تجعله يشعر بالملل. كان يستيقظ متأخراً، ويمضي وقتاً طويلاً في العناية بنظافته وزينته، ثم يتناول فطوراً خفيفاً. وبعد ذلك، يجلس ليكتب لـ «صوفيا». وكان يقدّر، بشكل أفضل، وهو بعيد عنها، الموقع الذي تحتله في حياته.

ويتذكر وجهها الجميل، فيغمره الحب والسعادة، ويطلق لريشته العنان لتجري على الورق. ولو أنه كان يتحدث معها وجهاً لوجه لاستطاع أن يعبر لها عن أفكاره بهذه السهولة نفسها. وبالمقابل، وإن كانت «داريا فيليبوفنا» قد أكثرت من إرسال الرسائل المشبوبة، والطافحة بعبارات الشوق والهيام، فإنه لم يشعر بأي ميل للردّ عليها. وكلما زادت في لومه

وتوبيخه على صمته، كان يزداد إصراراً في الاستغراق في هذا الصمت. وفي نحو الساعة الحادية عشرة، كان يرتدي معطفاً مبطّنا بالفرو، ويعتمر قبعة عالية، عريضة الجوانب ويتناول عصاه ذات المقبض الفضي، ويخرج إلى الشارع، مرفوع الرأس، وقلبه يخفق بالمتعة والسرور.

وفي كل يوم، تقريباً، كان يذهب لمقابلة كاتب العدل، لكي يتفاوض مع راغب بشراء المنزل، يحتمل أن يكون ينتظره هنالك. ثم يذهب ليقوم بنزهة في إحدى الزحافات على نهر «النيفا» المتجمد، وبعد ذلك يتناول طعام الغداء برفقة «كوستيا» و «فاسّيا»، «يوري ألمازوفّ» و «ستيبان بوكروفسكي» يشارك في المناقشات السياسية، ثم يذهب لتمضية السهرة في «الملهى الأحمر» الذي يغصّ بالضباط وبالفتيات.

كان «يوري ألمازوفّ» قد وقع في حب راقصة بالية شابة، يصعب الوصول إليها. وأخذ يتحدث كثيراً عنها لأصدقائه، لدرجة أنّ «نيقولا» أحب أن يتعرف عليها. وعند الساعة السابعة، وكان ذلك اليوم هو الأحد، ذهب جميع الأصدقاء سوية إلى المسرح الكبير الذي بُني حديثاً في الساحة العامة، بالقرب من جسر «بوتسيلوبيفّ». وكانت الصالة وطوابق الشرفات الثلاثة تغصّ بالبزات العسكرية الرسمية وبفساتين السهرة النسائية. وكانت الكتافيات والأوسمة والأكاليل والعقود والأطواق الماسية، ترسل انعكاسات لا تحصى لنور ثريا كريستالية ضخمة، وكانت بعض الملابس الرسمية السوداء تلقي ظلاً قاتماً على تلك الألوان الزاهية المنتشرة في أرجاء المكان. وأخذت ستارة المسرح، التي تحمل صورة معبد يوناني، تتموّج بهدوء أمام صف من المصابيح. وكانت همهمة الأحاديث تشبه هدير البحر. و «نيقولا» الذي كان جالساً بين «يوري ألمازوف» و «كوستيا» أخذ يلقي نظراته في كل الاتجاهات، مسلماً على بعض معارفه، ومتأملاً النساء الجميلات، العاريات الأكتاف، ويسأل، بصوت خافت، عن أسمائهن.

وكان يجلس خلفه، شخصان وقوران يرتديان البزات العسكرية، وقد أخذا يتحدثان عن الهموم والمتاعب التي تسببها لهما أملاكهما؛ وقال أحدهما.

- إنّ وكيل أعمالي تافه ودنيء ولكن ليس لديّ الوقت لمراقبته. فأنا أكتب له أن يقطع أشجاراً بقيمة عشرة آلاف روبل، فيقطع ما يساوي ضعف هذا المبلغ، ويحتفظ بالفرق. والمحاصيل سيئة جداً، لدرجة أنني لا أحصل منها على «كوبيك واحد». وإذا احتجيت، يقال لي أنّ أرضي لا تنتج شيئاً لأنها قاحلة، متعبة وكثيرة الأحجار. وكذلك هي الحال أيضاً بالنسبة للعلف والتبن: وبناء على الحسابات التي أتلقاها، فإن الماشية يجب أن تكون قد استهلكت عشرين ألف قنطار في فترة لا تزيد عن أربعة أشهر!

فصرخ الآخر:

- عشرون ألف قنطار في أربعة أشهر، ولكن هذه الكمية تكفي لتموين فوج من الخيالة، طوال سنة، بكاملها!

- ربما كان الأمر كذلك! لم أعد أعرف شيئاً! إني أتركهم يسرقونني، وأسلّم أمري إلى الله!

- يجب أن تردّ وتتحرك، يا «ايفان أركويفتيش» هدّدهم بالجلد، وكل شيء يسير، بعد ذلك، بانتظام. ولكن، حقاً، كم روحاً لديك؟

فانحنى «نيقولا» نحو «كوستيا» وهمس في أذنه:

- يا لروسيا! ويا لها من بلاد غريبة! فالناس، لا يسأل فيها أحدهم الآخر: «ألك روح؟» بل: «كم روحاً لديك؟» وكل الضرر يأتي من هذا الخلط بين الجمع والمفرد، ومن عدم التمييز بينهما!

فقهقه الأصدقاء ضاحكين، سعداء لكونهم متفاهمين إلى ذلك الحد، وبقربهم في الجهة اليسرى، كان أحد أفراد الحرس الخيالة، ببزته

البيضاء، يروي لجاره، بحماسة شديدة كيف جرى التدريب والترويض لآخر استعراض في مضمار الفروسية.

- في بداية الأمر، سرنا هوناً، خطوة خطوة، ثم خبباً، وبعد ذلك، انطلقنا نعدو عدواً سريعاً. كنت أمتطي «أرلوكان»: جواد رائع! أتعلم أنهم سيوزعون علينا خوذات جديدة، أقل ارتفاعاً من الخوذات السابقة، وذات شكل أثري قديم؟ وبها سنشبه المحاربين الرومان!..

وبعد أن نطق بهذه الكلمات، نهض ووقف وقفة الاستعداد. فقد مرّ جنرال أصلع ومتقدم في السن، بين الكراسي، كان يدفع أحد كتفيه إلى الأمام، ويرد، دون اهتمام على الذين يحيونه. وسمع «نيقولا» امرأتين تتمتمان:

- وهو في هذه السن؟ هذا غير ممكن!

- بلى، وتلك علاقة مستمرة منذ زمن طويل! ويبدو أنّ الدوق الأكبر «نيقولا» أرغمه على قطعها! وهدّده بأنه إذا لم يقطعها فيرسله إلى القوقاز!

ولم يكد العسكريون يجلسون ثانية، حتى نهض الجميع: فقد دخل الجنرال - الكونت «ميلو رادوفيتش» حاكم «سان بطرسبورغ»، واتجه إلى مقصورته. فهو أحد أبطال الحرب الوطنية، ويحمل بفخر واعتزاز لقب: «الفارس بيّار Bayard الروسي» وكانت شهرته في ميادين الغرام قوية وثابتة كشهرته في ميادين الحرب والقتال. وكان الناس يتهامسون بأنّ لديه قصر يغص بالنساء: «حريم». ويغطي صدره العريض الوشاح الأزرق وغيره من الأوسمة الرفيعة الشأن. وكل واحدة من كتّافتيه تزن نصف كيلوغرام. وكان يمسك بطرف أصابعه منظاراً ذهبياً صغيراً. وردّ بانحناءة خفيفة من جذعه على الصمت التكريمي الذي حياه به الجمهور، واحتل مكانه في أريكته. عند ذلك استؤنفت الأحاديث، بين مدّ وجزر. ومن يرى تلك الصالة الأنيقة يصعب عليه أن يصدّق أنّ طوفاناً مرعباً كاد يدمر المدينة تماماً،

قبل بضعة أيام. فبعد أن دُفن الموتى، ونُظّفت الشوارع، دفعت غريزة حب البقاء الناس المحظوظين إلى تناسي مصائب الآخرين.

وطغت الألحان الأولى التي عزفتها الفرقة الموسيقية على أحاديث المشاهدين. وأعلن عن رقصة باليه، بعنوان: «أسيس وغالاتيه»: «Aeis galatie»[1]. وفجأة، رفعت الستارة. وعلى المسرح، المزدان بالنباتات الخضراء، انطلقت وجوه نسائية، برشاقة وخفة عجيبتين، والعملاق الأسطوري المخيف «بوليفيم» أخذ يدور ويقفز، وقد أكلت قلبه الغيرة، حول الحورية الحسناء والراعي المتيم بحبّها. كانت الممثلة «تيليشوفا» تقوم بدور «غالاتيه» و «نوفتسكايا» بدور «أسيس» وأخذتا تتنافسان في إظهار روعة وسحر مواقفهما. ولكل منهما معجبوه، الذين كانوا يصفقون بحماسة وقوة بعد الخطوات الصعبة التي تقومان بها، وأثناء ذلك، لم يكن «يوري ألمازوف» يرى من كل فرقة راقصات البالية سوى راقصة صغيرة، كانت من وقت لآخر، تقوم بدورة على قدم واحدة، أو تضرب الأرض بقدميها، وهي في النسق الثاني بين الراقصات.

وكان يتمتم من وقت لآخر:

- أليست رائعة الجمال؟!

كانت تلك هي محبوبته «كاتيا» التي تحظى بحماية أحد تجار الخشب الأغنياء. وعند انتهاء الفصل الأول، تعالت هتافات الجمهور، وغطّت باقات الزهور خشبة المسرح. وبدافع من رقته الزوجية، شعر «نيقولا» بالأسى لأنّ «صوفيا» لم تكن إلى جانبه لكي تتمتع بذلك

١- في الأساطير اليونانية، انّ «أسيس» وهو راعٍ صقلي، أحبته «غالاتيه» وأحبها، فتحول الى نهر كي ينجو من بطش الجبار «بوليفيم» الذي اراد ان يسحقه تحت صخرة ضخمة بدافع الغيرة -المترجم-

المشهد. و «يوري ألمازوف» الذي احمرّ وجهه من التأثر والانفعال، اندفع مسرعاً نحو الممرات والكواليس في خلفية المسرح. وهو يضع يده على سيفه، ومهمازاه يرنّان. وتبعه «نيقولا» و «كوستيا»، فوجدوا أنفسهم بين العمال الذين كانوا يغيرون الديكورات. وكانت بعض مصابيح الزيت لا تنير جيداً المكان الذي يغص باللوحات الكبيرة، بالحبال، بالبكرات وبالرافعات. وكانت «كاتيا» الصغيرة، تسترد أنفاسها وترتاح، مستندة على أحد الأعمدة. وقد غطى فستانها الوردي الشفاف، وشاح قبيح الشكل وبني اللون، وتدلت من شعرها بعض الأزهار المصنوعة من الورق. وكان أنفها ذلفاً مدبباً، وتفوح منها رائحة خفيفة من تعرق جسمها.

وأخذ «يوري ألمازوف» يردّد، وهو يقبّل يديها:

- رائعة! رائعة!

اسمحي لي أن أقدم لك صديقيّ، وهما من المعجبين بك أيضاً.. ولم يستطع أن يضيف على ذلك شيئاً، لأنّ «ديدلو» رئيس الفرقة أتى وهو يصيح:

- هيا! الراقصات إلى مقصوراتهن! والمشاهدون إلى القاعة، ليس هذا وقت الثرثرة! تفضل بالانسحاب، يا حضرة الضابط!

فهربت «كاتيا» وأراد «يوري ألمازوف» أن يتبعها، ولكنّ «نيقولا» أمسك به ومنعه من ذلك.

واجتاز المسرح موكب غريب: خمسة من عمال المسرح ببزّاتهم الحمراء وجواربهم البيضاء، أخذوا يسيرون وهم يحملون سلالاً ضخمة ملأى بالورود، وخلفهم كان يمشي الكونت «ميلورادفيتش» وسار الجميع في الممر، وتوقفوا أمام باب مقصورة «تيليشوفا». وبينما كان حاكم «سان بطرسبورغ» يقرع الباب، أخذ «ديدلو» يردّد الأمر للأشخاص الذين لا ينتمون إلى الفرقة، بوجوب مغادرة الممرات على الفور.

وقال «نيقولا»:

- هيا! تفرقوا أيها الناس. فالعملاق «بوليفيم» سيقوم بمغازلة محظيته المفضلة!

فسمعه بعض الزوار. وحصلت عند ذلك بعض الضحكات المكتومة. وتقدم ثلاثة راقصين أقوياء، بملابس آلهة الأمواج، يعتمرون باروكات خضراء، ويحملون على سواعدهم أذيالهم السمكية، كالمناشف، وتكفّلوا بدفع الدخلاء، بكل أدب وتهذيب، نحو الأبواب.

وبعد انتهاء العرض، لم يستطع «يوري ألمازوف» أن يلتقي بـ «كاتيا»، التي كانت مدعوة لتناول طعام العشاء مع عشيقها ومعيلها الغني، ومن شدة يأسه اقترح على صديقيه تمضيه بقية السهرة لدى الغجريات. وعاد «نيقولا» إلى المنزل عند منتصف الليل، دون أن يكون قد احتسى سوى الشمبانيا. كان صاحياً جداً، وإن كان رأسه يزخر بالأغاني.

كان «أنتيب» ينتظر سيده، وهو يغفو على إحدى الأرائك، وبالقرب منه مصباح مشتعل.

فقال بصوت ضعيف، وهو ينهض واقفاً:

- لقد أحضر أحدهم لك رسالة، قبل قليل، يا سيدي.

- من؟ أحدهم؟

- «تمارا كزيميروفنا» البولونية، أحضرتها بعد أن خرجت أنت من هنا.

فأخذ «نيقولا» الرسالة التي ناوله إياها «أنتيب»، فض مغلفها، وقرأ فيها هذه الأسطر، التي كتبت بعناية:

المحترم «نيقولا ميكايلوفيتش»، لقد سافرت أختي صباح اليوم إلى «تولا»، حيث خالتنا، المريضة تحتاجها هناك كي تعتني بها. ولأني بقيت وحيدة، فكّرت أنّ بإمكاننا أن نتناول طعام العشاء سوية، كما كنت قد

تكرمت باقتراح ذلك عليّ. وإذا كان هذا المساء يناسبك فسيسرني هذا كثيراً، وإلا فسيكون في أمسية أخرى، كما تريد وحسب رغبتك.

وأرجوك أن تقبل، يا «نيقولا ميكايلوفيتش» احترامي وتحياتي الحارة.

فبدت على شفتيه ابتسامة تنم عن السرور. كانت «تمارا» قد خرجت من ذهنه خفية ودون أن يشعر بذلك، وها هي تعود إليه، بشكل مفاجئ. فشعر فوراً بالسعادة من هذه المغامرة السهلة التي لاحت له. وهذه البولونية الحسناء هي، بالضبط، التي كان يحتاج إليها في ذلك الوقت: فهي متواضعة، متكتمة، وأجمل مئة مرة من «كاتيا» التي يحبها «يوري ألمازوف»! ومن المؤسف أن يكون الوقت متأخراً جداً من أجل دعوة الفتاة لتناول طعام العشاء. ولكن، ربما لم تكن قد نامت بعد؟!

وتناول المصباح من يد «أنتيب»، نزل على الدرج، سار في رواق الطابق الأرضي، وقرع برفق أحد الأبواب، وفي الداخل، حدثت حركة غامضة: صوت وقع أقدام حافية على أرضية الغرفة، الخشبية: وهمس صوت ناعم:

- من هناك؟

فقال «نيقولا»:

- أنا، «نيقولا ميكايلوفيتش أوزاريف» لقد قرأت للتوّ رسالتك ومن الضروري جداً أن أتحدث إليك. افتحي لي الباب.

- لا أستطيع.

- لماذا؟

- لقد أويت إلى سريري.

- لا أهمية لذلك، ضعي أي ثوب على منكبيك.

- ألا نستطيع الانتظار إلى الغد.

- كلا، غداً سيكون قد فات الوقت!

- يكون فات الوقت على ماذا؟

- يستحيل عليّ أن أشرح ذلك لك الآن، ونحن في هذا الوضع، يجب أن أراك مهما كلّف الثمن. وكل دقيقة نضيعها تزيد الوضع حرجاً وخطورة. هيا افتحي بسرعة! بسرعة!

وسمع حركة تدل على أنها فتحت خزانة ما فتبادر إلى ذهنه: المهم، ألا ترتدي من الملابس أكثر مما ينبغي. وأخيراً، اقتربت وواربت الباب، وشعرها الأشقر منسدل على كتفيها. وقد ارتدت مئزراً أصفر اللون، مصنوعاً من القماش السميك، فوق قميص النوم الرقيق.

وتمتمت، وهي تحملق بعينها بقلق واضح:

- ماذا يحدث؟

فصاح «نيقولا» وهو يدفعها إلى الغرفة:

- الذي يحدث هو أنني أحبك!

وسارت الأمور كما كان يتوقع: «تمارا» التي تكنّ تقديراً كبيراً، لسيد، له أهميته، استلقت واستسلمت لمداعباته بخضوع لا يخلو من الفضول. وفي اللحظة التي استسلمت فيها تماماً، أخذت تئنّ وتتوجع! فقد كانت عذراء، فشعر بسبب ذلك بشيء من الزهو والارتباك. وبعد ذلك لم تعترض أو تحتج. ولأنّ البرد كان قارساً في غرفتها، لا يتيح المجال للتمتع كما ينبغي بممارسة الحب وتذوقه، فقد اصطحبها «نيقولا» إلى منزله، وعندما رأى «أنتيب» سيده يعود ومعه البولونية، فتح فمه، وكأنه يريد أن يعترض على ذلك، وهذا الاستياء الصامت أغاظ «نيقولا» الذي كان يتمنى ألاّ يكون هنالك شاهد على فعلته. وطلب منه أن يحضر له شمبانيا وبعض الفواكه إلى غرفته، وحدجه بنظرة قاسية: نظرة السيد إلى عبده، وأغلق الباب بالمزلاج.

وكانت حرارة المدفأة، وأبخرة الخمر، وعذوبة القبلات قد أرضت «تمارا» وجعلتها تبدو سعيدة وفي غاية الامتنان، وأخذت تقول لـ «نيقولا» وتردّد على مسامعه بأنه أكثر جمالاً وثقافة من أن تستحق معاشرته لها، وأنها مهما حدث بعد ذلك، فإنها ستصلي وتدعو الله لكي يحفظه، لأنه غمرها بسعادة ستنعم بها طوال حياتها. وشعوره بأنه شخص متميز، وإن كان بنظر امرأة ليست سوى خياطة، أعطاه طاقة جعلته يستمر ساهراً معها حتى الساعة الخامسة صباحاً. وقبل أن يستيقظ البواب، اقتادها إلى غرفتها وهي متعبة، واهية العزم.

وقال لها:

- حالما يتاح لي الوقت للقائك، سأحضر واقرع باب غرفتك وإلى ذلك الحين، عليك أن تكوني عاقلة.

فقالت له:

- نعم، نعم! سأطيعك، وانتظر..

فوجد أنها رائعة، وصعد لينام، وهو مسرور لأنه وفّق بهذه المغامرة.

وفي اليوم التالي، عندما قفز من سريره، نادى «أنتيب»، حكّ رأسه، وغمغم، بلهجة تنم عن اللامبالاة:

- بالنسبة لما حدث الليلة الماضية، فإني اعتمد على تكتمك. وإذا تكلمت عن ذلك لأيّ كان، فستكون عقوبتك شديدة، وسأسلخ لك ظهرك!

فقال «أنتيب» وهو يتنهد:

- أرادتك هي الأقوى، يا سيدي!

كان يبدو فظاً ومنطوياً على نفسه، ولا شك بأنه كان يحتفظ برأيه على الرغم من التهديد الذي وجهه له سيده. ولم يكن «نيقولا» يستطيع أن يتحمل لوم فلاح عبد، حتى وإن كان بالصمت، على خيانته

لزوجته. وشعر، بشكل مفاجئ، أنه يتفق بالرأي مع الملاكيْن، اللذين كانا يتذمّران ويشكوان فلاحيهما، في تلك الحفلة المسرحية.

وطوال النهار، قاطع «أنتيب» سيده كان، تارة يتحاشى أن ينظر إليه، وتارة، يوجه له نظرة حادة، ويغمغم:

- آخ! آهاً، آهاً! فليغفر لنا الله خطايا اليوم، وليتذكر حسناتنا بالأمس وفي الغد!

أو أنه يقول:

- ماء النهر يبدو نظيفاً، ولكن انزل فيه، تغوص قدماك في الوحل!

فيسأله «نيقولا» غاضباً:

- ماذا تعني بما تقول؟

- لا شيء، لا شيء! كنت أحلم بصوت عالٍ.

وفي المساء، استدعى «نيقولا» «تمارا» من جديد إلى غرفته. وبعد أن أغلق الباب، بصق «أنتيب» من فوق كتفه.

★★★

وفي الأيام التالية، انشغل «نيقولا» كثيراً بالسياسة وبقضية بيع المنزل. وقد عمد «موكانوف» في نهاية الأمر، إلى نشر إعلان في الصحف مفاده أنّ منزل آل «أوزاريف» معروض للبيع. وبين المشترين الكثيرين الذين تقدموا بعروضهم، بدا واحد فقط أنه جادّ في عرضه، وهو الكونت «ديرجنسكي». ومع ذلك فإنه كان ينتقد قيمة البناء بلهجة فظة لا تليق بمركزه. وعرض آنذاك خمسة وسبعين ألف روبل على شكل حوالات حكومية. بينما كانت القيمة المقدرة للمنزل هي مئة ألف روبل. وكان يبدو أنّ المساومات سيطول أجلها، وستكون دقيقة وحساسة، ولكنّ «نيقولا» لم يكن مستعجلاً لإنهائها. وكان مركزه أصبح أقوى من أي وقت كان

بين النشطاء الذين يعملون من أجل الإصلاح. وكانت الاجتماعات السرية تتوالى وتتعدّد، تارة في منزل «كوستيا» وتارة في منزل «ستيبان بوكروفسكي»، ومعظم الأحيان، في منزل «كونراد ريلييف». وبعد أن رفض أعضاء «اتحاد الشمال» مقترحات «اتحاد الجنوب»، أخذوا يبذلون جهداً كبيراً لوضع منهاج للتفاهم الداخلي، بين أعضاء اتحادهم. وأثناء ذلك كانت الخلافات بالرأي تتعمّق خلال المناقشات وتزداد وضوحاً «فالمعتدلون» بزعامة «نيكيتا مورافيف» يرغبون إقامة ملكية دستورية، بينما يتمسّك «الحازمون» بزعامة «ريلييف» بإقامة الحكم الجمهوري. وكأنّ العميد «بيستيل» أراد أن يزيد من حدة هذه الخلافات وهذه الفوضى، عندما أعلن عن قيامه بزيارة «سان بطرسبورغ» قريباً. وكان أولئك الذين رأوه أثناء زيارته الأخيرة، للعاصمة في شهر أيار «مايو» سنة ١٨٢٤ كانوا يتصورنه شخصاً مخيفاً بنفاذ بصيرته، بقوة سلطته وبدقة حساباته، وبكونه لا يتردد بالدعوة إلى قتل القيصر. وكان «نيقولا» يتشوق لمقابلته، ولكنه كان يخشى من كونه جديداً في تلك الرابطة، بحيث لا يستطيع حضور مثل هذا الاجتماع المهم، ولكنّ فرحته كانت كبيرة عندما أبلغه «كوستيا» دعوة موجهة من قبل «ريلييف» لحضور الجلسة التي ستعقد الساعة السابعة مساء من يوم الأحد التالي.

كان مقرّ «الشركة الروسية- الأمريكية» يقع على حدّ «مويّكا» «la Moika»، بالقرب من الجسر «الأزرق». وعلى نوافذه المطلة على الشارع، قضبان حديدية لحماية المقر. وأمام الباب، التقى «نيقولا» بـ «كوستيا» و «فاسّيا» اللذين أتيا سوية. وكان الرواق يغص بكدسة من المعاطف المدنية والعسكرية. والقبعات المتنوعة والمختلفة الألوان والأشكال مصفوفة على أحد الرفوف. وفي إحدى الزوايا، كانت تلمع مجموعة جميلة من السيوف التي كانت تستند إلى الجدار. وحاجب «ريلييف» القوزاقي الصغير،

استبدت به الدهشة، حتى لم يكن يسأل عن أسماء الزوّار، الذين كانوا يدخلون، دون أن تُعلن أسماؤهم.

و «نيقولا» الذي كان يتذكر هذا المنزل، بغرفه الصغيرة والنظيفة- وستائر نوافذه المصنوعة من القماش الأبيض الشفاف «الموسّلين»، و «الحسون» في قفصه، وأصص النباتات التزينية على حافة نوافذه، وممراته المغطاة بالقماش الأزرق فوق أرضيته الخشبية- لم يعرف المكان في بداية الأمر. وكانت الأبواب التي تصل بين الصالون والمكتب وغرفة الطعام، قد نزعت درفاتها من أماكنها. وأزيلت جميع قطع الأثاث غير الضرورية، لتحلّ محلها منضدة كبيرة عليها غطاء أخضر. وكان هنالك بضعة كراسي، غير متجانسة يربو عددها على العشرين، مصطفّة قرب الجدران. وبالطبع سيظل أكثر من نصف المشاركين على الأقل واقفين أثناء الاجتماع. ومنذ البداية، كان هنالك كثير من الناس لدرجة أنّ النوافذ قد فُتحت لطرد رائحة التبغ. ولم يكن «بيستيل» قد أتى بعد. وكانت الوجوه تبدو عليها الجدّية. وسلّم «نيقولا» على «ريلييف» الذي بدا له في آن واحد، عصبياً ومرتدياً أجمل ثيابه. ولإخفاء تذمره ونفاد صبره، أخذ يتحدث إلى شابين عن مسرحية لـ «غريبويّدوف» عنوانها: «بلية التمتع بأكثر مما ينبغي من الفهم والذكاء» التي يعتبرها مدهشة، ويعجب بها كثيراً، ولكن الرقابة الحكومية منعت نشرها، وتمثيلها على المسارح.

وعندما رأى «نيقولا» صاح بأعلى صوته:

- بالمناسبة، أتعرف يا صديقي أنّ شاعرنا الكبير: «بوشكين» بعد أن أبعد إلى الجنوب، حُددت له الإقامة الجبرية في إحدى ملكيات أهله، الواقعة في ولاية «بيسكوف»؟

- فعلاً، لقد سمعت بذلك.

- إنه جارك إذن.

- جاري، ولكنه في مكان بعيد بعض الشيء.

- ومع ذلك، فعليك أن تقوم بزيارته، فهو يعاني من الملل الشديد، في عزلته!

فقال «نيقولا» متأوها:

- لكم أتفهم وضعه! فأنا، لو استطعت لما عدت إلى الريف أبداً!

وتابع النظر بحبّ وشوق حوله وإلى ما يحيط به. كان «نيكيتا مورافيفّ» ببزته الرسمية الأنيقة، جالساً قرب النافذة، لا تنمّ قسمات وجهه عن شيء، عيناه صفراوان شعره أشقر وناعم، وأخذ يتناول من جيبه أوراقاً صغيرة، يقرأ ما كتب عليها، ثم يخبئها من جديد، وكأنه يراجع درساً ليحفظه جيداً. ولأنه ملكي متحمس، ومؤلف دستور «الشمال» فقد كان عليه أن يصقل حججه ويهيئها لكي يستخدمها ضد زعيم المتآمرين، أعضاء «اتحاد الجنوب». وتركه «نيقولا» مستغرقاً في تأملاته، وانضم إلى مجموعة كان يهيمن عليها صوت «بستوجيف» المدويّ. كان أفراد المجموعة يناقشون التناقضات التي تتسم بها طباع «بيستيل». فوالده، الحاكم العام السابق لـ «سيبيريا»، كان رجلاً أحمق، فظاً وقاسياً، معجباً بنفسه، وفوق كل ذلك، فقد كان مبتزاً ومختلساً، وأخيراً عزل من منصبه وأحيل إلى القضاء. وكان يمكن الاعتقاد، أنه كرد فعل ضد ذكرى هذا الحاكم الريفي المستبد، قد اختار المدير الحالي «لاتحاد الجنوب» أن يسلك طريق الثورة. ولكن يبدو أنه ورث منه بعض طباعه، فهو الذي يدعو إلى التحرر والحرية، كان عميداً شرساً لا يلين، يأمر بجلد جنوده من أجل أقل خطأ يرتكبونه أثناء الخدمة.

وقال «بيستوجيفّ»:

- إنّ فوجه مشكل من رجال آليّين! وعاهلنا، وهو الخبير سبق له، على ما يبدو، أن هنأه على شدة انضباط جنوده، بعد أحد الاستعراضات في «تولتشين»!

فقال «نيقولا»:

- ماذا لو أنّ القيصر عرف أنه يوجه كلامه وتهنئته لأحد المتآمرين!

لقد عرف عنه هذا، بالتأكيد، بعد ذلك.

- هذا غير ممكن!

- إيه! بلى، يا «نيقولا ميكايلوفيتش»! وعليك أن تعلم تماماً أنّ الإمبراطور مطلع، بواسطة جواسيسه، على اجتماعاتنا السرّية. ولكن أسماء الأشخاص المشبوهين تطمئنه. فجميعهم، تقريباً من الضباط وكبار الموظفين، أو من نبلاء الطبقة الأرستقراطية، ولذلك فهو يقول في سرّه: «لا شيء يخشى من هؤلاء الناس! إنهم لن يعملوا على دفع الشعب للقيام بالثورة ليتمتعوا برؤية فقدانهم لامتيازاتهم في هذه المغامرة!» وبقدر ما يشعر «أليكسندر» أنه مهدّد عندما يسمع عن جنود يتمردون ضد رؤسائهم العسكريين بقدر ما يبدي من حلم حيال الرؤساء العسكريين الذين يحلمون بتحقيق مستقبل أفضل للبشرية!

فقال «ريلييف» وهو يقترب من «بيستوجيفّ»:

- أنت تتعلّل بالأوهام. «أليكسندر» صديق المثاليين من جميع الأنواع، كان هذا صحيحاً في الوقت الذي كان فيه يؤيد تأسيس «المجتمع التوراتي». أما الآن، فإنّ رابطة ذلك التجمع، التي كان يجب أن ينضم إليها كل من يرغب بالحصول على امتياز أو تقدم سريع، قد حُلت بقرار إمبراطوري استبدادي أصدره حاميها وراعيها السابق. وكل ما يشبه من قريب أو من بعيد منظمة سرية يثير شكوكه ومخاوفه، وحتى لجان إغاثة ضحايا ومنكوبي الفيضانات تقلقه وتشغل باله. وأن يتحدث شخصان فيما بينهما، على انفراد، وبصوت خافت، فهذه مؤامرة، وأن يعطس أحد الجنود أثناء الاستعراض، فهذه بداية لفتنة وهياج شعبي، وإذا صرخ الناس: «هورّاه!». مرحى! عند مرور موكب القيصر، فإنه يعتبر ذلك طريقة للسخرية به! وكل

هذه الأخطار الوهمية تحجب عن نظره الخطر الحقيقي الوحيد! فهو لا يرانا عبر الحقيقة والواقع، لأنه يرانا أكثر مما ينبغي عبر أحلامه!

فقال متآمر آخر:

- لنعد إلى «بيستيل»: إني في أول مرة التقيت به، تذكرت «نابليون»، في الحال!

وقال «بيستوجيف»:

- وأنا، فكرت على الفور بـ «روبسبيير».

فقال «نيقولا»، وهو يقهقه بضحكة مغتصبة:

- يا له من خليط مخيف! إنه ينذر بحصول مناقشات حادّة وعاصفة!

ووصل مدعوون آخرون، عُرف من بينهم المتآمرون: «كوهيلبيكر»، «أودويفسكي» و «بانتكوفّ». وأصبح صخب المناقشات يصمّ الآذان. وعلى جدار مكتب العمل، فوق الرؤوس، علق مصور أمريكا. وقد أشير فيه إلى المؤسسات الروسية الكائنة على شاطئ المحيط الهادي وفي الجزر القريبة منه، بأعلام حمراء صغيرة. وكان يبدو أنه أمر لا يصدق، أن يكون بعض رعايا القيصر قد غامروا بالذهاب إلى «كاليفورنيا». ومع ذلك فإنّ حكومة واشنطن كانت قد احتجت على هذه المحاولة الاستيطانية الاستعمارية وكان من المحتمل أنّ الوزير «مورفينوفّ» في «سان بطرسبورغ» سيقبل بتسوية، تثبت بموجبها حدود مختلف الملكيات، وتعلن حرية التجارة. فاستغرق «نيقولا» في أحلامه، وأخذ يفكر بأبناء وطنه، الضائعين في تلك المنطقة الموحشة. ولا شك في أنّ نقل الحضارة إلى منطقة بدائية وعذراء، أمر يثير النشوة والإعجاب! ولكنّ المتآمرين، كانوا هم أيضاً روّاداً! وقال «نيقولا» في سره: «إني للمرة الأولى في حياتي عرفت ماذا يشعر به المرء عند بداية القيام بعمل عظيم.» وقطعت عليه سلسلة أفكاره حركة سرت بين الحاضرين، وسمع همساً، انتشر حوله:

- لقد وصل!... أفسحوا له الطريق!.. أيها السادة، أرجوكم أن تفعلوا ذلك!..

فانتصب «نيقولا» واقفاً على رؤوس أصابع قدميه، ورأى رجلاً قصير القامة، يدخل إلى القاعة، مرتدياً بزة رسمية خضراء اللون، ياقتها عالية حمراء، ومزدانة بكتافيات ضابط عالي الرتبة. وكان في عينيه السوداوين الغائرتين تحت حاجبيه المقوّسين، في وجهه الممتلئ والشاحب، نظرة جامدة، تنم عن حب السيطرة. وعلى شفتيه السميكتين بدت ابتسامة تتسم بشيء من الازدراء. وشعره الخفيف مسرح ومنسدل إلى الأمام، وعلى صدغيه، حسب الطريقة العسكرية. ولاحظ «نيقولا» أوسمة القادم الجديد: «وسام سانت آنّ»، «وسام الاستحقاق» والسيف الذهبي الذي يحمل عبارة: «تكريماً للشجاعة وشدة البأس»، وكل العلامات المميزة لأحد أبطال الحرب الوطنية! أما فيما يتعلق بالشبه بـ «نابليون»، فيبدو أنه كان أخلاقياً أكثر مما هو جسدياً. وشدّ «بيستيل» على بعض الأيدي، ثم تخلى عن مصافحة البقية، قائلاً:

- إنّ عددكم كبير جداً، ولو تابعنا، لما انتهينا من ذلك! واصطحبه صاحب المنزل إلى المنضدة الكبيرة. وكان يتدلى من السقف مصباح زيتي ضخم. وجلس الأشخاص المهمون حول المنضدة ذات الغطاء الأخضر، كأنهم يهمون بلعب الورق. وبقي الآخرون، وبينهم «نيقولا» واقفين بجانب الجدار. وأعلن «نيكيتا مورافيف» أنّ الجلسة قد افتتحت، وأعطى الكلام لمدير محكمة الجنوب، العميد «بول ايفانوفيتش بيستيل».

الذي قال:

- لقد عدت إليكم، لأنه بدا لي أنّ الضرر يتزايد باستمرار لأنّ «اتحادينا» اللذين يستلهمان مثلاً أعلى واحداً، لم يوحدا جهودهما من أجل أن ينتصر ويفوز هذا المثل الأعلى. وبعد زيارتي الأخيرة، لا بد أنكم قد

لاحظتم أنّ فساد نظام الحكم قد ازداد انتشاراً وعمقاً. وفي الحالات الخطيرة، لم يعد الطبيب يلجأ إلى الأدوية والمعالجة، بل يعمد إلى البتر. وساعة أنصاف الحلول قد ولّت. ولا نستطيع أن نسمح لأنفسنا «بتجبير» النظام الملكي وإصلاحه عن طريق تزويده بدستور نضعه له. فنحن نريد إقامة نظام جمهوري...

فقال له «ريلييف»:

- الكثيرون بيننا يفكرون مثلما تفكر، ويأخذون بهذا الرأي، ولكنّ ما نريد معرفته هي الطريقة، والوسائل التي تعتقد أنها ستمكننا من التوصل إلى تحقيق هذه النتيجة.

- سيتمرد الجيش، ينتفض ويثور على أمر قادته، ويرغم القيصر على التنازل عن العرش.

فقال «بيستوجيفّ»:

- حسن جداً، وبعد ذلك؟

- بعد ذلك، سوف نجبر «المجلس الكنسي» و «مجلس الشيوخ» على إصدار مرسوم بتشكيل حكومة مؤقتة.

فسأله «نيكيتا مورافيفّ» بلهجة لطيفة، كما لو كان يسأله عن أخبار أحد أقربائه المقرّبين:

- وماذا ستفعلون بالقيصر؟

فتوهّجت عينا «بيستيل» تحت جبينه العريض، العاجي اللون. وقال بلهجة حاسمة:

- عندما ينظّف الدرج، يبدأ التنظيف من الأعلى!

حدّد وأوضح فكرتك.

- لقد سبق لي أن قلت لكم ذلك: فأنا أرى أنه لا يكفي أن نُبعد القيصر، حتى وهو في المنفى، يمكن أن يُخشى شره، بسبب أنصاره الذين

يكون قد احتفظ بهم وتركهم في البلاد. يجب تنظيف المكان تماماً. وبالملوك الأموات، تشاد الجمهوريات الحيّة!

كان الجميع يتوقعون هذا التصريح، ومع ذلك فقد أثار الدهشة كصرخة تجديف محرّمة تدوّي في إحدى الكنائس. وتجمدت قسمات الوجوه عبر الإنعكاسات الخضراوية الصادرة عن المنضدة، وأعقب ذلك فترة صمت طويلة. و «نيقولا» الذي كان يعتقد أنه ثوريّ، شعر أنه أصبح ملكياً. وأخذ يتأمل برعب ذلك الذي تجرأ على التحدث عن قتل مليكه.

ومن المؤكد أنّ «بيستيل» كان من طينة أخرى مختلفة عن طينة متآمري الشمال، الذين كان لسياستهم صبغة شاعرية، فلسفية، تسودها الأحلام الإنسانية، إنهم جماعة فكر، أما هو فكان رجل عمل. فتأوّه «نيكيتا موراييف»، وقال:

- إنّ قناعاتي الأخلاقية والدينية تمنعني من تقبّل فكرة كهذه، يا «بول ايفانوفيتش». وعلاوة على ذلك، فإني متأكد أنّ الشعب سينتفض ويثور برعب شديد ضد قتلة القيصر. ولا تنس أنّ القيصر معيّن من قبل الله ويوحى إليه من قبله، بالنسبة لنا، نحن الروس!

و «بيستيل» الذي كان من أصل ألماني، أدرك أذيّة فكرته التي طرحها، وردّ بقوله:

- إنّ شاه فارس، من جهته، يدعي أنه ابن الشمس وأخ القمر. فهل هذا الادعاء يزيد من تقديرك لهذه الشخصية؟

- لا يجوز إجراء هذه المقارنة...

- بلى! فأيّ حاكم فرد مستبد مساوٍ لنظيره الآخر، والذي يختلف بينهما هو مساحة أرض المملكة وشكل التاج. وأنا أؤكد أنّ أكثر الناس بساطةً عندما يرون إلى أي درجة كان من السهل قتل القيصر، سوف يدركون أنّ ادعاءه القدرة على القيام بكل شيء يستند على كذبة كبيرة!

وسأله «ريلييف»:

- وماذا سيكون مصير أفراد الأسرة المالكة؟

- منطقياً، ينبغي أن نقضي أيضاً على حاملي لقب: «الدوق الأكبر» وحاملات لقب: «الدوقة الكبرى». لأنه إذا بقي للأفعوان رأس فإنه يستطيع أن يعض ويلدغ! بهذا ردّ «بيستيل» وكان يتكلم بكل هدوء، وكأنه يبرهن على إحدى النظريات، ومع ذلك، ، فمن حوله كان ينتشر البرد والموت.

وتمتم أحدهم:

- إنك تدعونا للقيام بمذبحه!

فردّ «بيستيل»، قائلاً:

- بل إني أدعوكم للقيام بعملية تطهير وتنظيف، ولكن، في سبيل إقامة التحالف بين «اتحاد الجنوب» واتحادكم، فسأكون مستعداً لتقديم بعض التنازلات بشأن هذه النقطة:

وهكذا فإني أوافق، على إبقاء حاملي لقب: «الدوق الأكبر» و «الدوقة الكبرى»، على قيد الحياة، شريطة أن يتم إبعادهم، ومن أجل تنفيذ هذه العملية، أستطيع الاعتماد على مساعدة الأسطول الراسي في قاعدة «كرونستاد» البحرية، القريبة.

فقال «نيكيتا مورابيف» وهو يبتسم من طرف شفتيه ابتسامة ذات مغزى:

- هذا كرم عظيم، منك!

فقال «بيستيل»:

- نعم، ألا يكفيكم هذا؟

فهزّ «نيكيتا مورابيف» رأسه، بالنفي.

فاستأنف «بيستيل» الكلام، قائلاً:

- حسن، إني أقترح عليكم شيئاً آخر:

سوف يتولى أمر تدبير اغتيال القيصر بعض رجالي، ولن تشاركوا في هذه المؤامرة. وتظل أيديكم نظيفة!

- والضمير؟!

- الضمير، يسهل غسله أكثر من الأيدي، في حال النجاح! وبالطبع، فإننا عندما نأخذ على عاتقنا القيام بالجانب الشنيع من العملية، فنحن نطلب منكم بعض الضمانات. وإذا كان عرضنا هذا بالمشاركة يرضيكم، ويحظى بقبولكم، فعليكم منذ الآن، أن تتبنوا الدستور الذي وضعته، وأن تؤكدوا بأنه لن يكون هنالك دستور آخر، غيره في روسيا.

و «نيكيتا مورافيفّ» الذي شعر أنّ كبرياءه قد مسّت، باعتباره رجل قانون، ردّ بقوله أنه يفضل الدستور الذي وضعه هو. وأعقب ذلك تبادل بالعبارات الحادّة. و «بيستيل» الذي كان أكثر حزماً وقوة في أجوبته، استطاع بسرعة أن يبرهن على أنّ الأسلوب الذي اتبعه خصمه، في وضع الدستور كان عبارة عن تزويق أخرق لنظام الحكم القائم آنذاك.

فقال «نيكيتا مورافيفّ» باستياء:

- إنّ دستوري هو عبارة عن مشروع، أنا على استعداد لتعديله وإعادة النظر فيه، حسب تطور الأحداث!

فصاح «بيستيل»:

- لا يمكن مجابهة الحقيقة والواقع واقتحامهما، مسلحاً بمشروع! يجب أن تكون لديكم الشجاعة لتفتحوا أعينكم على المستقبل. ولا بد من أن يمتد طريقنا من العبودية التامة إلى الحرية المطلقة. وليس لدينا شيء، ونريد الحصول على كل شيء. ولماذا، باعتقادكم، أنا عنونت دستوري: «الحقيقة الروسية»؟ ذلك لأنّ جميع الشعوب الأوربية التي ترزح تحت الاضطهاد المقيت، الذي توجهه لها الطبقة الأرستقراطية التي تملك السلطة والأموال، سوف تستوحي، ذات يوم هذه «الحقيقة الروسية» لكي تهزّ النير

الذي يستحقها وتلقي به بعيداً. وثورة سنة «١٧٨٩» لم تكن سوى فرنسية، أما ثورتنا فستكون عالمية!

فصفق له بعض الحاضرين.

وسأله «ريلييف»:

- ومن، حسب رأيك، سيقود الحركة الثورية؟

فأجابه «بيستيل»:

- سيقوم مجلس إدارتكم ومجلس إدارتنا بتعيين «ديكتاتور» حاكم مطلق، سيكون على الرابطتين أن تطيعاه على العمياء.

- وهذا «الديكتاتور» سيكون أنت؟

فهزّ «بيستيل» كتفيه، وقال:

- ليس بالضرورة، فالأكثرية هي التي ستقرر ذلك. وعلاوة على هذا، فأنا لديّ عائق يمنعني من تولي هذا المنصب: إذ إنّ اسمي ليس روسيّاً!

وعندما قال ذلك، وجّه نظرة تنمّ عن الكراهية لـ «نيكيتا مورابيفّ» الذي كان يراجع أوراقه استعداداً لهجوم جديد، كان يتوقعه.

فصاح «كوهلبيكر»، ذلك الرجل الطويل والنحيف:

- ليس من الضروري للمرء أن يحمل اسماً روسيّاً لكي يعرف أين يكمن خير الوطن ومنفعته! وسيكون ممكناً، على الدوام، بالنسبة لك، إسكات الوشايات والافتراءات، بالتخلي عن السلطة، والعودة، كما فعل «واشنطن»، إلى صفوف المواطنين العاديين!

فهمس «كوسيتا» في أذن «نيقولا»:

- أن نعتبر «بونابرت» كواشنطن، ونقارنه به، فيا لها من مقارنة خاطئة!

وقال «ريلييف»:

- على أي حال، أعتقد أنّ الحكومة المؤقتة لن تدوم طويلاً: سنة أو سنتين، على أبعد تقدير..

فردّ «بيستيل»:

- أوه! كلا، إننا سنحتاج لعشر سنوات لكي نستطيع إقامة النظام الجديد.

- وهذا النظام الجديد، سوف تفرضه بالقوة؟

فقهقه «بيستيل» ضاحكاً، وسأله:

- وهل تعرف وسيلة أخرى للقيام بذلك؟ فهنالك كثير من العادات السيئة التي ينبغي إبطالها وإلغاؤها! وفي روسيا الجديدة، لن يرى أحد رأساً أعلى من الآخر، وسيولد النمو والازدهار من المساواة، وستتحقق السعادة عن طريق التطابق وتوحيد الصيغ والأشكال. وسوف نلغي الرقّ والعبودية، وسوف نزيل جميع الامتيازات والفروق المتعلقة بالثروات وبالأوضاع الاجتماعية: فلن يكون هنالك، بعد ذلك لا أغنياء ولا فقراء، ولا أمراء، ولا عوامّ، ولا برجوازيون ولا فلاحون! وسيكون للأطفال الطبيعيين الحقوق نفسها التي يتمتّع بها الأطفال الشرعيون. وسيعطي التعليم الإلزامي في مؤسسات الدولة. وسوف يدان كل نوع من أنواع التربية الخاصة، باعتباره يشكل خطراً على تكوين وتأهيل الشباب، في المجال السياسي. وينبغي أيضاً القضاء على الميول الخاصة لدى مختلف الشعوب التي تعيش فوق أرضنا، وعلى تقاليدها وتراثها، وإلغاؤها جميعها. وحتى أسماؤهم يجب أن تختفي من معجم المفردات وأن تُستبدل. وعندما تُزال جميع الاختلافات والفروق المتعلقة بالعرق، بالثروة وبالثقافة، سوف يجد المواطنون أنفسهم يقيمون في مساكن، ويقومون بأعمال تتفق مع مصلحة الجمهورية..

فسرى الهمس والتمتمة بين الحاضرين.

وقال «نيكيتا موراييف»:

- اعذرني إذا قاطعتك، يا «بول ايفانوفيتش»، لأن هذا الذي تصفه يشبه كثيراً أحد معسكرات الاعتقال والتعذيب!

فقال له «بيستيل» مؤكداً:

- لن يكون هكذا إلا أثناء الفترة الانتقالية.

وقال «ريلييف»:

- وسوف تحتاج إلى كثير من رجال الشرطة لتحاشي مخاطر الثورة المضادّة، دون شك؟!

- نعم، وأنا لا أخفي ذلك، بل إني أتصور أيضاً تجنيد مجموعة من المخبرين والجواسيس، ترتبط مباشرة بالسلطة المركزية والرقابة؟

- سوف نشدّدها، لأنّ من المهم ألاّ يتحرك المريض، عندما يجري له الجراح عملية ضرورية.

- ألا تخشى، من جهة أخرى، أنّ الكنيسة...؟

فقاطعه «بيستيل»، بإشارة من يده، قائلاً:

- لقد فكرت في ذلك. سوف تصبح جميع الطقوس والشعائر الدينية تابعة لسلطة الدولة وخاضعة لها. وسيعلن عن الكنيسة الأرثوذكسية أنها كنيسة رسمية. ولن تكون «سان بطرسبورغ» عاصمة الجمهورية، لأنها مدينة دمغتها التقاليد القيصرية، بل العاصمة ستكون: «نيجني- نوفجورود»، حيث يلتقي الشرق والغرب. وهناك سنكون، على الخصوص، في أفضل موقع لتحقيق الوحدة الروسية. وعلاوة على ذلك، فإني عازم على طرد اليهود الروس والبولونيين، الذين يربو عددهم على مليونين، وإرسالهم لتأسيس مملكة عبرية في آسيا الصغرى..

فحصل لدى «نيقولا» انطباع أنه يقف حيال كائن خرّب إحساساته هوسه بالتفكير، وجمع الأدلة والحجج. و «بيستيل» وهو المنظّر الذي لا يلين

كان يدفع حتى النهاية الطرق والأساليب التي تصورها، مع تقبله، بصورة معنوية وخيالية جميع النتائج. وكان يمكنه أيضاً أن يطبق بصورة ناجحة هذه الطريقة الفكرية لكي يحلّ مسألة حسابية أو فيزيائية، ولكنّ الظروف دفعته نحو التآمر. وكان يستخدم ذلك ويستغله من أجل إصلاح روسيا. آه! لكم كان بعيداً عن جمهورية «سان سيمون» المثالية، التي كان «نيقولا» شديد الإعجاب بها، عندما كان يعاني من الوحدة، في «كشتوفكا»!

وقال «نيكيتا مورافيفّ»:

- بما أنك تشرح لنا أفكارك وتعرض نواياك، بهذه الصراحة، فإني أودّ أن أعرف إذا كان صحيحاً أنك تنوي أن تفصل بولونيا عن روسيا؟

فأجابه «بيستيل» دون أن يحتدّ:

- هذا صحيح تماماً، وسوف تصبح بولونيا جمهورية مستقلة.

- ولماذا؟

- لأني بهذا اتفقت مع زعماء هذه البلاد، الثوريين.

فقال «ريلييفّ» مزمجراً:

- وتجرأت على تقطيع أوصال روسيا، دون أن تستشيرنا؟!

- لم أكن ملزماً باستشارتكم، لأنكم لا تنتمون إلى الاتحاد الذي أتولى إدارته. ومع ذلك عليكم أن تعلموا أنّ استقلال بولونيا ضروري لنجاح خطتنا. وأنتم لا تزالون تراوحون في الغبار المتراكم من الأزمنة القديمة. بينما أسير، أنا، على طريق جديد. وإذا أردتم أن تحلموا بالثورة، استمروا بالعمل حسب أساليبكم، وإذا رغبتم بتحقيقها، اتبعوني!

فصاح «بستوجيفّ»، بأعلى صوته:

- إلى أين؟ إلى كوخ حقير أم إلى زنزانة في أحد السجون؟! فهزّ «نيكيتا مورافيف» جرساً صغيراً، مطالباً بالصمت والهدوء، وقال:

- أيها السادة، لقد بلغنا منتهى الفوضى! فمن أجل توحيد روسيا، تنتزع منها بولونيا، ولحماية الشعب، تجند الشرطة السرية وتكلف بمراقبته، ولتأمين الحرية للجميع، تحددّ حرية كل فرد من أفراد هذا الشعب! وإذا كانت هذه هي «الحقيقة الروسية» التي تصورتها أنت، فإني أفضل عليها الحقيقة الفرنسية، الإنكليزية أو الأميركية!

فصاح بعض المتآمرين:

- نعم! نعم! لا للدكتاتورية! ولتسقط السلطة الشخصية المطلقة!

ومنذ فترة طويلة كان «نيقولا» يجد صعوبة في التزام الصمت، وانفجر فجأة:

- إنّ ما يضفي على الحياة السحر والجمال، هو اختلاف وتنوع العادات، والمعتقدات والطباع والمواهب! وإذا ألغيت ذلك، وحولت جميع الكائنات والمخلوقات إلى قاسم مشترك، فسيبتلع الجمهور الفرد، وتتحوّل روسيا إلى وكر نمل واسع وكبير! وسيصبح ذلك مرعباً!

فسأله «بيستيل»، وهو يوجّه إليه بريق عينيه السوداوين:

- بالنسبة لمن؟ بالنسبة لك أنت، الذي يمكن أن تكون قد فقدت قليلاً من الرفاهية أم بالنسبة للألوف من الفقراء المعدمين، الذين يمكن أن يربحوا من ذلك، الكثير!

- ليس هنالك رفاهية بدون الحرية!

- إنك تتكلم كرجل لم يسبق له أن نقصه شيء!

فتمتم «نيقولا» وهو يرتجف من الغيظ:

- وأنت تتكلم كرجل يؤيد العبودية ويكرسها! ولا ترغب بإلغاء عبودية الفلاحين إلا لكي تعممها على جميع أفراد الأمة!

وقد أدهشته جرأته. أحقاً إنه هو، حبيس «كشتوفكا»، الذي يعارض بقوة رئيس «اتحاد الجنوب» القوي؟ وسأله أيضاً وقد انتشى بتأييد رفاقه له:

- هل لعقوبة الإعدام وجود في نظامك؟

فأجابه «بيستيل»:

- كلا!

- ماذا ستعمل إذن بأناس، مثلنا، سيرفضون أفكارك؟ فضمّ «بيستيل» قبضته على حافة المنضدة ولم ينطق بكلمة.

فاستأنف «نيقولا» الكلام:

- هل سترسلنا إلى «سيبيريا»، بعد محاكمة صورية؟

فظلّ «بيستيل» متماسكاً وممتنعاً عن الكلام. وكان واضحاً أنه أخذ يشدّ على كل عضلات جسمه لكي لا يصرخ، بأعلى صوته:

«نعم!» وكانت نظراته تعبر عن توهج ضمير نقي وعن الازدراء بالحجج التي لا جدوى منها، والتي يجابهونه بها. وتدخل «نيكيتا مورافيفّ» بأسلوب دبلوماسي، خوفاً من أن ينتهي الاجتماع بمعركة:

- إنّ المبادئ التي يشرحها ضيفنا، ربما يصبح من الممكن تطبيقها بعد خمسين أو مئة سنة، ولكنّ البلاد، في الوقت الحاضر، ليست مهيأة لتقبل تحولاً جذرياً بهذه الحدّة، ولا تستطيع تحمله. والحقوق السياسية لا يمكن أن تمنح إلا! بالتدريج وبجرعات متوالية، لشعب يرزح منذ قرون تحت نير العبودية، وفي ظلمات الجهل. وإذا أسقطتم القيصر بين عشية وضحاها، لإقامة ديكتاتور لا تعرفه الجماهير، مكانه، فسيمنى عملكم بالفشل. لأن الصدمة التي ستكون أقوى مما ينبغي سوف تحدث خللاً في الأدمغة. وبعد أن تكونوا قد أحدثتم الفوضى، فسوف تقضي عليكم تلك الفوضى نفسها، ولذلك أعود إلى فكرتي: لكي نتيح للأمة التعلّم والتعوّد

على الأساليب، وعلى الأنظمة المدنية، علينا أن نعمل على مراحل: أولاً، الملكية الدستورية..

فقاطعه «ريلييف»:

- لماذا لا تكون الجمهورية أولاً؟ جمهورية ليبرالية تحررية، بالطبع، وليست من النوع الذي اقترحه علينا «بيستيل»!..

فأمّن «كوهلبيكر» على قوله:

- نعم، نعم، جمهورية تحررية!

وقال «باتنكوفّ»:

- ملكية! فالملكية فيها جوانب جيدة!

وتقاطعت الصيحات:

- أنا أمنح صوتي للملكية! ولكن، شريطة أن يُغيّر القيصر!

- أنا أصوّت للجمهورية!

- اعتمدوا دستوراً كالدستور الأميركي!

- كلا، بل كالدستور الفرنسي.. الميثاق!.. وأثناء هذا الصخب، نهض «بيستيل» واتجه نحو الباب.

فسأله «ريلييفّ»:

- إلى أين تذهب

فأجابه «بيستيل» وهو يبتسم بازدراء:

- سأعود بعد أن تكونوا قد اتفقتم!

فصاح «كوهلبيكر»:

- لا جدوى من العودة! فقد حصل الاتفاق: و «اتحاد الشمال» لن يتفق أبداً مع «اتحاد الجنوب»! الوداع!

فرافق «ريلييف» ضيفه إلى الرواق، وبدا مستغرقاً في التفكير، عندما عاد بعد قليل.

وقال «نيكيتا مورافيف» وهو يجفّف العرق عن جبينه:

- أخيراً، لقد أصبحنا وحدنا من جديد، وهذا يدعو إلى السرور!

فقال «نيقولا»:

- «بيستيل» هذا، مجنون!

فتمتم «ريلييفّ» وهو يهز رأسه:

- أتعتقد ذلك؟

وعند عودة «نيقولا» إلى البيت، لم يذهب ليصطحب «تمارا» من غرفتها. لأنه كان في شغل شاغل بما رآه وسمعه، لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يجد أي متعة مع المرأة. وفتح الدفتر الذي سجل فيه مختاراته لكي يراجع الملاحظات التي أخذها عن معلميه، وجذبت نظره جملة كتبها «شاتربريان»: إنّ الشعب الذي يخرج من العبودية بشكل مفاجئ، ويندفع مسرعاً في الحرية، يمكن أن يقع في الفوضى، والفوضى تولد الاستبداد، على الدوام تقريباً. «من كتابه: رحلة إلى أمريكا» فسُرّ «نيقولا» بذلك، وكتب العبارة ليطلع عليها «نيكيتا مورافيفّ».

وفي اليوم التالي، كان يهم بالخروج، عندما أتاه موزع البريد، الذي كان يرتدي بزة رسمية، على جنبه سيف وعلى رأسه قبعة كقبعة الجندي. ومن أنفه سالت وتدلت قطرة بيضاء. وأخذت أصابعه المحمرة تبحث في حقيبته الجلدية. وأخرج منها رسالة:

- هذه لك، يا صاحب السعادة! ما هذا البرد، صباح اليوم؟! الدخان يتصاعد عمودياً، وهذا يدل على حدوث الجليد!

فدفع «نيقولا» عشرين «كوبيكاً» رسم البريد وأجرة تسلم الرسالة في المنزل. وعرف خط «صوفيا» سرّ بذلك وفضّ المغلف، وأخذ يقرأ:

«حبيبي العزيز»

«ألاتفكر بالعودة قريباً؟ فالأيام تبدو لي طويلة جداً! أشعر أني بلهاء ودون جدوى، بدونك، في هذا البيت الكبير، الذي يحدثني كل شيء فيه عن حبنا. صحة الوالد لا بأس بها. وهو يحيطني برعايته. ولكنّ التوعكات التي أصابته جعلته يصبح نزوياً، متقلب الأطوار، إنه طفل مدلل حقيقي، لا يطيق أن يبقى بمفرده. ولكي يكون سعيداً للغاية، يجب عليّ أن أمضي وقتي ألعب الشطرنج معه، أو أن أقرأ له إحدى الروايات، أو أن أستمع إليه وهو يروي ذكريات شبابه. لقد رأيت «ماري» من جديد، وهي حزينة، كما كانت دائماً، وزوجها لا يزال كريهاً، كما كان على الدوام، وهما ينتظران بفارغ الصبر نتيجة مساوماتك...»

ودون أن يكفّ «نيقولا» عن قراءة الرسالة، عاد إلى غرفته، وجلس على السرير. كان قد استعاد ذكرى جوّ البيت في «كشتوفكا». وفي تلك اللحظة تذكّر والده، الذي كان يرى «صوفيا» من الصباح إلى المساء. ثم عاد إلى التفكير بجدية وحزن بأصدقائه وبرفاقه أعضاء «اتحاد الشمال»: «لو لم أكن مغرماً بزوجتي، لبقيت بينهم، وربما أصبحت رئيسهم!» هذا ما قاله في سرّه، وهو مستغرق في تخيلاته وأحلامه التي أثارت اضطرابه، وجعلته يشعر أنه يضحي بشيء مهم، نبيل وخطير، في سبيل سعادة الحياة الزوجية وهدوئها.

٩

بعد أن هدّد الكونت «ديرجنسكي» عشر مرات بقطع مباحثات شرائه المنزل، - وافق على أن يدفع ثمنه مئة ألف روبل. وتم توقيع عقد البيع في الأيام الأولى من شهر كانون الثاني «يناير» سنة ١٨٢٥. وودّع «نيقولا» «تمارا» التي ذرفت الدموع، عند الوداع. ووعدها، دون اقتناع منه بأنها ستراه في الشهر المقبل. وأقام حفل عشاء في أحد المطاعم بمناسبة وداعه لأصدقائه. وأثناء تناول الطعام، تحدّث بفصاحة عن «سان سيمون»، ومما قاله أنه كان يودّ أن يكون جميع المتآمرين من مريدي هذا الفيلسوف. فسأله «ريلييفّ» عما إذا كان يعرف أنّ هذا الفيلسوف الفرنسي قد حاول أن يضع حداً لحياته، في شهر آذار «مارس» سنة ١٨٢٣، وأنّ طلقة المسدس قد أصابته في عينه. وهذا الخبر أدهش «نيقولا»: فقد كان يبدو له أنّ عبقرياً في هذا المستوى، لا يمكن أن يستسلم لليأس. ومع ذلك، فإنّ «ريليف» رأى أنّ محاولة الانتحار الفاشلة، هذه، قد أقنعت «سان سيمون» بأنّ مهمته لم تنته، وأنّ فوز نظرياته كان قريباً، واستأنف العمل بكل شجاعة.

وقال «ريلييف» لـ «نيقولا»:

- إذا كان ذلك يهمك، فإني سأرسل لك كل مؤلفاته التي أستطيع الحصول عليها. فشكره «نيقولا» بتأثر شديد. وبعد الانتهاء من تناول الطعام، نهض المدعوون ليشربوا نخب نجاح القضية.. ورافق «كوستيا لادوميروف» و «فاسيا فولكوف» «نيقولا» حتى حاجز المدينة. وعندما

فارقهم، حصل لديه انطباع بأنه اقتُلع من عصر الأنوار لكي يتوغل في ظلام الأزمنة القديمة.

والأيام الأربعة التي أمضاها في تلك الرحلة لم تبدّل حالته النفسية. حقاً، لقد كان سعيداً لقرب لقائه بـ «صوفيا»، ولكنه كان يخشى من أن تبدو له الحياة في الريف أكثر رتابة وإثارة للملل، بعد الأوقات العامرة بالبهجة والمسرة، التي قضاها في «سان بطرسبورغ». ونسي خشيته عندما لمح سقف البيت العائلي، بين أشجار الصنوبر المثقلة بالثلج. وفي كل مرة، كان يعبر فيها هذا الممر، بعد عودته من إحدى الرحلات، يتصوّر نفسه طالباً، قادماً لقضاء عطلته بين أهله وذويه. وقد وصل هذه المرة، فائزاً، موفقاً: وهنأه «ميشيل بوريسوفيتش» على نجاحه بمتابعة مساومات بيع البيت بمهارة ونشاط، على الرغم من أنها كانت دقيقة وحسّاسة، وتكورت «صوفيا» برفق ومحبة بين ذراعيه. ولم يناما، تقريباً، تلك الليلة، فقد كان كل منهما يشعر بشوق شديد للآخر، بعد عدة شهور من الفراق والحرمان. وبين عناقين، كان كل منهما يسأل الآخر كيف كان يقضي أوقاته. فروى لها «نيقولا» باختصار الأحاديث السياسية التي جرت بينه وبين أصدقائه، وشرح لها دستور «الشمال» بالمقارنة مع دستور «الجنوب» ووصف لها «ريلييف» بأنه زعيم معقول، شجاع وقوي، كما قال لها عن «بيستيل» إنه ديكتاتور ذو طموحات شيطانية. ولأنه تشجّع بالاهتمام الشديد الذي أبدته «صوفيا» لكل ما رواه لها، فقد صرح، فجأة:

- كانت الحماسة وتوقّد الأذهان على درجة عالية من الشدّة لدرجة أني أشعر بوجوب العودة إلى هناك بعد وقت قصير.

- وهل هذا ضروري، حقاً؟..

- إنه ضروري جداً! وسنذهب سوية! أنت تريدين ذلك تماماً؟!

فلم تقل نعم ولا كلا، وغيرت الموضوع وأخذت تسأله عن الطوفان الذي حصل في العاصمة. وكان قد تحدث عنه، أمام والده، أثناء تناول الطعام. وعاد فتحدث عنه من جديد، وفي الحال حلّقت ذكرى «تمارا» في ذهنه. فهل حقاً، كانت موجودة، بشامتها الحلوة على أنفها؟ كان وهو يضم «صوفيا» بين ذراعيه، يكاد يقول بأنه لم يخنها إلا في الأحلام. وهذا التفسير لتلك الوقائع والأحداث أراحه من وساوسه.

ونحو الساعة الرابعة صباحاً، كانت قد غُفرت خطاياه دون أن يحتاج ليطلب الصفح والغفران، ورقد، ملتصقاً بتلك المرأة التي على الرغم من المظاهر، لا يمكنه أن يكون عديم الوفاء تماماً، بالنسبة لها.

وذهبا معاً إلى «أوترادنوي» ليسلما «ماري» حصتها من ثمن البيت. وعندما استلمت المرأة الشابة من يدي أخيها المغلف الضخم المختوم بالشمع الأحمر، الذي يحوي خمسة وعشرين ألف روبل، بشكل حوالات على الدولة، أخذت تبكي من شدة تأثرها وسعادتها. ودون أن تعد أو تتأكد من مبلغ النقود، وقعت على الإيصال الذي كان «نيقولا» قد هيأه، وقالت:

- هذه النقود سوف تنقذنا من الإفلاس والدمار! علينا ديون كثيرة! أشكرك من أعماق قلبي يا «نيقولا»! و «فلاديمير كريوفيتش» سيشكرك، هو أيضاً، بالتأكيد، حالما يعود. نعم إنه ما زال مسافراً. ولكني أنتظره من يوم لآخر..»

وفي كل مرة كانت تتحدث فيها عن زوجها، كان يبدو في عينيها تعبير عن الضيق والانزعاج. وكانت تضع على بطنها وشاحاً رمادياً. و «صوفيا» التي لم تكن رأتها منذ أكثر من شهرين، لاحظت أنّ قامتها قد تضخمت وأنّ ملامحها مشدودة ومتوترة، فسألتها، متمتمة:

- ألا تكتمين عنا خبراً ساراً؟

فأجابتها: وقد احمرّ وجهها:

- نعم إني أنتظر مولوداً. فصاحت «صوفيا»:

- ولكن، هذا رائع! وإلى متى؟

- بعد أربعة أشهر!

فهنأ «نيقولا» شقيقته، وقد شعر ببعض الارتباك، ثم سألها:

- ماذا ستسمينه؟

فأجابته «ماري»:

- «سيرج» إذا كان غلاماً، و «تاتيانا» إذا كانت بنتاً.

- وماذا تفضلين؟

- غلاماً!

وكانت تبدو ممزقة بين الزهو والخجل. ونظرتها تتحاشى نظرة أخيها. وأصابعها العصبية تعبث بأطراف وشاحها. وشعرت «صوفيا» بالاضطراب عندما فكرت أنّ شقيقة زوجها ستحظى عما قريب بسعادة، ظلّت تتمنى عبثاً أن تحظى بها، منذ زمن طويل! وحيال هذه المرأة الشابة التي ستنجب طفلاً، اكتشفت أنها تشعر نحوها بالإعجاب، بالعطف، بالاشتهاء والتمني، كما لو كان ذلك الحدث، وهو الطبيعي جداً، كان أيضاً أغرب الأحداث وأكثرها مجداً.

وقالت لشقيقة زوجها:

- اعتمدي علينا، يا «ماري»، إذا ما احتجت أي شيء كان.. وتعانقتا، ثم أخذتا تتحدثان، فيما بينهما، حديثاً نسائياً، عن المستقبل. وأبدت «ماري» حماسة وحيوية بصورة غير طبيعية، وكأنها تحاول أن تطمئن على سعادة، تعرف أنها مستحيلة. وبعد أن حسدتها «صوفيا» تساءلت، عما إذا لم يكن عليها، على النقيض من ذلك، أن تشفق عليها وترثي لحالها. وبسبب استعداد مسبق وخفي، كانت الأحداث التي تعتبرها مدعاة للسعادة، أي امرأة أخرى، كانت ترتدي، بالنسبة لها، طابع التهديد

والخطر. وهي تجذب المصائب مثلما تجذب بعض الجبال غيوم العواصف. كان الكون هادئاً، وديعاً ومضيئاً حولها، ولكن، على جبينها يخيم، على الدوام، ظل قاتم. فكيف ستكون حياة هذه الأم، بدون زوج، وحياة ذلك الطفل، بدون أب؟ وقالت «صوفيا» في سرها: «إني بلهاء! فأنا أهوّل كل شيء وأضفي عليه صبغة المأساة! فكثير من الأسر السيئة الأحوال والتي تسودها وتمزقها الخلافات، أنقذتها من كل ذلك، ولادة طفل!» وعلى الرغم من هذا الاستدلال، فإنّ القلق الشديد ظلّ يساورها. ووجدت صعوبة بتصنع البهجة حتى نهاية الزيارة.

وأثناء رحلة العودة، أطلعت «نيقولا» على مخاوفها وانطباعاتها، فقال لها:

- ولا أنا أيضاً، دخل السرور إلى قلبي. كل شيء في ذلك البيت، ينم عن الخلاف، والإهمال والفقر والعار! و «سيدوف» مسافر دائماً إلى كل الجهات، و «ماري» عاجزة عن الدفاع عن نفسها، والخدم متكّبرون، والبيت لا حرارة فيه! والطفل سيرى النور في ظروف مؤسفة وسيئة للغاية!

فتساءلت «صوفيا» متأوّهة:

- وماذا يمكننا أن نفعل من أجلها؟

- لا شيء، أساساً، أعتقد أنها في قراره نفسها، هي تحب أن تتألم، ولذلك فقد اختارت «سيدوف» بصورة لا شعورية، لأنه هو الكائن الذي يستطيع أن يجعلها في غاية التعاسة!

انتظرت «صوفيا» الانتهاء من تناول الطعام لكي تخبر «ميشيل بوريسوفيتش» بأنه سيصبح جداً عما قريب. وهمّ السيد «لوسور» بتقديم التهاني والمباركة، ولكنه أمسك عن ذلك في اللحظة الأخيرة، مفضلاً أن يوفق موقفه مع موقف ربّ البيت. وهذا الأخير اختار أن يلزم الصمت، وبدا مغلق الوجه، هادئ الأعصاب.

فسأله «نيقولا» وقد أثاره هذا الصمت:

- الست سعيداً، يا أبي؟

- إنـي لا أرى لماذا ينبغي أن أكون سعيداً، لأنّ «سيدوف» آخر، سيكون عما قريب على سطح الأرض، ويضاف إلى أفراد تلك الأسرة.

و «صوفيا» بدورها، لم تستطع أن تتمالك نفسها:

- إنها ابنتك، مع ذلك، هي..

فغمغم «ميشيل بوريسوفيتش» مزمجراً:

- وماذا بعد ذلك؟ وفروا عليّ سماع العبارات المبتذلة المعتادة! فهذا الحدث لا يهمنا، ولا يعني شيئاً بالنسبة لأسرتنا!

فأخفى السيد «لوسور» ابتسامته. وتبادل «نيقولا» و «صوفيا» نظرة حزينة. وغادر الجميع مائدة الطعام، كأنهم كانوا يتناولون الطعام بعد تشييع جنازة أحد الأموات. وفي مساء ذلك اليوم، دخن «ميشيل بوريسوفيتش» الغليون، دون أن تلومه كنته على ذلك، كما أنها لم تقترح عليه أن تنظف له نظارته، عندما كان يهم بمطالعة صحيفته.

ولكونه شعر أنه أزعج المحيطين به، فقد بدا على النقيض من ذلك، ودوداً جداً، في الأيام التالية. والرغبة التي كان يشعر بها نحو «صوفيا» خفت، الآن وقد عادت لتصبح زوجة «نيقولا» وأصبح دوره مقتصراً على دور العم أي والد الزوج، وأخذ يتعلّم ويعتاد على تحديد طمعه وجعله يقتصر على المسرات المتاحة والتي يمكن الحصول عليها. وبالصبر، وبشيء من سعة الخيال يمكنه أن يتوصل، حسب تفكيره، إلى القناعة والاكتفاء بفتات السعادة الذي يمكن أن يقع عن مائدة الزوجين. كان يراقبهما، ويجدهما غير متجانسين، ويحتفظ في قلبه بأمل لم يكن يريد أن يحدّد، لا طبيعته ولا موعد تحقيقه.

منذ أن عاد «نيقولا» استأنفت «صوفيا» زياراتها للقرى، ولم يكن في الملكية أسرة ليس لديها مشكلة تعرضها عليها، أو نصيحة تطلبها منها. ولأنّ التزاوج بين العبيد الأرقاء يجب أن يوافق عليه المالك، كانت هي التي يكلفها الخطيبان بالتوسط لدى «ميشيل بوريسوفيتش». والواقع هو أنه لم يكن يرفض أبداً إعطاء موافقته، ويبدو في غاية السعادة، لأنه بذلك يثبت لكنته أنه متسامح، واسع التفكير. ومع ذلك، فإنها كانت تنزعج في كل مرة يحضر فيها خطيبان ويركعان أمام سيدهما، في وسط المكتب. كان الفتى يبدو قصير الشعر، بعد أن قصه، والفتاة قد زينت غدائر شعرها بشرائط متعددة الألوان. وكان الاثنان من شدة خجلهما واحترامهما لسيدهما لا يجرؤان على أن يرفعا نظرهما نحوه، وهو يهيمن عليهما بظله وبعد أن يدور حولهما ويتفحّصهما بكل دقّة يردّد لهما عبارته المعتادة:

- حسن، ولكن عليكما أن تعطياني كثيراً من الأطفال! وإلاّ! حذار!

ثم يصرفهما، وهو يقهقه ضاحكاً. وكانت «صوفيا» تلومه على قسوته، ولم يكن ذلك يزيده إلا ضحكاً. ولم تكن تستطيع أبداً التغلب عليه أو ثنيه عما يفكر به! ولكي تستعيد ثقتها بنفسها، كانت تذهب، من وقت لآخر، لمشاهدة «نيكيتا» وهو يعمل.

وذات مرة، عند دخولها إلى ذلك المكتب الصغير، دهشت عندما رأت الفتى مضطرباً وهو يقف عند اقترابها منه. فمن البديهي، إنّ لديه اعترافاً يريد أن يبوح لها به أو سؤالاً يريد أن يطرحه عليها، وقد ارتبك، ولم يعرف كيف يفعل ذلك. وأخيراً انطلق لسانه: فقد روى له للتوّ «أنتيب» خبراً عجيباً. أحقاً أنّ «نيقولا ميكايلوفيتش» وأصدقاءه، في «سان بطرسبورغ» يدرسون أفضل طريقة لإتاحة السعادة للشعب؟ و «صوفيا» وقد أدهشها ما قاله «نيكيتا»، فكرت لحظة، ثم أجابت بروية وتعقل:

- هنالك، بالواقع، كثير من الناس، يتمنون تحسين أحوال العبيد الأرقاء ومصيرهم. وأنا متأكدة، أنه سيأتي يوم تتحررون فيه جميعكم..

فسألها «نيكيتا»:

- ولماذا يمكن أن يفعل ذلك هؤلاء السادة؟

كانت براءة روحه تشع من حدقتيه بريقاً أزرق اللون، فأجابته:

- بدافع من روح العدالة، ومن محبتهم لها.

ولكنه لم يفهم جيداً، بعد. وقطّب حاجبيه الشقراوين اللذين يكادان يكونان أبيضين، وأخذت أنفاسه تتردّد عبر منخري أنفه الصغير، وقال:

- إذا أعتقونا، يحلّ بهم الفقر.

- إنّ شعورهم بأنهم قاموا بعمل جيد، يعوضهم عن خسارتهم!

- بالنسبة للبعض، ربما يكون الأمر كذلك، ولكن ماذا عن الآخرين؟...

فقالت له:

- الآخرون سيجرفهم تيار التاريخ. وروسيا لا يمكن أن تبقى إلى مالا نهاية البلاد الوحيدة في أوربا التي يسود فيها الرقّ والعبودية!

فسألها، متاوهاً:

- أتؤمنين بهذا حقاً، يا سيدتي؟ فأنا لا أستطيع أن أتصوّر بأنه لن يعود هنالك أسياد ولا عبيد، وأن يحصل ذلك فجأة! فنحن، حتى لو أعتقنا، وتحررنا لن نصبح أبداً مثلكم، ونظراء لكم!

- ولماذا؟

- لأننا لسنا من جنسكم ولا من طينتكم. وقد دمغنا مولدنا وأصلنا، في بشرتنا. وهي بشرة «موجيك»: فلاح عبد على عظام فلاح عبد. ومهما علمتني، وأعتقتني، وألبستني الملابس الفخمة، فسأظل فقيراً مسكيناً!

وفتح ذراعيه، وأحنى رأسه، وعبرّ كل جسمه عن الخضوع لمقدّر سلفيّ ورثه عن أجداده.

فصاحت «صوفيا»:

- ما أجمل هذه الحماقة! لقد أسمعتني، ذات يوم أشعاراً للشاعر «لومونوسّوفّ» أتذكر ذلك؟

- نعم، يل سيدتي.

- فماذا تعرف عنه؟

- لا شيء.

- اسمع إذن: هذا الرجل، الذي كان، في القرن الماضي أول وأعظم شاعر روسي، والذي أسس الكيمياء والفيزياء الروسيتين، والذي وضع القواعد للغة الروسية، ونظّم جامعة موسكو، هذا الرجل كان ابن صياد سمك أمي، يعيش على شاطئ البحر الأبيض. وفي سنّ العاشرة، وعندما شعر برغبة شديدة للتعلّم، واكتساب المعرفة، هرب من كوخ أبيه، وذهب إلى إحدى المدن الكبرى، وبعد دراسات مطولة، وكفاح عنيف ومضنٍ، وبعد ممارسته مختلف الأعمال، أصبح سيداً معروفاً، يحترمه الجميع، وقد كرمته الإمبراطورة. فلو أنه فكر مثلما تفكر أنت، لما كان تجاسر، وهو الشخص البائس والمسكين، على اقتحام عالم الآداب والفنون والعلوم!

كان «نيكيتا» كالمسحور وهو يصغي لهذه القصة العجيبة وأخيراً، تمالك نفسه وتمتم:

- كان عبقرياً، يتميز بالنبوغ، يا سيدتي!

وكادت تجيبه بأنّ النبوغ ليس ضرورياً لكي يؤمن المرء بالمستقبل، عندما سمعت صوتاً وقوراً وجاداً، جعلها تنتفض:

- أيمكن أن يكون تحت سقف منزلنا «لومونوسوف» آخر؟

كان «ميشيل بوريسّوفيتش» يقف على عتبة الباب. كانت ابتسامته مرحة، ولكنّ نظرته كانت شريرة. فماذا سمع من الحديث؟ وشعرت «صوفيا» أنه اعتبرها قد ارتكبت خطأ، بينما لم يكن لديها ما تلوم نفسها عليه. فأغاظها اضطرابها، وتمتمت:

- كنت أشرح لـ «نيكيتا» بأنه يجب أن لا يخجل من أصله المتواضع!

فقال «ميشيل برويسوفيتش»:

- بالتأكيد، بل ربما كان عليه أن يرضيه ويسره ذلك. فهل كنت تهتمين به إلى هذه الدرجة لو لم يكن عبداً؟

ولأنّ «صوفيا» لزمت الصمت ازدراءً بهذا النوع من الجدل الكلامي، فقد أضاف «ميشيل بوريسوفيتش» متذمراً: «إنّ العالم يسير مقلوباً وبالعكسّ» وابتعد بخطوات مدوية في الممر. وعندما وصل إلى مكتبه لام نفسه على انسحابه بسرعة. ولكنه ما كان ليستطيع أن يبقى فترة طويلة أمام كنته، دون أن ينفجر غضبه. لأنّ الرعاية التي توليها لـ «نيكيتا» كانت تثيره أكثر مما ينبغي! فماذا تجد من العجيب وغير المألوف لدى هذا الفتى الفظّ الذي لا يتجاوز الثانية والعشرين من العمر، ذي الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين؟ ومن يوم لآخر، أخذ وجود هذا الفتى في المنزل يزعج «ميشيل بوريسوفيتش» وأصبح لا يطاق بالنسبة له. وندم لأنه لم يعتقه ويرسله على المدينة، كما طلبت منه ذلك «صوفيا» فيما مضى. وخطرت على باله فكرة: لماذا لا يوافق لكنته اليوم، على ما كان قد رفض أن يوافق عليه، سابقاً؟ ولكن ربما أصبحت لا ترغب بذلك، الآن؟ ويمكن أن تكون مثل كثير من النساء الوفيات، تتمسك بالاحتفاظ بفارسها لكي يبقى بقربها ليخدمها؟ فتعساً لها إذن! فهذا سيزيد من طرافة الاقتراح ومن جدواه! كان يسر «ميشيل بوريسوفيتش» أن يتصور تلك الصراعات الغامضة في الضمير الأنثوي. وكل ما كان يبدو، لدى «صوفيا» نتيجة

أحلام وتخيلات أثيمة، يثير لديه الغيظ، الغيرة، الأمل، الوحشية والرغبة، وهذا المزيج من المشاعر ينعكس ويتحول إلى دوّار عذب. وفي صباح اليوم التالي، استدعاها إلى مكتبه، وأخبرها بلهجة تتسم بالتملق، بأنه قد فكر بقضية «نيكيتا»:

- كما هي العادة دائماً، فقد كنت محقة، وعلى صواب، يا عزيزتي «صوفيا»: فليس لنا الحق بأن نبقي هذا الشاب في وضعه المتدني، ولذلك قررت أن أعتقه.

فأرسلت صيحة تنمّ عن الأمل.

- أهذا ممكن؟

- ألم يسبق لك أن طلبت مني ذلك؟

- حصل هذا منذ زمن طويل!

- لقد سارت الفكرة ببطء حتى اختمرت في رأسي العتيق، بفعل التقدم بالسنّ. وهنالك دائماً فسحة لعمل الخير، الذي لا يفوت أوانه أبداً. وحقّاً، «نيكيتا» ليس «لومونوسّوفّ»، ولكنه يستحق أن يعطى عملاً أفضل من الأعمال التافهة التي يقوم بها هنا. وسأعطيه جواز سفره، وأرسله إلى «سان بطرسبورغ» بعد أن أزوّده برسالة توصية مناسبة. وهو يجيد عمليات الحساب الأربعة، ويستخدم «العدّادة» بمهارة، وسيعمل كمساعد محاسب في إحدى المؤسسات التجارية. وعندما يتوفر لديه ما يكفي من النقود، سيشتري مني حريته. وينبغي أن تطمئني، فأنا لن أطلب منه لقاءها سوى ثمن زهيد! بل ربما منحته إياها، في نهاية الأمر، مجاناً ودون أن أتقاضى منه شيئاً! فهل أنت راضية ومسرورة؟

كان يتوقع أن يلاحظ بعض الاضطراب لدى كنته، ولكنه فوجئ عندما تبين له أنه لم يبدُ عليها أي أثر للقلق أو للاضطراب، فتبادر عند ذلك إلى ذهنه: «إنها تتكتم كثيراً، وتخفي لعبتها جيداً». وشكرته

«صوفيا» وخرجت من المكتب وهي تشعر أنها في غاية السعادة. ولكن مع فرحتها الكبيرة بالأفاق التي يفتحها لـ «نيكيتا» قرار «ميشيل بوريسوفيتش» ، كانت تشعر بالحزن لفراق هذا الفتى الذي شجعته كثيراً، ونمّت لديه حب الدراسة والتعلّم. ووجدته في مكتب العمل، يطالع «تاريخ روسيا» وهو أحد مؤلفات «لومونوسّوفّ». وعندما قالت له إنه سيغادر «كشتوفكا» عما قريب، ليقيم في «سان بطرسبورغ» شحب وجهه وحملق بعينيه. وكان وهو يقف أمام «صوفيا» يحرك أصابعه تلقائياً على كرات «العدادة». ولفترة طويلة، لم يعكر صفو الصمت سوى صوت الكرات الخشبية، التي كانت تصدم إحداها الأخرى. وقال أخيراً:

- أشكرك، يا سيدتي، فأنا أعرف أنّ كلّ هذا لخيري ولمصلحتي، وسأذهب إلى هناك، لأنك تريدين ذلك..

فقالت له:

- أنت أيضاً تريد ذلك، وهذا ما آمله؟!

- لم أكن أطلب شيئاً.

- هناك، في «سان بطرسبورغ» سوف تعامل كمستخدم وليس كعبد، وستربح نقوداً، وستفدي استقلاليتك وتشتريها بنقودك..

فتمتم، وهو يحدّق مباشرة في عينيها:

- وما جدوى الاستقلالية إذا كان المرء لا يحظى بالسعادة؟

فانزعجت من هذا التصريح، فهل كان يعني به أنه يفضل العيش عبداً بقربها، على العيش كرجل حر دون أن يراها؟. فرفضت تقبل ذلك. لأن هناك تفسيراً أكثر بساطة: «نيكيتا» متعلق بقريته، وبسادته، ويجد مشقة وألماً في السفر إلى مدينة كبيرة لا يعرف فيها أحداً!..

وقال بصوت مبحوح:

- سيدتي! سيدتي، يا صاحبة السعادة!

كان في عينيه نظرة عذبة، كنظرة الوفاء في عيني الكلب الأمين. وخشيت أن يكتشف تأثرها، فابتسمت وخرجت هاربة من الغرفة.

☆☆☆

وبعد أن عاد «نيقولا»، قرّر عشرين مرة القيام بزيارة «داريا فيليبوفنا»، وعشرين مرّة، عدل عن القيام بهذه الزيارة. فهو لم يعد يحسّ بأي ظل للعاطفة نحوها، حتى أنّ ذكرى علاقتهما كانت تزعجه. ولأنها لم تتلقّ أي رسالة منه، فلا شك بأنها مهيأة لتقبل فكرة القطيعة. وهذا لم يجعل مصارحته لها، وجهاً لوجه، بأنّ كل شيء قد انتهى بينهما أكثر يسراً وسهولة. وهذه المصارحة التي لم يكن يملك الجرأة على القيام بها، فرضتها عليه المصادفة، في وقت لم يكن يفكر بها: فذات يوم، بعد الظهر، التقت عربته بعربة «داريا فيليبوفنا» عند أبواب «بسكوف». كانت هي تغادر المدينة، بينما كان هو يدخل إليها.

والتقت نظراتهما. فشحب وجه «داريا فيليبوفنا» تحت قبعتها المصنوعة من الفرو. وأمر «نيقولا» سائق عربته بإيقاف الأحصنة. وفعلت هي مثلما فعل. وتوقفت العربتان متلاصقتين. وقال «نيقولا» وقد اعترته فجأة نوبة من الشفقة:

- منذ زمن طويل، وأنا أرغب أنا أراكِ، يا «داريا فيليبوفنا»..

فقالت، وهي تكاد تلهث:

- وأنا أيضاً!

- أين يمكننا أن نتحدث باطمئنان وهدوء؟

- أنت تعرف جيداً أين يمكننا أن نفعل ذلك! هيا، تعال!

فأدرك أنها تريد أن تصطحبه إلى المنزل الصيني، وتذرع بالحذر، وانطلقت العربتان، عربة «نيقولا» خلف عربة «داريا فيليبوفنا». كان البرد

قارساً، والثلج يتلألأ ببريق وردي على الأرض، وأزرق على أغصان الأشجار. ورنين الأجراس، المرح لم يكن يتفق مع أفكار المسافرين، الكئيبة. وأخيراً، انتهى الطريق إلى فرجة في الغابة. وفي وسط تلك الفسحة البيضاء، كان البناء الغريب الشكل، المبرقش بأربعة ألوان، يبدو مثل كدسة من الخضار جمعها التجمّد. وتبع «نيقولا» «داريا فيليبوفنا» إلى القاعة الرئيسية. كان البرد فيها شديداً، كما في أول مرة تعانقا هناك. وكان البخار يخرج من بين شفتي «داريا» عند كل زفير. وضعفت نظرتها وهمست:

- ألا يذكرك هذا بشيء؟

فأجابها:

- بلى.

ولأنه كان عازماً على أن يضرب بسرعة وبقوة، لكي ينهي المشكلة، فقد أضاف:

- ولكنّ هذا يجب أن يتوقّف!

فصاحت وعضّت قبضتها عبر القفاز:

- آه! لا تقل هذا، لا أستطيع أن اصدق أنّ حبك الشديد لي لم يكن سوى نار في الهشيم! فهل تحب امرأة أخرى؟

فلم يجب. واغرورقت عينا «داريا فيليبوفنا» بالدموع. وكان «نيقولا» يراقبها بانتباه، ويلاحظ جفنيها المجعدين وبرغلة جلدها، غير المنتظمة، ويستغرب كيف انجذب إليها وبماذا استطاعت إغراءه. وبعد برهة طويلة، قال بهدوء:

- عاجلاً أم آجلاً، لا بدّ من أن تنتهي علاقتنا بهذا الشكل. لقد أمضينا لحظات ممتعة، وساحرة، وعلينا ألا نشوّه هذه الذكرى بخناقة مبتذلة. وأغلى أمنية لديّ الآن، هي أن نظل صديقين حميمين.

فوصفته بأنه قاسٍ، وطلبت منه أن يردّ لها رسائلها فاعترف لها بأنه حرقها، وهذا ما أثار أخيراً يأسها وغضبها، فارتمت على إحدى الأرائك، وأخذت تئنّ وتتأوه:

- عندما أفكر بالثقة التي منحتك إياها! أنت لست سوى وحش أناني! قلبك جافّ كالحجر! آه! إني أتألم!...

انصرف! هيا انصرف في الحال! ولن تسمع عني أيّ شيء بعد الآن!

كان يوجد على الجدار، قناع صيني أحمر اللون، فاغر الفم من شدة الغضب، بدا وكأنه ينحاز لها ويدافع عن قضيتها. ورأى «نيقولا» أنّ من الحكمة أن ينسحب. وكاد يجتاز عتبة الباب، عندما صرخت:

- ابق! إني أغفر لك كل شيء!

فضمّ رأسه بين كتفيه، ووثب إلى الخارج، وصعد إلى العربة، وقال بلهجة مرحة، وبأعلى صوته:

- إلى البيت!

وعندما انطلقت الأحصنة، أحسّ بكل جوارحه بالغبطة التي يشعر بها من يؤدي واجبه.

★★★

بعد أن استلم «نيكيتا» جواز سفره ورسالة توصية إلى صاحب مدبغه في «سان بطرسبورغ»، بدأ رحلته الخميس الأول من شهر آذار «مارس». ومساء اليوم نفسه، أحضر «أنتيب» بالسرّ إلى «صوفيا» دفتراً، هي وحدها يجب أن تقرأ مضمونه.

وهذا الإجراء سبب لها انزعاجاً شديداً، فقد كان يغيظها أن يطّلع فلاحون آخرون على ما يشعر «نيكيتا» من إخلاص وتفان نحوها. ولحسن الحظ، كانت الصفحات مغلقة ومربوطة بشريطة، والشريطة مختومة بالشمع.

فتمتمت بلهجة تنم عن اللامبالاة:

- آه! أنا أعرف ما هذه! إنها فواتير حسابات متأخرة!...

فغمغم «أنتيب» بتلطف بدا مشبوهاً لـ «صوفيا»

- وهذا ما قاله لي أيضاً، يا سيدتي! وأضاف، وقد أخذ خفناه الضخمان يرفان مع أهدابهما الشقراء:

- آه! لو أنك رأيته عندما أعطاني هذه الفواتير! لأقسمت أنه يناولني أحشاءه على صينية!..

فحدجته بنظراتها، واختفى وهو ينحني كالمهرج. ولأنه كان لا يزال هنالك ساعة على موعد تناول طعام العشاء، فقد انسحبت إلى غرفتها، وفتحت الرزمة. كان الخط قد تحسّن، وكذلك الإملاء.

«لقد تقرّر سفري. والمحيطون بي يرون أنّ حظي جيد. وأنا وحدي أعرف لماذا قلبي منقبض جداً! فبمغادرتي «كشتنوفكا» أتخلّى عن نور حياتي. وعندما أصبح بعيداً، سيسطع ويعطي الضياء للآخرين، بينما أعاني أنا من العيش في الظلام. لقد روى لي «أنتيب» كل شيء عن «سان بطرسبورغ»: عرباتها، شوارعها، مخازنها وسكانها. وقال إنّ الناس هناك يبدو عليهم الحزن، الأهمية والوقار، ويظلون في عجلة من أمرهم، وأنّ الفقراء فيها أكثر فقراً، والأغنياء أكثر غنى من سكان الريف. وأنّ المرء يمكن أن يرى الإمبراطور يبرز فجأة في زاوية أي شارع، ويا ويله عند ذلك! وعدت إلى التفكير بما قالته لي المرأة التي أحسنت إلي، عن العبيد الأرقاء، وإنّ لهم الحق بالعيش الكريم كالآخرين. فليسمع الله كلامها وليحقق ما قالته! وذات يوم، توقفت في سوق «بيسكوف» أمام دكان بائع طيور، واشتريت قبّرة، وأطلقت سراحها، لتتمتع بالحرية. فصعدت مباشرة في الجو، وحلقت مشكلة دائرة كبيرة، وأخذت تغرد فرحة بحريتها. وربما استطاع أولئك السادة إقناع القيصر

لينقذنا جميعاً، مثلما أنقذت قبّرة السوق، لكي يسمعنا نتغنّى بشكره والثناء عليه؟ ولكنّ الوقت لم يحن بعد لكي نفرح ونشعر بالسعادة. أخذت الصحف القديمة التي جلبها «أنتيب» من «سان بطرسبورغ» وقرأت فيها بصوت عال للناس الذين يعملون بالخدمة في المنزل، أنّ هنالك طبّاخاً للبيع، هو وزوجته التي تعمل غسّالة، مع ابنتهما التي تبلغ السادسة عشرة من العمر، والماهرة في كوي القمصان. وكان يوجد في تلك الصحف كثير من الإعلانات، على شاكلة هذا الإعلان. وبدلاً من أن يغضب الخدم، الذين كانوا يجلسون حولي، أخذوا يتناقشون بصورة جدية بأسعار العبيد، ويقارنون بين أسعارهم في المدينة، وأسعارهم في الريف. وكان «فيدكا» يفاخر بقوله أنّ أحد أعمامه قد بيع بثلاثة آلاف روبل من قبل أحد النبلاء إلى نبيل آخر، ليعمل خادماً عنده. أما أنا فقد شعرت بالخجل، وأخذت أفكر: ألا يشعرون، على أقل، بالرغبة بأن يصبحوا أحراراً؟ ومنذ أن أصبحت أجيد القراءة والكتابة أخذت أشعر أني مختلف عن الخدم الآخرين، فأنا أفكر بأمور لا تخطر على بالهم، وهذا يسبب لي الحزن. لقد اقترب موعد الرحيل، ولذلك قمت بزيارة أبي وخالتي في القرية، فبكيا كثيراً وباركاني ثلاث مرات، وطلبا مني أن أرسل لهما نقوداً. ثم قمت بجولة على جميع بيوت الفلاحين، وفي كل بيت كان علي أن أتناول بعض الطعام، كالبرغل، والحمّص ومربّى الفاكهة والفطر المملّح.

وأوصاني الأب «جوزيف» على مداومة الذهاب إلى الكنيسة للصلاة، لأنّ الشيطان أكثر مهارة في المدينة منه في الريف. والبارحة أحتفل خدم «كشتنوفكا» بتوديعي بكل حبّ ومودّة. وكانت «فسّليسّا» تقول وهي تتأوّه: «خبز بيتنا حلو! فما هو طعم خبز العاصمة ذات الحجارة الباهتة والرمادية اللون؟» وأنا، أيضاً، اغرورقت عيناي بالدموع. وفي المساء، عزفت

على آلتي الموسيقية، حتى وقت متأخر من الليل، وغنيت مع الآخرين. وكل حزن نفسي وروحي كان يصعد نحو السماء مع صوتي. واليوم تحمّمت جيداً، ثم ذهبت لمقابلة السيدين العجوز والشاب وتوديعهما، فاستقبلاني بلطف وبشاشة. وقال لي سيدي الشاب إني إذا احتجت إلى نصيحة ومشورة في العاصمة، فما عليّ سوى أن أذهب وكأني موفد من قبله، إلى شخص يدعى «بلاتون» ويعمل عند السيد «لادوميروف» وأعطتني المرأة التي أحسنت إليّ، محفظة جلدية وفي داخلها نقود من أجل نفقات الرحلة. ولن تفارقني هذه المحفظة التي أعتبرها تعويذة وذخيرة ثمينة وسوف أُدفن معها. أكتب هذه الأسطر وأنا في سريري، على ضوء الشمعة. وعند الفجر، سأصعد إلى عربة تنقلني إلى «بيسكوف» ومن هناك سأتابع رحلتي إلى «سان بطرسبورغ» في عربة أخرى ضمن قافلة كبيرة من العربات التي تنقل المسافرين والبضائع. وأنا لا أستعجل الوصول: الوداع يا قريتي، وداعاً لكل ما كنت أحب!...»

كانت «صوفيا» قد أنهت القراءة، عندما دخل «نيقولا» إلى الغرفة. فلم تستطع إخفاء اضطرابها، وناولته الدفتر، فتفحّصه بدوره، وقال، بابتسامة كئيبة: يا للفتى المسكين! لقد بهرته بما حدّثته عن الحياة، وما كتبه هنا، في هذا الدفتر، يبدو مدهشاً. ولكم أودّ أن أستطيع إطلاع أصدقائنا في «سان بطرسبورغ» على هذه الأسطر فسيرون فيها مبرراً قوياً لما نبذل من جهد.

★★★

وبعد ذلك ببعض الوقت، تلقّى «نيقولا» رسالة من شخص يدعى «مويّكين»، «مرشد قانوني» في «بيسكوف» يرجوه فيها الحضور لمقابلته في مكتبه، من أجل قضية عمل. وإذا لم يحدث طارئ يُبطل هذا الموعد، فهو سيكون بانتظاره يوم السبت التالي، الساعة الرابعة بعد الظهر. وكان

«مويّكين» هذا يشتهر بأنه مماحك، مشاكس وسمسار، أيضاً، ولكنّ «نيقولا» لأنه لم يكن لديه ما يخشاه، فقد لبى الدعوة.

واستقبله «مويّكين» بكثير من الترحيب، واصطحبه إلى غرفة ملأى بالمصنّفات والأضابير، جلس خلف أحد الطاولات، وفجأة بدا كأحد القواضم. وكانت عيناه الصغيرتان والسوداوان تبدوان ملتصقتين بأنفه الطويل. وشارب رفيع يعلو فكيه الحادّين. ووضع قائمتيه المعقوفتين مرفوعتين قليلاً فوق صدره. وكانت أكداس الورق تشكل طعامه الاحتياطي. وعندما سأله «نيقولا» لأي سبب استدعاه، انهمك «مويّكين» في سرد عبارات غريبة عن عذوبة وجمال فصل الربيع، وعن مستقبل الزراعة في روسيا، ثم اعترف، قائلاً:

- إني أفضّل وصول «فلاديمير كريبوفيتش سيدوفّ» لأتحدث إليك عن القضية.

فقال «نيقولا» وقد بدت عليه الدهشة:

- صهري سوف يحضر؟

- نعم، فأنا سمحت لنفسي باستدعائك انصياعاً لتعليماته.

- وماذا يريد مني؟

- سوف يشرح لك ذلك، هو بنفسه.

- في هذه الحالة، لماذا لم يتوجّه لي بالخطاب مباشرة؟ فنحن لسنا بحاجة إلى وسيط بيننا.

فقال «مويّكين»:

- وهل يزعجك حضوري؟ أنت مخطئ! فأنا موجود هنا لتنويرك، وإيضاح الأمور لك أنت، بقدر مساعدتي لـ «فلاديمير كريبوفيتش سيدوفّ». وإذا وثقتما بي كلاكما، أستطيع أن أكون حكماً بينكما.

- ليس لدينا شيء نحتكم من أجله!

- بلى، دعك من ذلك، هنالك قضية بيع ذلك البيت في «سان بطرسبورغ».

- وماذا بشأن ذلك؟

- أعتقد أنها لم تنجز بصورة صحيحة..

فكانت دهشة «نيقولا» شديدة لدرجة أنه كاد يستاء ويغضب، ثم انفجر فجأة، وصاح بأعلى صوته:

- أوضح فكرتك، أيها السيد!

وفي تلك اللحظة نفسها، فتح الباب خلفه. فالتفت ورأى صهره يدخل، نحيلاً، أمرد المظهر، بادي السخرية والتهكم، وقد ربط ربطة عنق زرقاء تحت ذقنه، وقال:

- أرجو المعذرة لوصولي متأخراً بعض الشيء، فالشوارع مزدحمة جداً.

وحتى دون أن يُحييه، سأله «نيقولا»:

- ماذا عليّ أن أفهم من هذه الدعوة، أنت تعترض على سلامة عملية البيع؟

فقال «سيدوفّ» وهو يجلس على إحدى زوايا المنضدة، ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى:

- كلا، فأنا أحذر القيام بذلك، فقد تبودلت التواقيع، ودفعت النقود، وسلّم الإيصال إلى من يعنيه الأمر، فكل شيء يبدو، في ظاهر الأمر، سليماً ونظامياً!..

- وماذا هنالك، إذن؟

فقال «مويّكين»:

- هنالك، هو أنه على الرغم من هذه القانونية الظاهرية، فإنّ «فلاديمير كربوفيتش» يعتبر نفسه، بحق، مغبوناً في القسمة. وهو يعتقد أنك كان يمكنك أن تبيع المنزل بسعر أغلى من السعر الذي بعته به..

كانت رجل «سيدوفّ» تتأرجح ببطء في الفراغ.

وقال «نيقولا»:

- لقد حدّدنا، بناء على اتفاق مشترك، السعر الأدنى لبيع المنزل، بمبلغ ثمانين ألف روبل!

فقال «مويّكين» وهو يرفع سبابته التي صبغها التبغ باللون الأصفر:

- كان ذلك قبل حدوث الفيضان، وبعد الفيضان ارتفعت أسعار المنازل كثيراً!

فقال «نيقولا»:

- بالطبع! والدليل هو أني بعته بمائة ألف روبل!

- بشيء من الصلابة والتمسك، كان يمكن أن تبيعه بمائة وخمسة وعشرين ألف روبل.

- كلا، بالتأكيد!

فقال «سيدوفّ» ضاحكاً:

- لا تحتدّ، يا عزيزي! فلسنا، لا أنت ولا أنا من رجال الأعمال، ولا شك في أني لو كنت مكانك لخدعت، كما حصل معك. والذي يحزنني، هي النتيجة، فلو أنك أبديت بعض الطمع والتشدّد لكنا حصلنا على مبلغ أكبر، وهذا كل ما في الأمر! وفي وضعي البائس، فإنّ زيادة أو نقصان عشرة آلاف روبل، يحسب لها حساب. والمبلغ الزهيد الذي قبضته «ماري» بفضل مساعيك، قد ذهب بسرعة لتسديد ديوننا. ولم يبق معنا شيء لتأمين معيشتنا، ولا شيء لتحضير ما يلزم، بشكل مناسب لولادة ابن أختك أو ابنتها!.. ولحسن الحظ، فإنّ السيد «مويّكين» قد تلطف هذه المرة أيضاً، ووافق على مساعدتي، ولكن، عاجلاً أم آجلاً، يجب أن أسدّد له حسابه. فالمصالح لا بد من المحافظة عليها.

فقال «مويّكين» متأوها، وهو يخفض جفنيه بحياء:

- إيه، نعم، بالطبع!

فسأل «نيقولا» «سيدوف»:

- وماذا تبغي من كل هذا؟

فأجابه «يبدوف»:

- بكل عدل وإنصاف، عليك أن تصلح بقدر الإمكان، الضرر الذي سببته لماري، بتخلّصك بسعر منخفض من المنزل الذي كلفت ببيعه في ظروف مواتية تماماً! ادفع لنا أيضاً عشرة آلاف روبل من حصتك أنت، وأعدك بأني لن أزعجك بعد الآن بهذه القضية!

فقال «نيقولا» مزمجراً، وهو يرتجف من شدة الغضب:

- لن أفعل ذلك من أجل أي شيء في العالم!

فقال له «سيدوف»:

- ألهذه الدرجة أنت لا تحب ماري؟

- إنّ حبي لها أكثر من أن أعطيها نقوداً لتذهب إلى جيبك!

- يا له من عذر! وبمعنى آخر: لو أنها لم تكن بحاجة، كنت تقدمت على الفور لمساعدتها.

فبدرت من «مويّكين» ضحكة تشبه مجموعة من العطسات.

وقال «نيقولا»:

- لا تحاول إثارتي وإغاظتي! فقد قررت أن أبقى هادئاً. وربما كنت أقرضت أختي بضعة ألوف من الروبلات، لو أنها هي طلبت مني ذلك، ولكن بما أنك تتهمني بأني لم أحافظ جيداً على مصلحتها في عملية البيع، فإني أكرّر لك أنك لن تحصل مني على شيء بواسطة المطالبة والاعتراض ولا عن طريق التهديد والوعيد، وهل «ماري» مطّلعة على مسعاك هذا؟

فأجابه «سيدوفّ»:

- كلا!

- أفضّل أن يكون الأمر كذلك، لأني هكذا، على الأقل أستطيع أن أحتفظ لها بمحبّتي.

- محبّة لا تكلّفك غالياً!

فضم «مويّكين». مخالبه على بطنه البارز، وهمس:

- يا «نيقولا ميكايلوفيتش»، دع رجل قانون مسنّ وخبير يحذّرك من مخاطر العناد والإصرار على الرفض، ولكي تتجنب المتاعب، عليك أن توافق على العرض المعقول جداً الذي تقدم به «فلاديمير كربوفيتش».

فسأله «نيقولا»:

- عن أي متاعب تتحدث؟ أتريد أن تشكوني إلى القضاء؟

- لا وربي، كلا! إننا، في هذه الحالة، نخسر الدعوى!

إذن. ماذا تعني بما قلته. أوضح ذلك!

فبدا بريق الشر في عيني «سيدوفّ» وخفض التغضّن زوايا شفتيه، وقال:

- كل رجل لديه نقاط ضعف معينة، يا «نيقولا ميكايلوفيتش» ونحن نعرف الكثير عنك. ومن السهل علينا أن نؤذيك..

فظن «نيقولا» على الفور أنّ الشخصين المتفقين ضده مطّلعان على انتمائه إلى جمعية سرية. وأياً كان الخطر الذي ينجم عن وشايتهم به، فإنه لا يستطيع، دون أن يلبس ثوب العار، قبول الصفقة التي يعرضها عليه صهره، فهو يفضل الموت على أن يعتبر نذلاً!

وقال بفخر واعتزاز:

- إني لا أخاف منكما، أيها السيدان!

ومشى نحو الباب.

فأضاف أيضاً «سيدوفّ»:

- فكّر في الأمر جيداً، يا «نيقولا ميكايلوفيتش» ولا تتأخّر كثيراً بالعودة لمقابلتنا! وألا فإنك ستندم على ذلك!

وبعد أن خرج «نيقولا» شعر بالدهشة لأنه استطاع أن يحتفظ بهدوئه حتى النهاية. واهتمامه بعدم الإساءة إلى علاقته بأخته، هو وحده الذي منعه من أن يصفع «سيدوف». وأخذ يردّد في سرّه وهو يتجول في الشوارع: «ومع هذا، كان عليّ أن أفعل ذلك! فهو يستحقه! ويا له من مجرم أثيم!». وبعد أن فكّر ملياً في الموضوع، بدا له أنّ من المستحيل أن ينفّذ «سيدوف» تهديداته، وما هي سوى مناورة، وحيلة مبتذلة لتخويفه. ومحاولته للحصول على عشرة آلاف روبل قد فشلت. فسيحاول هو و «مويّكين» مرة أخرى بعد بعض الوقت، المطالبة بمبلغ أقل من المبلغ الذي طلباه سابقاً. ثم يتخلّيان عن مشروعهما حيال ثبات «نيقولا» وإصراره على الرفض. وعند ذلك اطمأنّ وارتاح باله وأخذ يتأمل شوارع المدينة وحركة المارّة فيها. في الحدائق الصغيرة التي تحيط بالبيوت الخشبية، كانت الأشجار قد أورقت. وأشعة الشمس الشاحبة تتلألأ على زجاج النوافذ. والأعشاب أخذت تنبت بين بلاطات الطريق.

وعبر «نيقولا» السوق المقفر، حيث كانت تنتشر رائحة السمك، واتجه نحو قصر «الكريملن». وهناك، تأمله بلا مبالاة الخفير الذي يحرس المدخل. وتسلق درجاً عريضاً ودخل إلى الكاتدرائية، وهناك عوّد عينيه على الرؤية في الغبش وعبر الظل الخفيف. وكانت أربعة أعمدة تحمل قبة زرقاء، مزدانة بنجوم ذهبية. وبدا له الجو مشبعاً برائحة الشمع والقماش العفن والبخور. وبعض الشموع المشتعلة كانت تنير الحاجز الذي يحمل الأيقونات. وعدة عجائز كنّ راكعات أمام ضريح القديس «دوفمون» الذي كان سيفه المعلق في الفراغ يبدو وكأنه، وهو يتلألأ، على أتم الاستعداد لقطع أربطة وحبال الشر. وكان «نيقولا» في أوقات القلق، أو عند مجرد الشعور بالتعب، يحب كثيراً اللجوء إلى هذا المكان، حيث يحلو التفكير والتأمل. وبين جميع الصور المقدسة المعلقة على جدران جناح الكنيسة، كان يفضل

أيقونة تمثل السيدة العذراء، وهي تسهر على حراسة سكان «بيسكوف» أثناء الحصار الذي فرضه عليها «اتيينّ بتهوري». وكان الفنان قد رسم المدينة بطريقة المنمنمات، بقبابها، بمتاريسها، بقواربها الراسية في النهر وبالمدافعين عنها، فوق الأسوار. وكان البولونيون يقومون بالهجوم وهم يحملون أعلاماً حمراء، والمدافع تصب حممها عليهم. وجميع قديسي روسيا يعقدون مؤتمرهم في السماء ويتشاورون. ولم يكن «نيقولا» هو نفسه يعرف لماذا تتيح له هذه اللوحة البسيطة قدراً كبيراً من الطمأنينة والراحة النفسية. وكان وهو ينظر إليها يشعر كأنه متصل مع الماضي البعيد لوطنه. وأنّ تيار التاريخ يجري عبره. وضمّ يديه وأخذ يصلي: «احمني يا الله، أيّاً كانت خطاياي، لأني مذنب، على الخصوص، بسبب ضعفي الشديد!» فكانت تهدأ آخر مخاوفه. ومن اللقاء الذي حصل بينه وبين «مويّكين» و «سيدوف» لم يبق لديه سوى الاحتقار لصهره والشفقة على «ماري». ووراءه، كان المؤمنون يفدون لتأدية صلاة الغروب. وكان السعال ووقع الأقدام يدويان بقوة تحت أقواس القبة، والأجراس تقرع مدوّيه.

وخرج «نيقولا» من الكنيسة، ونزل على الدرج الذي يحيط به المتسولون، والراهبات اللواتي يجمعن الصدقات لتوزيعها على الفقراء، وسار بمحاذاة جدار منهار، ووقف في أعلى نقطة في «الكريملين» حيث يشاهد من هناك ملتقى نهرين. وكانت صورة قبة جرس كنيسته «أورسبّنسكي» تنعكس على سطح مياه نهر «الفيليكيّا». وكانت الصلبان المذهبة لدير «ايفانوفسكي» الخاص بالنساء تتلألأ بين أدغال خضراء. وعلى الضفة المقابلة، يرتفع سهم دير «سنيتوغورسك». وكانت مياه نهر «بيسكوفا» تحمل تشكيلة كبيرة من جذوع الأشجار التي فقدت قشورها، وبدت عن بعد، صغيرة جداً، وبين جذع وآخر كان يتنقل بعض العمال الذين كانوا لا يبدون أكبر من الجعُل والخنافس. وكانت الشمس تميل في السماء نحو

الغروب. وأخذت تأتي ضجة هادئة من هذا العالم المنصرف إلى العمل. كان «نيقولا» يرفض الاستسلام للشعور بالخوف، بالفرح، بالأمل، أي جميع تلك الإحساسات الحادة والعنيفة، ولم يعد يسرّ ألا عند استسلامه لأحلام وتخيلات مختلطة وغامضة، بل ومشوشة أيضاً، لدرجة أنه لو سئل، على حين غرّة، بماذا كان يفكّر، لما استطاع أن يجيب على هذا السؤال.

وذهب بعد ذلك إلى النادي، فاستقبله «بشمكوف» بصيحات الفرح. فقد كانوا بحاجة له، في ذلك الوقت بالضبط، ليكون رابعهم في لعبة الورق «الويست». وبصورة غير اعتيادية فقد غادر النادي ذلك المساء، بعد أن ربح أكثر من أربعين روبلاً.

١٠

وفي عزّ الليل، سمعت «صوفيا» قرعاً خفيفاً «كالخربشة» على باب غرفتها. فأشعلت شمعة، نهضت وفتحت الباب فوجدت نفسها أمام «فسّيلسّا» الضخمة كالبرج.

وهمست العجوز:

- أعتذر لأني أيقظتك، يا سيدتي. ولكنّ أحد الخدم وصل للتو من «أوترادنوي». ويبدو أنّ الصغيرة «ماري» تعاني من آلام المخاض. وقد أرسلت لك هذه الرسالة.

ففضّت «صوفيا» المغلف الذي ناولته إياه «فسّليسّا» وقرأت:

«الطفل يكاد يولد، وأنا أتألم كثيراً وهنا لا أحد يفهمني ولا أحد يحبني، احضري، أتوسل إليك أن تحضري..»

فسألت «صوفيا» وهي تطوي الرسالة:

- كم الساعة الآن؟

- الخامسة صباحاً، يا سيدتي.

- لحظة من الوقت أرتدي فيها ثيابي، وأذهب! قولي إلى «فيدكا» أن يهيء العربة!

فضمّت «فسّليسّا» يديها:

- ألا تريدين أن أرافقك، يا سيدتي؟ فأنا معتادة جداً على هذه الأمور، وسأخفف عنها آلامها، يا لها من مسكينة!

ففكرت «صوفيا» لحظة، ثم قالت:

- الحق معك، اذهبي وهيئي نفسك للسفر.

فتمتمت «فسّليسّا» وهي تقبل كتفها:

- شكراً، يا سيدتي!

فأغلقت «صوفيا» الباب، وألقت نظره على «نيقولا» الذي كان مستغرقاً في النوم. فهل توقظه؟ لماذا؟ وما جدوى ذلك؟ فبعد ما رواه لها عن خناقه مع «سيدوف» فهو لن يرغب بالذهاب ليلتقي مع ذلك الرجل بالقرب من سرير «ماري»، بل ربما حاول أن يمنعها من الذهاب إلى هناك، بسبب استيائه من صهره ونقمته عليه. ولكنها، لن تسلّم بذلك، فهي لا بد أن تذهب، لأنّ الواجب المفروض يدعوها لأن تفعل ذلك. وإذا تجاسر «سيدوفّ» على إثارة نقاش معها، يتعلق بمصلحته، فإنها ستوقفه عند حدّه، بردود حاسمة. وارتدت ملابسها بهدوء وصمت، ثم تناولت ورقة من أحد الأدراج وكتبت:

«عزيزي»

علمت أنّ «ماري» تعاني من المخاض، وليس لديك ما تعمله هناك، أما أنا فأستطيع عمل الكثير! لذلك ذهبت دون أن أزعجك، وسأعود بأسرع ما يمكن، أرجو ألا تقلق.

قبلة عذبة على جبينك العامر بالأحلام. - «صوفيا»

وكانت تثبت الرسالة على الوسادة بدبوس، عندما أخذ «نيقولا» يتقلب وهو يغمغم. فأطفأت الشمعة بسرعة وخرجت من الغرفة. كان الصمت يخيم على المنزل. وفي أسفل الدرج يبدو ضوء أحد المصابيح. وهناك، أجبرت «فسّليسّا» «صوفيا» على أن تحتسي كأساً من الشاي الساخن وتأكل قطعتين من البسكويت، بينما كان السائس ينجز تهيئة العربة. وعندما انطلقتا في رحلتهما، كان لا يزال الظلام مخيماً، ولكن كانت بوادر الفجر تبدو على ذرى الأشجار معلنة نهاية الليل.

وعند مرور المسافرتين عبر غابة صغيرة أصمّت آذانهما زقزقة العصافير التي أخذت تستيقظ. ثم اجتاح العالم غبار ذهبي. فالتهبت قاعدة السماء، بينما كانت قبّتها تزرقّ خلف حجاب ضبابي. وغمرت «صوفيا» بهجة غريبة، فهي تشهد ولادة النهار وتفكّر بولادة أخرى، كانت تحصل في ذلك الوقت نفسه. ولأنها أخذت تتذمر وقد نفد صبرها، طمأنتها «فسّليسا»:

- اطمئني يا سيدتي، فلن نصل متأخرتين. وأنا سألت الرجل الذي حمل لك الرسالة. فلم تكن المسكينة قد بدأت الطلق سوى قبل برهة قصيرة عندما انطلق من هناك. وهذه أول ولادة لها، وحوضها ضيّق، فالولادة تستغرق وقتاً طويلاً، تعاني خلالها كثيراً من الآلام.

ومع ذلك، فقد أمرت «صوفيا» الحوذي أن يسرع أكثر. فأخذ يضرب الأحصنة بسوطه، وأخذت العربة تتراقص فوق الأخاديد والحفر.

فصاحت «فسّليسا»:

- يا ملكة السماء! إنه إذا استمر بهذا الشكل، فإني أنا التي سأضع مولوداً!

فأطلقت «صوفيا» ضحكة عصبية. كان لديها انطباع بأنّ سباقاً قد أقيم بين المولود والعربة، فأيهما سيكون أول من يصل. وعندما لمحت منزل «أوترادنوي» دهشت عندما رأت أنّ منظره عادي، على الرغم من الحدث العجيب والاستثنائي الذي يحصل بين جدرانه. وخرجت إحدى الخادمات، على درج المدخل.

فسألتها «صوفيا» وهي تضع قدميها على الأرض:

- كيف حال السيدة؟

فأجابتها الفتاة، بلهجة متباطئة:

- إنها في أشد معاناتها! وهي تنتظرك. اتبعيني من فضلك..

وعندما اجتازت «صوفيا» عتبة باب الغرفة، أُلقيت فجأة في الماضي: هذا الغبش الحار، هذا السرير غير المرتب، هذه الأواني هذه الملابس الداخلية والبياضات، ورائحة البشرة الندية وأحشاء الأم المفتوحة ورائحة الخلّ، كل شيء كان يذكّرها بالتجربة التي خاضتها هي بنفسها، دون جدوى ومن أجل لا شيء. واندفعت مسرعة نحو «ماري» التي كانت تبدي لها وجها متعباً وعينين لامعتين من شدّة الحرارة.

وهمست «ماري»:

- شكراً على مجيئك. و «فسّليسّا» أيضاً هنا! أوه! لكم هذا حسن وجميل!..

فابتعدت المرأة لكي تترك مجالاً للزائرتين كي تقتربا من «ماري» ولا شك أنها هي التي تشرف على العملية منذ بدايتها. وعندما لمحت «فسّليسّا» اعتبرتها منافسة لها، فتجهّم وجهها، وقالت:

- ينبغي عدم إتعابها: فهي الآن بين اندفاعتين.

فقالت «فسّليسّا» وهي تهزّ كتفيها:

- أشك في ذلك!

وجثت أمام «ماري»، باركتها بإشارة الصليب، وأخذت تلمس بطنها وتتحسّسه تحت القميص. وجلست «صوفيا» قرب سرير أخت زوجها وأمسكت يدها، بينما كانت هي تردّد بصوت أشبه بصوت فتاة صغيرة:

- أوه! ما أجمل هذا! كم هذا جميل!

وكانت الدموع تنهمر من عينيها الجاحظتين.

وقالت لها العجوز التي تشرف على توليدها:

- لا تتكلمي كثيراً!

فقالت «فسّليسّا»:

- بلى، يجب أن تتكلم! فهذا يريح ذهنها قليلاً!

ورفعت «ماري» جسمها على مرفقيها:

- ألا تسمعن؟.. أجراس!... ربما كان هو؟!..

فقالت المرأة العجوز وهي تهز رأسها:

- هذا، لا يمكن أن يكون هو، وأنت تعلمين ذلك جيداً، هيّا، كوني عاقلة! ادفعي بدلاً من أن تثرثري!

فارتمت «ماري» على وسادتها وكزّت على أسنانها.

فاستأنفت العجوز الكلام:

- إنها تنتظر زوجها، الذي سافر الأسبوع الماضي.

فقالت «ماري» وهي تئن وتتأوه:

- اسكتي، يا «فيوكلا»!

و «فيوكلا» هذه، كانت نحيلة الجسم، وجهها جامد القسمات والتقاطيع، ذراعاها طويلان، ويداها أكبر من رجليها.

وقالت:

- لماذا، يا جميلتي؟ فالصحيح صحيحٌ و «فلاديمير كريوفيتش» سيد، أشغاله كثيرة، ولا يمكن أن يطلب منه البقاء دائماً في مكانه، فهو يذهب ويأتي. وعلاوة على ذلك. فإنه لو كان هنا، ربما كان يعيقنا في عملنا. للرجل البهجة والمتعة وللمرأة الألم والعناء. الله أراد ذلك هكذا!

وسألتها «صوفيا»:

- أين هو الآن؟

فأجابتها «ماري»:

- في «سان بطرسبورغ» على ما أعتقد، عند بعض الأصدقاء..

فتفجّر غيظ «صوفيا»:

- كان يمكنه الانتظار بضعة أيام ليسافر إلى هناك!

فقالت «ماري» بخضوع ومذلة:

- أوه! كلا ، كان الأمر ملحاً وعاجلاً! دائماً ، تلك القصص المتعلقة بالنقود! وهو يأمل أن يجد بعضاً منها هناك. ثم أني لا أرغب أن يكون هنا ويشهد هذه العملية.. إنها بشعة.. إنها... مقرفة... أشعر بالخجل!..

فصاحت «فسّليسّا»:

- ينبغي أن تكون فخورة ، وتقول إنها تشعر بالخجل!

وأصابت «ماري» رعدة بشكل مفاجئ ، فغارت خاصرتاها ، وتقلّص وجهها ، وأرسلت صيحة تنم عن الألم الشديد ، كصيحة الحيوان الجريح.

فقالت «فسّليسّا»:

- حسن جداً! ابذلي جهداً آخر! ساعدينا!

كانت «صوفيا» وهي تشد! على يد ابنة عمها تشعر بارتداد صدمات هذه الاندفاعات المؤلمة ، وتستعيد ذكرى الآلام التي عانت منها هي نفسها فيما مضى ومع ذلك ، فبماذا كان يمكن أن تبخل ولا تعطيه ، في تلك الدقيقة ، لكي تكون محل «ماري»! فعما قليل سينفصل طفل عن هذا الجسم الذي تعرض للأوساخ وللتهشيم ، هذا الجسم المنتصر الذي حظي بالفوز ، سيولد منه طفل ، لن يموت ، هو ، كما مات الآخر ، بعد بضعة أيام! وتوقف صراخ المرأة الشابة. كانت ترتاح ، بانتظار التقلّصات المقبلة. وأرادت «فيوكلا» أن تسقيها ماءً مباركاً. ولكنّ «فسّليسّا» جلبت لها ماءً خاصاً بها في قارورة. ماء «فيوكلا» صادر عن الكنيسة التي تم فيها عقد قران «ماري» أما ماء «فسّليسّا» فصادر عن الكنيسة التي عُمدت فيها.

ووقفت المرأتان متجابهتين ، وجهاً لوجه ، وكل منهما ، قارورتها بيدها.

وقالت «فسّليسّا»:

- مائي أنا ، باركه الأب «جوزيف» ، إنه رجل قدّيس!

فصاحت «فيوكلا»:

- إنه أقلّ قدسية من الأب «ايوان» الذي لا يحتسي الخمر، أبداً!

- والأب «جوزيف» أيضاً لا يحتسي الخمر!

- بلى!

- كلا!

ومن جديد أخذت «ماري» تتلوى ويتقلّص جسمها، وكأنها عُضّت في جنبها. فأسرعت «فسّليسّا» و «فيوكلا» لمساعدتها، وكانتا تتدافعان حول السرير، وأيديهما تتلامس على الجسم الذي يكاد يكون عارياً.

وكانت «ماري» تقول وهي تلهث:

- دعيني! أريد.. «فسّليسّا» وحدها!

فانتفضت «فيوكلا» غاضبة، وقالت:

- أنا التي اختارها السيد لأشرف على الولادة!

فقالت «فسّليسّا»:

- إذا كان يريد أن يتم كل شيء حسب رأيه فما كان عليه إلا أن يبقى هنا، ولا يسافر! لقد فضل أن يكون عصفوراً طيّاراً، سيدك فليذهب وليزقزق في مكان آخر، إذن!

فصرخت «فيوكلا»:

- لا أسمح لك أن تشتمي سيدي، أيتها العجوز الماكرة!

فتدخلت «صوفيا» بقوة، ووبّخت «فسّليسّا»، على وقاحتها. وصرفت «فيوكلا» بعد أن طمأنتها على أنها ستستدعيها عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.

وبعد انصراف «فيوكلا» أعلنت «فسّليسّا» وهي فرحة:

- الآن، ها نحن أصبحنا وحدنا، يا عزيزتي! أنت تعرفين جيداً أني لن أكشف عن أسراري أمام هذه العجوز خادمة «هيرود» «قاتل الأطفال الأبرياء»!

وفتحت حقيبة، فأخرجت منها أوانٍ صغيرة، وبعض الأعشاب وأيقونة. وأول عمل قامت به هو أنها دهنت بطن «ماري» وفخديها بشحم الغرير. وأثناء التدليك، حملقت المرأة الشابة بعينيها، وأخذت تتكلم بلهجة سريعة وحادّة تشبه الصفير، وكأنها تهذي:

- أريد أن تعرفوا.. ولكن لا تقولوا ذلك لأحد..

لقد هجرني... فهو لا يحبني... ولا يهمه أن أنجب له طفلاً.. يا للصغير المسكين!... إنه لم يولد بعد، وكل شيء ضده،.. منذ الآن، في هذه الدنيا... ولا أحد يرغب فيه.. سيكون تعيساً... مثلي!..

وكانت تحرك رأسها على الوسادة بعنف جنوني.

فهمهمت «فسّليسّا» وقد انتابها الذعر:

- لا تتكلمي هكذا، فتغضبين الله عليك، وبدلاً من ذلك يجب عليك أن تصلّي!

فرفضت ذلك «ماري» كانت آلامها لا تطاق. ومسحت لها «فسّليسّا» شفتيها وجبينها وثدييها بمنديل مبلّل بالماء المبارك: «الطيب والجيد، ماء الأب جوزيف!»

وسرت حشرجة في صدر «ماري». وانغرزت أظافرها في يد «صوفيا». وارتفعت نظرتها نحو السقف. فقالت «فسّليسّا»، بلهجة من يوحى إليه:

- سيكون جميلاً! سيكون قوياً! سيكون عادلاً! سيكون ذكياً سيكون غنياً! سيكون محبوباً! وسيدعى «سيرج»!

☆☆☆

عادت «صوفيا» إلى «كشتنوفكا»، عند الغسق، وقبل حلول الظلام. كانت تحمل خبراً مهماً: لقد ولدت «ماري» صبياً. ففرح «نيقولا» بذلك وأراد أن يزفّ البشرى لوالده كي يقاسمه فرحته. ولكنّ «ميشيل

بوريسوفيتش» رفض، مرة أخرى، أن يهتمّ بأحداث «أوترادنوي». وكان على «صوفيا» أن تنتظر الانفراد بزوجها لكي تروي له ما حدث في ذلك النهار. فلامها لأنها ذهبت دون أن توقظه. ولكنه، في قرارة نفسه لم يكن مستاءً لأنه بقي بمعزل عن تلك القضية. كانت أنانيته الذكورية تهيّئه لتجاهل الظروف الشاقّة والمؤلمة للولادة لكي يتذوّق بشكل أفضل فرحة النتيجة النهائية. بل ربما كان أيضاً لا يجد أن تغيّب «سيدوف» معيب إلى الحد الذي يريد أن ينسبه له. أما «صوفيا» من جهتها، فقد كانت ثائرة الأعصاب، متهيجة، لأنها شهدت آلام وجمال الولادة، من بدايتها وحتى انتهائها. وكانت، وهي مستلقية في سريرها، بعد أن أطفأت المصباح، تتصوّر بدقّة اللحظة التي انبعثت فيها كتلة اللحم الحمراء وخرجت إلى الهواء الطلق، بين يدي «فسّليسّا». وقوة الدفع تلك، وذلك الوسخ الدامي، وصيحة الوليد التي تعبّر عن الخلاص، كل ذلك كان يضفي على بداية الحياة مظهر جريمة مخيفة. وعندما انحنت، فيما بعد، على المهد، أخذت تشكّ بأنّ هذا الوليد الهش، الأبيض والمورّد، ذا الرأس الكبير، الكفيف البصر، واليدين الجميلتين، قد سُحب عبر مذبحة مثيرة ومقزّزة. كان يبدو هادئاً بشكل غريب فهو لا يزال ينتمي إلى العالم الآخر، عالم الغيب. وقد قبلته، وكأنها تبحث عن عذوبة ماء أحد الينابيع. وكانت «ماري» منهكة، شاردة اللب، مشتّة الأفكار، ترقد وعلى شفتيها ابتسامة. وهي لا تقوى على النطق، فقد أخرستها السعادة.

وأمسكت «صوفيا» يد «نيقولا» الغافي، وشدت عليها، برفق، ثم بقوة. وقد غمرتها نشوة حسّية. وأخيراً، فتح عينيه واقترب منها، وظلّت، وهي بين ذراعيه، تفكّر بالطفل الوليد.

وفي اليوم التالي، ذهب «نيقولا» و «صوفيا» إلى «أوترادنوي» وبرفقتهما «فسّليسّا» التي كانت تحمل معها «ديارة» للمولود. وكانت جميع

بنات ونساء «كشتوفكا» قد اشتغلن خفيه في خياطة وتطريز تلك الملابس الظريفة والصغيرة.

وتلقّت «ماري» هذه الهدية بتأثر بالغ. وأزالت عنها فرحتها بها ما تبقى من آلامها التي عانت منها في اليوم السابق، وكانت تبدو مزهوة وهي ترقد بالقرب من السرير الذي يرقد فيه ابنها. ووجده «نيقولا» رائع الجمال، وأخذ الجميع يتناقشون متسائلين، هل الوليد يشبه أهل أمه أم أهل أبيه، وأجمع رأيهم على أنه يحمل ملامح «آل اوزاريف». ولم تجرؤ «صوفيا» على أن تقول لـ «ماري» إنّ «ميشيل بوريسوفيتش» لم يهتم بولادة الطفل، وحسب، بل إنها أزعجته. ولا بد أنّ الشكوك قد ساورت «ماري» بهذا الخصوص، ولذلك، فإنها لم تلق أي سؤال يتعلق بوالدها. كما أنها قد تحاشت أن تذكر أي شيء عن سفر زوجها.

وسألها «نيقولا» عما إذا كانت بحاجة لشيء من النقود. فرفضت أن تطلب شيئاً. ولكنه عندما انصرف ترك لها ألف روبل على المنضدة القريبة من السرير.

فهمست «ماري» عند ذلك:

- ليس لي سواكما، أنتما الاثنين، وطفلي، في هذا العالم!

★★★

وانقضت عدة أسابيع دون أن يعود «سيدوف». وفي كل مرة كانت «صوفيا» تذهب لزيارة «ماري» تجدها قد ازدادت قلقاً وانطواءً على نفسها. والسعادة التي كان يتيحها الصغير «سيرج»، كان يعكرها جهلها بنوايا زوجها حيالها. فقد أرسلت له عشرين رسالة، دون أن تتلقى منه أيّ جواب. وتصرفه بهذه الطريقة يدل على أنه يريد أن يهجرها، هي وطفلها. وبناءً على نصائح «صوفيا» قبلت أخيراً أن يساعدها أخوها ماديّاً. ولكنّ «نيقولا»

كان يرى أنّ هذا الوضع لا يمكن أن يستمر طويلاً. وأخذ يفكر بأن يذهب هو بنفسه إلى «سان بطرسبورغ»، ويبحث فيها عن الهارب، ويرغمه، تحت التهديد، على العودة إلى بيت الزوجية. ومهما حدث، في كل الأحوال، فقد كتب إلى «فاسّيا» يرجوه بأن يحصل له على بعض المعلومات عن «سيدوف» كعنوانه وما يقوم به من أعمال، ومن هم الناس الذين يعاشرهم. ولكنّ رسالته ظلت دون جواب. وأخيراً، فقد تلقى من صديقه، بتاريخ التاسع من أيلول «سبتمبر» بطاقة تتضمن عبارات موجزة: «لقد غادرت سان بطرسبورغ، وأتيت لقضاء إجازة مدتها أسبوعان مع أهلي. ومن الضروري جداً أن أراك. وستجدني كل يوم في النادي في «بيسكوف»، اعتباراً من الساعة الثالثة..

وأدهشت لهجة هذه الدعوة، الجافة. «نيقولا» كثيراً، وزاد من دهشته أنّ «فاسيا» لم يخبره قبل ذلك عن وصوله إلى «سلافنيكا». ولكونه شعر أنّ في الأمر شيئاً خفياً، فقد ذهب في ذلك اليوم نفسه، بعد الغداء إلى النادي في «بيسكوف». فوجد «فاسيا» في الغرفة المخصّصة لمطالعة الصحف، واندفع نحوه، فرحاً بلقائه. ولكنّ الشاب أوقفه بنظرة قاسية، كطعنة الرمح. فلم يتمالك «نيقولا» نفسه حيال هذه النظرة المعادية، والوجه المتجهّم، وابتدره، قائلاً:

- ماذا بك؟ ألست مسروراً بلقائي؟

فقال «فاسيا» بصوت غير مميز النبرات:

- قبل أن أجيبك، أريد أن أريك هذه، التي تلقيتها في «سان بطرسبورغ».

وبين أصابعه، كانت ترتعش قطعة من الورق مغطاة بكتابة منتظمة، حروفها شبيهة بحروف المطبعة. فتناول «نيقولا» الورقة، قرأ بضعة أسطر، وانتابه جزع شديد:

«هل تجهل أن أفضل أصدقائك هو عشيق أمك؟ آمل أن يكون الأمر كذلك، بالنسبة لك، لأنّ الأمر إذا كان خلاف ذلك، فإني لا أستطيع أن أتفهم كيف يمكنك أن تستمر بمرافقة «نيقولا ميكايلوفيتش أوزاريف» ومعاشرته. فهو يلتقي مع «داريا فيليبوفنا» في المنزل الصيني، الذي يقال أنه بني خصيصاً لأجلك. والسيئة الحظ خاضعة لهذا الرجل العديم الأخلاق، الذي يكاد يكون بسنّ ابنها. وقد لحق بها العار في نظر جيرانها، وإذا لم تتدخل، فسينتهي بها الأمر إلى تشويه سمعة العائلة، وإلباسها ثوب العار.

«صديق تقديره لك أكبر من أن يستطيع أن يكتم عنك لزمن أطول، خبر هذا العار المخزي.»

فطوى «نيقولا» الورقة، بحركة آلية، وظل وجهه هادئاً، ولكن في قرارة نفسه، كانت تسود فوضى كالتي تحدثها الكوارث. ولأنه وشى به بشأن علاقة كان قد قطعها، فهو لم يعد يعرف إذا كان عليه أن ينكر الحقيقة أو أن يتقبل اللوم والتوبيخ بكبرياء. ولكن من كتب هذه الوشاية القذرة؟ وفكّر، على الفور، بصهره، الذي ملّ من انتظاره العشرة آلاف روبل، فعمد إلى الانتقام، ولكنّ هذا لم يكن سوى افتراض بين عشرة غيره، وليس هنالك أدلة على صحته. وعلاوة على ذلك، فليست هنا المشكلة. فما العمل؟ وعبر الصمت الذي طال أمده، كان الخوف والغضب والقرف تتفاعل وتتزايد في داخله، كالعاصفة عندما تجتاح الجو. وتمتم، وهو كالمجنون:

- رسالة من مجهول، لا تحمل أي توقيع!..

أنها تثير القرف!..

فقال «فاسّيا»:

- لا أهمية تذكر للطريقة المتبعة، المعوّل عليه هو بيان وكشف الحقيقة. وأنا أتيت إلى هنا، لأتحقق من شكوكي!

- هل تجرأت وسألت أمك؟

- كلا، لدي نقطة ضعف حيالها، وما زلت أحترمها، ومهما حدث فأنها لن تعرف شيئاً عن القلق الذي أشعر به. كما أني لم أسال أخواتي، مراعاة مني لبراءتهنّ. والخدم هم الذين زوّدوني بالمعلومات عن لقاءاتكما.

- وصدّقتهم؟

- الأجوبة التي أعطوني إيّاها تتفق مع المعلومات الواردة في هذه الرسالة التي لا تحمل توقيعاً. ولكنّ هذا لا يكفيني. فأنا مهتم بأن اسمع الحقيقة من فمك. وإذا أنكرت فإني سأعتبرك نذلاً..

- وإذا اعترفت؟

- فسوف تستحق كراهيتي، ولكن لا تستحق احتقاري!

فألقى «نيقولا» نظرة جانبية، من فوق كتفه: كانا وحدهما في الغرفة. فقال:

- اسمع، هذه القصة عبثية وغير معقولة! وصداقتنا..

فصاح «فاسّيا»:

- لا تتحدث عن صداقتنا! أجب: نعم، أو لا! فهذا كل ما أريد معرفته!

كان له وجه امرأة شابة نزقة، سريعة الغضب، وقد تقلّص فمه الصغير، وأخذت عيناه تبرقان في ظل أهدابه الطويلة، وقد تدلت على جبينه الأبيض خصلات من شعره الأسود.

واستأنف الكلام، قائلاً:

- أتعطيني، كرجل، كلمة الشرف، بأنه لم يحصل شيء على الإطلاق، بينك وبين أمي؟

فشعر «نيقولا» بالكبرياء، وأراد أن يبدو عزيز النفس فقال:

- ليكن، أني أعترف بالوقائع.

فتوتّرت على الفور ملامح «فاسيا»:

- أطلب إصلاح ذلك بواسطة السلاح!

فتمتم «نيقولا»، منذهلاً:

- أمجنون أنت؟

فقال له «فاسّيا»:

- أيمكن أن تكون جباناً بقدر ما أنت مراء ومنافق، والحياة بالنسبة لي لن يكون لها، بعد الآن، أي معنى، إذا لم أغسل هذه الإهانة بالدم!

فقال له «نيقولا»:

- كلا! كلا! لن أبارزك! لقد كنت أخي!

وفكر... ولم يكمل جملته، فقد تلقى خده صفعة قوية، فشعر بالعار والغيظ يستبدان به، وألقى نظرة لكي يتأكد من أنّ أحداً لم يدخل إلى الغرفة أثناء الشجار. كانت الضجة تأتي من القاعة المجاورة. وبصوت متقطع، قال ببطء شديد:

- تكون أنت قد أردت ذلك، يا «فاسيا» وأنا أقبل تحديك لي، ولكن بشرط: لا أحد يجب أن يعرف سبب ودوافع شجارنا. حتى ولا شاهدانا!

فقال «فاسيا»:

- أنا موافق على ذلك.

- أي يوم تختار؟

- أقرب يوم ممكن.

فسأله «نيقولا»:

- وشاهدانا؟

- سنجدهما هنا، بين أعضاء النادي. وأعتقد أنّ «بشماكوف» يستطيع تدبير كل ذلك، وسأبحث عنه. وغادر «فاسّيا» الغرفة، وظل

«نيقولا» ساكناً لا يقوى على مقاومة الشعور بالقدر المحتوم الذي كان يثقل كاهله. ولم يفق من غفلته ألاّ عندما رأى صديقه يبدو وبرفقته «بشماكوف» و «غوسّلياروف». وقد بدا «بشماكوف» أكثر ضخامة وأيضاً أكثر قوة بجانب الشاب «غوسّلياروف» الذي كان قصير القامة، مربوعاً، وجهه مستدير، وجبينه يغطيه زغب أشقر. وكان يبدو الجد والوقار على ملامح الاثنين: فقد أطلعهما «فاسّيا» على طبيعة الخدمة المطلوبة منهما.

وقال «بشماكوف» لـ «نيقولا»:

- سأكون شاهدك، وشاهد «فاسّيا» سيكون «غوسّلياروف».

فقال «نيقولا»:

- هذا جيد، واعلما منذ الآن، أني أرضخ لجميع الشروط التي يرغب خصمي أن يفرضها على المقابلة فيما بيننا. فلننتهِ من ذلك! كيفما اتفق، ولكن بسرعة!

لم يكن قد سبق له أبداً أن تبارز مع أحد، كما أنّ «فاسّيا» لم يفعل ذلك أيضاً. وبالمقابل، كان «بشكاكوف» معتاداً على هذه القضايا المتعلقة بالثائر للشرف. ولذلك قال:

- انتبه، يا عزيزي! الأمر لا يصلح هكذا! فهناك قواعد ينبغي مراعاتها. والشاهدان سيعقدان اجتماعهما الأول، في الحال. وسنضع مشروعاً لاتفاقية نحدّد فيها الإجراءات التي ستتبع عند القيام بالمبارزة و..

فقاطعه «نيقولا»:

- اعملا ما هو مطلوب منكما! أنا عائد إلى بيتنا. ولن أتزحزح منه إلا للذهاب إلى موقع المبارزة، وفي غضون ذلك، أرجو إعلامي عن الترتيبات التي تكونان قد اتخذتماها!

وخرج دون أن يحيّي أحداً. كان حصانه ينتظره في إسطبل النادي. فطلب من السائس أن يسرجه له، وسار في طريقه إلى «كشتنوفكا». دون

أن يبدد الهواء العليل، خلال ذلك الشوط الطويل، انزعاجه الشديد، لأنّ ما كان يحدث معه كان غير معقول لدرجة أنه لم يعد يشعر بأي صلة أو جانب مشترك مع العالم الذي اعتاد على العيش فيه. والتقى بـ «صوفيا»، ليس على أنها زوجته، بل على أنها غريبة فاتنة، كان عليه أن يخشى نفوذ بصرها وحدّة ذهنها. ولكي يتحاشى وجوب التحدث إليها، لجأ إلى المكتب الذي يعمل فيه، بحجة أنه يدقّق حسابات الأملاك.

وعند الساعة السابعة مساءً، أتى «بشماكوف». وبدا متجهماً، أحمر الوجه، مشعث الشارب، نظراته تنمّ عن الكآبة، وقال وهو يجلس على أريكة أخذت تطقطق تحت ثقل جسمه: لقد تم ترتيب كل شيء!

فألقى «نيقولا» نظرة حذرة على الممرّ، ثم أغلق الباب وسأله:

- ومتى سنتبارز؟

- غداً، الساعة الحادية عشرة صباحاً، في غابة صغيرة أعرفها، بجانب نهر «الفيليكايّا»، يجب أن تمرّ علي وأنا أرافقك وأدلك على المكان.

- والأسلحة؟

فقال «بشماكوف»:

- مسدّسان.

- وما هي الشروط الأخرى؟

فانحرف شارب «بشماكوف» بصورة جانبية، وكان هذا لديه دليل على ارتباكه:

- يريد خصمك أن يضفي على هذه المبارزة طابع الفروسية، ولذلك فهو يرفض الاكتفاء بمجرد تبادل طلقتين، وبناء على طلبه وضعنا ترتيبات معيّنة.. وطبعاً، إذا كانت لا تناسبك فسنبحث عن غيرها..

فغمغم «نيقولا»:

- لقد أكدت، أمام «فاسّيا» و «غوسلياروفّ» أني موافق بشكل مسبق، على كل شيء! ولن أسحب كلامي الآن!

فقال «بشماكوف»:

- حسن، وأنا لم أكن أتوقع منك أقلّ من هذا. إذن. هاك كيف ستتم المبارزة:

وفرك يديه الجافتين، إحداهما بالأخرى، رفّ جفنيه، وتابع بلهجة من ينظم إحدى العمليات:

- ستقفان على مسافة ثماني خطوات، أحدكما عن الآخر، وسنجري القرعة: «الوجه أو القفا» لكي نعرف من من الاثنين سيطلق النار أوّلاً. والذي يعيّنه القدر، يستلم مسدساً، ونربط له منديلاً على عينيه.

- ولماذا؟

- لتعقيد مهمته، وإخضاع يقظة وكرامة الآخر للتجربة. وسيكون، على الرجل الأعزل، بالفعل، أن يوجه طلقة الرجل الأعمى، نحوه، بما يعطيه من معلومات وإرشادات. وإذا هذا الأخير أخطأ الهدف، عند ذلك يقف ليصبح بدوره هو الهدف بالنسبة لخصمه. وبمعنى آخر، فإنه بعد أن يستعيد القدرة على النظر، عليه أن يعطي كل المعلومات والإرشادات الدقيقة لخصمه، الذي نكون في غضون ذلك قد عصبنا له عينيه، وأعطيناه مسدساً، كي يستطيع التسديد باتجاهه، مع أكبر فرصة ممكنة لإصابته.

فقال «نيقولا»:

- إذا كنتُ قد فهمت هذه الترتيبات جيداً، فإنّ هذا النوع من المبارزة، يتطلّب من كل من المتبارزيْن أن يعمل ما هو ضروري لكي يقتل من قبل الآخر.

فقال «بشماكوف»، وهو بادي المرح:

- تماماً! وقد سمعت أنّ مبارزة شبيهة بهذه أي بالطريقة نفسها، حصلت في الفترة الأخيرة في «بروسية» و «فاسيا» أعجب بمشروعي، عندما أطلعته عليه، واعتبره مثلما اعتبرته أنا، أنه قمة الإفراط في الدقّة فيما يتعلق بالتكفير عن الخطأ وإصلاحه بواسطة السلاح.

فقال «نيقولا»:

- الحق معه!

- إذن، هكذا سنعمل، أليس كذلك؟

- بالتأكيد!

- وبالنظر للشروط الاستثنائية لهذه المبارزة، فعلى الخصمين أن يوافقا على أنهما طبقا تماماً قوانين الشرف بعد تبادل الطلقات لمرة واحدة، دون أي نتيجة.

- إذا أردت ذلك.

- سأهتم بتدارك المسدّسين.

فقال «نيقولا»، متأوهاً:

- نعم، نعم!

كان يرغب بأن يرى هذا الزائر الثقيل يسرع بالانصراف، لأنه أزعجه بغبائه وغروره. ومع ذلك فإنه عندما انصرف «بشماكوف» شعر بالأسف لأنه لم يعد لديه أحد يتحدث إليه عن مبارزته المقبلة. وحتى موعد النوم، اضطر أن يبذل جهداً كبيراً لإخفاء قلقه واضطرابه لكي لا تلاحظ ذلك «صوفيا»، فهل كان يمكنها أن تفترض أنّ الرجل الذي كان يعانقها في تلك الأمسية، قبل النوم، لم يكن لديه سوى فرصة من اثنتين، للبقاء على قيد الحياة؟

وعندما أطفأ المصباح، حصل لديه انطباع بأنه في آن واحد، أكثر وحدة وأكثر حرية وأكثر حدة ذهن وأكثر يأساً. وأخذ يحاول تحليل قلقه

وغمه وعيناه مفتوحتان في مياه الليل السوداء. كلا، إنه لم يكن يخاف من الموت. وأخذ يتصوره كسقوط مدوّخ في بئر، كفقدان للقوى بكل رفق وهدوء، وراحة لا نهاية لها بين الرموز التوراتية.

ولكنه إذا كان يمكنه أن يقبل بكل حماسة أن يضحي بنفسه في سبيل غاية نبيلة، فإنه كان يتألم للمجازفة دون جدوى بحياته بسبب امرأة لم يعد يحبها، بل إنه، بالواقع، لم يسبق له أن أحبها أبداً.

وعندما أخذ يفكر بمثله الأعلى السياسي، بأصدقائه، وبالثورة التي ستنشب في المستقبل، كان يتميز غيظاً لأنّ حلم العظمة، هذا، قد أفسدته وبددته زلة صغيرة من زلات السلوك. فكيف يسمح الله أن تكون العقوبة لا تتناسب إلى هذه الدرجة مع الخطيئة؟

ولاحظ أنه يدافع عن قضية أمام قاضٍ موجود، تقريباً، في مكان الأيقونة. كان لهب الشمعة ينير الألوان التي تزين الصورة المقدسة.

وإذا كان مقدراً، ومكتوباً في السماء أنّ «فاسّيا» سيقتله غداً، فماذا سيحدث لـ «صوفيا»؟ فشعر بالتمزق شفقة عليها عندما فكر بالحزن الذي ستشعر عليه. كان قد أتى بها من فرنسا إلى روسيا، ودفع بها وسط أسرة غريبة، بل وأجنبية بالنسبة لها، ولم يستطع أن يمنحها طفلاً، وقد خانها. والآن هو يتأهب للموت، وسيتركها وحيدة، وقد أورثها فضيحة تلبسها ثوب العار، هي التي تستحق أن تنعم بالسعادة التامة! وتبادر إلى ذهنه: «ولكن إذا نجوت، فإني أقسم بأني سأكرس نفسي، بكليتي، لزوجتي، ولخير البشرية..»

وفي الحال هدأت مخاوفه، ورفض أن يصدّق أنّ الآلة المكونة من لحم ودم، والتي تدعى: «نيقولا ميكايلوفيتش أوزاريف» سوف تتوقف غداً، عند الساعة الحادية عشرة. وكان يشعر أنه أكثر حيوية، من أن يتصور نفسه جثة هامدة.

وأتاه صوت «صوفيا» عبر الظلام، وهي تسأله:

- ألم تنم؟

فانتفض، وكأنّ شبحاً هو الذي كلمه. وشعر بطعم مالح قد حلّ في فمه، وأجاب بصوت ضعيف وهو في غاية التعاطف والشعور بالحب:

- كدت أغفو.

وظلّ مستيقظاً طوال الليل، وفاجأه الفجر، وهو منهك، متوتر الأعصاب، ذهنه منشغل بتأليف الرسالة التي سيتركها لزوجته. وانتظر إلى أن خرجت من الغرفة، في الصباح، لكي يكتبها. ولكنّ النص الذي كان قد حضره، بدا له سخيفاً. فكتب على ورقة صغيرة هذه الكلمات البسيطة: «اغفري لي، يا عزيزتي «صوفيا» كل الأذى الذي سببته لك. لم أكن أستطيع التصرف بشكل آخر، أحبك أكثر من حبي لحياتي. الوداع.» ودسّ الورقة في جيبه: وسيجدونها هناك فيما لو قتل.

ولأنها يمكن أن تكون آخر مرة يظهر فيها في هذا العالم، فقد رغب بخاصة أن يكون أنيقاً، ولذلك حلق ذقنه، وارتدى الملابس الداخلية الناعمة، وربط عقدة جميلة، ولبس معطفاً خمري اللون، ياقته سوداء. ولم تمنعه هذه العناية المفرطة بهندامه من أن يبدو بالنسبة للمحيطين به أنه «نيقولا» الاعتيادي الذي يرونه كل يوم، خلياً، ودوداً ومحبّباً. وسألته «صوفيا»، لماذا يذهب إلى «بيسكوف» في هذه الساعة المبكرة. فأجابها بأنّ «بشمكوفّ» يريد أن يأخذ رأيه بشأن فرس يريد أن يشتريها.

فقالت «صوفيا»:

- ولكنك ستعود قبل موعد تناول طعام الغداء!

فأجابها:

- بالتأكيد!

وانقبض قلبه بشكل مؤلم. وطلب منه والده أن يجلب له تبغاً، فوعده بأنه لن ينسى ذلك.

وقال وهو يضع رجله في الركاب:

- يا لها من صبيحة جميلة!

وأرسل السرج الجديد، تحته، صريراً خفيفاً. وحرّك الحصان أذنيه. وقال في سرّه: «لماذا عشت هذه الحياة؟ لا لشيء! لا لشيء!..» كان والده وزوجته قد خرجا، ووقفا في أعلى درج المدخل. فوجّه نظرة حزينة لهذين الشخصين المألوفين، للبيت القديم الوردي بأعمدته البيضاء، للأشجار التي بدأت أوراقها تصفرّ، كل هذا الذي ربما لن يراه بعد الآن، ثم، وبعد أن فقد شجاعته إزاء تدفّق الذكريات، دفع حصانه في الممر الذي تحيط به أشجار الصنوبر، السوداء.

عندما وصل «نيقولا» و «بشمكوف» إلى الغابة الصغيرة الواقعة على ضفة نهر «فيليكايّا». كان «فاسّيا» و «غوسلياروفّ» موجودَيْن هناك. والمكان عبارة عن فسحة مغطاة بالأعشاب الذابلة تحيط بها بعض أشجار السندر، التي اصفرت أوراقها. وإن كانت الشمس قد بدت عالية في السماء، فقد كان الضباب الكثيف الذي يتصاعد من مياه النهر، يعلق بأغصان الأشجار، كان الجو رطباً ندياً، والهواء محمّلاً برائحة الوحل، والأعشاب ودخان الحطب. وحلّق غراب وهو ينعق، فقال «نيقولا» في سره: «فأل سيئ!» وربط حصانه وحصان «بشمكوف» في إحدى الأشجار. كان «فاسّيا» و «غوسّيلياروف» قد حضرا في إحدى العربات التي يمكن أن تستخدم، كعربة إسعاف، إذا دعت الحاجة إلى ذلك. ولكن لم يروا أنّ هنالك جدوى من إحضار أحد الأطباء.

وكان «فاسّيا» يبدو شاحب الوجه بمعطفه الأسود؛ وقد جلس على حجر، وبين أسنانه قشة يعضها. ولم يرفع نظره على القادمين الجدد. ولم

يستطع «نيقولا» أن يصدّق أنه ليس متواجداً مع أحد أصدقاء شبابه، بل مع عدو متحمس لقتله. وخلافاً لكل ما يبدو أنه حقيقي، كان لا يزال يأمل أنّ هذا الفتى الصموت يمكن أن يندفع نحوه، يعانقه، ويعدل وهو يبكي، عن المبارزة. ولكنّ الوقت كان يمر و «فاسّيا» لا يتحرك. وأخذ الشاهدان، يسيران جنباً إلى جنب أحدهما صغير الجسم، والآخر ضخم جداً- ويقيسان الخطوات الثماني المتفق عليها. ووضعا قبعتيهما في المكانين اللذين يجب أن يقف فيهما الخصمان، ثم أخذا يتشاوران بصوت خافت. كل منهما كان قد جلب مسدس مبارزة في علبة، وأخذا يقارنان الأسلحة ويتفقدانها، ثم قاما بتعبئتها. وبكل ما يملك «نيقولا» من قوة، كان يتمنى أن يختار القدر «فاسّيا» ليكون هو أول من يطلق النار، قائلاً بينه وبين نفسه: «إذا حصل ذلك، فلن يكون لديّ مشكلة يجب علي أن أحلها: أو أنه يقتلني وينتهي كل شيء، أو أنه يخطئ ولا يصيبني، وعندما يأتي دوري، سأفرغ رصاصات مسدسي في الهواء، ولكن إذا كان عليّ أنا أن أطلق النار أولاً، فماذا يجب عليّ أن أعمل؟ هل أحاول قتله، أم أُبقي عليه، وأقبل أنه هو، بعد ذلك لن يبقى عليّ؟»

وسأل بجفاء:

- هل ستنتهيان قريباً؟

فرفع «فاسيا» رأسه ووجّه له نظرة ملؤها الاحتقار وقال «بشمكوف»:

- هاك! هاك! سنجري القرعة.

فقال «فاسيا»:

- أنا أختار القفا.

وقال «نيقولا»:

- هذا حسن.

فقذف «بشمكوف» قطعة نقود فضية في الهواء، فدارت حول نفسها وسقطت بين الأعشاب، فانحنت سوية أربعة رؤوس نحو الأرض. وأعلن «غوسلياروفّ»:

- وجه، «نيقولا ميكايلوفيتش» أنت أول من يطلق النار..

فارتعش «نيقولا» بتأثير صدمة الخيبة. وأخذ قلبه يخفق وسط فراغ مدوٍ. واتجه نحو المكان المخصص له. ووقف «فاسّيا» جامداً، على بعد ثماني خطوات.

وقال «غوسّلياروفّ» وهو يقدّم لـ «نيقولا» علبة فيها مسدسان متشابهان؛ أخترا

فتناول «نيقولا» أحدهما، وبدا له ثقيلاً، ولكنه متوازناً. وأخرج «بشمكوف» منديلاً أسود من جيبه، ومرّ وراء صديقه وعصب له عينيه.

وسأله «غوسّلياروفّ»:

- أتقسم لي بشرفك أنك لم تعد ترى؟

فقال «نيقولا»:

- أقسم لك على ذلك.

كان المنديل يشدّ على أرنبة أنفه. والعقدة، مشدودة جداً، كانت تشكل كتلة تضغط أيضاً على أسفل جمجمته.

وملأت حواسه رائحة التبغ ورائحة «مصفّف الشعر»: إنها رائحة «بشمكوف». ظلام دامس. لم يعد هنالك ثانية يمكن إضاعتها. والسؤال نفسه تبادر إلى ذهنه، وبمزيد من الحدة أيضاً: «أيقتل «فاسيا» لكي يصبح متأكداً من بقائه على قيد الحياة، أم أنه يُبقي عليه، ويعرض نفسه للقتل؟»

وسأله «بشمكوف»:- هل أنت مستعد؟

فأجابه:

- نعم، مستعد.

ورفع ذراعه ببطء. كان يتصور «فاسّيا»، شاحب الوجه، يقف منتصباً، نظرته ثابتة، وقد استحوذ عليه شعوران متصارعان: الرعب والشجاعة. «فاسّيا» الذي لم يكن لديه ما يلوم نفسه عليه، «فاسيا» الذي كانت أجمل سنين حياته لا تزال قادمة مستقبلاً!..

وبالمقارنة مع هذا الشاب، كان يشعر أنه قد ذبل، بلي، ولم تعد منه أي فائدة. كان السلاح يبدو ثقيلاً في طرف قبضته. وخفض فوهة المسدس ثم سدّد تخميناً في الظلام. وقرع صوت «فاسّيا» سمعه، وكأنه خارج من القبر:

- أكثر انخفاضاً.. أكثر إلى اليسار.. هنا، أكثر قليلاً إلى اليمين الآن.. كلا، هذا أكثر مما ينبغي.. حسن جداً... زدْ قليلاً أيضاً... أيضاً..

كان «نيقولا» ينصاع بدقة لتلك الإرشادات: قاتل تشجعه ضحيته!

وقال «فاسيا»:

- وضع صحيح تماماً، لا تتحرك بعد الآن، أطلق النار! ودهش «نيقولا» لأنّ «فاسيا» خاطبه بشكل رسمي، وبصيغة الجمع. وأدرك فجأة أنه يفضّل أن يقتل هو نفسه. وأخذت يده ترتجف.

فصاح «فاسّيا» بصوت هيستيريّ:

- إيه، ماذا هنالك؟ أطلق النار! أطلق! ماذا تنتظر؟!

فوجّه «نيقولا» فوهة مسدسه إلى الأعلى وضغط على الزناد. فأصم الانفجار أذنيه في الوقت الذي كان يشعر فيه بارتداد السلاح على كتفه. ونزع العصابة عن عينيه، فبهره الضوء. كان سعيداً لأنه أطلق النار في الهواء. وعلى بعد ثماني خطوات أمامه، كان «فاسّيا» يصرخ وقد تجهم وجهه، من شدة الغضب:

- لا تعتقد أنك تستطيع أن تأسرني وتقيدني بحركتك الرحيمة والمتسامحة، فليس هنالك مجال بيننا للتسامح والامتنان!

وأنا أريد أن أمارس حقي!

فقال له «نيقولا»:

- ومن يمنعك من ممارسته؟

وتبادر إلى ذهنه: «هل سيظل يكرهني بعد أن يقتلني؟» كان «بشمكوف» قد عرض الأسلحة على «فاسّيا» لكي يختار أحدها، وعصب له عينيه وألقى عليه السؤال الروتيني:

- أتقسم لي بشرفك أنك لم تعد ترى؟

فقال «فاسيا»:

- أقسم لك بشرفي، على ذلك.

فأزاح كتفه، وشهر سلاحه. اله شاب، أعمى كالقدر وقد أخذ ينتظر صوتاً يبعث فيه الحركة. ولم يكن «نيقولا» يستطيع أن يخلّ بواجبه، تحت نظرات الشاهدين، التي تنمّ عن الانتباه الشديد. وبالإضافة إلى ذلك فهو لم يكن لديه أي رغبة بأن يعمد إلى الغش. وإذا كان قد عانى وتألم عندما كان الخصم تحت رحمته، فهو لم يعد يشعر بالخوف. منذ أن أصبح، بدوره، هو الهدف. وسيان لديه كان الموت والحياة وكل شيء. وبدا له أنه ينفصل عن جسده وأنه يعبر طبقة رقيقة من الهواء الشفّاف ويمرّ على الجانب الآخر. وملأ ناظريه بألوان الخريف، الشاحبة، وقال:

- أنت بعيد جداً عن الهدف.. ارجع إلى اليسار.. ارفع قليلاً سلاحك.. ليس بهذا القدر، بل أقل منه.. وكان المسدس يتحرك بدقة وحذر. وأخيراً ثبت في الاتجاه الصحيح. وكانت فوهة المسدس عيناً صغيرة سوداء وشرّيرة موجهة نحو «نيقولا» الذي كان يقول في سرّه: «إنه لا يمكن أن يخطئني» وصاح:

- لا تتحرك بعد الآن! أطلق النار!

وبسرعة كبيرة، أخذ يفكّر بـ «صوفيا»، وبأصدقائه.. ودوّى طلق ناري، وصفرت الرصاصة عند أذنه اليسرى. وبعد أن مرت لحظة المفاجأة،

تبين له أنه لا يزال واقفاً، دون أن يصاب بخدش، وأنّ قلبه يدق بانتظام. وانقشع الدخان. وأعاد «فاسيا» وهو غاضب، المسدس إلى «غوسّلياروفّ».

وقال «بشمكوفّ»:

- أيها السيدان، لقد حققتما شروط الشرف وخضعتما لها. وكما تم الاتفاق، فلن يكون هنالك أي تبادل آخر لإطلاق النار. فهل تريدان أن تتصالحا هنا في هذا الموقع؟

فهزّ «فاسّيا» رأسه بالنفي، وكانت عيناه تتوهجان. وتمتم:

- هذا مستحيل! وأنا لن أطلب مبارزة أخرى، ولكن لا تطلب مني أن أصافح هذا الرجل! فكل شيء قد انتهى بينه وبيني! فأنا لم أعد أعرفه! الوداع!

واتّجه بخطى سريعة نحو عربته، يتبعه «غوسّلياروف» الذي كان يقفز قفزاً على ساقيه القصيرتين. فأطلق «بشمكوفّ» ضحكة رنّانة، وصاح:

- انتهت المهزلة! كل شيء قد تم على ما يرام! هل أنت مسرور؟

فقال «نيقولا»:

- مسرور جداً.

كان يشعر من رأسه حتى أخمص قدميه، بارتياح دون بهجة، كما لو أنه ببقائه على قيد الحياة قد خسر الرهان، بالمقابل. وكانت متعته الوحيدة وسروره الشديد ناجمين عن اعتقاده بأنّ «صوفيا» لن تشك بشيء. وأخرج من جيبه الرسالة التي كتبها لزوجته، وأعاد قراءتها بأسى، ثم مزّقها، فتبعثرت قطعها بين الأعشاب.

واقترح عليه «بشمكوفّ»، قائلاً:

- ادعني لتناول طعام الغداء في النادي كي نحتفل بالنهاية السعيدة لهذه المبارزة!

فقال له «نيقولا»:

- كلا، هنالك من ينتظرني في البيت.

وعند مروره في «بيسكوف» اشترى تبغاً لوالده.

١١

ومع مرور الزمن، أخذ «نيقولا» يدرك بشكل أفضل أنّ تلك المبارزة، التي خرج منها في ظاهر الأمر، سليماً معافى، كانت في واقع الأمر، قد أحدثت لديه تأثيراً عميقاً. فرجل كان قد غادر ذلك البيت ليخوض معركة، ورجل آخر كان قد عاد إليه، مكشوف البصيرة، متعقل، مستغرق في التفكير. ولأنه اقتنع بأن «سيدوفّ» هو الذي أرسل تلك الرسالة المغفّلة، فقد أخذ يفكر بالذهاب إلى «سان بطرسبورغ» لكي يرغمه على الاعتراف، ويجعله في وضع لا يستطيع فيه إحداث أيّ أذى. ولكن بأي وسيلة يستطيع تحقيق ذلك؟ لم يكن يعرف ذلك تماماً فالشخص خطير. وبعد الوشايات على الصعيد العاطفي، يمكن أن تأتي وشايات على الصعيد السياسي. وكان «نيقولا» يفضل الموت على رؤية أصدقائه وقد اكتشفوا واتهموا بسبب غلطته! وكان «كوستيا لادوميروفّ» يوجّه له نداءات تزداد إلحاحاً، على الدوام: «إنّ «ريلييف» يحدّثنا دائماً عنك.. وتستطيع أن تقدم لنا خدمات مهمة.. إنه لأمر مؤسف أن تكون مقيماً في مكان بعيد جداً!»

وكان يطلع «صوفيا» على هذه الرسائل. ولم يكن يبدو عليها أنها تدرك ما كان يأمله.

وكانت «صوفيا» تستغلّ غياب «سيدوفّ» الذي طال أمده، فتمضي أياماً بكاملها في «أوترادنوي»، إلى جانب «ماري» والصغير «سيرج» الذي كانت مفتونة به.

ومع هطول أمطار الخريف، الأولى، ازداد مزاج «نيقولا» سوداوية وكآبة. كان يفكّر كثيراً بـ «فاسيا» الذي سافر من جديد دون أن يوافق على مقابلته. والريف الذي تعرى، وتبلّل، أخذ يغوص في الوحول، ويغيب في الضباب. وفي العاصمة، افتتح موسم المسارح، والاجتماعات في منزل «ريلييف» لا بد أنها قد أصبحت أكثر جاذبية وأكثر إثارة، بينما هنا، في الريف كانت أفضل تسلية هي سماع عصف الرياح، وحفيف أوراق الأشجار، وجريان مياه الأمطار في المزاريب. وكيف لا تكون «صوفيا» هي أيضاً، تشعر بالملل ومنزعجة من كونها مرغمة على أن تُمضي شتاءً آخر في «كشتنوفكا»؟ ولدى دراسة «نيقولا» لسلوك وتصرف زوجته، تأكد له أنّ هذه المرأة المؤيدة لنظام الحكم الجمهوري. كانت بالحقيقة وفي واقع الأمر، سعيدة جداً في دورها الذي تقوم به كسيدة مالكة لأراضي شاسعة. ومع استنكارها للأخلاق والتقاليد البربرية السائدة في روسيا، فإنها كانت منسجمة ومرتاحة مع السلطة التي أعطيت لها على ألفي فلاح من العبيد الأرقاء. وبمحاولتها تحسين ظروف حياتهم، ومصيرهم، كانت تتصرف وتعمل، بدافع من أخلاقها وطيبة قلبها، هذا صحيح، ولكن أيضاً عن رغبة بالقيادة، وبتوجيه وإدارة شؤون حياة الآخرين. ولم تكن ترضى بمغادرة هذه الملكية، حتى لو كان من أجل إرضاء زوجها، ولو كان من أجل المشاركة معه في النضال في سبيل الحرية. وليس هنالك أي شك في أنها وقد انطلقت من لا شيء، من الصفر، لكي تكتسب ثقة كثير من الناس، بدءاً من عمها، وانتهاءاً بآخر «موجيك» «فلاح عبد رق» فهذا جعلها تتعلق بقوة بهذه الأمكنة التي وصلت إليها وحلت فيها كدخيلة، فيما مضى. فهي قد غزت «كشتنوفكا»، واحتلتها. والمتكبر «ميشيل بوريسوفيتش» نفسه لم يعد يعترض على ذلك. و «نيقولا» لم يكن يستطيع أن يفكّر بوالده دون شعور بالجفاء. فأي لعبة يلعبها بين ولديه؟ فقد تعافى

بسرعة، وبشكل مفاجئ، وأخذ يمتطي حصاناً ويقوم بنزهات قصيرة، وأخذ يتحدث عن تنظيم حملة أخرى لمطاردة الذئاب. ويوم الأحد الأخير من شهر تشرين الأول «أكتوبر» تلقى دعوة لتناول طعام الغداء، من حاكم «بيسكوف»: «فون أدير كاس» الذي كان، في التاريخ نفسه من كل سنة، يدعو للاجتماع لديه بعض وجهاء المنطقة. وللمرة الأولى، منذ زمن طويل قرر «ميشيل بوريسوفيتش» تلبية الدعوة، بعد أن شجعته «صوفيا» على ذلك.

وفي اليوم المحدّد، كانت هي التي اختارت له الملابس التي يرتديها، قائلة بأنه يجب أن يبدو أنيقاً، لاسيما وأنه نادراً ما يقوم بزيارات اجتماعية. وأمضى وقتاً طويلاً في الاستعداد لهذه الزيارة، وغادر غرفته كدب يخرج من حجره. وأخذ يبحث بعينين قلقتين عن موافقة وتأييد «صوفيا». فهنأته، وأصلحت بإصبعها طيةً في ربطة عنقه، وطلبت منه أن يريها نظارته، وكان قد تحاشى تنظيفها، عمداً، فلامته على ذلك، ونظفت عدستيها بمنديلها، بينما كان يبتسم مسروراً. وطلب السيد «لوسور» منه الأذن بأن يستغل ذهاب العربة إلى «بيسكوف» قائلاً بأن عليه أن يقوم بشراء بعض الحاجيات من المدينة. ولكن، دون شك، لم تكن سوى ذريعة لتمضية ساعة، مع «ميشيل بوريسوفيتش» على انفراد، في العربة: كانت جميع المناسبات والفرص، تبدو له صالحة وجيدة للتقرب من هذا الذي يعذّبه. وبعد أن شاكس «ميشيل بوريسوفيتش» الافرنسي، إلى أن أسال له الدموع من عينيه، صاح به أن يسرع، لأنّ الأحصنة أصبحت جاهزة، وأنه لا ينتظر أحداً سواه!.. فصعد السيد «لوسور» بسرعة إلى غرفته، وعاد منها في الحال، بحذاء مدهون وصلعة معطّرة، وصدارة أزرارها مبكلة على المقلوب. وشهد «نيقولا» و «صوفيا» رحيل الرجلين، من أعلى درج المدخل. وكان المربي وهو يجلس بجانب «ميشيل بوريسوفيتش» الضخم الجثة، منكمشاً

في معطفه، وقبعته مسدلة على عينيه، مبتهج الوجه، ولصغر جسمه كان يبدو كطفل يصطحبه والده لزيارة السوق الأسبوعية التي تقام في المدينة.

ومنذ سنوات عديدة، لم يتناول «نيقولا» وزوجته طعام الغداء، على انفراد. وكانت «صوفيا» مبتهجة بهذه الفرصة التي أتيحت لهما، ولكنها لم تستطع الامتناع عن التفكير بعمها دائماً. ولم تكن تتصور ذلك المنزل إلا وقد ملأه حيوية حضور «ميشيل بوريسوفيتش»، وكان يكفي أن تنظر إلى الأريكة التي اعتاد أن يجلس عليها، لكي تشعر بأنها ليست وحدها مع زوجها. وبالمقابل كان «نيقولا» يبدو وقد تحرر من قيد يثقل كاهله. ومنذ بداية الوجبة، عاد إلى الحديث عن الرسالة التي تلقاها من «كوستيا لادوميروف» والتي قرأها لـ «صوفيا»، في الليلة السابقة. وفجأة شدّد من لهجته، وانتقل إلى الهجوم:

- يجب أن نتخذ قراراً، يا «صوفيا». وإذا كان علينا أن نبقى هنا من أول السنة إلى أخرها، فإني سأموت من السأم، والفراغ، واليأس!..

لم يسبق له أبداً أن شكا أمامها، بهذه المرارة.

فسألته:

- أتريد أن تسافر ثانية؟

فأجابها:

- نعم، وبرفقتك!

كانت تخشى هذا الجواب.

فقالت ـ متأوهة:

- كيف يمكن ألاّ تكون راضياً ومسروراً في «كشتنوفكا»؟

- وأنت يا «صوفيا» كيف يمكن أن تكوني راضية ومسرورة فيها، بعد أن عرفت «باريس» و «سان بطرسبورغ»؟

فابتسمت:

- يوجد في المدن صخب وضجيج، وبريق مزيف، وأنا أمقت ذلك، أما هنا فكل شيء حقيقي، كل شيء بسيط. وكل شيء يزن ثقله الصحيح والحقيقي..

- ربما كنت فكرت مثلك، وكما تفكرين تماماً، لو أني غير مهتم بمستقبل بلادي! ولكنك تعلمين أنّ لي رفاقاً ينتظرونني في «سان بطرسبورغ» وتعلمين أيضاً أني أتحرق شوقاً لأثبت وفائي وإخلاصي للقضية التي يناضلون من أجلها! وأنت لن تعترضي عليّ، عندما أتحدث عن الانضمام إليهم! لأني قبل أن أتعرف عليك، لم أكن أفقه شيئاً في السياسة، ولم أكن أتبين فائدة إلغاء الرقّ، بل كنت أجهل، تقريباً، ما هو الدستور!

كانت تتوقع منذ زمن طويل هذا الاعتراض! نعم، ، كان يمكن أن يبدو لـ «نيقولا» غريباً أنها بعد أن أوحت إليه بحب الحرية ونمته لديه لم تعد تشجعه كثيراً في مشروعه. فكيف يمكن إفهامه أنّ الحياة قد أضعفت لديها حب الأفكار والولع بها، وأنها تفضل التعامل مع الناس الفقراء والبسطاء على التعامل مع المثقفين والمفكرين الكبار، وأنّ سعادتها قد أصبحت متعلقة بالأرض، مباشرة، وبالأمور والشؤون اليومية؟

وقالت بهدوء:

- لكم أودّ أن أحذّرك من حماستك المفرطة.

- وأيّ عيب في حماستي، يمكن أن تلوميني عليه؟ أيمكن أن تكوني، بالمصادفة، قد تحولت إلى تأييد نظام الحكم الملكي؟

بهذا ردّ عليها، بأعلى صوته.

فأخذت تراقبه، وهو في ثورة غضبه، بنوع من الرعاية الناقدة والمتعاطفة دون اندفاع أعمى، كتلك التي تربط المعلم بالتلميذ؛ وقالت له:

- كلاّ، يا «نيقولا»، إنّ آرائي لم تتغير.

- ومع ذلك، لو أنك في فرنسا لما قلت هذا الكلام!

- في فرنسا، كنت في بلدي، وبين أبناء وطني، الذين يمكنني أن أفهم ردود فعلهم..

- ألا يخيل لمن يسمعك أنك وصلت للتوالي روسيا؟ مع إنك تعيشين بينا منذ سنوات عديدة!..

فتمتمت «صوفيا»:

- منذ سنوات عديدة، نعم، ومع ذلك، فإني أشعر أني أجنبية وغريبة سياسياً بالنسبة للأمة الروسية وفي كل مرة أريد فيها أن أتصرف، يزعجني شيء ما، يقلقني، ويفاجئني. ويبدو لي أنّ ليس لديّ الميزات المكتسبة من أجل تهديم نظام بلاد لم أولد فيها. ولولا القليل- وستضحك مني- لاعتقدت بأني أخلّ بقوانين وتقاليد الضيافة فيما لو ساعدتك على نشر أفكار الدعوة إلى نظام الحكم الجمهوري هنا، هذه الأفكار التي كنت أتبناها وأدافع عنها في فرنسا!

فانقلب على كرسيه، وغمغم:

- هذا هو تماماً ما عنيته فيما قلت: أنت ضد الثورة!

- أبداً، وعلى الإطلاق، بل إني أعتبرها ضرورية. ولكني لا أرى أنّ لي الحق أن أتدخل فيها شخصياً. ألم أردّد على مسامعك بما فيه الكفاية أنّ هذا النظام الجديد، يجب أن يفكر فيه، ويهيئه ويقيمه مواطنون روس، أي أنت ورفاقك؟ وكل ما أستطيع أن أقوم به أنا، هو تهيئة الفلاحين وتأهيلهم لتلقي وتقبل السعادة التي ستمنحونهم إياها، ذات يوم. وللقيام بهذا، لا حاجة بي للذهاب إلى المدينة! بل على العكس من ذلك، ينبغي علي بالطبع أن أبقى في الريف..

كانت تتكلم عن الفلاحين وهي تفكر بـ «مشيل بوريسوفيتش»، فهو أيضاً بحاجة إليها. وفجأة، شعرت بالبهجة لأنها ستراه عند تناول

طعام العشاء. وسيحدثها عن الغداء عند «فون أديركاس» منتقداً المأكولات وساخراً من الضيوف. وستلومه لأنه ليس اجتماعياً، وسيوافق على ذلك ويعطيها الحق. وربما لعبا، بعد ذلك مباراة شطرنج. وسمعت «نيقولا» يقول:

- يمكننا ألاّ نمضي هناك سوى خمسة عشر يوماً..

- كلا، يا «نيقولا»، إنّ مكاني هو هنا.

- أعرف لماذا لا تريدين أن تسافري: إنّ السبب هو أبي!

- بالفعل. فهو مسنّ. وصحته تقلقني كثيراً..

فقال ضاحكاً:

- دعكِ من ذلك! فهو عندما ينظر إليك، يبدو وكأنه في العشرين من العمر!

فاستاءت من هذه المزحة الثقيلة.

واستأنف الكلام:

- أردت مشاكستك وإثارتك! وبالإضافة إلى ذلك، فليس هو وحده الذي يلزمك بالبقاء هنا، فهنالك «ماري»! و «سيرج»! والفلاحين! وإن كان ذلك يبدو وكأنه لا يصدق، فإنّ هؤلاء الناس كلهم، هم الذين يمنعوننا من أن نعيش كما نحبّ ونشتهي!

فقالت:

- لماذا لا تعود وحدك إلى «سان بطرسبورغ»؟

فأخذ يتأملها، مندهشاً.

- إننا لن نفترق مرة أخرى!

فابتسمت:

- وهل تنساني تماماً، عندما تكون بعيداً عني؟

فصاح:

- ليس فقط لا أنساك أبداً، بل إني منذ اللحظة التي أفارقك فيها، أحلم باللحظة التي سألقاك فيها، ثانية!

- انتبه إذن! إذا كان الأمر هكذا، فإني سأشير عليك بأن تقوم برحلات كثيرة!

فقال لها:

- إني لا أطيق ذلك، ولا أستطيع تحمله.؟ ولكن الآن، فإنك لا تستطيعين أن تعرفي كم أنا مشتاق للقاء أصدقائي! وأتوقع أن يكون هنالك أمور مهمة قيد التحضير! وإذا فاتني حضور اجتماع مهم، فلن أستطيع أن أسلو ذلك أو أن أنساه أبداً! آه يا «صوفيا»، ما أجمل أن يكون للمرء مثل عليا! وكم أشكرك لأنك كشفت لي عن سعادة العيش بالفكر بشدة وبقوة!

فأيدته بإيماءات خفيفة برأسها. كان هذا الاندفاع الحماسي، والشبيبي الحار، يعجبها ويفتنها. وقالت:

- حسن! اذهب إلى «سان بطرسبورغ» يا «نيقولا» فأنا التي تطلب منك ذلك!

- لم يرجع «ميشيل بوريسوفيتش» إلى المنزل إلا عند الساعة الخامسة بعد الظهر وعندما رأته «صوفيا» شعرت بالفرح، ولاحظت أنها لم تكف عن انتظاره. كان غداء «فون أدير كاس» قد أتعبه.

وقال لها:

- سأروي لك كل شيء، هذا المساء!

وذهب إلى غرفته، ولكنه بدلاً من أن يأخذ قسطاً من الراحة، استدعى ابنه. فوجده «نيقولا» مستلقياً على الأريكة المغطاة بالجلد الأسود، وقد وضع وسادة تحت رأسه وغطى ساقيه ببطانية اسكتلندية وكان يتنفس بقوة، وقد أغمض عينيه كالنائم. وعندما سمع صوت الباب، وهو يغلق، قال، دون أن يرف جفناه:

- أهذا أنت، يا «نيقولا»؟

- نعم.

- ما هذه القصة التي تروى عن المبارزة؟

فارتعش «نيقولا» ولكي يكسب بعض الوقت، غمغم:

- مبارزة؟

- نعم، لقد حدثوني عنها في منزل «فون أدير كاس». ويبدو أنك تبارزت مع «فاسّيا فولكوفّ»!

ولأنه لا يستطيع أن ينكر حقيقة الوقائع، فقد اعترف، بصوت ضعيف:

- هذا صحيح.

وفي الحال استولى عليه خوف شديد من أن يكون أبوه قد اطلع على الدافع إلى تلك المبارزة.

وسأله «ميشيل بوريسّوفيتش»

- أكنتما قد تشاجرتما؟

- نعم.

- ولماذا؟

فاستردّ «نيقولا» روعه: فوالده لا يعرف شيئاً محدداً عن سبب المبارزة، وتمتم:

- أريد أن أروي لك القصة، عن طيب خاطر، يا أبي، ولكن اسمح لي أن أرجوك ألاّ تذكر عنها شيئاً لـ «صوفيا»... فهي غير مطلعة عليها... وهي قضية تتعلق بالشرف، كما تعلم... قضية بين رجلين فيما بينهما...

فقال له والده الذي لا يزال مستلقياً على الأريكة:

- إني أعدك بذلك.

وشفتاه وحدهما قد تحركتا في وجهه القاسي كالحجر.

وقال «نيقولا»:

- إيه، إليك ما حدث: لقد اتّهمني «فاسّيا» بأني أغشّ في اللعب... وبعد أن لفظ هذه الجملة، تساءل متى هيّأها. وهذه السهولة في الاختلاق ذكرته بفترة مشروع زواجه، عندما كان يكذب على أبيه لكي يقنعه بالموافقة على زواجه من «صوفيا» وعلى استقبالها في منزله، وعلى زوجته لكي تعذر والده على قسوته.

فقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- ماذا تقول؟ لا يبدو أنّ من عادة هذا الشاب أن يفعل هذا!

فقال «نيقولا»:

- وأنا نفسي فوجئت بذلك، ودهشت كثيراً، ولكن على ما يبدو، قد تغيّر تماماً، بعد إقامته في «سان بطرسبورغ»، وأصبح متشككاً، سيئ الظن بالآخرين، مغروراً وحقوداً..

ولأنه أبدى لي تلك الملاحظة أمام عدة شهود، ولأني رفضت الاعتراف بذلك والاعتذار له عنه، فقد طلب مني مبارزته! فهل كان يليق بي أن أتهرب من مبارزته؟

فغمغم «ميشيل بوريسوفيتش»:

- كلا، بالطبع! ولكنّ هذا عمل أرعن ينم عن الغباء، كان من الممكن أن يسقط أحدكما قتيلاً هناك! وكل ذلك بسبب هفوة بسيطة! آه يا للشباب!..

وفجأة فتح إحدى عينيه. فأصيب «نيقولا» بنظرة حادة، بدت له وكأنها تنم عن الشك بصدق تفسيره لملابسات المبارزة. ولكي يتجنب مهاجمة والده له من جديد، قرر، بدوره أن يربكه. ولأنه يعرف نقطة الضعف لدى خصمه، فقد أعلن بلهجة متأنية:

- الحقيقة أني اتفقت مع «صوفيا» بشأن تلك الرحلة إلى «سان بطرسبورغ»..

كان قد وفق بتوجيه ضربته. إذ إنّ «ميشيل بوريسوفيتش» انتصب جالساً، وقطّب حاجبيه الكثيفين، وتمتم متلعثماً:

- أي رحلة؟

- ألم تحدثك «صوفيا» عنها؟

- كلا.

- هذا صحيح! كل شيء تقرر بسرعة! وعلاوة على ذلك فإننا لم نحدّد، بعد، موعد السفر، بعد أربعة أو خمسة أيام على ما أظن.. كان وهو يتكلم، يتمتع بما اعترى والده من قلق واضطراب.

- وقال له والده:

- أمجنون أنت؟ وماذا ستفعل هناك؟ هل ستبارز «فاسيا فولكوف» مرة أخرى؟

- فأجابه «نيقولا»:

- كلا، بالتأكيد، لقد افترقنا بكل برود، ولكن بصورة مشرفة، كلا، أنها ستكون، كما آمل، رحلة ترفيهية، وأنا بحاجة لتغيير الجو والأفكار..

- ولكن هذا.. هذا مستحيل! فهذا أسوأ فصل للقيام بالسفر!.. والمنزل بيع!.. فأين ستقيم، أنت وزوجتك؟

- فقدر «نيقولا» أنّ اللعبة قد طال أمدها، لذلك قال وهو يبتسم بسخرية:

- كيف استطعت يا أبي أن تعتقد أنّ «صوفيا» سترافقني؟

- فسأله «ميشيل بوريسوفيتش»:

- أهي لن تذهب معك؟

- كلا ، إنها ستبقى هنا ، معك!

- فوجد «ميشيل بوريسوفيتش» صعوبة في إخفاء فرحته ، وارتعش خداه الثقيلان. وارتدى كل وجهه طابع الاضطراب والفوز.

- وسأله «نيقولا»:

- إيه! هل أنت مسرور؟

- فأجابه أبوه:

- أبداً ، فأنا أرى أنّ هذا الفراق بين الزوجين مؤسف ويدعو إلى الحزن. ولكن، أخيراً ، إذا كان هذا هو رأيكما ، وقد اتفقتما سوية على ذلك..

- فتبادر إلى ذهن «نيقولا» وهو يشعر بالقرف:

- «إنه يكذب مثلي، ولكن بشكل أسوأ»

وقرأ ، وهو يقف أمام الأريكة ، في عيني أبيه سراً غامضاً ، لم يتبين طبيعته ، شيئاً شريراً وفرحاً ، في آن واحد ، فهزّ كتفيه ومشى نحو الباب.

١٢

لم تكد العربة تجتاز حاجز «أوترادنوي» حتى أرادت «صوفيا» أن تعود أدراجها. فبين مجموعة من الرجال كانوا يتزاحمون أمام المنزل، عرفت عن بعد قامة «سيدوفّ» النحيلة. ولو أنها علمت أنه عاد من «سان بطرسبورغ»، ما كانت أتت. وأخذت العربة تهتز وترتبح وهي تسير في أوحال الباحة، ثم توقفت أمام درج المنزل. فساعد «سيدوفّ» «صوفيا» على النزول. كان ينتعل جزمة طويلة موسّخة ويرتدي صدارة حمراء أزرارها نحاسية، تحت سترة من المخمل الأسود.

وقال بحفاوة مبالغ فيها: أهلاً وسهلاً بك. إنّ «ماري» لا تتوقع قدومك، ولكنها ستسر كثيراً برؤيتك. ولا بدّ أنها في غرفتها. ولن أرافقك إلى هناك..

فردّت «صوفيا» ببرود على ترحيبه، وصعدت على الدرج. كان كل المنزل يبدو خالياً. وفي القسم الذي يقيم فيه الخدم، كانت بعض القرويات ينتحبن كأنهنّ في جنازة. وقرعت «صوفيا» باب غرفة النوم. وبعد لحظة كانت تضم «ماري» بين ذراعيها، وقد بدا على وجهها التأثر الشديد.

وسألتها «صوفيا»:

- ماذا يحدث؟ يبدو أنك مضطربة جداً

فقالت لها «ماري»:

ألم تلاحظي ماذا يحصل في الباحة؟

- لقد التقيت بـ «فلاديمير كربوفيتش»..

- نعم، لقد وصل قبل البارحة. ولكن أولئك الرجال هل رأيتيهم؟ أنهم أتوا بقصد الشراء.

- وماذا سيشترون؟

- سيشترون عبيداً، أحصنة، مواشي. فقد قرر زوجي أن يبيع القليل الذي بقي لدينا. ولن نحتفظ إلاّ بالمنزل، بحصان واحد، ببقرتين وبثلاثة أو أربعة خدامين. وسأظل أنا مقيمة هنا مع الطفل، أما «فلاديمير كربوفيتش» فسيقيم في مسكن صغير في «سان بطرسبورغ» من أجل متابعة أعماله. وسيأتي ليراني، من وقت لآخر.

كانت «صوفيا» منذهلة بسبب ما قالته لها «ماري» ولكنها لم تجرؤ على مصارحتها بذلك خوفاً من أن تزيد الوضع سوءاً. وبعد كل حساب، فمن الممكن أن تكون «ماري» أكثر سعادة في هذه العزلة الريفية، من وجودها في «سان بطرسبورغ»، مع رجل لا يحبها. ولكن مهما كان الأمر، فإنّ تصرف «سيدوف» شنيع وكريه، فهو يبيع كل أملاكه، يهجر زوجته وطفله، ويهرب حاملاً معه الأموال التي باع بها كل ما يملك.

وسألتها «صوفيا»:

- ألا تحبّين أن تذهبي أنت أيضاً إلى «سان بطرسبورغ»؟ فأجابتها «ماري» بحماسة وسرعة:

- كلا، إني أكره المدينة، ويمكن أن أشعر فيها بالسأم، وقد قلت هذا لـ «فلاديمير كربوفيتش».. وبدافع من الكبرياء، كانت تتظاهر بأنها قد اتخذت هي نفسها قراراً كان بالطبع قد فرض عليها من قبل «سيدوف» ومنذ زواجها كانت هكذا ممزقة بين الحاجة للاعتراف بضيقها وبؤسها، والحاجة للادعاء بأنها سعيدة. كانت ترتدي فستاناً سيئاً ليلكي اللون، يشدّ على قامتها، تزينه شرائط زرقاء وقطع من الجوخ حول وركيها.

واقتربت من النافذة، وقالت:

- انظري، إنّ هذا فظيع!..

كان بعض الخدم قد اصطفوا وأخذوا يتقدمون نحو عربة نقل كبيرة مغطاة. والرجل الذي اشتراهم- دون شك لحساب أحد الملاكين المجاورين- كان يوقفهم عند مرورهم، يتفحصهم بفضول واهتمام، يجس ساعد أحدهم، ويفتح فم آخر ويمسح أصابعه بسرواله، ثم يسجل اسماً في قائمة يحملها. وكانت النساء تنال صفعةً على أردافهنّ. والشابات منهن، والمسنات، جميعهنّ كن يبكين. ولا بد أنهن قد ارتدين عدة فساتين فوق بعضها، لأنهن يبدون ضخمات، مدورات وعريضات المنكبين، بما يحملن من أكداس الأقمشة، التي تبرز من بينها مغرفة، أو يد مقلاة.

وكانت «ماري» تذكر أسماءهن بصوت خافت:

- «ماتريونا» «كزينيا»، «أودكسي»، «زوي».. وفي الجانب الآخر من الباحة، كان بعض سائسي الخيل يفحصون الأحصنة. وسحب فلاح الحيوان الأول من الصف، ممسكاً بلجامه الخفيف وجعله يقفز ويعدو، كانت تلك فرساً برشاء باهتة الشعر، كبيرة الرأس، يبدو عليها النعاس. ولكي يحثها «سيدوفّ» على الإسراع في العدو، كان يصفق يصفر، يخبط على الأرض برجليه، فأجفلت الفرس، وجرّت السائس على طول رسنها، ثم انصاعت إليه من جديد وتركته يقودها. والحيوان الثاني لم يكن أكثر حدة وجموحاً. وكان هنالك أيضاً فرسان بليدتان، أخذتا دورهما بالجري وعادتا إلى مكانهما وهما تلهثان من التعب، وكان السماسرة يبدون متفهمين للأوضاع وللأمور، وكما فعلوا في تفحصهم للعبيد، فقد فحصوا عيون وأسنان وعضلات الحيوانات. وبعد ذلك بدأت المناقشات. كان «سيدوفّ» يكثر من الحركات والإشارات ويضفي أهمية على كلامه. ولكن «صوفيا» لم تكن تسمع شيئاً بسبب كثافة ألواح الزجاج المزدوجة.

وتعالى صراخ طفل في الغرفة المجاورة. فذهبت «ماري» تتفقد ابنها الذي استيقظ.؟ فوجدته على ذراعي «ميلاني» وهي مرضعة تضع على رأسها أكليلاً مكوناً من قطع زجاجية وشرائط متعددة الألوان. كانت «ميلاني» طويلة القامة، فتية، عامرة الصدر، موردة الخدين، واسعة العينين، كعيني البقر، وبينما كانت تفك أزرار صدارتها، وضعت الطفل على ركبتيها. كان رأسه مكوراً تماماً، وله خطم حيوان صغير وعينان كبيرتان سوداوان براقتان غارقتان في الأحلام. كان يتحرك ويدمدم متابعاً مغامرة داخلية. وفجأة ابتسم لـ «صوفيا»، فدهشت من ابتسامته وكأنها إشارة من العالم الآخر، وهمست:

- ارأيت؟

فاستعادت المرضعة منها الطفل، الذي أمسك بثديها الكبير وأخذ يرضع.

وقالت «صوفيا» لماري، باللغة الفرنسية:

- أظن أن هذه المرأة ستبقى معك؟

فأجابتها «ماري»:

- نعم، سأحتفظ بها وكذلك ستبقي معي «فيوكلا»، «بولشيري» و «أرسين»..

- وعادت المرأتان إلى قرب النافذة. كان قسم من القافلة قد انطلق. وكانت عربات النقل الكبيرة التي تقل العبيد تسير في المقدمة. وأخذت بعض الوجوه الملتحية تلوح عبر فتحات غطاء العربة. ورسمت يد أحد العبيد إشارة الصليب في الهواء الداكن، وتبع العربات أربعة أحصنة ربطت بألجمة من حبال، وأخيراً سارت بقرتان يسوقهما صبي يرتدي أسمالاً بالية، ويمشي حافي القدمين.

وقالت «ماري» وهي تتأوّه:

- ها نحن قد أصبحنا أيضاً أكثر فقراً!

وفي فترات منتظمة، كان فم «سيرج» يصدر صوتاً ناجماً عن حركة المصّ. فقالت له المرضعة:

- ليس بهذه السرعة، أيها الشره!

ودخل «سيدوفّ» إلى الغرفة، وبدا راضياً مسروراً من نفسه، وقال:

- انتهى كل شيء، لقد نُتف ريشي، وسُلبت جميع ممتلكاتي كما كنت أتوقع، ولكن على الأقل الطريق أصبح سالكاً الآن! وعندما لمح المرضعة، بدرت منه تكشيرة تنم عن القرف، وأشار بإصبعه إلى الباب، مزمجراً:

- إني أكره إظهار الثديين، بهذا الشكل!

- وخرجت المرضعة، مذعورة، وهي تسير القهقرى، ولم يلق نظرة على ابنه الذي كانت تحمله. وأكمدت عينا «ماري» من الحزن واغرورقت بالدموع، وأحنت رأسها. والتفت «سيدوفّ» نحو «صوفيا» وقال بمودّة:

- إنه لأمر مؤسف ألا يكون زوجك قد أتى معك!

فقالت «صوفيا»:

- إنه في «سان بطرسبورغ»

- ومتى سافر؟

- في مطلع هذا الأسبوع.

- لقد التقينا إذن في الطريق دون أن نعرف ذلك! والناس يسافرون كثيراً في روسيا، هذه الأيام، ومليكنا يعطينا مثالاً على ذلك. فما هذه الجولة والرحلة الطويلة والعجيبة التي يقوم بها رئيس دولة؟! ويعبر البلاد كلها في هذا الفصل! وينزل نحو الجنوب! يجري بعض أعمال التفتيش، ويستعرض قطعات الجيش!.. فالقيصر صحته

قُدّت من الصخر! و «نيقولا ميكايلوفيتش» ذهب إلى العاصمة، دون شك، من أجل بعض الأعمال؟

فقالت «صوفيا»:

- بدون شك.

- فإذا بقي هناك بضعة أيام أخرى، فسأسعد بلقائه عندئذ فأنا سأسافر بعد غدٍ، ولن أعود في وقت قريب إلى «أوترادنوي» ولا بدّ إنّ زوجتي قد أطلعتك على نوايانا.

فتمتمت «ماري»

- نعم.

وكانت تودّ التوقف في الحديث عند هذا الحدّ. ولكنّ موقف صهرها الاستفزازي الذي ينم عن التحدي، أغاظها كثيراً، فقالت عفو الخاطر، ودون أن تفكر في ذلك:

- ألا تشعر بالوساوس وبشيء من القلق عندما تترك «ماري» وحدها، مع طفلها الرضيع؟

فقال:

- لن تكون وحدها، فستتقرب منها أسرتها، حالما أدير ظهري. فهل أنا مخطئ إذا اعتقدت أنها تستطيع الاعتماد عليكم دائماً، عند الحاجة؟

فردّت «صوفيا» بقولها:

- ومهما قدمت لها من مساعدات، فإني لن أستطيع أن أقوم مقام زوجها ولا أن أعوضها عنه! فإذا هي تزوجتك فليس لكي تعيش بعيدة عنك! وإذا أنجبت لك طفلاً، فليس لكي تربيه، كما لو أنه لا أب له!

فتجهم وجه «سيدوفّ» وقست ملامحه، وصغرت عيناه معبّره عن الكراهية. وتلفّظ بلهجة جافّة:

- لم أكن أرغب بولادة هذا الطفل!

فخبأت «ماري» وجهها بيديها. و «صوفيا» التي كانت موزعة الفكر بين الرغبة بمواساة «ماري» والرغبة بزجر «سيدوفّ» وتوبيخه، ظلّت، برهة، حائرة ومنذهلة ثم، تغلّب عليها الغضب، ونسيت كل حكمة وتعقّل، وقالت له:

- وزواجك، إنك ربما لم ترغب به، أيضاً، أليس كذلك؟

فأجابها «سيدوفّ»:

- بلى، ولكني أخطأت.

- في عواطفك أم في حساباتك؟

- في الاثنين، معاً!

فهزّت «ماري» رأسها، وقالت دون أن تبعد يديها عن وجهها:

- اسكت!..

ولضعف صوتها، لم يسمع أحد منهما ما قالت. كانا يقفان وجهاً لوجه، كل منهما يتحدى الآخر، بنظراته.

وتمتمت «صوفيا»:

- إنّ ما قلته شائن ومعيب!

فصاح وهو يضحك:

- كما لو أنك لم تكوني تظنين ذلك!

وتابع الكلام بعد أن تصنّع الغضب:

- يكفي شعوذات ربما كان زواجنا غير موفق، ولكني، أنا وماري، نحاول تجنب الأسوأ، فلا تأتي إذن لتشوشي بنصائحك، كل شيء. وما يحدث هنا لا يعنيك بشيء!

فقالت «صوفيا»:

- بلى، إنه يعنيني، وإن شئت أم أبيت فستجدني دائماً بجانب «ماري» لمساعدتها ضد رجل يهرب من مسؤولياته، ويتناسى واجباته!

وعندما سمع «سيدوف!» هذه الكلمات، أرسل تنهيدة عميقة وذهب فأسند ظهره إلى الباب، كما لو أنه أراد بذلك أن يمنع أحداً من الدخول أو الخروج، وقال:

- ألا تعتقدين أنه من الأفضل لك أن تراقبي زوجك بدلاً من أن تنتقدي الأزواج الآخرين؟

فقالت «صوفيا»:

- تلميحاتك هذه، لا تؤثر بي!

- لأنها لا تزال سوى تلميحات! ولكن انتظري كي أحدّدها وأوضحها..

فأرسلت «ماري» صيحة يائسة:

- «فلاديمير»، أتوسل إليك!

فبدا واضحاً أنها تعرف الإيضاحات التي يهمّ بأن يذكرها. وهذه الفكرة أقلقت «صوفيا» وشعرت بالقرف، كما لو أنها ضلّت طريقها، ودخلت إلى مكان قذر. ووقع نظرها على أخت زوجها التي كانت تجلس، وهي تبكي، على حافة السرير، ثم على الباب الذي تحجبه قامة صهرها بجزمته السوداء وصدارته الحمراء. وقالت:

- دعني أخرج!

فسألها «سيدوفّ»:

- أيمكن أن تكوني خفت من الاطلاع على الحقيقة.

- عن أي حقيقة تتحدث؟ إنك مهما قلت، فإني لن أصدّقك!

فقال وهو ينحني أمامها:

- ها أنذا إذن قد تحررت من آخر وسواس يدعوني للتردّد، ومع ذلك، فإنّ هنالك خدمة أؤديها لك بتوصيتك باتباع المزيد من التواضع في عرض سعادتك الزوجية والتباهي بها. وغرورك الأحمق كفرنسية لم يعد

يمكنه أن يخدع أحداً. وكثير من الناس يعلمون اليوم أنّ زوجك غير مخلص لك..

وصفعت الشتيمة «صوفيا» على وجهها، فارتعشت وكزّت على أسنانها. وأثار صمتها الذي ينم عن الازدراء، غضب «سيدوفّ» وانتفخ وريد متشعّب تحت جلد جبهته، وصاح:

- ربما كان الأمر سيّان لديك؟ فأنت تتصورين أني اختلق هذه القصة، بدافع الانتقام، أليس كذلك؟

فقالت «صوفيا» وهي تلهث:

- أنت كائن سافل وحقير، وأنا أرثي لحال «ماري» وأشفق عليها لأنها ربطت حياتها بحياة شخص مثلك!

- وأنت سعيدة وتهنئين نفسك لأنك ربطت حياتك بحياة رجل كامل وشريف مثل «نيقولا ميكايلوفيتش»؟!

قال ذلك بعنجهية، ثم أضاف:

اسأليه إذن، بدافع من الفضول، ماذا كان يعمل هو و «داريا فيليبوفنا» في مكان يسمى: «المنزل الصيني»!

فصاحت «ماري» وهي تلقي بنفسها على «سيدوف»:

- فلاديمير»، ليس لك الحق! حبّاً بالله! أستحلفك به أن تمتنع عن التمادي بذكر أي شيء!...

وضربت زوجها على صدره بقبضتيها الضعيفتين، فدفعها بعنف، وصاح بها:

- دعيني، أيتها الحمقاء!

فوقعت على كرسي، وأحنت ظهرها. وتقدمت «صوفيا» نحو الباب بخطوات ثابتة، فتضخّم وجه «سيدوفّ» أمامها، وفي وسطه فم يتكلم، ويتكلم:

- تماماً! «داريا فيليبوفنا»! تتمتع بوجاهة وشهرة عامتين!... والابن، ابنها «فاسّيا» أعز صديق لـ «نيقولا ميكايلوفيتش»!... وعلم «فاسّيا»: بكل شيء عن طريق رسالة مغفلة من التوقيع!... فيا لها من فضيحة!... إنه لم يستطع تحملها!... أمه! أمه هو!... فكّري، إذن!... لقد تبارزا! فهل اقتنعت الآن؟

وماري كانت تنتحب وقد تكوّرت على كرسيها، وأخذت تصرخ:

- لا تصغي إليه، يا «صوفيا»! فهو يحاول أن يؤذيك ويسيئ إليك! فهذا ليس صحيحاً! ولا يمكن أن يكون صحيحاً!...

فصاح بها «سيدوفّ»:

- كيف تجرؤين على القول بأنّ هذا غير صحيح، ووجّه لها صفعة قوية، وعندما تحرك ليفعل ذلك، كان قد ابتعد عن الباب، ففتحته «صوفيا»، واندفعت بسرعة إلى الخارج. فلم يركض «سيدوفّ» وراءها.

ولم تستردّ روعها إلاّ بعد أن صعدت إلى العربة. وانطلقت الأحصنة، والوحل يتطاير حول العربة عند مرورها فوق تجمعات المياه والبرك الصغيرة. «نيقولا» و «داريا فيليبوفنا» كان الربط بينهما غريباً وغير معقول لدرجة أنّ «صوفيا» كانت ترفض تقبّله. والأمر، بالتأكيد ليس سوى نميمة. ولكنّ اتهامات «سيدوفّ» تتضمّن معلومات دقيقة تثير القلق: المنزل الصيني، المبارزة... وتذكرت الزيارة التي قامت بها لـ «داريا فيليبوفنا» في السنة السابقة بعد حادثة الطوفان التي اجتاحت العاصمة. وبدا لها، بعد أن أمعنت التفكير في الأمر، أنّ تلك المرأة كانت مرتبكة وخائفة عندما استقبلتها. وعادت لذاكرتها نتف من الحديث الذي دار بينهما. وتصوّرت كتاباً صغيراً، غلافه من الجلد الأخضر، موضوعاً على اسكملة: ديوان الشاعر «جوكوفسكي» وكان الكتاب نفسه، مجلداً بالطريقة نفسها موجوداً في مكتبة «كشتنوفكا». فهل هي مجرد مصادفة؟ عند ذلك ساورها شك

مخيف: أليس «نيقولا» هو الذي أعار ديوان الشعر هذا، إلى «داريا فيليبوفنا»؟

ولم تكد تصل، حتى أسرعت إلى المكتب. ولحسن الحظ، لم يكن عمها هناك. فدارت، وقلبها يخفق بشدة، حول المنضدة، ووقفت أمام المكتبة. كل مؤلفات الشعراء الروس كانت مصفوفة على الرف نفسه. وكان يوجد بين كتابين مجلدين، فراغ صغير: عش من الظل، كان ديوان الشاعر «جوكوفسكي» مفقوداً من تلك المجموعة. فشعرت «صوفيا» بانهيار يحدث في داخلها، فكيف استطاع «نيقولا» أن يخونها مع تلك المخلوقة المسنّة، المترهلة والبدينة، وهي أم أعز أصدقائه؟! ومنذ متى وهو يعيش في الكذب؟ ومن كان مطلعاً على علاقته هذه؟ كان يكفي أن تتذكر «صوفيا» آخر حديث جرى بينها وبين زوجها، وملاطفاته لها، عند سفره، وتوصياته، وابتسامته وقبلاته، حتى تقطع لها أنفاسها موجة من التقزز والقرف. وكل ذكريات زواجها قد تسممت، وشعرت برغبة شديدة بأن تنساها كلها في الحال، وأن تغتسل من رأسها إلى أخمص قدميها. ومع ذلك فإنّ غيظها واضطرابها لم يكن لهما أي علاقة بلواعج الغيرة. ولم يكن عدم إخلاص «نيقولا» هو أكثر ما يعذبها، بل عوامل التزييف التي أحاط بها مغامرته الغرامية. ولأنها كانت مجروحة في كرامتها وكبريائها أكثر من كونها مجروحة في حبها، فهي لم تكن تطيق التفكير بأنها منحت ثقتها طوال ذلك الزمن لرجل كان يسخر منها ويكذب عليها! فهو ليس أفضل من «سيدوفّ»! وفجأة شملت جميع الروس بالكراهية نفسها. فمن المستحيل الاعتماد على أناس من هذا الجنس. أتقطع علاقتها بـ «نيقولا»، وتفصم كل العرى، وتعود إلى فرنسا... لم تعد تستطيع التفكير، كانت تستخدم البلطة. ثم توقفت. هل تقلب مصيرها رأساً على عقب بسبب كتاب انتقل

من مكانه، أو أُعير أو فقد؟ لا بد من أدلة أخرى قبل اتّخاذ قرار على هذه الدرجة من الخطورة.

وتلك المبارزة التي تحدث عنها «سيدوفّ»؟!...

وسمعت وقع أقدام. فالتفتت نحو الباب، ودخل «ميشيل بوريسّوفيتش» وقال لها بطيبة قلب مزيفة:

- عدتِ منذ الآن؟

لم يكن يحب أن تفارقه كنّته، بعد ظهر بعض الأيام، بكاملها، لكي تذهب إلى «أوترادنويّ». ولأنها كانت تشعر بالتعب، فقد استندت على المكتبة. لم يعد لها صديق آخر، سند آخر في هذا العالم سوى هذا الرجل ذي الملامح القاسية والشعر الأشيب. فقالت له بصوت خافت:

- أبي، هل علمت بأنّ «نيقولا» قد تبارز مع أحدٍ ما؟

فتجمّد في مكانه، وكانت المنضدة تفصلهما، وقال:

- نعم!

وبهتت عيناه وتجهّم وجهه، كما لو أنّ ذلك حدث بسبب ألم شعر به فجأة، واستأنف الكلام:

- لقد سمعت بذلك، بصورة عرضية، قبل سفره بقليل، وبالطبع، فقد طلب مني أن أعده بعدم إطلاعك على هذه القضية، ولكن لأنك سبق واطلعت عليها...

- وهل قال لك لماذا تحدّاه «فاسّيا» وطلب منه أن يبارزه؟

- لقد حدّثني عن شجار حصل بينهما حول مائدة القمار...

- وهل صدّقته؟

فلم يجب «ميشيل بوريسّوفيتش» كان يتذوّق بوادر الفوز. كلاّ، إنه لم يكن مغفّلاً ولم ينخدع، وقد حصل على أدق المعلومات أثناء تناوله طعام الغداء في بيت الحاكم. وفي الوقت الذي كان «نيقولا» يتصوّر فيه

أنه أقنعه بالرواية التي حكاها له على طريقته، كان هو يعرف مسبقاً الحقيقة التي يريد معرفتها. آه! يا لها من متعة نادرة أن يبدو ساذجاً، سريع التصديق مقابل كذاب، سيئ، يستغل ثقة الآخرين وسرعة تصديقهم إيّاه! وعندما كان يصغي لابنه، متظاهراً بأنه يتابع ما يقول ويسلّم به، كان قد قيمه وحكم عليه بكراهية شديدة وباحتقار مؤكد. ومنذ ذلك الحديث الذي جرى بينهما، كان أمله الوحيد، هو أن تطلّع «صوفيا»، ذات يوم، على الحقيقة. بل لقد فكر أيضاً بأن يدلها على الطريق لكي تتوصل لمعرفتها، وها هي الآن تبدو مطلّعة على كل شيء، دون أن يكون عليه أن يلوم نفسه على أنه أفشى ذلك السرّ. ومن المؤكد أنّ الله كان معه في هذه المغامرة!

وتابعت «صوفيا»:

- أنت لا تقول شيئاً! أتخاف من أن تزعجني أو أن تسبب لي ألماً! ولكنك إذا لم تساعدني للتخلص من شكوكي وحيرتي، فيجب أن اطلب هذه المساعدة من شخص آخر! فهل هذا هو ما تريده؟

فصاح:

- كلا!

- إذن، حدثني بصراحة. فهل بسبب أمه، طلب «فاسيا» من «نيقولا» أن يبارزه؟ لأنّ «نيقولا» كان.. وأخذت تبحث عن كلماتها، وأنهت، وقد احمر وجهها خجلاً:

- «نيقولا» كان عشيق تلك المرأة؟

فهزّ انفجار الفرح دماغ «ميشيل بوريسوفيتش»، وقال في سرّه: «هذه المرة كل شيء قد انقطع تماماً بينهما!» ومع ذلك، فقد استطاع أن يحتفظ بملامح الحزن على وجهه. وتلفظت شفتاه، وكأنه يقول ذلك آسفاً:

- لا أستطيع إنكار ذلك أو نفيه، يا «صوفيا».

كانت تتوقع هذا الجواب، ولكنّ هذا لم يخفّف من اضطرابها ويأسها. وبدا لها زوال حظوتها ومصيبتها عبر ضوء يبهر الأنظار. وشعرت أنّ ساقيها لا تقويان على حملها، فتحاملت على نفسها وارتمت على إحدى الأرائك، وقد أحنت منكبيها، وبدت خائرة القوى. ودهش «ميشيل بوريسوفيتش» لرؤيتها جميلة إلى ذلك الحد في هذا الوضع الذي ينم عن الاسترخاء والاستسلام، الذي جعله يفكر بطائر جريح، وبظبية تلهث وقد فقدت أنفاسها. فكيف استطاع «نيقولا» أن يفضّل «داريا فيليبوفنا» البدينة والمسنّة على هذه المرأة الشابة التي كل حركة تبدر منها تبرز مرونة جسمها ورقة ملامحها وحرارة روحها وسحر مفاتنها؟!

وقال:

- إنّ ولدي بائس! وهو لن يكبر أبداً، وسيظل على الدوام ذلك الصبي الذي لا عقل له، يستخف بكل شيء مخادعاً وغشاشاً، ودوداً، رقاصاً، لا جدوى منه!..

وهو لا يستحق المرأة التي لا مثيل لها، وهي أنت! وأنا كرهته بسبب الإهانة التي وجهها لك! وإني لأضحي بحياتي لكي أكفّر عن أخطائه! آه! يا إلهي، لو تعلمين بما أشعر، وممّا أعاني في هذه اللحظة!..

كان منحنياً على «صوفيا» ويحدق في عينيها بشكل ينمّ عن التوسل الشديد، لدرجة أنها شعرت بالاضطراب بسبب ذلك. فيا له من فرق كبير بين الأب وابنه، والفاصل الزمني بين جيلين لم يكن كافياً لكي يفسر كيف أنّ أحد هذين الرجلين كان مثالاً للتذبذب وعدم الثبات، بينما كان الآخر يتمتع بطباع فيها كثير من النبل ومن المثابرة والثبات وقوة الإرادة. وإذا كانت في أغلب الأحيان تعامل زوجها وكأنها أخته الكبيرة المتسامحة، فأنها لا تستطيع أن تنسى حيال «ميشيل بوريسوفيتش» أنها امرأة قبل كل شيء. كان يُنمّي لديها مفهوم سحر فتنتها وجمالها،

وتفوقها. ويعمل جاهداً لكي يؤكد لها أنها مركز العالم ومحوره. وفي تلك اللحظة بالذات، وبينما هي تشعر بأنها ذليلة، وقد تعرضت للإهانة وتشعر بالضياع، يأتي ليقدم لها التكريم مبدياً إعجابه الشديد بها.

وقالت متأوهة:

- كل هذا سيئ ويدعو للأسف الشديد! وأنا ناقمة على نفسي، لعدم يقظتي وانتباهي، ولسلامة نيتي وخلوّ بالي..

فقال لها:

- لا تتكلمي هكذا! فهذا لن يخفّف من ألمكِ، بل يزيده حدةً وخطورةً!

فرفعت رأسها:

- أني لا أشعر بالألم! بل بالقرف والاشمئزاز! وأمسك يدها، فارتعشت، بينما كانت الحرارة تسري في أوردتها. فهذا القدر الكبير من العطف والحنان الذي يعقب الكثير من المذلة والعار، أثار لديها الرغبة بالبكاء.

وقال لها «ميشيل بوريسوفيتش»:

- صدقيني، إذا قلت لك إنّ المبرر الحقيقي لحياتك هو هنا، في وسط هذا الريف الذي تحبين. وفي هذا المنزل الذي هو بيتك. ورحيل «نيقولا» هو شيء جيد. فقد أخذ معه كل قذارته وكل أكاذيبه. وأصبح المكان نظيفاً! ولسنا بحاجة له لكي نصبح سعيدين!..

وخشي أن يكون قد تمادى، وذهب إلى أبعد مما ينبغي فألقى نظرة على كتفه، كانت تبدو وكأنها أصيبت بالخمول، فهل هي سمعت، على الأقل، ما قاله لها؟ وساد الغبش في المكتب، في مساء ذلك اليوم الممطر. ولكنّ «ميشيل بوريسوفيتش» لم يجرؤ على إشعال المصباح. وترك يد «صوفيا» وجلس على كرسي بالقرب منها، وتابع كلامه بتواضع وخضوع:

- «صوفيا»، «صوفيا»، أنت تفهمينني، وتفكرين مثلما أفكر، أليس كذلك؟

فأحنت رأسها دون أن تجيب.

- أنت لست ناقمة عليّ بسبب الأذى الذي سببه لك ابني؟

فهزت رأسها بالنفي.

- وسوف تبقين هنا مهما حدث؟

- فقالت:

- نعم.

ثم نهضت، وأضافت بصوت ضعيف:

- اعذرني، يا أبي، أريد أن أصعد إلى غرفتي، فأنا بحاجة لأخلو إلى نفسي.

- فرافقها إلى الباب، وهو يمشي بالقرب منها تماماً، لكي يبقى أطول وقت ممكن وهو يشعر بحرارة جسمها. وبعد أن عاد إلى المكتب، جلس على الأريكة التي نهضت للتوّ عنها. وعند ذلك، هزته فرحة عارمة، بينما كان يتزايد لديه الخوف مما سيحصل بعد ذلك.

١٣

انتهى «نيقولا» و «كوستيا» من تناول طعام الغداء وهما صامتان، في قاعة الطعام الفسيحة المغطاة جدرانها بالجلد الداكن. وكان اثنان من الخدم يذهبان ويأتيان حسب الأوامر والتعليمات التي يصدرها لهما «بلاتون». وكان حضور الخدم الذين يفرطون عادة بالمجاملة والتزلّف يزعج «نيقولا»، كان يقيم في منزل صديقه، ويتناول كل وجباته معه، ولكنه لم يكن ينعم براحة البال التي كان ينعم بها في رحلته السابقة. وذلك، دون شك لأنه كان قلقاً بشأن زوجته! كان ذلك اليوم هو السابع والعشرون من تشرين الثاني «نوفمبر» ولم يتلقّ حتى ذلك التاريخ جواباً على الرسائل الثلاث التي أرسلها إلى «صوفيا». ولذلك، فهو سيكتب لها رسالة أخرى في ذلك المساء. وفي سرّه، كان يتساءل بصراحة ماذا أتى يفعل في «سان بطرسبورغ». كان قد فتّش دون جدوى عن «سيدوف» في جميع أرجاء المدينة. وحتى لو افترضنا أنه التقى بهذا الرجل، كيف سيكون بإمكانه أن يثبت أنه هو الذي أرسل تلك الرسالة؟ ولأيّ سبب سيستفزّه دون أن يزيد من حجم الفضيحة؟ وكانت الحكمة تقضي بأن يتخلى مؤقتاً عن رغبته بالانتقام منه. ومن جهة أخرى، فهو لم يكن لديه أي رغبة بلقاء البولونية الصغيرة: «تمارا». بل إنه لم يرجع بعد ذلك إلى منزلهم القديم. فقد أوجدت لديه المبارزة عقلية جديدة. ولكم كان يودّ أن يكرّس بإخلاص كل جهوده للسياسة. ولكنّ السياسة كانت تبدو آنذاك وكأنّها تغط في سبات عميق. إذ إنّ رحيل القيصر للقيام برحلته التفتيشية في المقاطعات الجنوبية قد أحدث في العاصمة نوعاً من الهدنة بين السلطة والمتآمرين.

وكان الجميع يقضون فترة يسودها الهدوء. وكأنّ روسيا لم يعد لها عاصمة، وحسب بعض الإشاعات التي لم تتأكد، فإنّ القيصر قد أصيب بالبرد، وهو يخلد للراحة في مدينة «تغانروغ». والإمبراطورة تسهر على صحته وعلى راحته بعناية فائقة. والأمير «تروبيتزكوّي» هو الذي نقل هذه الأخبار من القصر، قبل أربعة أيام. ولم يولها المتآمرون أي أهمية. إذ إنّ طبيعة «أليكسندر» الصلبة والقوية، ستتغلّب بسرعة وفي وقت قصير، على المرض.

وأمام «نيقولا»، على المائدة استبدلت بقايا طائر محشوّ بالجوز بفطيرة محشوة بالفاكهة ومغطاة بالقشدة. ومُلئت كأسه بخمر «مالقة»، فاحتسى منها جرعة وقال متأوّهاً:

- ثلاثة أسابيع مضت، وأنا هنا! وأي نتيجة حصلت عليها، يا إلهي؟!

وكان الخادمان، بعد أن قدّما التحلية، قد تواريا خلف الباب. وبقي «بلاتون» وحده، وهو رجل موثوق.

وقال «كوستيا» مخاطباً «نيقولا»:

- إنك لم تكن تتصور على أي حال، أنّ «ريلييف» سيفجر الثورة، حالما تصل، لكي يُدخل السرور إلى قلبك!

فقال له «نيقولا»:

- كلاّ، ولكن بناءً على رسائلك، كنت أتوقّع أن أجد مجتمعنا في حالة غليان، يهيء جنوده للقتال، وقد امتدّت تفرعاته إلى جميع الثكنات والإدارات والمصالح الحكومية... ولكني أرى أنّ أيّ شيء لم يتغير بعد زيارتي الأخيرة. وما زلتم تناقشون طبيعة ونوعية الدستور الذي يجب أن يطبّق في روسيا، والشروط التي بموجبها يمكننا أن نتحالف مع «بيستيل» وجماعة الجنوب. ولذلك، فإني أؤكّد لك أنّ خمولكم يثبّط الهمم ويبعث على اليأس!

فقال له «كوستيا»:

- لو أنك تعيش طوال السنة معنا، كنت تلمس بشكل أفضل الصعوبات التي تعترض مشروعنا، ويتأكد لك أنها لا يمكن أن تُحلّ وتذلّل إلا ببطء وتؤدة.

- ربما كان الأمر كذلك، ولكني، على أي حال، فقد قررت أن أسافر بعد غد.

فرمى «كوستيا» شوكته، وحدّق به وقد قطب حاجبيه وقال:

- منذ الآن؟ وبهذه السرعة! كنت تريد البقاء حتى الخامس عشر من تشرين الأول «أكتوبر»!

- لقد فكرت في الأمر: فهذا غير ممكن.

- ولماذا؟

- لا يمكن أن تتفهّم زوجتي ذلك.

- دعك من هذا! أنا متأكد أنها ستتفهّم ذلك جيداً! فهي تعلم سبب وجودك في «سان بطرسبورغ»! وهي تؤيدك! وعلى أي حال، فهي لم تتذمّر ولم ينفد صبرها بعد...

ووافق «نيقولا» بينه وبين نفسه على أن «كوستيا» محقّ فيما يقول. وهذه الفكرة أحزنته. فلكم كان يودّ أن لا يكون المقابل للحرية التي يتمتع بها آنذاك، ضعفاً في حب «صوفيا» له. فماذا يحدث لها، وكيف أصبحت في غيابه؟ ربما كان التعفّن الزوجي المكون من ألف عادة، من ألف خيبة وخيبة قد أخذ ينمو ويتضخم على حبهما؟ ربما كان يكاد يفقد زوجته؟ ربما لن تكون مسرورة بأن تلتقي به، وتراه ثانيةً؟ فشعر بالخوف، وأخذ يتأمل صديقه بشكل غريب لدرجة أنّ هذا سأله:

- ماذا بك؟

فأجابه:

- لا شيء، كنت أفكر برحلة العودة. يجب أن أذهب إلى مكتب البريد، لأحتجز الأحصنة.

كان قد أتى من «بسكوف» في عربة أجرة، دون أن يرافقه أحد من الخدم.

فقال له «كوستيا»:

- سيحزن الأصدقاء! ابق معنا أسبوعاً آخر...

- كلا!

- يا لك من بغل عنيد! أيمكن أن تكون عاشقاً لامرأتك ومولهاً في حبها، لدرجة أنك لم تعد تستطيع الانتظار؟

فضحك «نيقولا» دون أن يشعر بالبهجة، وغمغم:

«أعتقد أنّ الأمر هو تماماً كذلك! وقبل من صديقه «سيجاراً» صغيراً ناوله إياه، وذهبا ليدخّنا في الصالون. وبعد أن طوى «كوستيا» ساقيه الطويلتين على كدسة من المساند التركية، أخذ يبذل جهده من جديد، وقد تشعّثت خصلات شعره، لإقناع صديقه:

- إنّي أحذّرك: فكلما جعلتها تشتاق إليك، كلما كانت أكثر سعادة بلقياك. وبتسرعك في الأمور، تحرم نفسك من فرص كثيرة ومن ميزة الإغراء!

فقال له «نيقولا»:

- أنت تتكلم كعازب!

- ولماذا؟ أليس للزوجة ردود الفعل نفسها التي لبقية النساء، حيال الحب؟

فتثاءب «نيقولا» حرّك رماد سيجاره في منفضة نحاسية، وقال:

- بين العاشق وخليلته، لا يوجد سوى الحب. أما بين الزوجين، فيوجد، بالإضافة إلى الحب، الصداقة، الثقة المتبادلة والتقدير... وهكذا فـ «صوفيا» وأنا...

ولم يكمل جملته، كان هنالك وقع خطوات سريعة تقترب في الممرّ. وتعالى صوت «بلاتون»:

- انتظر! انتظر على الأقل كي أعلن عن قدومك!...

وفُتح الباب. وبدا «ستيبان بوكروفوسكي» على العتبة. كان وجهه النضر مورّداً من شدّة البرد. وخلف عدستي نظارته تبرق نظرة مأساوية. فالتقط أنفاسه، وقال:

- مات القيصر!

فارتعش «نيقولا». واهتز العالم الخارجي مثلما اهتزت واضطربت أفكاره. وقفز «كوستيا» واقفاً، وسأله:

- هل أنت متأكد من ذلك؟

فأجابه «ستيبان بوكروفسكي»:

- متأكد منه تماماً! لقد أذيع الخبر قبل قليل! فقد مات بالحمى الانتانية، يوم التاسع عشر من تشرين الثاني «نوفمبر» في «تفانروغ». وقد انقضت ثمانية أيام وروسيا بدون قيصر! ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن ذلك!...

فانحنى رأس «نيقولا» على صدره، وأخذ يفكر: «مات، الذي انتصر على «نابليون» وهزمه! مات، شبيه الإله، الذي كان يستعرض جيشه في شارع «الشانزليزي» وفي قلب باريس!» وأخذ يتصور القيصر ببزته الرسمية، عامر الصدر، منتفخ الأوداج، كتّافيتاه تتلألآن، وقبعته مزدانة بريش الديك، الذي يلقي ظله على وجهه المرمري، وتأثر كثيراً بهذه الذكرى، لأنها ذكّرته بشبابه. ومهما دان بقسوة السنوات الأخيرة من

حكم القيصر «أليكسندر»، فإنه لم يستطع أن يمنع جانباً كبيراً من نفسه من أن يحزن لهذا الرحيل، وكأنه صفحة قد طويت في حياته، هو.

وسأل:

- ومن سيخلفه؟ هل سيخلفه أخوه «كونستانتان»، ذلك الفظ الجاهل والغريب الأطوار، الذي يتحمله البولونيون، كنائب للقيصر؟!

فأجابه «ستيبان بوكروفسكي»:

- لم يتقرّر شيء بعد، وفي القصر، الجميع يؤدّون، فعلاً، يمين الولاء لكونستانتان». ولكنه موجود في «فرسوفيا»، ولا أحد يعرف فيما إذا كان سيقبل التاج. والبعض يدّعون أنّ وصية القيصر الراحل تنصّ على أن يرث العرش الدوق الأكبر «نيقولا بافلوفيتش.»

فصاح «نيقولا»:

- ماذا؟ ولكنّ هذا غير ممكن! لأنّ معناه أنّ نظام الخلافة ووراثة العرش سينقلب رأساً على عقب!؟

- ربما حصل ذلك! وهذا ما آمله وأخشاه في آن واحد!

وقال «كوستيا»:

- يا لها من بلبلة!

وقال «ستيبان بوكروفسكي»:

- على كل حال، فإنّ تطور الأحداث يمكن أن يدفعنا إلى أن نتّخذ قراراً مهماً. و «ريلييف» ينتظرنا جميعاً. الساعة الثامنة، مساء اليوم، ألا تذهبان؟

فقال «نيقولا»:

- سنذهب بالتأكيد!

وأدرك بوضوح تام أنه لم يعد له الحق بأن يفارق رفاقه، ويتخلّى عنهم.

★★★

عندما وصل «نيقولا» و «كوستيا» إلى منزل «ريلييف»، في الساعة الثامنة مساءً، وجدا المنزل يغصّ بالناس. كانت جميع الوجوه متأثرة بأهمية الحدث. وعند عتبة قاعة الطعام التقى «نيقولا» بـ «فاسّيا فولكوفّ». كانت هذه هي المرة الأولى التي يلتقيان فيها منذ يوم المبارزة. والظروف آنذاك كانت خطيرة جداً بحيث أنهما بدلاً من أن يدير كل منهما ظهره للآخر، فقد تبادلا نظرات التفاهم. وهذه الحركة التي تنمّ عن الصداقة أدهشت «نيقولا»، واحمرّ وجهه فرحاً. ولكنه قبل أن يستطيع أن يقول كلمة لـ «فاسّيا»، كان هذا قد ابتعد عنه. وكان «نيقولا» لا يزال مستغرقاً في التفكير، عندما لمح «ريلييف» جالساً إلى مائدة مستديرة، بين مجموعة من الضباط. كان شاحب الوجه، مشعث الشعر، ربطة عنقه غير معقودة بصورة جيدة، وهو منهمك، بعصبية واضحة في نقاش حادّ مع الأخوين: «نيقولا» و «أليكسندر بيستوجيفّ». وفجأة، نهض، وثبّت نظره على الباب. فقد دخل ضابط في الحرس برتبة عميد، طويل القامة، نحيل الجسم، بارز الأنف، إلى القاعة، وهو يتمايل. كان صليب «كولم» الحديدي، على صدره الهزيل. وبدت على وجهه الذي يعبّر عن وقار حزين، آثار الجدري. كان هذا هو الأمير «تروبيتزكويّ»، أحد مديري المؤامرة. وقد أتى من القصر، حاملاً أخباراً جديدة. فصمت الجميع لكي يستمعوا له، فقال:

- إنّ ما شاهدته في القصر، يا أصدقائي، أحدث لديّ قلقاً عميقاً، تصعب معالجته. كانت العائلة الملكية موجودة في «مصلّى» القصر. تصلّي من أجل شفاء القيصر «أليكسندر» من مرضه، عندما وصل خبر وفاته. فأغمي على الإمبراطورة الأم. والدوق الأكبر «نيقولا» بما تعرفون من اندفاع وتهور لديه، أقسم، على الفور، يمين الولاء لأخيه الأكبر «كونستانتان»، وطلب من الأشخاص الحاضرين ومن رجال الحرس الداخلي في القصر، أن يؤدوا القسم نفسه.

فسأله «ريلييف»:

- إلى أي فرقة ينتمي رجال الحرس؟

- إلى فرقة «بريو براجينسكي»

- ألم تبدر منهم أي صعوبة في الانصياع لما طُلب منهم؟

- بلى! لقد قال البعض منهم، إنهم لم يأخذوا علماً، حتى ذلك الحين، بأنّ القيصر مريض. وربما كان الخبر مزيفاً وكاذباً. وكان على الدوق الأكبر أن يتدخل شخصياً لإقناعهم بأن يؤدّوا القسم. وقد شهدت ذلك بأم عيني! وفي الحال، بعد ذلك، أرسل «نيقولا بافلوفيتش» الأوامر إلى المعسكرات، ورسالة مباركة ومبايعة إلى «كونستانتان»، في «فرسوفيا». وعندما استردّت الإمبراطورة الأم وعيها، سمعها بعض الحاضرين، وهي تصرخ: ««نيقولا»، ماذا فعلت؟ ألا تعلم بأنّ هنالك وثيقة أخرى تعيّنك ولياً للعهد، والوريث المنتظر للعرش؟» وقد أجاب: «إذا كان هنالك وثيقة، فإني لا أعرف عنها شيئاً ولا أحد من حولي، يعرف عنها أي شيء. وإلى أن يثبت العكس، فإنّ أخي الأكبر هو الذي يحق له أن يخلف «أليكسندر». وليحصل ما يمكن أن يحصل!» وقد بدا الذهول والحيرة على الحاضرين. فقد كان الرأي السائد هو أنّ «كونستانتان» لا يريد أن يتبوّأ العرش. وفي هذه الحالة، فإننا سنتجه نحو فترة يخلو فيها العرش وتصبح الدولة بلا رئيس!...

فقال «ستيبان بوكروفسكي»:

- إنها ظروف مثالية للقيام بالثورة!

فاتجهت الأنظار نحو «ريلييف»، الذي كان قد عاد فجلس وأخذ يتأمل يديه وهو شارد الفكر، كأنه يحلم، وأخيراً قال:

- ولكن، ألا ينبغي أن تكون لدينا القدرة لكي نفعل ذلك؟!

فنهض «نيقولا بيستوجيف»، وهو ببزة ضابط في البحرية، بقامته الطويلة، وسأله:

- أتعني أننا غير مستعدين للقيام بالثورة؟

ولأنّ «ريلييف» ظل صامتاً، فقد تابع كلامه:

- كنتُ دائماً أسمع أنّ موت الإمبراطور، سيعتبر إشارة لإعلان التمرد والقيام بالثورة. والآن ها هو خبر موته يأتينا على طبق من فضة! وها هم حتى يعلنون لك أنّ من يخلفه على العرش لم يعيّن بعد! وبدلاً من أن تفرح بذلك، تبدو محبطاً، شارداً وضائعاً، لا تدري ماذا عليك أن تعمل!...

و «أليكسندر بيستوجيفّ» وهو رائد في سلاح الفرسان، رئيس تحرير صحيفة «نجمة القطب» وناشرها، أيّد أخاه:

- إنه مصيب فيما قاله! أرجوك أن تشرح لنا الموضوع، أيمكن أن نكون قد خُدعنا في تقدير قوة منظّمتنا؟

فقال «ريلييف» متأوهاً:

- لقد خُدعت، أنا نفسي! فعندما نناقش هكذا، في الفراغ، كل شيء يبدو ممكناً. ولكن عند التعرض للاختبار عبر الأحداث، يتبدّد السراب. فليس لدينا خطة للقتال، ولا جنود موثوقون، والمسؤوليات بالنسبة لكلٍ منا، غير محدّدة بدقة. ولذلك فإنّ التحرك والتصرف في ظروف كهذه يعتبر نوعاً من الجنون!...

وأسند جبينه على يديه. وأحنى كتفيه، ثم أضاف بصوت متهدّج:

- أستميحكم العذر جميعكم!

فصاح «نيقولا» وقد اضطرب عند رؤيته هذا الرجل المتميز، ينحني تحت وطأة الوساوس:

- ليس عليك أن تطلب منا المعذرة. فالشيء الأساسي هو أن ننسق جهدنا ونجعله يتكيف مع الوسائل المتاحة لنا. حتى وإن كان تدخلنا محدوداً وصغير الحجم، فيمكن أن يحسّن مجريات الأمور... وأثناء كلامه، شعر بأنه لم يقترح أي حل ملموس، بل إنه كان يتلفّظ بكلمات

لمجرد المتعة بالاستماع إلى نفسه وهو يتكلم. وكان هذا هو العيب نفسه الذي ينسبه لرفاقه ويلومهم عليه، ففترت عزيمته وشعر باليأس، وتبعه «ستيبان بوكروفسكي» مؤيداً إياه بحماسة:

- إنّ ما قلته صحيح تماماً، وعلى أي حال، فإنّ قضيتنا قد خطت خطوة إلى الأمام. و «كونستانتان» يحبه جنود الحرس، ويروى في أوساطهم، أنه يدفع للرجال، في «فرسوفيا»، بالعملة النقدية، والفضية، ألا نستطيع استخدام هذه الحركة في الرأي في سبيل غاياتنا؟

فسأله «ريلييف»:

- وكيف يمكننا أن نفعل ذلك؟

والأمير «أوبلانسكي»، الذي كان منذ بعض الوقت، يتريث قبل أن يبدأ الكلام، أعلن بصوت حاد، كصوت الديك:

- لقد سألت بعض فرسان الحرس لكي أعرف فيما إذا كان يمكننا الاعتماد على فوجهم، في حال نشوب الثورة، فاعتبروني مجنوناً!

وعندما سمع الأمير «تروبيتزكويّ» كلمة «ثورة» أبدى تكشيرة تنم عن الامتعاض، وانكمش أنفه الطويل. وأخذت أصابعه النحيلة تقرع حافة المائدة. ثم قال بقسوة:

- تخيروا جيداً ألفاظكم وتعابيركم! نحن نعمل هنا للقيام بتمرد عسكري، وليس بثورة! والانضباط قبل كل شيء! وكل شيء يجب أن يتمّ كما يتمّ في الاستعراض!

فتمتم «ريلييف»:

- ومن أجل ذلك، يجب أن يكون في صفوفنا عدد من الضباط يزيد عشر مرات عما هو موجود الآن!

فقال «نيقولا»:

- فلنحاول العثور عليهم، فلا يزال الوقت متاحاً للقيام بذلك!...

وقال الأمير «تروبيتزكويّ»:

- الأمر الذي يمكن أن يكون حسناً، هو أن تعتلي العرش أرملة الإمبراطور الراحل، الإمبراطورة «اليزابيت»، عندما يرفض ذلك الدوقان الأكبران: «كونستانتان» و «نيقولا». لأنها هي، على ما أعتقد، يمكن إقناعها بتبنّي دستورٍ لروسيا.

فقال له «ريليف»:

- أيها الأمير، إنك تعتبر أحلامك حقائق واقعية. فأنت تعرف مثلي، بأنّ ليس هنالك أي فرصة لكي تخلف الإمبراطورة زوجها!

فقال الأمير:

- في هذه الظروف، تبدو لي قضيتنا معرضة للخطر وأنا أكاد أسقط من شدة النعاس. أرجو لكم جميعكم ليلة سعيدة! سنلتقي غداً، ومن الآن إلى الغد، ربما حدث شيء جديد. وألقى ذهابه ظلاً من البرود على جو الاجتماع، فاستؤنفت الأحاديث دون أي اندفاع أو حماسة. و «ريلييف» المتكور على كرسيه، لم يعد يهتم بالنقاش. وكان «نيقولا» يحب أن يتبادل بضع كلمات مع «فاسّيا» ولكنّ هذا انصرف بسرعة، وتبعه متآمرون آخرون. ولم يبق في القاعة سوى نحو عشرة أشخاص. عند ذلك اقترح الأخوان «بيستوجيفّ» وضع نداءات وبيانات، وتوزيعها بصورة سريّة في الثكنات. و «ريلييف» الذي انتعش فجأة، وجد أن الفكرة ممتازة، ووزع عليهم ورقاً وأقلاماً. فجلس الضباط والمدنيون حول المنضدة للمشاركة بالقيام بذلك الواجب. وكان يتدلّى من السقف مصباح ضخم معلّق بسلاسل، ينشر ضوءه على رؤوسهم وأيديهم المنهمكة بالعمل. ونوقش النص. فتمّ تبني الجملة الأولى بالإجماع: «أيها الجنود، إنهم يخدعونكم!» وبالنسبة للبقية بدأت تظهر بعض الخلافات. وفجأة لمعت فكرة في ذهن «نيقولا» فقال:

- نحن نكتب نداءات وبيانات للجنود، بينما أكثرهم أمّيون، وهذا غير معقول، ولا جدوى منه! وإذا أردنا أن نجعل الجنود يفهموننا، يجب أن نتوجه إليهم بالكلام مباشرة!

فقال له «ريلييف»:

- إنك مصيب تماماً!

فشعر «نيقولا» بالزهو، فها هو أخيراً يلمس أنه قد أصبح مهماً، وضرورياً! آه! كلاّ، لم يكن هذا الوقت مناسباً للعودة إلى «كشتنوفكا»! و «صوفيا» نفسها كانت تشير عليه بعدم العودة لو أنها حضرت هذا الاجتماع!

وقال «أليكسندر بيستوجيفّ»:

- نعم! علينا أن ننزل إلى الشارع، وأن نوقف الجنود الذين يكونون في إجازة، وهم يعودون إلى ثكناتهم، وأن ننادي الخفراء ونتحدث إليهم...

وأيّده أخوه، قائلاً:

- يمكننا أن نقول لهم، على سبيل المثال، إنّ القيصر وعد بمنح الحرية للفلاحين، وبتنزيل الخدمة العسكرية إلى خمس عشرة سنة، ولكنّ الحكومة الجديدة تريد إلغاء البيان الذي أُعلنت بموجبه هذه الوعود!

وقال «ريلييف»:

- احكوا لهم أيّ شيء، ولكن عليكم أن تبعثوا القلق في نفوسهم، لكي نوقظهم من سباتهم وخمولهم، ولنهيئهم عند الاقتضاء لحمل السلاح ضد الإمبراطور المقبل! وبالطبع، فإنهم سيصغون بمزيد من الرضا وطيب الخاطر لرجل يرتدي بزة الضابط. وأنت يا «أوبولنسكي» تبدو رائعاً للقيام بهذه المهمة، باعتبارك أحد ضباط الحرس! فستأتي معي! برجوازي مدني، وعسكري، هذه هي الصفة المناسبة والجيدة! وسأل «أليكسندر بيستوجيفّ» «نيقولا»، وهو ينحني أمامه، وكأنه يدعو سيدة للرقص:

- أتريد أن تكون رفيقي؟

فقهقه الجميع ضاحكين. وانضم «كوستيا لادوميروفّ» إلى «نيقولا بيستوجيفّ»، و «ستيبان بوكروفسكي» إلى ملازم شاب انضم حديثاً إلى المنظمة...

وبعد أن خرجوا، ذهبت كل مجموعة في اتجاه.

كانت الليلة صافية الجو. ومن الشمال تهب ريح شديدة البرودة. واقتاد «أليكسندر بيستوجيفّ» «نيقولا» عبر شارع «مورسكايا» الكبير، نحو ثكنة الحرس الخيالة. كانت الساعة آنذاك الحادية عشرة، مساءً. ومعظم المنازل أطفأت أنوارها، وأغلقت أبوابها. ومن وقت لآخر، كان يُسمع وقع حوافر الجياد على البلاط القاسي. وتمر عربة، بواباتها مدهونة، ومشاعلها الفضية تضيء لها الطريق، وشعر أحصنتها ناعم كالحرير، وسائقها لحيته طويلة. والمشاة كانوا قليلي العدد. وأخذ «نيقولا» يفقد الأمل بالالتقاء بأحد الجنود، عندما أشار «أليكسندر بيستوجيفّ» إلى أحدهم كان يتجه نحوهما،

وقال:

- لا بدّ أنه حصل على إجازة ليلية.

وعندما لمح الجندي ضابطاً، وقف بجانب الجدار، وقفة الاستعداد ونزع قبعته.

فقال له «أليكسندر بيستوجيفّ»:

- لا تخشَ شيئاً، يا عزيزي الشجاع. لديّ سؤال ألقيه عليك: هل سمعت بالوصية التي وضعها إمبراطورنا المحبوب، قبل موته؟ إنها وصية كتبت بحروف ذهبية...

والجندي، وهو أصهب، أحمر الشعر، أفطس الأنف، باهت العينين، استولت عليه الدهشة، وقال بصوت أجش:

- كلاّ، يا صاحب السعادة.

- إيه حسن! فهذه الوثيقة موجودة! وهي تتضمن وعداً بإلغاء العبودية والرقّ، وبزيادة الرواتب، وإنقاص مدة الخدمة العسكرية! ولكنّ أعداء الشعب لا يريدون أن يُعلن هٰذا على الملأ، ولا أن يعرفه أحد...

وبينما كان يتحدث بحمية وحماسة، كانت الريح تداعب ريشات قبعته وتهزّها. ولأنّ معطفه قد انزلق، فقد كشف عن كتافية براقة وعن شريط الزينة الأبيض الخاص بمرافقي الضباط القادة. فبدا الذعر على ملامح الجندي، لأنه، دون شك لم يخطر على باله أنّ ضابطاً يمكن أن يتحدث أمامه بحديث غير معقول كهذا. الأمر الذي كان كافياً لإرسال الذي يتكلم والذي يستمع إليه، إلى «سيبيريا»!

وقال له «نيقولا»:

- ما بك؟ أيدهشك هذا؟ عليك أن تردّده على مسامع رفاقك!

فتمتم الجندي:

- أبداً! إني أعدك بأني لن أردّده أمام أحد، على الإطلاق!

فصاح به «أليكسندر بيستوجيفّ»:

- ولكن، أيها المغفّل، يجب عليك أن تردّده، فأنا أطلب منك بل آمرك بأن تردّده أمام رفاقك!

- إني سعيد بتأدية أي خدمة لسيادتك!

- إذا كنتم كثيرين أنتم الذين تعرفون أنّ هذه الوصية موجودة وطالبتم بتنفيذها، فيصبح القيصر الجديد ملزماً بأن يمنحكم كل ما ترغبونه!

- لا نرغب بشيء سوى خير الوطن، يا صاحب السيادة!

- هذا هو المطلوب تماماً من أجل خير الوطن!

- وما هو، يا صاحب السيادة؟

- الحريّة!

فغمغم الجندي:

- اضربني، اقتلني، يا صاحب السيادة، ولكني لم ولن أرتكب جرم المطالبة بالحرية!

وفجأة أخذ يرتجف، وضمّ رأسه بين كتفيه وذهب مسرعاً.

فصاح به «أليكسندر بيستوجيفّ»:

- إيه! ارجع ولا تخف، لا نريد أن نلحق بك أيّ أذى، هيا، ارجع!

كان الجندي الهارب قد توارى في منعطف الشارع وصدى خطواته السريعة، يتردّد عبر ظلام الليل.

فقال «نيقولا»:

- إذا كانوا كلهم كهذا، محدودي التفكير، قصيري النظر، فلن تكون مهمتنا سهلة.

وسارا بضع خطوات أخرى في عالم مكوّن من حجارة داكنة، قطّعت على شكل زوايا قائمة. وكانت الريح تصفر وتئزّ، وتنشر على وجه «نيقولا» مسحوقاً أبيض لاذعاً. ومن وقت لآخر، كان يفرك أنفه وأذنيه لكي يمنع أيّاً منها أن يتجمّد. كانت أنفاسه تبدو كالدخان، وهي تخرج من فمه.

وهمس له «أليكسندر بيستوجيفّ»:

- انتبه! ها هو صيد جديد!

كان هنالك جنديان تبدو عليهما القوة والرشاقة، يسرعان الخطى نحو الثكنة. كان وقع خطواتهما يدوي على البلاط بانسجام عسكري. والمصباح المعلّق على أحد الأعمدة المطلي بخطوط بيضاء وسوداء، أنار لبرهة وجهيهما. كان أحدهما في نحو الثلاثين من العمر، بينما لم يكد الآخر

يتجاوز العشرين. وقد بديا كفلاحين متنكّرين باللباس العسكري. وبرز «أليكسندر بيستوجيفّ» و «نيقولا» من الظلام. فتوقّف الجنديان جامدين في مكانهما، وبدت الحيرة والاضطراب على وجهيهما. وبعد أن ردّ «أليكسندر بيستوجيفّ» على تحيتهما، سألهما عما إذا كانا قد سمعا بوصية الإمبراطور، ودهش كثيراً، عندما أجابه أكبر الجنديين:

- نعم، يا صاحب السعادة.

- وماذا يقولون عنها، في الثكنة؟

- لا أستطيع أن أردّد ذلك، يا صاحب السعادة.

- لماذا؟

- لأنك ستأمر بجلدي بالقضبان!

فقال له «أليكسندر بيستوجيفّ»:

- إني لن أمتنع عن الأمر بجلدك بالقضبان وحسب، بل إني سأهنّئك وأعطيك ثلاثة روبلات!

وقال له «نيقولا»:

- بلى، فنحن من أصدقائكم، ونريد أن نساعدكم لكي تحصلوا على كل ما وعد به القيصر الراحل في بيانه.

فتمتم الجندي الأصغر:

- هذا غير ممكن! أتسمع يا «نيكانور»؟

فهزّ «نيكانور» رأسه. وتقطب حاجباه الأشقران، تحت «ردّادة» قبعته. وفكّر برهة، ثم غمغم:

- يبدو أنه جاء في وصية القيصر أنّ جميع الأغنياء السيئين والأشرار سوف يُشنقون، وأنّ جميع الثكنات وجميع السجون سوف تُفتح أبوابُها، وأنّ الأراضي ستوزع على الفلاحين وأنّ الفقراء هم الذين سوف يقيمون العدالة!

فتبادل «نيقولا» و «أليكسندر بيستوجيفّ» نظرات الدهشة: لقد ذهب «نيكانور» بعيداً في أحلامه. لأنّ أي ثورة لن تحقق أبداً ما يأمله الآن! فهل ينبغي أن يصحّحا له خطأه، ويجعلاه يشعر بخيبة الأمل؟ أم يتركاه في خطئه، لكي يستغلّا حماسته وعلى أي حال، فقد قال له «نيقولا»:

- هو كذلك، على وجه التقريب. فالقيصر، قبل موته، أراد أن يكفّر عن أخطائه، بمنحه الحرية والازدهار للشعب الذي عانى وتحمل الكثير بسبب الأخطاء التي ارتكبت بحقه. ولكنّ بعض المستشارين السيئين استولوا على الوثيقة. وينوون إتلافها. وسيمنعهم الجيش من أن يفعلوا ذلك.

فسأله «نيكانور»:

- الجيش؟

- نعم، أنت ورفاقك الذين ستروي لهم ما قلناه لك!

- والضباط؟ هل سيكونون معنا؟

- بعضهم سيكونون معكم، والآخرون سيكونون ضدكم...

- ولكن في فوجنا نحن، مثلاً؟...

فقال له «أليكسندر بيستوجيفّ»:

- كونوا مطمئنين، فرؤساؤكم سيدلّونكم على الطريقة المناسبة ويقودونكم في المعركة الظافرة.

- ومتى سيحصل ذلك؟

فأجابه «نيقولا» بكل رباطة جأش:

- قريباً! قريباً جداً!

كانا يلمسان الطابع الصبياني والارتجالي لهذه الحملة التي يقومان بها، هما ورفاقهما. فمن المؤكد أنه ليس بتحدّثه هو ورفاقه إلى جنود منفردين في الشوارع، يستطيعون تجنيد الجيش اللازم للقيام بالثورة. ومع

ذلك، فلم يكن هنالك وسيلة أخرى للاتصال بهؤلاء الناس واكتساب ثقتهم!

وقال الجندي الصغير السن:

- فليحقق لك الله ما ترجوه، يا صاحب السعادة!

- إني أعتمد عليكما من أجل نشر هذه البشارة التي تتضمن أخباراً سارّة للجميع!

- تستطيع أن تعتمد علينا، يا صاحب السعادة، فنحن، منذ الغد، سنروي في كل مكان أنّ السادة الملاّكين سوف يُشنقون جميعهم!

فتظاهر «أليكسندر بيستوجيفّ» بأنه يسعل سعالاً خفيفاً، كي يخفي انزعاجه، وتناول ثلاثة روبلات من جيبه، وأعطاها لـ «نيكانور» فقرع الجنديان الأرض بنعليهما، أدّيا التحية العسكرية، ثم استدارا وانطلقا وهما يسيران كرجلين آليّين.

فقال «اليكسندر بيستوجيفّ»:

- يا لهما من غبيّين! إنهما لم يفهما شيئاً!

فقال له «نيقولا»:

- ربما كنا نحن، الذين لم نفهم شيئاً؟!

وأخذا يستعدان لمجابهة جنودٍ آخرين، كان وقع خطواتهم يُسمع عبر الظلام.

١٤

كانت الرسالة مؤرخة في ٢٨ تشرين الثاني «نوفمبر» «عند الفجر». وأعادت «صوفيا» قراءة بعض جمل منها: «لماذا قطعت أخباركِ عني؟ ألستِ مريضة؟ يؤرّقني القلق عليك. أجيبيني برجوع البريد، أتوسّل إليك أن تطمّنيني عنك!...» إنّ وفاة القيصر، التي علمت بها البارحة، ستجبرني على البقاء هنا لبعض الوقت. فأصدقائي يعتمدون عليّ، ولا أستطيع أن أتخلّى عنهم... آه! يا «صوفيا»، لو تعلمين كم هو مدهش وباعث للنشوة أن يشعر أحدنا أنه أصبح من جديد نافعاً وفعّالاً، بعد سنين من البطالة وعدم القيام بأي عمل!... إني عائد الآن من نزهة ليلية في المدينة، وقد تحدثت خلالها مع بعض الجنود. هؤلاء الناس البسطاء، القساة والأشداء، يفهموننا جيداً... وبالمناسبة، لقد رأيت «نيكيتا» منذ ثلاثة أو أربعة أيام. كان يقوم بزيارة العجوز «بلاتون» الذي أصبح مرشده في كل الأمور. وقد وفّق الشاب الذي كنت تحمينه وتوجّهينه وناسبته «سان بطرسبورغ» كثيراً، ولاحظت أنه لم يعد يبدو فلاحاً، كما كان في «كشتنوفكا». فقد اشتغل، في بداية الأمر، عند رجل يعمل في دباغة الجلود. والآن هو يعمل مستخدماً في مخزن لبيع الأقمشة. وعندما تحدثت معه، تذكرت «كشتنوفكا» وأثار ذلك حزني. كان يمكن أن تكون سعادتي تامة لو كنت بجانبي. أفكر بوجهك العزيز، فأشعر بضيق في التنفّس، فيخفق قلبي، وينقبض صدري. أريد أن أضمك بين ذراعيّ! يجب، من كل بدّ، أن تأتي وتنضمي إليّ. فأبي، صحته لا بأس بها،

وتستطيعين أن تتركيه وتغادري «كشتنوفكا» دون أن تقلقي عليه، أو أن تخشي أي شيء...»

ورفعت نظرها عن الورقة وألقت نظرها على نافذة الصالون، التي كان يرشقها مطر غزير ممزوج بالثلج. كانت شكاوى الحب هذه، لا تُحدث لديها تأثيراً يذكر، كما لو أن الرسالة كانت موجهة لامرأة أخرى. كانت تشعر أنها شفيت نهائياً من حب «نيقولا»، وأنها ستنسى مزاياه كما ستنسى عيوبه. ولأنه يطلب جواباً على رسالته، فستكتب له بألاّ يحاول أن يراها ثانيةً. وما عليه إلا أن يستقر في «سان بطرسبورغ» بينما تبقى هي في الريف. وبالنسبة للناس سيبدوان زوجين منفصلين وقد افترقا عن بعضهما كما هي الحال بالنسبة لكثيرين غيرهم من الأزواج. وفيما بعد، ربما عادت إلى فرنسا. وعلى أي حال، فهي لن توجّه أي لوم أو عتاب لزوجها. وما جدوى ذلك؟ فهو يمكن ألاّ يتفهم كيف أنها اغتاظت كثيراً لأمر قليل الأهمية إلى تلك الدرجة. فهو كائن ضعيف، متقلّب، يحب التحليق كالفراشة من زهرة إلى زهرة، هذا هو الرجل الذي تزوجته والذي ستنفصل عنه. كانت تعتمد على عمها لكي يحميها من تهجّمات محتملة من قبل «نيقولا». وكثيراً ما أبدى «ميشيل بوريسّوفيتش» مزيداً من الاهتمام بالاستقامة، بالشرف والطمأنينة، نحو كنته، بحيث أنها تجد نفسها، وهي بقربه كأنها في قلعة حصينة. كانت تروق لها وحدتهما في «كشتنوفكا»، حياتهما الضيقة المجال والمحمية جيداً، التي يمكن أن يعتبرها المراقب السطحي صعبة، وتبعث على الملل. كانت تحب تلك البلاد الرمادية اللون، التي تزخر بالتغيرات والتنوعات العذبة والرقيقة. وكانت تحب كثيراً الناس البسطاء الذين كانوا يخدمونها. وعلاوة على ذلك، فإنّ حياتها كامرأة كانت قد انتهت، ولم تكن تتصور أنها يمكن أن تفكّر برجل آخر أو أن تحب رجلاً آخر، وبعد انقضاء عشر سنوات على زواجها،

فهي تعرف أنها لن ترزق طفلاً. فيا لها من ثغرة في حياتها! طفل رضيع ذو فم نهم، وعينين دهشتين، ويدين عاجزتين ولدنتين! وعادت تقلّب هذه الفكرة، فشعرت معها بالدفء، وبالعذاب. وشعورها بكونها مصابة بعجز ونقص في جسمها، كان ينتابها بعنف، في بعض الأحيان. لم تكن قد عادت إلى «أوترادنويّ» بعد خناقتها مع «سيدوفّ». ولا بد أن يكون الآن قد رحل من جديد. وحالما تتأكد من ذلك، فهي ستذهب لترى ماري والصغير «سيرج». كانت رسالة «نيقولا» ترتعش بين أصابعها، فطوتها ودسّتها في صدّارتها. وأعاد الابتسامة إلى شفتيها وقع خطوات ثقيلة في الممر. ودخل «ميشيل بوريسّوفيتش» إلى الصالون، وهو يبدو متعباً وحالماً. فقد تأثر كثيراً، عندما سمع، قبل بضعة أيام، بوفاة القيصر. ودون أن ينبس ببنت شفة، ناول «صوفيا» جريدةً. كان إطار الحداد الأسود يحيط بالصفحة الأولى من صحيفة: «العاجز الروسي» وتحت صورة تمثل النسر ذا الرأسين، قرأت «صوفيا»: الأحد، الواقع في ٢٩ تشرين الثاني «نوفمبر» سنة ١٨٢٥- حمل أحد السعاة، الذي وصل من «تفانروغ» بتاريخ السابع والعشرين من الشهر الجاري النبأ المحزن بوفاة صاحب الجلالة الإمبراطور «أليكسندر». وعندما أُعلن هذا النبأ غير المتوقع، اجتمع في قصر الشتاء أهم أفراد العائلة الإمبراطورية، شأناً، ومجلس الدولة والوزراء، وكان الأول، صاحب السمو الدوق الأكبر «نيقولا بافلو فيتش» ومن بعده جميع الموظفين الذين كانوا موجودين هناك، وكذلك جميع أفواج الحرس الإمبراطوري، قد أسرعوا في تأدية قسم الولاء والطاعة لجلالة الإمبراطور «كونستانتان الأول».

وقال «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- وهكذا، فنحن ندخل في عهد جديد من الحكم. وسيكون هذا هو الإمبراطور الرابع الذي أكون قد عرفته أثناء عمري الطويل: «كاترين

الكبرى»، «بول الأول»، «أليكسندر الأول» والآن «كونستانتان»... ولا بد أنك ستعتبرينني معلماً، بل صرحاً أثرياً وتاريخياً!

فقالت له:

- أبداً، فأنا أراك تتمتع بشباب مدهش. وأنت ترتدي بأناقة ملابسك الجميلة، منذ الصباح! فهل أنت تستعد للسفر إلى مكانٍ ما؟

فقال:

- نعم، يجب أن أذهب إلى «بيسكوف». فسيقام قداس تخليداً لذكرى الإمبراطور في الكاتدرائية، هناك. وقد دعا الحاكم جميع وجهاء المنطقة لحضوره. وسأتناول طعام الغداء في المدينة، وربما تأخرت في العودة، وأنت، ماذا ستعملين أثناء غيابي؟

- سأذهب إلى «تشيرنيا كوفو»، ثم إلى «كرابينوفو»...

- أيضاً، لزيارة بعض الفلاحين المرضى، كما هي العادة؟

- لا تلمني على ذلك، لأني أجد فيه بعض المتعة، وبشكل من الأشكال، مبرراً لوجودي، أيضاً.

- مبرر وجودك... مبرر وجودك ليس في القيام بذلك! أوه! كلا، يا «صوفيا»!...

ولم يقل عن ذلك أكثر من هذا، ولكن لم يكن في نظرته سوى الرقة والعذوبة. فاضطربت، كما لو أنه ميّزها من بين مئة امرأة أخرى. وأثناء تنفسها كانت تسمع صوتاً تُحدثه رسالة «نيقولا» التي كانت ملتصقة بصدرها، ووخزتها في بشرتها إحدى زوايا الورقة، فمدّت يدها نحوها.

فسألها عمها، وهو يتابع بنظراته حركة يدها:

- ألم تتلقي أخباراً من «سان بطرسبورغ» بالبريد؟

- بلى.

- وماذا تنوين أن تفعلي؟

- أنوي البقاء هنا، شريطة ألاّ يعود «نيقولا» إلى هنا! وقالت ذلك بلهجة حازمة.

فأخذ يفكّر، وهو يتأمل «صوفيا» بإعجاب، بأنها لم تعد حتى تمثل بالنسبة له المرأة المفضلة، التي اختارها، ولا شخصاً متميزاً، كلا، فإنها قد تخلّلت ذاته وتوغلت في أعماقه وامتزجت بحرارته، لدرجة أنه لم يكن يتصور الحياة بدونها أكثر من تصوره لبقاء العواطف واستمرارها بعد الموت. وقال، ببطء شديد، وهو يضغط على كل كلمة من كلماته، ويضع عليها ثقلاً رهيباً:

- كوني مطمئنة، ولا يساورْك أي خوف: إنه لن يجتاز بعد الآن عتبة هذا البيت. وسأعلمه بذلك، في الحال.

فقالت له:

- إني أفضل أن أكتب له أنا بنفسي.

- كما تشائين، يا «صوفيا»، ولكن لا تتأخري بالقيام بذلك. من أجل راحتك، ومن أجل سعادتك، العزيزتين جداً عليّ!...

وقبّل يدها. وفي كل مرة كان يحني أمامها رأسه الصلب والأشيَبَ، يحصل لديها انطباع ينم عن الوفاء والإخلاص. وأتى «فيدكا» فأخبر سيده أنّ العربة جاهزة. فاستقام في وقفته، وبدا طويلاً وقوياً، كثيف الشعر، زاهي اللون. تضم قامته بزة سوداء ذات ياقة مخملية، وبدا وكأنه ينتظر ثناءً.

فقالت «صوفيا»، ضاحكة:

- إنك رائع!

وتلقى هاتين الكلمتين بجدية ووقار، فدهشت «صوفيا» لذلك: فهل يعطي لكل ما تقوله معناه الحرفي؟

وفتح «فيدكا» ممطرة كبيرة لكي يقي سيده من المطر، عند صعوده إلى العربة التي انطلقت تحت الماء والثلج اللذين ينزلان من السماء

بخطوط لامعة وبراقة. وتناولت «صوفيا» طعام الغداء وحدها مع السيد «لوسّور» الذي ظلّ يحدثها طوال فترة الوجبة عن مزايا المآكل الفرنسية بالمقارنة مع المآكل الروسية. وقد انزعجت كثيراً من حديثه لدرجة أنها غادرت المائدة، دون أن تمسّ الحلوى. كانت في عجلة من أمرها للذهاب إلى «تشيرينا كوفو»، حيث كانت زوجة وكيل الملاّك، كما قيل لها، على وشك الموت. ودون أن تنتظر أن يأتوها بالعربة، ذهبت إلى الإسطبل ووقفت عند الباب. كان قد هدأ الجو ولم يعد يسقط لا ثلج ولا مطر، وهربت الدجاجات التي تنقر في كومة من روث الخيل الساخن. واستدارت فرس بيضاء كانت مغطاة بعدّتها. قرعت البلاط بحوافرها، وارتعش كفلها عندما خرجت إلى الهواء الطلق. فدفعها السائق بين عريشي عربة غطاؤها ممزّق ووضع الأحزمة في الحلقات، وهو يصرخ بالكلاب التي كانت تتراكض وتنبح وتعيقه في عمله. وجلبت «فسّليسّا» من بيت الخدم صرة فيها بعض الملابس القديمة، كانت قد هيأتها بناءً على طلب سيدتها، ووضعتها تحت المقعد. وأضافت «صوفيا» إلى الرزمة ثلاثة أغطية صوفية، وعلبتها التي تضع فيها بعض الأدوية.

وقالت «فسّليسّا»:

- أنت تعتنين جيداً بالفلاحين وتداوينهم، يا سيدتي، فلا يموتون، وتتقدم بهم السن، فيصبحون شيوخاً عاجزين، فلا ندري بعد ذلك ماذا نصنع بهم!

كانت مربوعة القامة، هادئة، وقد فقدت أسنانها وأخذت تضحك، فهي تتصف بقسوة تتصف بخلو البال. وصعد فتى، يدعى «غريشكا» وجلس على مقعد الحوذي، كانت ساقاه العاريتان تغوصان في جزمة واسعة جداً بالنسبة لساقيه النحيلتين. وكانت قبعة مستديرة تغطي رأسه وتصل إلى حاجبيه، وبدا فخوراً بقيادته عربة «السيدة» التي تبادر إلى ذهنها:

«الجميع هنا يحبونني! فأنا، حقاً، في بيتي!» وساعدتها «فسّليسّا» على الصعود إلى العربة والجلوس فيها، ثم غطت لها ركبتيها بجلد خروف، ورسمت عليها إشارة الصليب، وقالت للفتى الذي سيقود العربة:

- لا تسرع كثيراً، يا «غريشكا»!

فلوّح «غريشكا» بالسوط، وانطلقت العربة وهي ترتجّ. لم يكن الثلج قد علق وتجمّع على الأرض الرطبة التي كانت تغوص فيها العجلات. والحفر الملأى بالماء، كانت تلمع على جانبي الطريق. وقطرات الماء أخذت تتساقط من أشجار الصنوبر الكبيرة والسوداء، عبر جو يكتنفه الضباب والغيوم الكثيفة، وعبر الضباب، كانت أنفاس «غريشكا» وأنفاس الفرس، تنشر بخارها. وعندما وصلت العربة إلى آخر الممشى، لمحت «صوفيا» خيّالاً قادماً باتجاه عربتها. فعرفته «فهو أحد الفلاحين القلائل الذين لم يبعهم «سيدوفّ» في «أوترادنويّ»». فظنت على الفور أنه يحمل لها دعوة من «ماري» وفرحت بذلك. وعندما أصبح بالقرب من العربة نزع الرجل طاقيته، فبدا جبينه نظيفاً وشاحباً، فوق وجهه الذي لوحته الشمس وأصابته بعض لطخ الوحل. وقال بصوت لاهث:

- معي رسالة لك، يا سيدتي.

وناول «صوفيا» مغلفاً، ففتحته وقرأت بسرعة الجمل الأولى، وفي الحال انتابها قلق شديد سقط عليها كالشبكة:

«عندما ستقرئين هذه الأسطر، أكون قد فارقت الحياة، والله، الذي رأى في أي عار كنت أتخبط، منذ أن تزوجت، سيغفر لي، كما آمل، كوني وضعت حداً لحياتي. يجب ذلك، لإتاحة الطمأنينة للجميع. فزوجي كائن سافل، وحش يتصف بالبرود، بالسوء وبالشر، يهتم بتدابيره، بأطماعه وغاياته. حتى وأنا على وشك الموت لا أستطيع أن أسامحه على الأذى الذي سببه لي. وأنا أعرف الآن، أنه هو الذي كتب وأرسل تلك

الرسالة التي لا تحمل أي توقيع، إلى «فاسّيا فولكوفّ». فلا شيء يمكن أن يكفّر عن خطيئته! ومرة أخرى فقد سافر للقيام برحلة. وبقيت لوحدي. أتوسل إليك أن تأتي لتأخذي «سيرج». فبعد بضع دقائق، لن يبقى له سواك في العالم. لا تسلّميه إلى والده تحت أي ذريعة أو سبب. إذ إنّ «فلاديمير كريوفيتش» سيكون في غاية السرور عندما يحصل على ضحية تتعرض لأذاه، تحل محلي. ولا شك في أنه عمل إجرامي أن تتخلى أم عن ولدها، ولكني، لديّ انطباع بأني لست مجرمة تماماً، لأني أعهد به لك أنت. وأنا ضعيفة وعصبية أكثر مما ينبغي، وما كنت لأستطيع أن أربيه! أما معك وبقربك، أنت القوية جداً، سيكون أكثر سعادة مما لو ظلّ إلى جانبي. اعتني بولدي، امنحيه عطفك وحبك. وآمل أن يحبه أيضاً «نيقولا» وأبي. أشعر بتعب فظيع، لم أعد أستطيع تحمله! صلي من أجلي. الوداع.- ماري.»

فهامت «صوفيا» برهةً في فراغ صمت فوق طبيعيين، ثم تمتمت، بعد أن استردّت روعها:

- من سلّمك هذه الرسالة؟

فتأملها الرجل بعينين بدت فيهما دهشة شديدة، ولم يجب. لأنها من شدّة لهفتها، كانت قد طرحت عليه السؤال باللغة الفرنسية. فكررته باللغة الروسية. فانتعش وجه الفلاح، بين شعر حاجبيه وشعر لحيته:

- سيدتي، نفسها، هي التي سلّمتني إياها!

- وهل رأيتها قبل أن تأتي إلى هنا؟

- بالتأكيد!

- وكيف كانت؟

- كالعادة، وكما هي دائماً!

وطمأنها هدوء الفلاح وهيئته اللذان ينمّان على أنه ليس لديه شيء جديد. ولا بدّ أنّ ابنة عمها كتبت هذه الرسالة في وقت تعرضت فيه لأزمة

نفسية. ولكن هنالك بعد شاسع بين الرغبة بالموت، والانتحار نفسه. ولا شك أنّ «ماري» قد عدلت عن فكرتها. كانت «صوفيا» تأمل ذلك، مع اعترافها بأن نداء الاستغاثة هذا، لا يمكن أن يصدر إلاّ عن امرأة فقدت القدرة على المقاومة، بل وربما فقدت عقلها أيضاً. وكانت كل دقيقة لها أهميتها ويحسب لها حساب، وكان الوصول إلى هناك يحتاج إلى ساعة ونصف، على أقل تقدير. فشدّت «صوفيا» «غريشكا» من كمه، وصاحت به:

- هيا بسرعة! بسرعة! إلى «أوترادنويّ»!

فألهب ظهر الفرس البيضاء ضرباً بسوطه، وانطلقت العربة وهي ترتج وتفرقع. وكانت «صوفيا» ترتجف، وقد نفد صبرها، وهي متشبّثة بالمقعد. كانت روحها تطير وتسابق الفرس، وتغيب غارقة في الضباب. وكانت تردّد في سرّها بإصرار وعناد تلقائيّين: «المهم ألاّ أصل بعد فوات الأوان! والمهم أن يزول هذا الكابوس!» ولأنها ركزت ذهنها وكل تفكيرها على نقطة واحدة بذاتها، فقد فقدت مفهوم الوقت، ولم تعد تشعر به. كانت تمر الأشجار العارية من الأوراق، وعلى أغصانها حطت بعض الغربان. وأخذت الفرس البيضاء تلهث وأبطأت بالسير. فأبدت «صوفيا» التذمر. فضرب «غريشكا» الفرس بمزيد من العنف، فاندفعت تعدو. كانت تلك هي «ماري» التي تُضرب لإرغامها على الصبر والتماسك، وعلى أن تستمر بجر حملها الثقيل، وأن تعيش، على الرغم من انهيار قواها وعلى الرغم من وعورة الطريق! وبعيداً وراء العربة، كان فلاح «أوترادنويّ» يسير متمهلاً على ظهر حصانه.

وعندما بدا المنزل، في وسط الباحة الخالية، عصر القلق قلب «صوفيا». وبحثت بنظراتها عن شيء يمكنه أن يهدّئ مخاوفها. عند أسفل درج المدخل، كان هنالك كلب ينهش عظماً، أكان يمكن أن يأكل،

هكذا باطمئنان، على مسافة خطوتين من جثة هامدة؟ كلا، تلك ما هي إلاّ مغامرة غير معقولة ومشوشة، مغامرة روسية! وغاصت العجلات في الوحل أمام درج المدخل. وأخذت الفرس تعض على لجامها وتهزّ رأسها محدثة صوتاً كالذي تُحدثه المفاتيح التي تتصادم مع بعضها. وساعد «غريشكا» «صوفيا» على النزول. فرفعت أطراف تنورتها، وأسرعت إلى الرواق. والتقت في طريقها بالمرضعة «ميلاني» التي كان وجهها شاحباً يبدو عليه الاضطراب، ونظرتها تنم عن الخوف.

وصاحت بها «صوفيا»:

- ماذا هنالك؟!

- فكتمت الفتاة نحيبها وتنهداتها، رسمت إشارة الصليب وقالت:

- سيدتنا ماتت!

فشعرت «صوفيا» بأنها فقدت قواها، وانهارت نفسياً وذهنياً بشكل كامل، لدرجة أنها لم تستطع النطق بأي كلمة، وقد فقدت صوتها.

واستأنفت «ميلاني» الكلام، قائلة:

- منذ ساعة تقريباً، وجدوها في السقيفة، وقد شنقت نفسها!

فتمتمت «صوفيا»:

- يا للفظاعة! وأين هي؟

فاقتادتها «ميلاني» إلى غرفة النوم. كانت الستائر مسدلة. وكان هنالك شمعتان تنيران الغبش الذي يكتنف الغرفة وشعلة المصباح الزيتي الصغيرة ترتعش أمام الأيقونة. وعلى السرير، امرأة مستلقية بكامل ملابسها، في وضع متصلب، وقد غطي وجهها بمنديل. ولم يخلع لها أحد حذاءها. وعرفت «صوفيا» الفستان الليلكي بشرائطه الزرقاء، الذي كانت ترتديه ابنة عمها أثناء لقائهما الأخير. ولكن أكانت هذه يدي «ماري» الموضوعتين على صدرها؟ الأصابع لم تكن مضمومة، كما في الحركة

العادية أثناء الصلاة، بل مفتولة ومتقلّصة حتى تكاد تتحطّم. كان هناك قرويتان وفلاح يقفون، مستندين على الجدار. وظل بثلاثة رؤوس كان يصعد إلى السقف. وبجانب السرير، كانت «فيوكلا» جالسة وهي تبكي، وعندما لمحت «صوفيا» همست لها:

- لقد أرسلت في طلب الأب «ايوان»!

وعلى الرغم من المجهود العقلي الذي بذلته «صوفيا» فإنها لم تستطع بعد أن تقتنع أنّ كل أمل قد ولّى. ورفعت المنديل. فحدثت صدمة في رأسها. فالوجه الشاحب الذي كشفت عنه كان وجه «ماري» مجهولة، لا تعرفها «صوفيا»، فهذه ألقت جانباً كل الحياء، وأبدت روحها العنيفة، المتعطشة، التي تعرضت للعقوبة، عبر تكشيرة رهيبة. كانت بعض البقع البنفسجية تبدو على خديها. وبين أجفانها المنفرجة قليلاً كانت تلمع نظرة لبنية اللون. ومن زاوية فمها برز طرف لسانٍ، أزرق. وقد أحدث الحبل ثلماً مائلاً في بشرة العنق والفك الأسفل. وعندما فكرت «صوفيا» بهذه الحياة التي أساءت «ماري» استعمالها، حصل لديها انطباع بأنها كانت تعرف، على الدوام، بأنها سترحل بصورة مأساوية. والفتاة التي تزوجت في يوم كانت فيه العاصفة الثلجية على أشدها، مرتدية فستاناً أبيض، في كنيسة ريفية، كانت تحمل في قرارة نفسها، منذ ذلك الحين المرأة المشنوقة، المشوّهة الوجه التي ترقد على هذا السرير.

وقالت «فيوكلا» وهي تتأوه:

- اغفر لها يا إلهي! ولتكن آلامها، صليبها وكفّارتها!

فأحنت «صوفيا» رأسها. إذ إنها، حيال قسوة الخاتمة الشديدة، والحتمية، هي أيضاً كانت تشعر بالحاجة لأن تتوجه بكليتها إلى الأعلى، نحو المولى غير المنظور، والقادر على كل شيء، الذي يدير أمور الكون كله، في الوقت نفسه الذي يشعر فيه الإنسان أنه أكثر حرية من أي وقت.

وأعادت المنديل إلى مكانه، على وجه المتوفاة. ثم لاحظت أنّ حذاء «ماري» ملطخ بالوحل. وبشكل يصعب تفسيره، فإنّ هذا الأمر الثانوي جعلها تضطرب. والحزن الذي كتمته طويلاً داهمها بقوة وعنف فاغرورقت عيناها بالدموع. وجثت قرب السرير، وقبلت يداً باردة البشرة، قاسية العظام، وتمتمت، وكأنها تتحدّث مع نفسها:

- أوه! ماري! ماري! لماذا فعلت هذا؟!

واجتاحتها الذكريات، فأخذت تتذكر، وكأنها في حلم، تلك الأمسية، في فصل الشتاء، التي رقصت فيها الفتاة مع أبيها، وجهاً لوجه على أنغام آلات «البلاليكا». وأخذت تتصور حركات «ماري»، التي كانت تتسم بالأناقة والغنج، وهي تدور حول «ميشيل بوريسّوفيتش»، الذي كان يبدو أحمر الوجه من فرط سروره، وقد أخذ يقرع الأرض بنعليه، ويفرقع بأصابعه وهو يصيح: «هوب تسا! هوب تسا!». كل شيء كان سهلاً وميسوراً، نيراً ونظيفاً، آنذاك!...

وسمعت وقع خطوات سريعة خلفها. ودخلت فلاحة بدينة وهي تلهث، وقد غطت رأسها بوشاح أسود، وقالت:

- الأب «ايوان» يرفض أن يزعج نفسه من أجل امرأة انتحرت! ويقول إنها ماتت خارج نعمة الكنيسة! وإنها ستذهب إلى جهنم!

فرسمت النساء، وقد استولى عليهن الرعب، إشارة الصليب على صدورهنّ.

وقال الفلاح، مزمجراً:

- لم تكوني بحاجة لأن تقولي له بأنها شنقت نفسها!

- كان سيتبيّن ذلك بنفسه لو أتى، كان يمكن أن يكون غضبه أشدّ أيضاً!

فقالت «فيوكلا»:

- هذا صحيح! آهاً! آهاً! آهاً! أيها القديسيون، أيتها القديسات! لقد حلّت علينا اللعنة! كيف ندفنها بدون حضور كاهن؟ وهل يمكن، على الأقل، تثبيت الصليب على قبرها الصغير؟

وقالت «ميلاني»:

- الأموات الذين يدفنون بدون حضور كاهن، لا يمكن أن يخلدوا إلى الهدوء! وهذا أمر معروف جيداً! فهم يتجولون في البراري، ويقرعون النوافذ، ويطلبون العودة! وهي ستعود!

فصاحت بها «صوفيا»:

- اسكتي! ألا تخجلين من ترديد هذه الترهات الخرافية؟

فأثرت هذه اللهجة القوية والآمرة، في الفلاحات.

وقالت «فيوكلا» وهي تهزّ كتفيها:

- ربما يكون الله أقل قسوة من الكاهن!

وتابعت وهي تنوح برقة وعذوبة:

- أوه! الحمامة العزيزة التي طارت! آه! البذرة العجيبة التي نسفتها وأضاعتها الرياح!...

فانساقت معها وتبعتها كل النساء، وأخذن يبكين وينتحبن. وكان نواحهن المتناغم يشبه تدريباً صوتياً على الغناء، لم يكن للحزن فيه سوى جانب ضئيل. وعلى نحيبهم ردّ صراخ الرضيع وبكاؤه، فهو يرقد في الغرفة المجاورة. فتأفّفت «ميلاني»، جففت دموعها، فكت أزرار صدارتها، وقالت:

- لقد جاع المسكين! يجب، على أي حال أن أذهب إليه!

وبعد ذهابها بقليل، كفّ الطفل عن الصراخ والبكاء. وكانت «صوفيا» وهي تسند جبينها على ورك المتوفاة، تتابع في ذهنها قصة صداقتهما التي كانت كثيرة الحركة، شديدة الاضطراب وفيها شيء من

الرعونة. ودون أن تكون متألمة تماماً، كان ينتابها شعور بالقطيعة مع الحياة. فهل هذا ما يسميه بعض الناس، حالة الصلاة؟

***

كانت الساعة الثامنة والنصف مساءً، عندما سمع «ميشيل بوريسّوفيتش»، وقد نفد صبره، صوت العربة وهي تتوقف أمام درج المدخل. فلماذا بقيت «صوفيا» هذا الوقت الطويل في القرى؟ ألم تفكر بالقلق الذي ينتاب عمها بسبب تأخرها بالعودة، إلى هذا الحدّ؟ وقرّر أن يعبر عن استيائه، وذلك بعدم الذهاب لاستقبالها في الرواق. وعبر نافذة المكتب، رأى خادماً يحمل مصباحاً ويرفعه عالياً، والمطر وهو يتساقط في هالة ضوء المصباح، كمسحوق الماس. وشبح حصان أبيض يرتجف من التعب عبر سحابة من البخار. كان الماء يسيل عن غطاء العربة الجلدي. ومرت حركات وإشارات في الظلام أمام النافذة. ومن العربة، نزل شخصان: «صوفيا» وإحدى الفلاحات.

لم يكن «ميشيل بوريسّوفيتش» يحب أن تصطحب كنته معها أحداً من القرى إلى المنزل. وعاهد نفسه على أن يلومها بشدة. وهذه الفكرة سرته كثيراً، فجلس وراء مكتبه، وهو يشعر بالمتعة التي يشعر بها الممثل، وأصلح وضع المحبرة وثقّالة الورق المصنوعة من الدهنج، وبكّل أزرار صدارته، وعبس، متظاهراً بأنه مستاء جداً.

ولكنّ الوقت أخذ يمرّ، ولم تبدُ «صوفيا». والرغبة التي كانت لديه بأن يراها من جديد أوقفت مجرى حياته، وأخيراً، فُتح الباب، وها هي، سمراء، نشيطة، أنيقة، وأحدث فستانها حفيفاً عندما علق بأحد الكراسي. وعندما وصلت إلى المكان الذي ينيره المصباح، لاحظ أنها

تحمل على ذراعيها صرّة بيضاء. وعندما نظر إليها عن قرب تبيّن له أنه رضيع ملفوف في قماطه.

فلا شك أنه طفل أحد الفلاحين! فاستاء «ميشيل بوريسوفيتش». فالإحسان له حدود! وإذا ترك كنته تتصرف كما يحلو لها، فإنها يمكن أن تحوّل «كشتنوفكا» إلى ملجأ! وقال، بينما كانت تضع الطفل على إحدى الأرائك:

- أخيراً، يا «صوفيا»، إنّ هذا سخيف، ومثير للسخرية!

فانتصبت، ووقفت أمام عمها، عند ذلك فقط لاحظ أنها شاحبة الوجه وأنّ في عينيها جموداً مخيفاً. فخيل له أنّ هنالك صورة، هي وحدها تراها، وأنّ هذه الصورة قد أذهلتها وبثّت الرعب في ذهنها، فشعر بالخوف، وتمتم:

- من هذا الطفل؟

فقالت له:

- إنه حفيدك.

وبعد انقضاء لحظة المفاجأة، بدا «ميشيل بوريسوفيتش» منكمشاً على نفسه وقد تذرّع بالحذر، فقد شعر أنّ هنالك مؤامرة لغشه ومخادعته، فنهض، وأسند قبضتيه على حافة المنضدة، بقوة تنم عن التهديد في حركة جذعه وعنقه، وسألها، بلهجة جافة:

- لماذا أتيت به؟

- لم أكن أستطيع أن أفعل غير ذلك!

- إذا كنت تعتقدين أنك بعملك هذا تستطيعين إثارة عطفي!...

فقالت، بأعلى صوتها:

- أوه! كلا، يا أبي، بل إني أتوسل إليك أن تكون شجاعاً جداً!

وناولته رسالة «ماري» ولكنه رفض أن يأخذها:

- إنّ ما تريد أن تقوله لي لا يهمني، ولا يعنيني أبداً!

- إنها لم تكتب لك أنت، بل كتبت لي، أنا.

ولأنها ألحت عليه، فقد تناول الرسالة، بصورة فظة وهو متجهّم الوجه، ووضع على أنفه نظارته ذات الإطار الذهبي. وحالما ألقى نظرة على الورقة، شحب وجهه وتغيرت ملامحه، ورأته «صوفيا» وهو يتقدم في السن، مع تقدمه في قراءة الرسالة. وعندما وصل إلى نهايتها، حدّج كنته بنظرة غريبة وغير معقولة، من فوق نظارته، وغمغم:

- إنها لم تفعل ذلك؟!

- بلى، يا أبي، لقد عدت للتوّ من «أوترادنويّ» فقد ماتت «ماري».

بهذا أجابته «صوفيا»، وقد اغرورقت عيناها بالدموع. فانتفض، وكأنه تلقى ضربة ببلطة، واصطك فكّاه. فنزع نظارته، والتفت نحو الأيقونة، ورسم إشارة الصليب بكثير من البطء والتركيز وكأنه يحفر صورة الصليب في مادة قاسية. وكانت «صوفيا» تتخيل الصراع الداخلي وتبكيت الضمير اللذين يخفيهما ذلك الوقار الظاهري. و «ميشيل بوريسوّفيتش» الذي اجتاحه في وقت واحد، الحزن وتأنيب الضمير، لم يعد يعرف أيهما عليه أن يجابه. فشعرت بالشفقة عليه. وأرسل تهيدة عميقة، وتمتم:

- إيه! لقد انتهت مثلما عاشت: معرّضة لاحتقار الله ووالدها. وكلّ الناس!

وهذا التصريح أذهل «صوفيا». فهل هذا كل ما استطاع أن يقوله رجل، كانت ابنته قد وضعت، للتوّ، حداً لحياتها؟ وهو لم يحاول حتى أن يعرف كيف قتلت نفسها. ولم يطلب حتى رؤيتها! كان متصلباً في كبريائه، وكأنه حُزم بمشدّ، واستأنف الكلام:

- وهذا، مع ذلك لا يفسر لي ماذا يعمل هذا الطفل تحت سقف منزلي!

فتمتمت «صوفيا»:

- أخيراً، يا أبي، أنت تعرف ذلك جيداً! لقد اطّلعت على ما طلبته «ماري» في رسالتها!...، فقال بجفاء:

- ولماذا ينبغي عليّ أن أطيعها بعد موتها، في حين أنها لم تطعني، وهي على قيد الحياة؟

- «سيرج» هو حفيدك!

- وأنا الذي أنكرت ابنتي وتبرأت منها نهائياً، ليس لديّ أي مبرر يدفعني للاهتمام بمولودها. أرجعي هذا الطفل إلى «أوترادنوي». وسيأتي أبوه، ذات يوم، ليأخذه من هناك!

فعصف بها الغضب، كما يعصف الحريق بالهشيم عند هبوب الرياح. ولم يعد وارداً أن تبحث عن أعذار لهذا الطاغية العائلي بل ينبغي أن تنتصر عليه، وتقهره في أنانيته وفي شراسته وتسلّطه، ولذلك، صاحت:

- كيف يمكنك أن تنبذ الفرصة الوحيدة التي ما زالت متاحة لك للتكفير عن أخطائك؟

فأنكر ذلك بكبرياء، قائلاً:

- وأي أخطاء؟

- أنت الذي قتلت «ماري»! لقد قتلتها، شيئاً فشيئاً مع مرور الأيام، بلا مبالاتك، بقسوتك، وباحتقارك لها!...

وكانت ترفع صوتها بقوة، كما لو أنها كانت تريد أن تسمع المتوفاة، عن بعد هذه الشكوى وهذا الاتهام اللذين تقدمهما نيابة عنها.

- لقد قتلتها، وأنا ساعدتك، دون قصد مني، على القيام بذلك!

فصاح بأعلى صوته:

- أنت؟ هذا غير معقول! أنت لا علاقة لك...

فقطعت عليه الكلام:

- كـل الأذى بـدأ في اليـوم الـذي وصـلتُ فيـه إلى «كـشتنوفكا»! وكـان كـافيـاً أن أبـدو لكـي تهمـل ولـديك وتتحـول عنهمـا! وبمزيـد مـن السرعة، أصبح «نيقولا» لا يطـاق، بالنسبة لـك. أمـا «ماري»، فقـد نقمت عليها لأنها لا تتمتع بالمزايا التي كنت تكتشفها لـديّ، دون أن تلاحظ، أنها تتمتع بمزايا أخرى، أكثر مئة مرة أهلية ومدعاة للتقدير! وعندما ارتكبت خطيئة الزواج، الجنونية، طردتها كأنها مجرمة، بدلاً من أن تعمل بكل ما بوسعك لكي تمنعها من أن تصبح تعيسة جداً! وأنا التي كان يجب عليّ أن أرغمك على إبداء المزيد من التسامح معها، لم أستطع أن أفعل ذلك! بل لم أعرف كيف يمكن القيام به!... فلتكن لـديك الشجاعة إذن، ولو لمرة على الأقل، في حياتك أن تعترف بأخطائك! وعليك أن تعتبر أنّ تنفيذ الرغبة الأخيرة لمخلوقة، تسبّبنا بسرعة ضياعها ورحيلها، هو واجب مقدس، بالنسبة لنا، نحن الاثنين! وهذا الطفل هو لي، الآن! وقد التقطته، وسأحتفظ به!

وصمتت، وهي تلهث، وقد هزها حتى الأعماق انفعال عنيف. وظلّ «ميشيل بوريسّوفيتش» أثناء ذلك، جامداً لا تبدر منه أي حركة، صامتاً، لا ينبس ببنت شفة. وكان ضوء المصباح يلقي على وجهه قناعاً تبدو فيه ثنايا وطيات متهدّلة. فهل تقبّل الاتهامات التي وجّهتها له؟ إنها لم تكن تأمل أن يعترف بأنه مذنب. كان يتنفّس بتثاقل وصعوبة، ونظرته، التي تحمل طابع الفضول البارد، اتجهت نحو الأريكة التي يرقد عليها حفيده.

وأخيراً، قال:

- لن أستطيع أبداً أن أنجذب نحو هذا الطفل أو أن أتمسّك به!

كان الصغير «سيرج» يرقد غافياً، وهو متكور وعابس، وعلى رأسه طاقية من الدنتيلا انزاحت نحو أذنه، مربوطة بشريطة زرقاء تحت ذقنه.

وهزّ «ميشيل بوريسّوفيتش» رأسه بعنف وهو يردّد:

- أبداً! أبداً!

كانت قطرات المطر تنزلق على زجاج النافذة الذي جعله ظلام الليل يبدو أسود. والريح تعصف بالأشجار التي تحيط بالمنزل. وبالتداعي، تذكرت «صوفيا» ليلة مأساوية أخرى: الليلة التي وصل فيها «ميشيل بوريسّوفيتش» إلى «سان بطرسبورغ» ليرى الحفيد الذي أنجبته له، وقد علم أنه مات. فحملت «سيرج» إلى صدرها هذا الحمل الدافئ والخفيف. وعندما خطت خطوة نحو الباب، سألها «ميشيل بوريسّوفيتش»:

- «صوفيا»، إلى أين تذهبين؟

فأجابته:

- لأضع «سيرج» في السرير، كي ينام.

فلم يقل كلمة لكي يستبقيها. وعند عتبة الباب، التفتت: لم يكن «ميشيل بوريسّوفيتش» قد تحرك. كان رأسه منحنياً على صدره. وعلى تلك المسافة، لم تكن تستطيع أن تتبيّن تعابير وجهه. كان يبدو وكأنه يعلك شيئاً، بقوة وبعد برهة أدركت أنه كان يبكي.

منشورات دار علاء الدين
سلسلة روايات نور العادلين
من تأليف هنري ترويّا

١- رفاق شقائق النعمان.

٢- النبيلة الروسية.

٣- مجد المهزومين.

٤- سيدات سيبيريا.

٥- صوفيا أو نهاية المعارك.

النبيلة الروسية

من منشورات دار علاء الدين

- ابنة الكاتب
  ....هنري ترويا
- ألوشا
  ....هنري ترويا
- ذكريات غيشا
  ....آرثر غولدن
- القدح المشعور
  ....آلان مابانكو
- حواء تخرج من أنقاضها
  ....آناندا ديفي
- زنوبيا ملكة تدمر - رقص الآلهة
  ....أ. ب. دانييال
- الحب المتبادل بين الزوجين
  ....ألبرتو مورافيا
- يوميات سنونوة
  ....أميلي نوتومب
- خبز فوق الماء
  ....اروين شو
- فيل الوالي
  ....إيفو أندريش
- الحمامة
  ....باتريك زوسكيند
- قرب النهر أبكي
  ....باولو كويلهو
- بؤس الشيطان
  ....بريم ستوكر
- جاز
  ....توني موريسون
- أخوية اليقظانين
  ....جاك اتلي
- الأفريقي
  ....جان ماري لوكلوزيو
- مشاهد من حياة كهنوتية
  ....جورج إليوت
- هيجان محاكمة وقتل لوركا
  ....جوزيه لويس دي فيلالونغا
- اللؤلؤة
  ....جون شتاينبك
- إيفا
  ....جيمس هادلي شيز
- النطع
  ....جينكيز إيتماتوف
- مرآة الحبر مختارات
  ....خورخي لويس بورخيس
- الحجلة لعبة القفز بين المربعات
  ....خوليو كورتاسار
- تنذير بالشر
  ....دافيد سلتزر
- مذكرات امرأة
  ....روش بدرخان
- أنماط غريبة من الحب
  ....سومرست موم

توزيع ترجمة نشر دار علاء الدين PUBLISHER ALAEDIN دمشق

La Lumiére
Des Justes

النبيلة الروسية

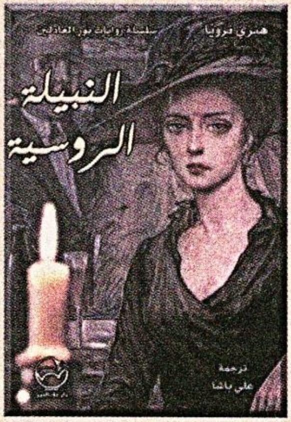

حزن على حزن

ووجهك ملتاع على الصفحات يُبرِّحه ألمٌ خيباتٌ ومفارقاتٌ صاخبة، والأمنيَّات تهرب من بين السطور التي سقطت نجومها في ليل حالك.

تكبر وأنت تقرأ، ويغزوك الهرم وأنت تلهث بحثاً عن النهايات التي ترجوها أن تعيد إليك فرحك، وتردَّ لك لهاثك.

ولكنَّ القلم المبدع لـ «هنري ترويّا» يحيلك إلى خيط ينسى ألَقَه في وهج خيوط هذه الرواية التي تتعرض ـ حيناً ـ لمشكلات عصر يؤسِّس لانطلاقة إنسانية نعيشها الآن، وينعطف إلى داخل النفس الإنسانية كاشفاً في الزوايا المظلمة منها عن بعض صراعاتها حيناً آخر.

هذا الجزء من الرواية يضعنا أمام عمل روائي عملاق يتصدر واجهة الأدب العالمي.

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع ـ سوريا ـ دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ ـ هاتف ٥٦١٧٠٧١ ـ فاكس ٥٦١٣٢٤١ ـ بريد إلكتروني ala-addin@mail.sy